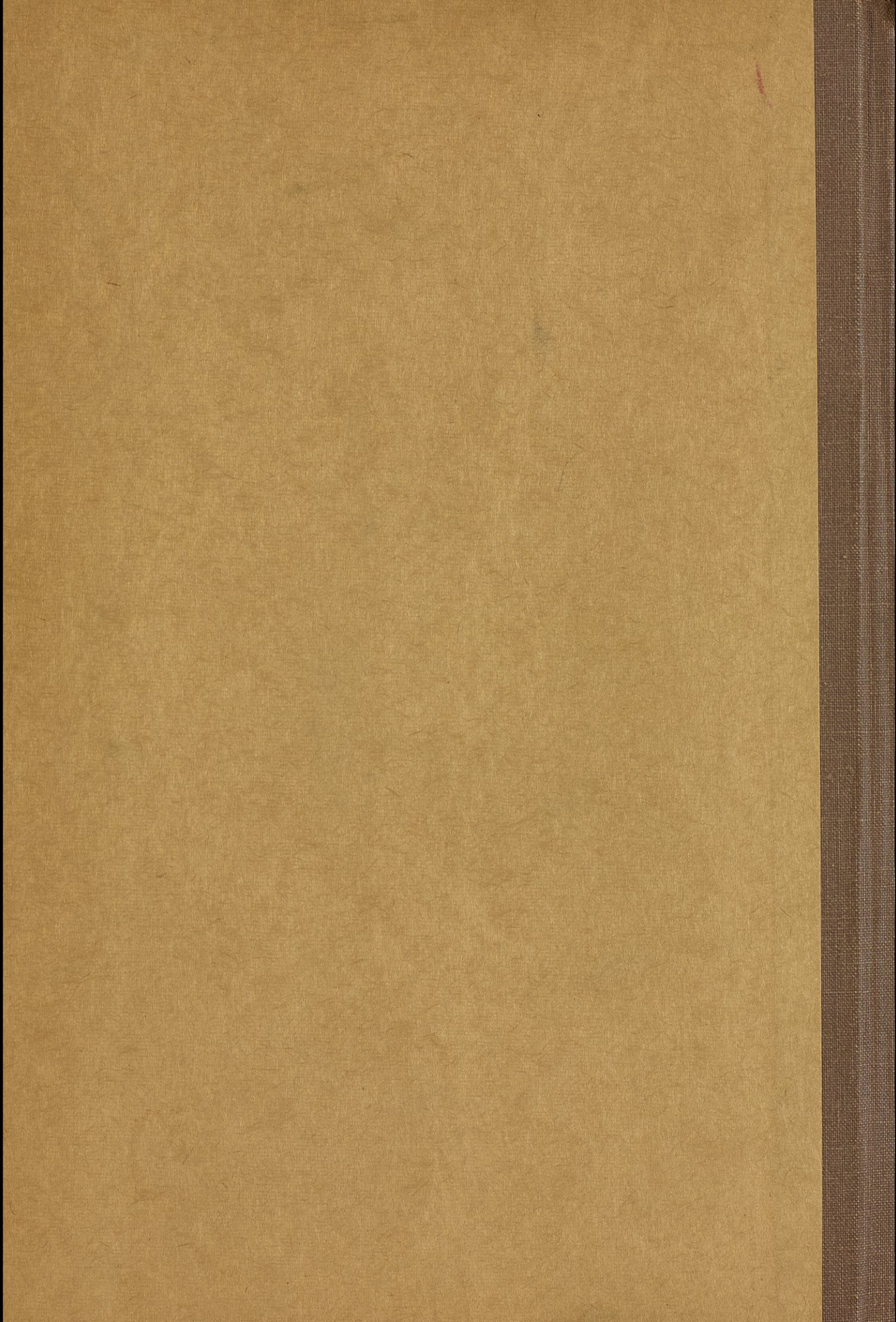
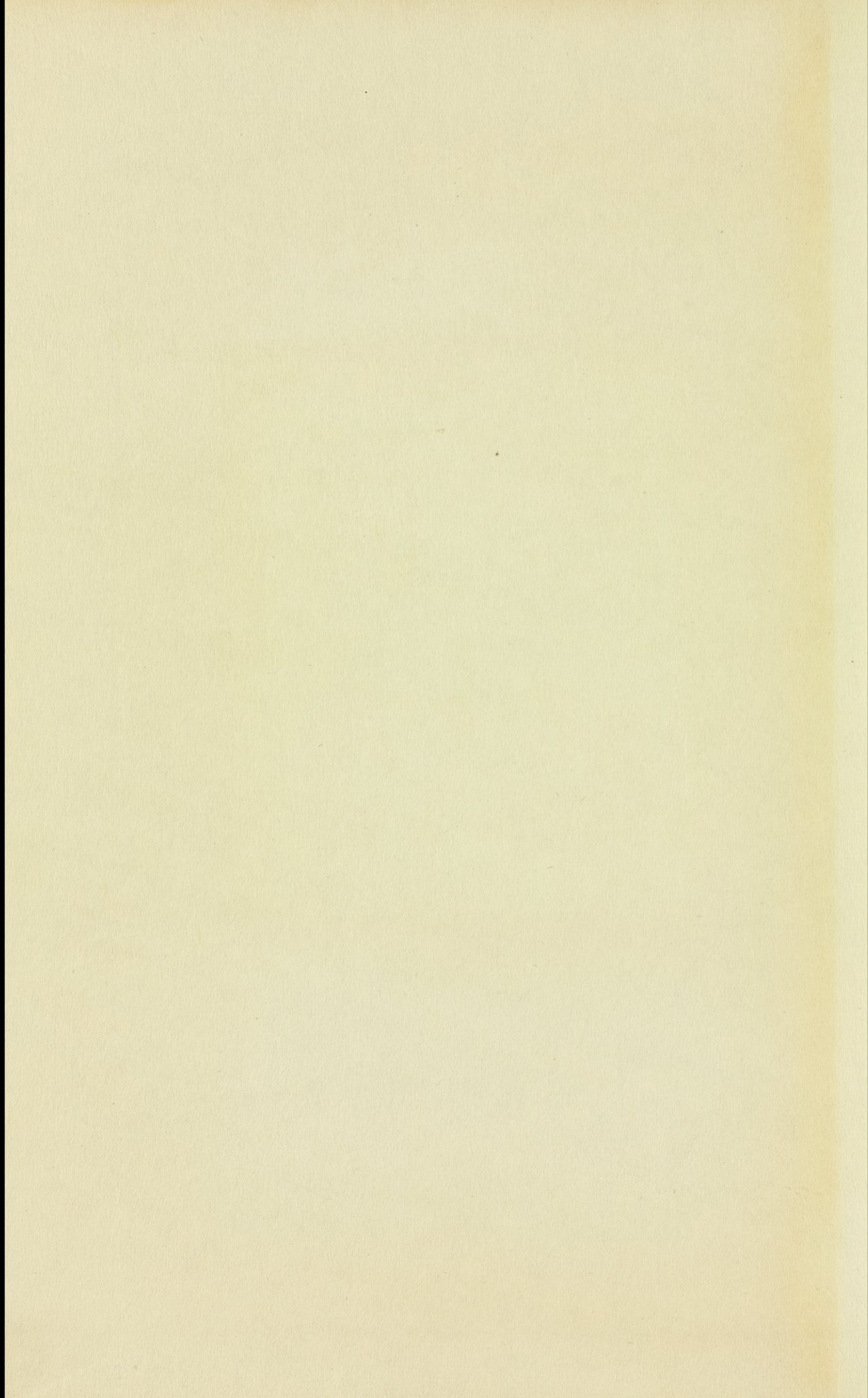


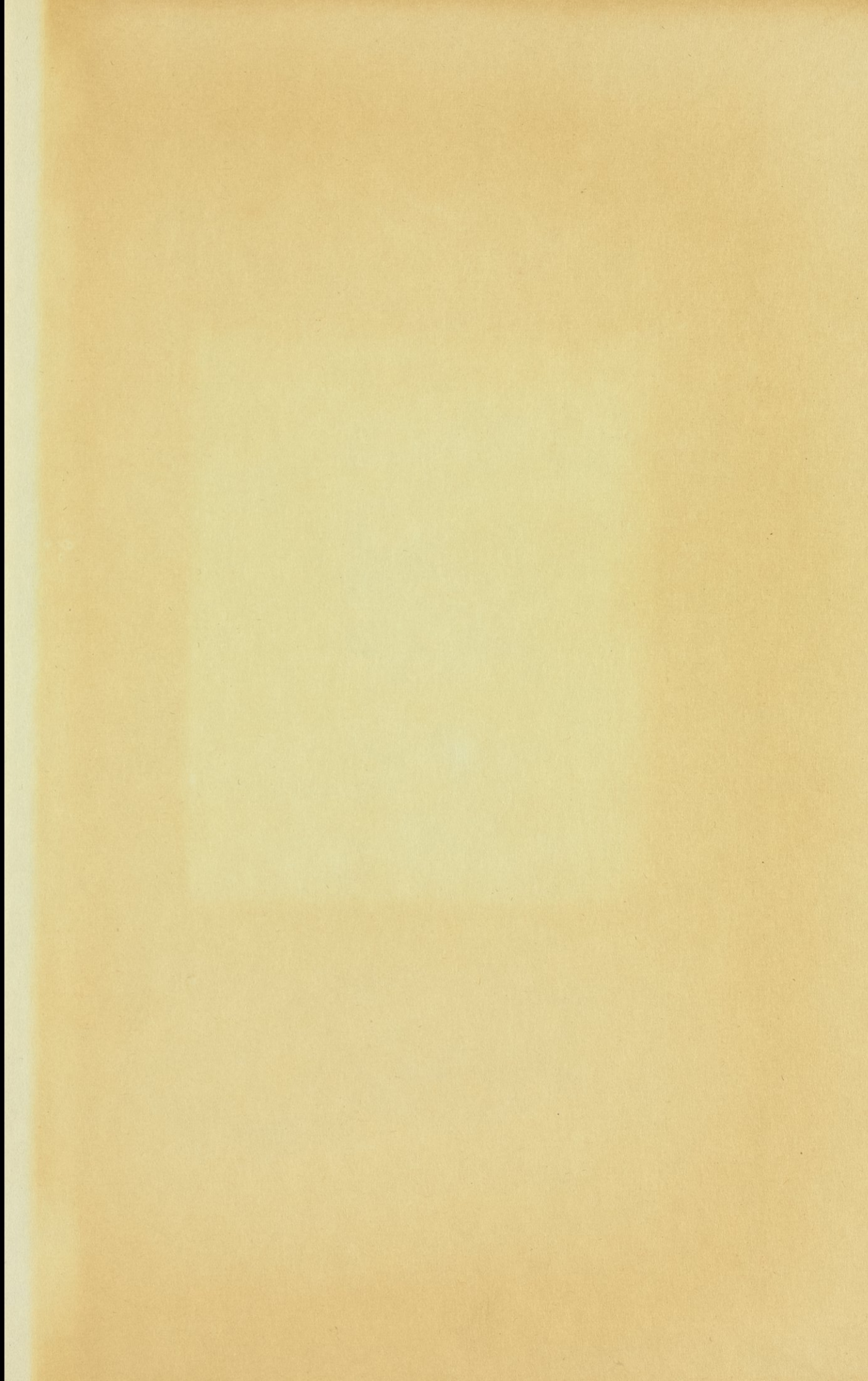


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







رَسَائِلُ الصَّاحِبِ بْنِ عَمَّادٍ

صحيحها وقدم لها

شوقي ضيف

مدرس
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عبد الوهاب عزائم

عميد
كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الفكر العربي

رَسَائِلُ الصَّاحِبِ بْنِ عَمَّادٍ

صححها وقدم لها

شوقي ضيف

مدرس

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عبد الوهاب عزائم

عميد

كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الفكر العربي

893.75a 19

V5

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

عثرنا في دار الكتب المصرية على نسخة مصورة من رسائل صاحب إسماعيل بن عباد . والصاحب — على مكانته في الأدب ، وذيوع صيته فيه ، وتوليّه الوزارة زمننا مديداً في القرن الرابع ، عصر ازدهار الكتابة العربية — لم تنشر رسائله ، فلم يقدر الأدباء مكانته بين كتّاب عصره ، إلا بما قرءوا في كتب الأدب ، نُبذاً من كلامه ، أو إطرأ لأدبه ، أو نقداً لطريقته .

فرائنا أن نبادر إلى نشر هذا المجموع ، تعريفاً بأدب صاحب خاصة ، وبالكتابة العربية في ذلك العصر عامة ، ولم نؤثر التأني حتى نعثر على نسخة أخرى نحقق بها النص ، فاعتمدنا على النسخة التي وجدناها ، وصححنا غلطها ، وقوّمنا تحريفها ، جهد الطاقة ، ونشرناها نصّاً كاملاً صحيحاً ، إلا كلمات قليلة تعوزها المراجعة ، وإن يسّر لنا البحث نسخاً أخرى رجعنا إليها في الطبعة الآتية إن شاء الله .

٢

والنسخة التي أخذنا عنها محفوظة بدار الكتب الملكية المصرية (رقم ٤٨٨٠ أدب) ، وهي مصورة عن مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس ، كُتبت في القرن السادس للهجرة ، وختمها ناسخها بهذه الجملة :

”فرغ من كتابتها أبو الحسن علي بن أحمد بن زكريا ، المعروف بابن الشصاص البغدادي ، بهمدان ، في شهر رمضان ، من سنة سبع وسبعين وخمسة“ .

وكتبت عنواناتها بخط الثلث ، وسائر الكتابة بخط النسخ ، وإعجامها تام إلا ما سماها عنه الناسخ ، وشكلها قليل . وقد وضع الناسخ مع الحاء والراء والسين والعين علاماتٍ تميزها من أخواتها المعجمات ، سُنّة الناسخين القدماء . والكتابة واضحة في الجملة . وليس في الرسائل حلية إلا علامات ، تشبه دائرة ، يتصل بها شكل مخروطي ، تختم بها الفصول .

وعدد أوراق النسخة مائة وأربع عشرة ، وعلى كل ورقة رقم عربى فى الوسط وأفرنجى إلى اليسار . ويظهر أن الأرقام من عمل المكتبة الأهلية الباريسية . وعدد سطور الصفحة بين ٢٢ و ٢٤ ، وطول الصفحة ٢٤ س . م ، وعرضها ١٨ . وتشغل الكتابة منها ١٨ س . م . طولاً ، فى ١٢ عرضاً .

وقد أثبتنا بين أقواس كلمات يقتضيها سياق الكلام ، قدرنا أنها سقطت من النسخ ، ولم نزد على هذا إلا ترقيم الرسائل فى كل باب ؛ ليسهل الرجوع إليها . ولا تتضمن النسخة رسائل صاحب كلها ، فهى مختارات منها ، مرتبة على أبواب ديوان الرسائل . ويقول جامع هذه المختارات فى أولها : ” وخرجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله عشر رسالات ، ليخف حجم هذا المجموع ، ولا يعتاص تحفظه “ ولكننا نجد فى الباب التاسع والباب العاشر والباب الخامس عشر إحدى عشرة رسالة .

٣

وقد عرضنا ما فى النسخة من رسائل على مارواه ثقات الأدباء والمؤرخين ، فلم نجد منها إلا رسالة فى الجزء الثالث من خزانة الأدب للبغدادى ، وهى الرسالة التاسعة من الباب الحادى عشر ، ورسالة فى ترجمة يتيمة الدهر للصاحب ، وهى الرسالة الثامنة من الباب التاسع عشر . ولم نكتف بهذا فى تحقيق الرسائل ، بل عرضناها على التاريخ ، فوافق ما تضمنته من الأحداث والأحوال ، مارواه الثقات من المؤرخين عن دولة بنى بويه ، ففيها من أحوال دولتهم ، وأخبارها ، وذكر رجالها ، مالا يدع شكاً فى أنها لوزير من وزراءهم . وفيها من الأمور الأخرى التى تخص صاحب كاستقبال عضد الدولة إياه ، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم ، مالا يترك ريبه فى أن كاتبها هو صاحب إسماعيل بن عباد ، الوزير البويهى ، الذى عرف بدعوته إلى الاعتزال . ولو لم تنسب هذه الرسائل إليه ما صعب على القارئ أن يثبت أنها له . وقد حاولنا جهدنا أن ننشر هذه الرسائل على أحسن وجه ، وفاتنا بعض ما نرجو ، ولكننا قاربنا على قدر الطاقة . والله نسأل أن يرزقنا السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مدخل

١

بني بويه

كتبت رسائل صاحب بن عباد وزير بني بويه في أزهي عصور دولتهم ، تقصد عصر ركن الدولة وأولاده : عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة . وقد كان البويهيون ينسبون أنفسهم إلى بهرام جور^(١) . وكان ركن الدولة وأخوه عماد الدولة ومعز الدولة أول الأمر قوادا في جيش ما كان بن كاكي الديلمي ، فلما انتصر عليه مرداويج بن زيار صاحب جرجان وطبرستان تحولوا إليه ، فولى عليا الذي لقب فيما بعد بلقب عماد الدولة ، الكرج^(٢) . وأخذ الإخوة الثلاثة ينشطون في فتح بلدان الجبل وفارس ، واستمروا حتى قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ فاستقلوا بما في أيديهم^(٣) . وما زال سلطانهم يتسع حتى استطاع أحمد ، الذي لقب فيما بعد بلقب معز الدولة ، أن يستولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ^(٤) ، وخلع عليه الخليفة المستكفي ، ولقبه معز الدولة ، كما لقب أخاه عليا ، وكان قد استولى على فارس ، بلقب عماد الدولة ولقب أخاه حسنا ، وكان قد استولى على بعض بلدان الجبل ، بلقب ركن الدولة ، وأذن لهم أن تضرب السكة باسمهم^(٥) ، وبهذا صار الخليفة في بغداد لعبة في أيدي البويهيين ، فهم يخلعونه حين يريدون ، ويولون غيره ، وليس له شيء من سلطان سوى ذكر اسمه على المنابر^(٦) .

ونحن نعرف أنه قبل دخول بني بويه بغداد بسنوات معدودة توزعت الخلافة العباسية إمارات مختلفة ، فبينما استقل بنو بويه بفارس والجبل وأصبهان والري ثم بغداد أخيرا ، استقل السامانيون بخراسان وما وراء النهر ، والزياريون بجرجان وطبرستان ، ومحمد بن إلياس

(٤) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

(٥) مسكويه ٨٥/٦ .

(٦) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

(١) تاريخ ابن الأثير طبع أوربا ١٩٧/٨ .

(٢) ابن الأثير ١٩٩/٨ .

(٣) تجارب الأمم لمسكويه طبع آملدروز ٢٩٥/٥ .

وما بعدها .

بكرمان ، والبريديون بالأهواز وواسط والبصرة ، وأبو طاهر القرمطي باليمامة والبحرين ، وبنو حمدان بالموصل وديار ربيعة ومضر ، والإخشيدون بمصر والشام ، ولم يبق للخليفة إلا بغداد^(١) ، بل هذه استولى عليها أخيرا معز الدولة البويهى .

وقد كانت رئاسة البيت البويهى للأخ الأكبر ، وهو عماد الدولة ، فلما توفى انتقلت رئاسة البيت إلى ركن الدولة ، فكان معز الدولة لا يعصى له أمرا^(٢) ، وقد أقامه الخليفة مقام أخيه عماد الدولة على فارس^(٣) ، لأن عماد الدولة لم يترك عقبا ، وقد كان يتبنى عضد الدولة^(٤) ، ولعل ذلك ما جعل ركن الدولة يقيم ابنه عضد الدولة على فارس منذ توفى أخوه . واستولى عضد الدولة على كرمان . وقد قسم ركن الدولة ملكه بين أولاده ، فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان وأرجان ، ولمويد الدولة الرى وأصفهان ، ولفخر الدولة همدان والدينور^(٥) ، وجعل لعضد الدولة الرئاسة على أخويه ، وجعلهما خليفين له على ما بأيديهما . وخدم كل منها أخاه بالريحان ، على الرسم المعروف للبويهيين^(٦) . غير أن فخر الدولة لم يلبث أن حاول الاستقلال عن أخيه ، فخرج عليه ، واستعان بقابوس صاحب جرجان وطبرستان^(٧) ، ولم تنفعه استعانتة به ، فقد حاربتهما جيوش عضد الدولة ، ونزعت منهما ملكهما^(٨) ، فاستنجدا بالسامانيين ، وتبعتهما جيوش عضد الدولة إلى نيسابور ، ونكلت بجيوش السامانيين تنكيلا^(٩) .

وعضد الدولة (٣٦٥ — ٣٧٢ هـ) هو أعظم حكام هذه الدولة ، فقد استولى فى مفتتح ملكه على مايبدا ابن عمه من بغداد والعراق ، وكذلك استولى على مايبدا الحمدانيين من الحصون والقلاع ، وقد استولى على جرجان وطبرستان ، وشنت جيوشه الغارات على الروم ، وأزلت بهم هزائم منكرة . ويظهر أنه كانت فى عضد الدولة شدة ، فقد بلغ من خوف بعض قواده منه ، وهو المطهر بن عبدالله ، أن قتل نفسه خشية أن يتغير عليه ، حين لم يكتب له

-
- | | |
|--|--|
| (١) ابن الأثير ٢٤١/٨ وانظر مروج الذهب | (٦) مسكويه ٣٦٣/٦ . |
| للمسعودى طبع أوروبا ٣٠٦/١ ، ٧٣/٢ . | (٧) ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع طبع - آمدروز |
| (٢) ابن الأثير ٣٦٦/٨ . | ص ١٥ . |
| (٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبع دار | (٨) أبو شجاع ص ١٥ وما بعدها ، وابن الأثير |
| الكتب ٢٩٩/٣ . | ٨/٩ . |
| (٤) أحسن التقاسيم للمقدسى طبع ليدن ص ٤٤٩ . | (٩) أبو شجاع ص ٢٨ وابن الأثير ٩/٩ . |
| (٥) ابن تغرى بردى ١٠٩/٤ . | |

الظفر في حرب بعض الثائرين^(١) . وقد قصده المتنبي في فارس وهو لا يزال أميراً ، فأشاد به في غير قصيدة ، ومن قوله فيه :

وقد رأيتُ الملوك قاطبةً وسرتُ حتى رأيتُ مولاها
ومن منايهمُ براحتهم يأمرها فيهمُ وينهاها
أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه

ويصفه ابن الأثير فيقول : إنه كان عاقلاً ، فاضلاً ، حسن السياسة ، شديد الهيبة ، بعيد المهمة ، ثاقب الرأي ، محباً للفضائل وأهلها ، باذلاً في مواضع العطاء ، مانعاً في أماكن الحزم ، ناظراً في عواقب الأمور^(٢) . وقد بلغ من حزمه أنه تدلّه بفتاة ، فلما خشى على ملكه من تدلّعه بها ، أمر بتغريقها^(٣) . وكان كثير البر والصدقات^(٤) . وهو أول من خطب بالملك شاهنشاه في الإسلام ، وأول من خطب له على منابر بغداد بعد الخلفاء ، وأول من ضربت الدبابد على باب داره . ويروى أنه لما أحسن بالموت تمثل بقول القاسم بن عبيد الله الوزير :

قتلتُ صناديد الرجال فلم أدعْ عدوّاً ولم أمهل على ظنّةٍ خلقا
وأخليتُ دور الملوك من كل نازل وبددتهم غرباً وشردتهم شرقاً^(٥)

وقد خلفه في فارس والعراق أولاده ، بينما استقل أخوه مؤيد الدولة بالجليل وجرجان وطبرستان . ولم يلبث مؤيد الدولة أن توفي بعد أخيه بنحو عشرة أشهر^(٦) ، ولم يعقب ، فاستدعى وزيره صاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور ، وسلمه مقاليد الدولة^(٧) عام ٣٧٣ هـ ، وما زال فخر الدولة يدير شئونها حتى توفي سنة ٣٨٧ هـ .

وهؤلاء هم ملوك بني بويه الذين خدم الصاحب في دواوينهم ، وقد بلغت الدولة في عهدهم كل ما كان يحلم به أصحابها من سلطان وهيبة وثروة . ويكفي في تقدير ذلك ما يروى من أن عضد الدولة بنى داراً بشيراز ، كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة ، ويقول المقدسي في وصفها : ” لم أر في شرق ولا غرب مثلاً ، ما دخلها عاى إلا افتتن بها ،

(٥) ابن تغرى بردى ١٤٢/٤ .
(٦) ابن تغرى بردى ١٤٤/٤ .
(٧) أبو شجاع ص ٩٣ وابن الأثير ١٩/٩ .

(١) ابن الأثير ٥١٥/٨ .
(٢) ابن الأثير ١٤/٩ .
(٣) أبو شجاع ص ٤٢ .
(٤) ابن الأثير ١٦/٩ وأبو شجاع ص ٦٦ .

ولاعارف إلا استدلل بها على نعمة الجنة وطيبها ... وعندى أنه إنما بناها على مثال ما سمع من دور الجنة^(١) .

ويروى المؤرخون أن فخر الدولة خلف نحو مليونين وثمانمائة ألف من الدنانير ، ونحو مائة مليون من الدراهم ، كما خلف من الجواهر والياقوت والماس واللؤلؤ ما قيمته ثلاثة ملايين من الدنانير ، وخلف مثل ذلك أيضا من أواني الذهب^(٢) .

وهذا ثراء مفرط ، ومن هذا الثراء كان البويهيون ينفقون على العلماء والأدباء ، وقد كانوا يعيدين في أول الأمر عن الثقافة العربية ، فإن معز الدولة حين قدم بغداد احتاج إلى مترجم بينه وبين علي بن عيسى^(٣) ، ولكننا نراهم بعد ذلك يقبلون على الثقافة العربية ، ويتعلمون أدبها وشعرها ، ويصبح منهم شعراء . وقد عقد صاحب اليتيمة فصولا في قيمته لمن كان ينظم الشعر منهم ، مثل بختيار وعضد الدولة^(٤) . ويقول صاحب اليتيمة : إن الأخير كان يحب الشعر ، ويعطى الشعراء ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء^(٥) . ويقول الرواة : إن كتاب الأغاني لم يكن يفارق عضد الدولة في سفر ولا في حضر . ويقول ابن تغرى بردى إنه كان فاضلا نحويا^(٦) ، وكان يفخر بأنه غلام أبي على الفارسي^(٧) . وكان يقرب العلماء ، ويجلس معهم يعارضهم في المسائل ، فقصدته العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو ، والحجة في القراءات لأبي على الفارسي ، والملكي في الطب ، والتاجي في التاريخ للصابي^(٨) ، وهو في تاريخ بني بويه . وقد كانت له خزانة كتب كبيرة بشيراز ، ويقول المقدسي : إنه لم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها^(٩) .

وقد كان بنو بويه شيعة ، ويظهر أنهم كانوا غالين في تشيعهم^(١٠) ، فقد زعم بعض

- | | |
|---|---------------------------|
| (١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٤٩ وما بعدها . | (٦) ابن تغرى بردى ٤/١٤٢ . |
| (٢) ابن تغرى بردى ٤/١٩٧ . | (٧) ابن تغرى بردى ٤/١٥١ . |
| (٣) انظر المقدمة الإنجليزية لكتاب تاريخ الوزراء | (٨) ابن الأثير ٩/١٦٠ . |
| لهلال الصابي طبع بيروت ص ٧ . | (٩) المقدسي ص ٤٤٩ . |
| (٤) انظر اليتيمة طبع الشام ٢/٢ وما بعدها . | (١٠) ابن الأثير ٨/٣٣٩ . |
| (٥) اليتيمة ٢/٢ . | |

المؤرخين أن معز الدولة أمر أن يكتب على المساجد بلعن الصحابة^(١) ، ويقال إنه أول من سنّ سنة ماتم الحسين ونَدَّ به في يوم عاشوراء^(٢) ، ويصرّح ابن تغرى بردى مراراً^(٣) بأن البويهيين رافضة ، ويقول إنهم لم يفسحوا ذلك خوفاً على الملك^(٤) .

غير أن البويهيين — على ما يظهر — لم يجعلوا للتشيع أثراً في دولتهم ومعاملة أهلها ، فقد أبقوا على الخلافة العباسية ، وساموا الناس سياسة رشيدة ، فلم يفرقوا بين نخلة ونخلة ، ومذهب ومذهب ، وقد اتخذ عضد الدولة وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، وأذن له ، في عمارة البيع والأديار ، ومساعدة الفقراء من أهل الزمة^(٥) .

٢

الصاحب بن عباد

وصاحب الرسائل هو إسماعيل بن عباد أبو القاسم ، الملقب بكافي الكفاة ، ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ ، وهو العام الذي توفي فيه أبوه^(٦) . وهو فارسي الأصل ، من أهل الطالقان وهي ولاية بين قزوین وأبهر^(٧) . وقد كتب أبوه عباد ، ووزر لركن الدولة^(٨) ، وكان على ما يظهر من الراسخين في العلوم الدينية ، فقد ألف في أحكام القرآن كتاباً نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه^(٩) . ولا نعرف عن أم الصاحب إلا ما يروى من أنها كانت تعطيه كل يوم في حديثه ، أثناء ذهابه إلى المسجد للدرس ، ديناراً ودرهماً وتقول له : تصدّق بهذين على أول فقير تلقاه^(١٠) .

وقد تخرج الصاحبُ على يد أديب عصره : ابن العميد ، وزير البويهيين المشهور^(١١) ،

- | | |
|--|--|
| (١) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٣٥١ هـ . | (٦) معجم الأدباء لياقوت طبع مصر ١٦٨/٦ . |
| (٢) انظر ابن تغرى بردى ٣٣٤/٣ وابن الأثير ٤٠٣/٨ ، ٤٠٧ . | (٧) انظر ابن تغرى بردى ٣٠٧٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٤ ، وكذلك ١٤/٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ . |
| (٣) انظر ابن تغرى بردى ٣٠٧٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٤ ، وكذلك ١٤/٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ . | (٨) انظر ترجمة الصاحب في ابن خلكان . |
| (٤) ابن تغرى بردى ١٤/٤ . | (٩) ياقوت ١٧٢/٦ . |
| (٥) ابن الأثير ٥١٨/٨ . | (١٠) تذكرة العلماء والشعراء : نسخة مصورة بدار الكتب (رقم ٩١٠٩ أدب) الورقة ٢٥ . |
| (٦) ابن تغرى بردى ١٧٢/٤ وانظر ترجمة | (١١) انظر ترجمة الصاحب في ابن خلكان . |

ويظهر أن ابن العميد أعجب به فقربه منه ، وما زال يرقيه في دواوينه ، حتى اختاره وزيراً لمؤيد الدولة في أثناء إمارته على أصبهان في عصر أبيه . ولما توفي ركن الدولة عام ٣٦٥ هـ قصده أبو الفتح ابن أستاذه ذي الكفایتين ابن العميد ، فأزاله عن وزارة مؤيد الدولة ، ولكنه سرعان ما انتصر عليه وعاد إلى الوزارة^(١) ، وظل فيها ، حتى توفي مؤيد الدولة ، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، واستمر في الوزارة حتى توفي عام ٣٨٥ هـ .

ولم تكن مكانة صاحب في دولة بني بويه ترجع إلى أنه كان أديباً فحسب ، فقد كان كاتباً ووزيراً وقائداً^(٢) ومدبراً لشئون الدولة ؛ ولهذا عظمت مكانته لدى ملوك بني بويه ، فقد خرج عضد الدولة لاستقباله حين زاره عام ٣٧٠ هـ في همدان^(٣) ، وروى ياقوت أن صاحب كان إذا قال في مسألة قولاً ، وقال فخر الدولة قولاً آخر ، امتثل قول صاحب^(٤) .

كانت للصاحب منزلة عظيمة في دولته ، وقد أخذت هذه المنزلة تكبر وتعظم على مر الزمان ، حتى قيل إن قواد بني بويه وحكامهم ومن يوالونهم من الأمراء كانوا يقفون ببابه ”ومن يؤذن له في الدخول عليه ، يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار ، وأذن له في الدخول إلى مجلسه ، قبل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعا ، إلى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس ... ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضاً مراراً ؛ ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ، ولا يطعم منه أحد في ذلك“^(٥) . ولما توفيت أمه سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ركب إليه فخر الدولة معزياً ، فأما سائر الأمراء والقواد ... فإنهم كانوا يحضرون حفاةً حُسراً ، وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه على صاحب قبل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه ويأمره بالجلوس ، فيجلس ، وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالساً على عادته في غير أيام التعزية^(٦) . ومما يدل على عظم منزلته ما يروى من

١٣٨/٤ حيث يقول إن عضد الدولة استقبله

في بغداد .

(٤) ياقوت ١٧٢/٦ .

(٥) ياقوت ٢٤٤/٦ .

(٦) ياقوت ٢٣٨/٦ .

(١) ياقوت ٢٥٠/٦ .

(٢) ابن الأثير ٣٩/٩ وقد قيل إنه سلم لفخر

الدولة خمسين قلعة . انظر ابن تغرى بردى ١٧٠/٤

وياقوت ٢٥١/٦ .

(٣) ابن الأثير ٤/٩ وانظر ابن تغرى بردى

أنه لما توفي أُغْلِقَتْ له مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدموه فخر الدولة وسائر القواد ، فلما خرج نعشه من الباب قام الناس بأجمعهم ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، ومشى فخر الدولة أمام نعشه ، وقعد للعزاء أياماً^(١) . وقد رثاه الشعراء رثاءً حاراً^(٢) ، ومن قول أبي سعيد فيه :

أبعد ابن عبادٍ يَهْشُ إلى السرى أخو أملٍ أو يسْتَحْجُ جَوَادُ
أبي الله إلا أن يموتا بموته فما لهما حتى المعادِ معادُ^(٣)

وهذه المنزلة الممتازة للصاحب كان يعصدها خلق رفيع ، فقد حدث الرواة أن رجلاً ممن ينطوى له على موجدة دخل داره في غمار الناس ، فكتب له بعض أصحابه بذلك ، فوقع : دارنا هذه خان ، لمن وفي ومن خان^(٤) . وقالوا إنه استدعى يوماً شراب السكر ، فجاءه بقدر منه ، فلما أراد شربه ، قال بعض خواصه : لا تشربه فإنه مسموم ، فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ، قال : أن تجرب به على من أعطاكه ، قال : لا أستجيز ذلك ، ولا أستحله ، قال فجربه على دجاجة ، قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز ، وأمر بصب ما في القدر ، وقال للغلام : انصرف عني ولا تدخل داري بعدها ، وأقرّ رزقه عليه^(٥) . ويظهر أنه كانت في صاحب رقة ودماثة ، فقد روى الرواة أنه كان يقول : ” نحن بالنهار سلطان ، وبالليل إخوان ”^(٦) . وكانت فيه إلى جانب ذلك فكاهة ؛ حدث الرواة أنه في أثناء درسه في شبابه ببغداد ، تعرض لشخص يسمى ابن شمعون ، كان متصوفاً وكان فيه هوس يطيله ويسهب فيه ، فسأله في أثناء درس له عن قد سيكُونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، وهو يريد بذلك أن يقطعه ، فأطرق الرجل ساعة ، ثم أخذ في ضرب من الهذيان ، فلما سكنت قال له الصاحب : هذا الذي تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله^(٧) ! . ويتصل بهذا الجانب الفكاهة في الصاحب أنه كان يفسح في حضرته لشعراء الكُذْبة ، من أمثال أبي دُلَف الخزرجي^(٨) .

(١) ياقوت ٢٧٥/٦ وابن خلكان في ترجمة

الصاحب وابن تفرى بردى ١٧١/٤ .

(٢) البيهقي للعتبي مع شرح المنيني ٢٠٢/١ .

(٣) ابن خلكان في ترجمة الصاحب

(٤) اليتيمة ٣٩/٣ .

(٥) ياقوت ١٨٥/٦ .

(٦) اليتيمة ٣٨/٣ .

(٧) ياقوت ٢٦٨/٦ .

(٨) اليتيمة ١٧٤/٣ .

وقد كانت حضرة صاحب محط رحال العلماء والأدباء في عصره ، وكان يتعهدهم جميعا بالعطاء . فمن ذلك ما قيل من أنه كان ينفذ في كل سنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تفرق في الفقهاء وأهل الأدب^(١) ، وفي ياقوت أن عطايه للأدباء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد^(٢) . وإن الإنسان ليخيل إليه أنه لم يبق أديب في عصره إلا قصد إلى حضرته لينال من عطايه . يقول الثعالبي : " احتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُرَبِّي عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق المعاني "^(٣) . ورؤي عنه أنه قال : " مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية "^(٤) . ويدل مديح الشعراء له بالشعر الفارسي على أنه كان يتقن الفارسية ، وفي ياقوت ما يدل على أنه كان يتكلم بها أحيانا^(٥) ، ويقال إنه اختبر مهارة بديع الزمان في الترجمة من الفارسية إلى العربية^(٦) .

ولم يخلُ صاحب على عظم خدماته للأدب في عصره ممن زاروا حضرته وارتدوا حائقين عليه ، إذ لم يحقق لهم كل ما ربههم . ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدي ، فقد وفد عليه ، ولم يلبث أن خرج مغاضبا له ، فألف في ثلثه وفي ثلث ابن العميد كتابا سماه : أخلاق الوزيرين ، وينقل منه ياقوت كثيرا^(٧) ، وقد تعقبه بالثلث أيضا في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)^(٨) ، ثم في رسالته المسماة (الصداقة والصدق)^(٩) . غير أن ثلث أبي حيان صاحب لا يقدح فيه ، لأنه يرجع إلى أسباب شخصية ، قال ياقوت : " إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد في الري ، فلم يرزق منه ، فرجع عنه ذامًا له ، وكان أبو حيان مجبولا على الغرام ، بثلب الكرام ، فاجتهد في الغض من ابن عباد "^(١٠) ، وهو غرض خَصْم شديد الخصومة .

(٦) لباب الألباب لمحمد عوفي طبع ليدن ١٧/٢ .

(٧) ياقوت ٢٦/١٥ وما بعدها .
(٨) الإمتاع والمؤانسة طبع لجنة التأليف ص ٥٤ وما بعدها .

(٩) الصداقة والصدق طبع القسطنطينية ص ٣٣ .

(١٠) ياقوت ١٨٦/٦ وكذلك ١٣/١٥ ، ٣٣ .

(١) المنتظم : نسخة مصورة بدار الكتب (رقم ١٢٩٦ تاريخ) الجزء السادس ، القسم الثاني ، الورقة ٤٥٠ .

(٢) ياقوت ٢٤٩/٦ .

(٣) اليتيمة ٣٣/٣ .

(٤) ياقوت ٢٦٣/٦ .

(٥) ياقوت ١٦/١٥ .

والحق أن الصاحب كان حسن السيرة ، وكان ما يزال يطلب الأدباء والعلماء إلى حضرته ، ومن طلبهم إليها القاضي عبد الجبار^(١) شيخ المعتزلة في بغداد، وقد ولّاه القضاء في دولته . وكان العلماء يرفعون إليه كتبهم كما يرفع الشعراء قصائدهم ، وقد رفع إليه ابن فارس كتاب الصاحب .

وقد كان الصاحب على ما يظهر علما في فنون شتى ، فله تأليف كثيرة^(٢) ، ألف في اللغة معجما ضخما يقع في سبع مجلدات سماه المحيط ، وفي دار الكتب المصرية قطعة منه ، وقد نشر له برونله كتاب المقصور والممدود ، وفي دار الكتب نسخة مخطوطة من كتابه الإقناع في العروض . وكما كان الصاحب لغويا كان محدثا ، أخذ الحديث عن أبيه وغيره^(٣) ، ويروون أنه خرج يوما وهو وزير متطلسا متحنكا بزي أهل العلم ، لرواية الحديث وإملائه على الناس^(٤) . وكان مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال^(٥) . ويقول أبو حيان إنه كان يكره الفلسفة^(٦) ، ولكن له رسالة طبية في الباب التاسع عشر، وهي تدل على صلته بالثقافة الفلسفية ، وقد قال فيها بعض الأطباء : ” لو علمها ابن قُرّة وابن زكريا لما زادوا عليها ”^(٧) .

وقد عرف بسعة العلم . يقول صاحب المنتظم إنه ” لم يكن من يذكر عنه العلم من وزراء الدولة الديلمية كما يذكر عن الصاحب ”^(٨) . وقد قالوا : إنه جمع من الكتب ما يحتاج في نقله إلى أربعمائة جمل^(٩) ، وكان يعنى بطلب النسخ الصحيحة إلى خزانة كتبه عناية عظيمة^(١٠) ، وقال أبو الحسن البیهقي إنه رأى فهرست كتبها ، وهو يقع في عشر مجلدات^(١١) . وقد أسس سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهی دارا للعلم في الكرخ غربي بغداد ، ونقل إليها كتبها كثيرة ، وقد صنع ذلك منافسة للصاحب بن عباد^(١٢) .

وكان الصاحب مثل ساداته من البويهيين متشيعا ، وقد ألف في إمامة علي بن أبي طالب

(٨) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثاني ،

الورقة ٤٤٩ .

(٩) ابن الأثير ٧٧/٩ .

(١٠) ياقوت ٧/٢٤٢ ، ٢٥١ .

(١١) ياقوت ٦/٢٥٩ .

(١٢) Nicholson , Lit. Hist. of Arabs, P. 267 .

(١) المنية والأمل طبع حيدر آباد ص ٦٦ .

(٢) انظر فهرست كتبه في ياقوت ٦/٢٦٠ .

(٣) ياقوت ٦/١٧٢ .

(٤) ياقوت ٦/٢٥١ .

(٥) ياقوت ٦/٢٨٤ .

(٦) ياقوت ٦/١٧٥ .

(٧) يتيمة ٣/٤٢ .

كتاباً^(١) ويقول أبو حيان : إنه كان يقول بمقالة الزيدية^(٢) ، ويروي الرواة عن القاضي عبد الجبار أنه كان يقول : ” أنا لا أترحم عليه لأنه مات عن غير توبة “^(٣) . ولسنا ندرى أريد بذلك أنه كان غالباً في تشيعه ، أم يريد شيئاً آخر ؟ . ولم يرزق الصاحب سوى بنت واحدة ، زوجها أحد الأشراف ، فلما أعقبت منه سر سرورا عظيماً . ومدحه الشعراء بهذه المناسبة مدائح كثيرة ، وقال هو فيها أيضاً شعراً يدل على مسرته وبهجته بهذه الحادثة ، فمن ذلك قوله :

الحمد لله حمداً دائماً أبداً إذ صار سبط رسول الله لي ولداً^(٤)
ونحن نختتم حديثنا عن الصاحب بما قاله صاحب المنتظم من أنه كان أفضل وزراء بني بويه^(٥) ، وما قاله الثعالبي ، من ” أنه كان صدر المشرق ، وتاريخ الحمد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج في مدحه بما يمدح به كل مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهره سوق “^(٦) .

٣

الرسائل

ورسائل الصاحب ليست رسائل إخوانية كأكثر رسائل أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ، بل هي رسائل ديوانية ؛ ومن هنا كان لها قيمتان : قيمة تاريخية وقيمة أدبية .

قيمتها التاريخية

وترجع قيمتها التاريخية إلى أنها سجلت طائفة من حروب بني بويه ، كما سجلت أسماء طائفة من حكامهم وقوادهم وقضاتهم . وقد صورت فيها بعض التصوير معاهداتهم ، كما صورت سياستهم ، ومعاملتهم الرعية ، واجتماع الناس في عصرهم . فهي وثائق تاريخية مهمة في أمور الدولة البويهية السياسية والاجتماعية .

(٥) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثاني ،

الورقة ٤٥١ .

(٦) يتيمة ٣٢/٣ .

(١) ياقوت ٦/٢٦٠ .

(٢) ياقوت ٦/١٧٥ .

(٣) ابن الأثير ٧٧/٩ وأبو شجاع ص ٢٦٢ .

(٤) يتيمة ٣/٧٣ وما بعدها .

حق أن مسكويه كان معاصرا للصاحب ، وكتب في تجارب الأمم فصولا طويلة عن البويهيين . ومع ذلك فمسكويه ينقصه كثير من التفاصيل التي ألت بها هذه الرسائل ، كما تنقص هذه التفاصيل أيضا أبا شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم .

وقد كتب أبو إسحاق الصابي في تاريخ البويهيين كتابه التاجي ولكنه مفقود ، وكذلك كتب عنهم حفيده هلال بن الحسن في تاريخه الكبير ، ولكن هذا التاريخ أيضا مفقود ، ولم يبق منه إلا ما يتناقله المؤرخون ، وإلا ما طبع في بيروت بعنوان تاريخ الوزراء ، وهي قطعة تتصل بوزراء المقتدر ، ولما عرضت لوزراء بني بويه .

ونحن لا ننكر قيمة ما قصه ابن الأثير وابن تغري بردي وصاحب المنتظم عن البويهيين ، غير أن ما قصوه جميعا لا يتضمن كل التفاصيل السياسية والاجتماعية لهذا العصر . ومن ثم كانت كل وثيقة سياسية جديدة تُنشر عن هذا العصر البويهي تعتبر عظمة الفائدة ، ولا سيما حين يكتب هذه الوثيقة وزير معاصر مشارك في أحداث الدولة وسياستها مثل صاحب بن عباد .

ونحن نستعرض موضوعات هذه الرسائل التي كتبها صاحب حتى نقف على قيمتها السياسية والاجتماعية . وإن من ينظر فيها يجد الباب الأول منها خاصا بفتوح عضد الدولة وحروبه . وهو يفتتحه برسالة تصور حربه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير صاحب جرجان وطبرستان . ويقص صاحب ما كان من هزيمتهما على باب إسترااذ . ومن طريف ما يقصه أن بني بويه كانوا يطلقون من يقع في أيديهم من أسرى أعدائهم ، يمنون عليهم بذلك حتى يتألفوهم .

ونقرأ في الرسائل التالية لهذه الرسالة في الباب حروب عضد الدولة مع الروم ، وابن حمدان وكيف قضى عليه ، كما نقرأ إصلاحه بين سعدوربيعة . ونراه يتحدث في الرسالة السادسة عن استنجد إبراهيم بن المرزبان بركن الدولة على عمه وهسودان ، وقد اغتصب منه ومن إخوته ملك أذربيجان بعد وفاة أبيهم . ويفصل صاحب الحديث في إغاثة ركن الدولة إياه ، ويذكر من أرسله معه من القواد وما كان بعد ذلك من هزيمة وهسودان . وبينما تذكر كتب التاريخ أن ركن الدولة أغاث إبراهيم لأسباب شخصية^(١) ، نجد صاحب يذكر أنه

أغاثه لأسباب سياسية ، إذ كان وهسوذان مغاضبا للدولة ، يكيد لها ، ويثير عليها الفتن . وقد خصَّ الصاحب الرسالة السابعة بحرب عضد الدولة وابن عمه بختيار ، وكيف استولى على بلاده ، وهو يفصل الحديث في ذلك . ومن طريف ما ذكره أن خليفة بغداد كان يرسل عضد الدولة سرا ، وأنه خرج لاستقباله في ديالى بعد انتصاراته .

وربما كانت الرسالة الثامنة أخطر رسائل هذا الباب ، وقد خصَّها الصاحب بنهاية حرب قابوس وفخر الدولة ، وما كان من استعانتها بالدولة السامانية ، إذ ساقط جيشا بقيادة تاش . ولم يكن حظ هذا الجيش خيرا من حظ جيوش قابوس ، فقد سارعت جيوش عضد الدولة إليه في نيسابور ، وسرعان ما دارت عليه الدوائر ، إذ قتل منه نحو ثلاثة آلاف ، وليس هذا كل ما في الرسالة ، فإن فيها وصفا دقيقا لحروب السامانيين والبويهيين ، منذ قامت دولتهم ، وإن الصاحب ليعدّد هذه الحروب ، ويعدّد أسماء قواد السامانيين فيها . وقد ذكر مادة طريفة في إحدى معاهدات البويهيين مع السامانيين ، وهى : ” أن لا يُقبَلَ في جهة من الجهتين أُنباى العساكر ، ولا يمهّد في جنبه من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحمّى على من عصا فشرد ، وشقّ العصا وانفرد “ . ونقف من هذه الرسالة على شىء طريف آخر هو أن السامانيين كانوا إذا خلع بنو بويه خليفة وولوا مكانه آخر ، لا يدعون للمولى مكانه على منابرهم .

ونترك هذا الباب الخاص بالحروب إلى الباب الثانى الخاص بالعهود ، فنقرأ فيه أوامر الدولة وعهودها للقضاة والولاة والمحتسبين ، وهى تبدأ بعهد عبد الجبار قاضى القضاة فى الدولة ، وفيه نرى الصاحب يأمره باتباع الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس ، كما يأمره أن لا يأخذ بالآراء الشاذة ، وأن لا ينقض آراء من سبقه من القضاة إلا ما خرج عن اتفاق الأمة ، وقد دعاه إلى أن يثبت من الشهود ، وأن يعدل بين الخصوم ، وأن يسوى بين الغنى والفقر فى لحظه ولفظه وحكمه . ونرى من هذا العهد أن القاضى هو الذى كان يشرف على تعيين الأوصياء على اليتامى ، والنظار على الوقوف ، والقوَّام على السكة . وجاء فى هذا العهد أيضا ألا ترد التركة إلى بيت المال ، بل يأخذها الأبعد من ذوى الأرحام . وفى هذا ما يدل دلالة صريحة على أن بنى بويه لم يكونوا يتعرضون للتركات ، وقد امتدحهم المقدسى ونوّه بهم لذلك ^(١) .

ويلى هذا العهد عهد فى الحسبة ، ومنه نطلع على صفة المحتسب ، وأنه ينبغى أن يكون من الفقهاء ، كما نطلع منه على عمله وأنه كان يقوم بمراقبة المكاييل والموازين فى السوق ، كما كان يقوم بمراقبة السلع وحفظها عن الغش ، وكذلك كان يراقب النساء فى الأسواق ، وأهل الذمة ولبسهم للغيار وعقد الزنار . وقد كان له حق الحبس والتأديب . وإن صاحب ليأمره أن يسوتى فى العقاب بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلة والإعسار .

ونقرأ بعد ذلك عهدا لحاكم ، وهو العهد الرابع من هذه العهود ، ومنه نعرف سياسة بنى بويه فى معاملة الرعية ، وما يأخذون به حكامهم ومرءوسيههم فى هذه المعاملة ، سواء أصحاب الصدقات ، وأصحاب الخراج ، وسواء المتولون لدور الضرب والقائمون على حراسة المكاييل والموازين ، وأصحاب معاون والشرط . وقد أمر صاحب هذا الحاكم بالعمل على نفى الطرق من اللصوص ، كما أمره بالعدل المطلق بين الناس . ومن غريب ماجاء فى هذا العهد أن صاحب أمر الحاكم ألا ينفذ الحدود إلا بعد الرجوع إليه "حتى يأتية من الأمر مايرمه ، ومن الحكم ما يرتسمه" . وجاء فى هذا العهد أيضا ما يدل على أن الدولة كانت تراقب سوق الرقيق مراقبة شديدة .

ونستمر حتى العهد الثامن وهو خاص بقسمة الماء فى بعض الأودية ، وفيه نرى صاحب يأمر الحاكم بالعدل فى قسمة الماء بين أصحاب الضياع ، بحيث لا يقتطع أحد ماء فى غير حقه ، ولا يسد فاه النهر فى غير شربه . وقد أمره أن يعاقب من يخالف ذلك حتى لو كانت ضيعته من خاص ضياع الدولة وخالص أملاكها . وإن فى هذا مايدل دلالة واضحة على عدل بنى بويه ، وهو عدل تنتشر الدعوة إليه فى جميع صحف هذه الرسائل والعهود ، بحيث يخيّل إلى الإنسان أن بنى بويه كانوا من أعدل الحكام فى الشرق . وفى كل مكان من رسائل صاحب نجد الآيات الدالة على ذلك . ومن الرسائل التى تفسره فى دقة ، الرسالة الخامسة فى الباب الثالث ، إذ نجد صاحب يأمر الموظفين فى الدولة أن يزموا أنفسهم عن أن يطلبوا شيئا من الناس فوق الضرائب المقررة لهم .

وكما عني البويهيون بالعدل عنوا بالأمن ، ونفى الطرق عن أهل العيث والفساد ، وإن فى الباب الرابع الخاص بالحجيج والمصالح والثغور مايفسر ذلك تفسيراً وافياً . وقد كان

البويهيون يكرهون كل ما يحدث خلافاً في الدولة أو يثير فتنة فيها ، ولعلمهم من أجل ذلك لم يحاولوا أن ينصروا مذهبهم الشيعي ، أو يؤيدوه في أي بقعة من بقاع دولتهم . وفي الباب السادس رسالتان طريفتان هما الخامسة والسادسة ، وقد كتبنا بصدد نشوب ثورة في قزوين بين العلوية وغيرهم ، وقد دعا فيهما الصاحب إلى وجوب الألفة بين الطوائف المختلفة ، بحيث لا يتعصب لإحدى الطوائف على الأخرى ، ولا يلزم أحد بالعدول عما اختاره من مذهب وطريقة .

وليس في الرسائل ما يدل على دلالة على أن دولة بني بويه كانت تدعو إلى التشيع . وقد كانت تتخذ العيون والجواسيس كما تدل الرسالة السادسة من الباب الثالث عشر ، ولكنها فيما يظهر كانت تستعملهم على خصومها السياسيين .

ونحن نجد في الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه ؛ فقد جاء في الرسالة التاسعة من الباب العاشر "مولاي يتدين بتعديل ربه ، ويعرف مواقع اللطف من صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله" . وتتكرر فكرة التعديل هذه في الرسائل كثيراً . والغريب أن الصاحب لا يدعو إلى التشيع في رسائله ويدعو إلى الاعتزال ! . وهناك رسالتان طريفتان في الباب السابع عشر وهما نصان صريحان في أنه كان يبعث دعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول في مذهب المعتزلة . ولسنا ندري أكان هذا من عمله هو أم كان من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال^(١) ، ويعرف التاريخ صلة دائمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا . ويظهر أن التشيع اقترن في هذا العصر اقتراناً تاماً بالاعتزال ، إذ كان أهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعاً .

والرسائل تصرح بأن العلوية كانوا يخاطبون في هذا العصر بالشرفاء والأشراف ، وأنه كان يتخذ منهم النقباء . وقد أظهر الصاحب في الرسالة الحادية عشرة من الباب العاشر ، وهي خاصة بالتعزية ، حرقاً شديداً على نقيب توفاه الله . وكذلك أظهر الصاحب هذه النزعة الشيعية في الرسالة التاسعة من الباب التاسع عشر وهي موجهة إلى بعض الأشراف . ونجد في هذا الباب أيضاً رسالة طريفة ، وهي الرسالة العاشرة ، وهي عهد إلى بعض النقباء ، وفيها ما يدل

على كثرة الصلات التي كانت تصل إلى العلويين من البويهيين ، وفيها أيضا ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يتولى الحكم بين العلوية ، حتى لا يحكم بينهم أحد من الخارجين عن الأسرة . ومعنى ذلك أنه كان للعلوية قضاء مستقل في الدولة ، وأنه كان ينهض به في كل بلدة قاض منهم . ومن طريف ما في هذا العهد أنه يشير إلى أن أناسا كثيرين كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا في الدوحة العلوية ، ولذلك نرى الصاحب يأمر هذا النقيب بتتبع المنتحلين للنسبة ، وإشهار أمرهم . ويظهر من جوانب أخرى في الرسائل أن الذي كان يحج بالناس في هذا العصر شريف من الشرفاء .

وليس الذي ذكرناه كل ما في هذه الرسائل من دلالات سياسية واجتماعية ، وإنما هو بعض دلالاتها أثرناه لندل به على غيره ، حتى نصور بعض التصوير قيمة الرسائل من الوجهة التاريخية .

قيمة الرسائل الأدبية

قلنا آنفاً إن رسائل الصاحب وثائق تاريخية مهمة في العصر البويهى ، ولا ريب أن قيمتها الأدبية أعظم من قيمتها التاريخية ، فقد تناولت موضوعات يصعب تطويعها للأساليب الأدبية ، من مثل سقى الأرض والخراج وأمن الطرق ، وأمور أخرى تحدّثها الحقائق ، ولا يتسع فيها الخيال ، ويصرّفها العقل ولا ينفسح فيها مجال العاطفة ، فلا يستطيع إلا كاتب قدير أن يسرد هذه الموضوعات وأشباهاها في أسلوب أدبي . وهذا دليل من أدلة كثيرة على اتساع الأدب العربى لموضوعات لا تعدّ في النظرة الأولى من موضوعات الأدب ، ولا يتسع المجال هنا للإفاضة في هذا الجانب .

ولم ينشر قبل هذه الرسائل لوزير من وزراء بنى بويه مجموع من الرسائل يماثل بهذا المجموع ، بل لقد ضاعت رسائل هؤلاء الوزراء جملة ، ولم يبق منها إلا قليل روى في اليتيمة ومعجم الأدباء وغيرها من كتب الأدب . وأعظم وزيرين أدبيين عرفا في فارس أيام البويهيين هما ابن العميد وتلميذه وخريجه ابن عباد . ولم ينشر لابن العميد ما يكشف عن فنه وأساليبه كشفا تاما . فكان لنشر هذه الرسائل فوائد كثيرة إذ نطلع منها على رسوم الكتابة الديوانية في إيران لهذه العصور .

وأول ما يدرك القارئ من رسوم هذه الرسائل الصاحبية ، أنها تبتدىء بالتحميد والصلاة

على النبي وأحيانا بالدعاء ، وغالبا ينوّه الصاحب باسم سيده الذى تصدر الرسالة فى عهده ، وهو حين يذكره لا يُطَنَّب فى تلقيبه ، بل يكتفى باللقب الذى خلعه عليه الخليفة مثل مؤيد الدولة أو ركن الدولة ، وهو يذكر عضد الدولة باسم الملك السيد ، أو الملك شاهنشاه . ويعبر الصاحب بكلمة الحضرة السامية ، أو الحضرة الشريفة ، أو الحضرة البهية ، وكذلك يعبر بالمجلس العالى والمجلس الشريف ، وقد يعبر عن نفسه بأنه عبد سيده ، ولكنه لا ينحدر من ذلك إلى الخنوع والتذلل ، على نحو ما حدث بعد ذلك فى الرسائل الديوانية ، من الغلو فى الأوصاف والإكثار من الألقاب والتفنن فيها فى صدور الرسائل ، وقد بالغ الكتاب بعده فى ذلك بصور مختلفة حتى قالوا : " خادم الخدمة الشريفة فلان " ، وقالوا : " قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة " (١) .

ويختتم الصاحب رسائله أحيانا بالدعاء ، ولا يطيل فيه ، إلا إذا كان بصدد فتح عظيم ، فإنه يسهب فيه ويطنب ، على نحو ما صنع فى الرسالة الثامنة من باب الفتوح ، فقد امتد الدعاء فيها إلى نحو عشرين سطرا . وربما يعرض الدعاء والتحميد أثناء الرسائل ، ولكن هذا نادر .

وإذا تركنا طريقة الافتتاح والاختتام فى الرسائل إلى اللغة والأسلوب ، فسألنا أكان للفارسية أثر فى كتابة الصاحب ، وقد قلنا آنفا إنه كان يتقن الفارسية ، ويقول الجاحظ : " اللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد ، أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتهما " (٢) . فهل أدخلت الفارسية الضيم على عربية الصاحب ؟

والإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نحتاط فيها ، إذ يجرى على أقلام بعض الأدباء دعوى تأثر العربية بالفارسية كلما كتبوا عن الأدب العربى فى العصور الإسلامية . وهى دعوى لا يستطاع إقامة الدليل عليها إلا بالرجوع إلى الأدب الفهلوى ، الذى اشتق منه الأدب الفارسى الحديث ، وإلا بمسيرة الأدب العربى فى تطوره أثناء العصور الإسلامية الأولى . والذى يبدو لمن درس الأدبين أن موضوعات انتقلت من الأدب الفارسى المنشور إلى الأدب العربى ، وأن بعض رسوم الرسائل الفارسية تسربت إلى كتابة الدواوين العربية ، وأن ألفاظا فارسية كذلك استعملت فى العربية . وأما أن تركيب الجملة العربية طواع تأثير

(١) تاريخ الوزراء للصابى ص ١٥٠ وما بعدها . (٢) البيان والتبيين للجاحظ طبعة السندوبى ١٣٩/١

الفارسية ، أو أن أسلوبا من أساليب العربية يعدّ محاكاة لأسلوب فارسي ، فأمر عويص ينبغي أن لا يقدم عليه الباحث المثبت إلا بعد بحث طويل دقيق . ولولا هذا لأحلنا بعض عبارات صاحب على عبارات فارسية .

ومن أجل ذلك نقصر — في إجابة السؤال السابق — على مالا شك فيه من استعمال صاحب ألفاظا فارسية في أمور الخراج وسقى الأرض ونحوها لم يجد من استعمالها مناصا ، وهي مبثوثة في رسائله . وقد استعمل الظاء بدل الضاد في بعض كلماته مثل إفضاء فقد كتبت إفضاء^(١) والضعائن كتبت الضغائن^(٢) ولسنا ندري أهذا من عمله أم من عمل النساخ . وعلى كل حال نحن لا نملك القطع بأن صاحب غلبت عليه العجمة لمثل هذا الاستعمال . وقد جاء في الرسالة التاسعة من الباب الأول كلمة "مسجد جامعها" يريد مسجدها الجامع ، وهذه صياغة فارسية إذ يضيف الفرس الموصوف والصفة معاً إلى المضاف إليه .

والصاحب يختار ألفاظه من ذات الحروف الضخمة ، حروف انتفخيم والإطباق ، فتكثر في كلماته حروف القاف والضاد والطاء والصاد والظاء ونحوها مما يجعل الكلام جزلا ذا جلجلة ورنين . ومن أجل ذلك كان بناء صاحب قويا ضخما يروع القارئ لأول وهلة بصلابته ومتانته ، وهو يقصد إلى ذلك قصدا ، حتى يخلق في أجوائه العليا من فن الكتابة كما يتصورها وكما تقع في وهمه . ويتصل بذلك أنه يُعَرِّب أحيانا في ألفاظه ، فيختارها من المعجم غير المؤلف رغبة منه في الارتفاع ، وقد ساعده في بلوغ ما يريده من ذلك ، أنه كان واسع العلم باللغة ، وقد ألف فيها معجما كما ذكرنا قبلا

وإذا تركنا ألفاظ صاحب إلى أساليبه كان أهم ما يلفت فيها كثرة الاعتراض والفواصل ، فقد يفصل بين المبتدأ والخبر بجملة تمتد إلى ثلاثة أسطر^(٣) ، وقد يفصل بين الفعل ومفعوليّه بجملة تمتد إلى خمسة أسطر^(٤) ، وقد يفصل بين فعل الشرط وجوابه بنحو سبعة أسطر^(٥) . وقد آخذ السابقون على ذلك ، وقالوا إن هذا يحدث تعازلا في أساليبه^(٦) . وكما يكثر من الاعتراض يكثر من البُعد بين المتعاطفات ، وخاصة إذا كانت مجرورة ، ولذلك شكلناها

(١) انظر الرسائل ص ٧٦ .

(٢) الرسائل ص ٩١ .

(٣) الرسائل ص ١٥ .

(٤) الرسائل ص ١٦ .

(٥) الرسائل ص ١٧٥ .

(٦) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٤ .

في مواطن كثيرة ، حتى يستبين القارئُ تعلق الكلام ببعضه ببعض . وأكبر الظن أن صاحب كان يريد أن يدل على قدرته ؛ وقد كانت لديه نزعة للإغراب . ويدل على تغفل هذه النزعة فيه أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة فوقع فيها ، ولما ردت إليه الرقعة لم يرفها توقيعا ، وقد تواترت الأخبار بالتوقيع فيها ، فعرضها الرجل على أبي العباس الضبي ، فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع ، وهو ألف واحدة ، وكان في الرقعة : "فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" . فأثبت صاحب أمام فعل ألفاً يعني أفع^(١) . وأيضاً روى الثعالبي أن صاحب صنع قصيدة معرأة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمنثور ، فتداولها الرواة وعجبوا منها ، فصنع صاحب قصائد ، كلٌّ منها خالية من حرف من حروف الهجاء . وهذا كله يؤكد أن صاحب كان ينزع إلى الإغراب ، كما كان ينزع إلى أن يشقَّ على نفسه ، حتى يظهر قدرته ومهارته ، ومن هنا يأتي استخدامه للغريب ، وإكثاره من الاعتراض الطويل بين المعطوفات .

وقد كان صاحب يخضع في أساليبه لما شاع في عصره من استخدام السجع والبديع ، وقد اشتهر في عصره بأنه يكلف بالسجع كلفاً شديداً ، قال أبو حيان : "كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة ينحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرمٍ ثقيل وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفرج عنها ويُخليها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها" ^(٢) . ويذكر الرواة أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين ... فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح ، لا شيء إلا ليكتب إلينا : "كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت في نصف النهار" ^(٣) . ويستمر الرواة فيقولون : إن سَجَعَهُ اضطرت صاحب إلى عزل قاضي قم ، فقد كان عنده ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجعة فأعياه ذلك ، فقال : قد عزلناك فقم ^(٤) .

(١) يتيمة ٣٨/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٢٢٠/٦ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ٢٠٧/٦ .

(٤) انظر مادة قم في معجم البلدان لياقوت .

ولا ريب أن هذه روايات بولغ فيها ، فما بين أيدينا من رسائل الصاحب لا يدل على هذا الكلف الشديد بالسجع ، إذ نراه كثيراً ما يكتفى بالازدواج . وربما كان هذا كله مما لفته عليه خصمه أبو حيان أو خصوم آخرون ، وأعانهم عليه تكلف الصاحب أحياناً في أسجاعه ؛ وإن سجعاً ليطرد في كثير من فصوله اطرادا ، فلا يعوقه عائق ، ولا يخالطه تصنع أو تكلف .

وكما كان الصاحب يعنى بالسجع في أسلوب رسائله كان يعنى بالبديع ، وأكثر حلي البديع استهواء له حلية الجناس ، وكانت تغلب عليه حتى في أحاديثه . روى عن بعض ندمائه أنه قال : كنت يوماً بين يدي الصاحب ، فقدم البطيخ ، فقلت لا مُتْرَك ، فقال بالعجلة : لمُتْرَك ، وكنت أريد أن أقول : لا مترك للبطيخ ، فسبقني إلى التنادر بهذا التجنيس (١) .

وقد عنى الصاحب في رسائله بالاعتباس ، ولا سيما من القرآن الكريم ، فهو مولع باقتباس الألفاظ والعبارات القرآنية ، وإدخالها في مادة لغته . وفي أحوال كثيرة نراه يختم الفصل في رسالته بآية من القرآن ، وقد صنع ذلك في طائفة من عهوده ، فالتزم فيها اختتام كل فصل بآية من الذكر الحكيم . وكما يقتبس الصاحب من القرآن يقتبس من الشعر والأمثال ، ولكنه لا يكثر من ذلك .

وقد تعلق الصاحب باستخدام التشبيهات والاستعارات في رسائله ، وطلب شاذها وغريبها كقوله : ” فلم يكتسب بطلب الفرصة إلا تجرّع الغصة ، ولا من تتبع الغرّة ، إلا تدرّع الحرّة “ (٢) . والحرّة معروفة ولكن تدرّعها هو الغريب ، ومن ذلك قوله : ” عبد مولانا أخصّ بالخدمة ، وألبس للنعمة ، من أن يخبر عما تورده هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه في إعلاء منكبها وطرفه “ (٣) . والتعبير بما تأتيه هذه الفتوح في إعلاء منكبها وطرفه غريب . ومن ذلك قوله ” أمسك ونيران قلبي تفور ، وأرض صدرى تمور “ (٤) .

ولعل مرد هذا كله إلى ما كان في الصاحب من ميل إلى الإغراب والتأنق ، وقد كان يتأنق حتى في خطه ، وما يستعمله من قراطيس في رسائله ، فقد روى أنه لما أنشأ العهد إلى القاضي

(١) الرسائل ص ١٤ .

(١) يتيمة ٣/٣٦ .

(٤) الرسائل ص ١٢٠ .

(٢) انظر الرسائل ص ٧ ، والحرّة : شدة العطش .

عبد الجبار — وربما كان العهد الأول في الباب الثاني من هذه الرسائل — كتبه له بخطه ، واعتنى بزخرفته ، ويقال إنه كان سبعمائة سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة ، وقد أُهْدِيَ هذا العهد إلى نظام الملك في القرن الخامس^(١) .

ونرى من كل ما سبق أن صاحب عُني في رسائله بالسجع ، فلا ينفك عنه إلا نادرا ، كما عُني بطول الجمل وتحليتها بالبديع ، وخاصة الجناسات والاقتباسات والتشبيهات والاستعارات . وإن من يقرن رسائله إلى رسائل القاضي الفاضل وحلبته من كتاب العصور التالية ، يدرك أن هؤلاء الكتاب إنما استنوا في رسوم كتاباتهم بالسنن التي نراها هنا عند صاحب ، ونقصد سنن تطويل العبارات ، وما يطوى فيها من سجع وبديع . وهي سنن اقتنى صاحب فيها أستاذه ابن العميد ، ومن المعروف أن ابن العميد تناول الكتابة ممن سبقوه ، وهي مليئة بالسجع ، على نحو ما نجد عند كتاب المقتدر ووزرائه^(٢) . ولم يكتف ابن العميد بالسجع فقد أضاف إليه البديع وكان يشغف بالطباق ، ثم جاء صاحب من بعده ، فارتفع بالكتابة الديوانية إلى الصورة التي وصفناها . وهي صورة تستمد خطوطها وألوانها من السجع والتشبيهات والاستعارات والجناسات والاقتباسات وكل ما يمكن أن يُعدَّ حلية بيانية . وقد تحكمت هذه الصورة في الأجيال التالية بحيث لم تستطع أن تضيف إليها جديدا مهماً ، سوى ما كان من لون التورية .

ومجمل القول أن صاحب كان عالما من أعلام البلاغة في عصره وبعد عصره ، وحق ما يقوله الثعالبي من أن "كلامه سار مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب" . وهو ليس كلاما مكرورا ، مما نقرؤه عند أصحاب الرسائل الإخوانية ، بل هو في موضوعات من التاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي موضوعات لا يوفق إلى الإجابة فيها ، إلا من أوتي علم صاحب باللغة ، ودرسه للأدب ، وطبعها مدادا ، وملكة قياضة . والله المستعان ؟

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤

وكذلك معجم الأدباء ١٧ / ١٣٦ ، ١٨ / ٩٧

(١) طبقات السبكي ٢٣٠ / ٣ .

(٢) انظر تاريخ الوزراء للصابي ص ٢٧٧ ،

الرسائل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ذَكَرْتُ - أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِكَ - شَدِيدَ حَرِّصِكَ عَلَى تَحْفَظِ بَعْضِ رِسَائِلِ
الصَّاحِبِ كَافِيَ الْكَفَاةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاحْتِيَاجَكَ إِلَى مَنْ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى جَمْعِ
ذَلِكَ مَبُورًا ، مَخْتَارًا الْأَشْفَ فَاَلْأَشْفَ مِنْهُ . فَوَعْدَتِكَ الْقِيَامَ لَكَ بِهِ ، وَجَرَدْتُ لَهُ
عَنَائِي ، وَخَرَجْتُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ دِيْوَانِ رِسَائِلِهِ الْعَشْرِينَ عَشَرَ
رِسَالَاتٍ لِيُخَفَّ حَجْمُ هَذَا الْمَجْمُوعِ وَلَا يَمْتَاَصَ تَحْفَظُهُ . وَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ يَقَعَ
ذَلِكَ مِنْكَ مَوْضِعَ الْوَفَاقِ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْإِرشَادِ .

فالباب الأول	في البشائر والفتوح .
والباب الثاني	في اليهود .
والباب الثالث	في الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير ومراعاة الكنيسة من السنين وما يجري مجراه .
والباب الرابع	في أمر الحجيج والمصالح والتغور .
والباب الخامس	في الاستعطاف وما يجانسه .
والباب السادس	في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين العقوق بين ذوى الأرحام وما يشاكل ذلك .
والباب السابع	في المدح والتعظيم .
والباب الثامن	في الذم وتهجين وما يجري مجراه .
والباب التاسع	في التهناني .
والباب العاشر	في التعازي .
والباب الحادي عشر	في الإخوانيات والمداعبات .
والباب الثاني عشر	في التشكر .
والباب الثالث عشر	في الاستزادة والتقريع .
والباب الرابع عشر	في التنصل والاسترضاء .
والباب الخامس عشر	في الشفاعات .
والباب السادس عشر	في توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة .
والباب السابع عشر	في الأدب والمواعظ .
والباب الثامن عشر	في فصول وغرر ، وتوقيعات ودُرر .
والباب التاسع عشر	في النوادر وهي الكتب النادرة .
والباب العشرون	في الشوارد و [هي] الكتب المختلفة المعاني .

الباب الاول

في البشائر والفتوح

١

كتابنا — أدام الله عزك — من المعسكر بظاهر إستراباذ^(١) ، وقد أنزل الله علينا النصر ، وسهّل لنا بعلوّ جدّ مولانا الملك السيد^(٢) العلوّ والقهر ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله وصحبه أجمعين .

وأحسنُ نعم الله تعالى غُررًا وأوضحًا ، وأبينها فلقًا وصباحًا ، وأولها إذا تُصَفِّحت المواهب أخذًا بحظ السابق ، وأولها إذا تُتَبَّعت المناجح فوزًا بالعز الشاهق ، وأحراها بأن تُثَنِّيَ عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُثَنِّيَ إليها أعناق الحامد والمعالى ، نعمةٌ صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتوحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستدلّت ممتطيّاً للجحود لاهياً عن غَوْرِهِ ، مُسْتَشْرِياً في الغموط عادياً لطوره ، وتلك^(٣) النعمة عند مولانا الملك السيد ، إذ عَضَدَ الدولة ، وتَوَجَّحَ الملة ، وحرس الأمة ، وزحزح الغمّة ، ورفد الخلافة ، وبَسَطَ العدل والرأفة ، وطهر البلاد ، وعَمَّرَ الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدّ الثغور . فشهدت فتوحه بأنه مؤيّدٌ من عند الله ، ومحوط الملك بيد الله ، لا يَنَازِعُ رأيه منازِعٌ إلا تَلَّ لجبينه ، وعوجل بقطع وتينيه . ولا يمانع رأيتُه ممانع إلا غُلَّت يده دون مطلبه ، واقتطع أمدّه عن مهربه . ولم يَعَزَّ بالتحصّن عليه مارق ، والتمنّع دونه مشاقٌّ مفارق ، إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سمحاً فاستُنزل عن معاقله وصياصيه . وعيانُ ذلك لمشاهده ، قبل إقامة شواهده ، حادثٌ ما أجرانا الله عليه في ظله ، وباعتلاق

عضد الدولة .

(٣) في الأصل : فتلك .

(١) إستراباذ : مدينة في شمال فارس وكانت في

العصور الوسطى المدينة الثانية في إقليم جرجان .

(٢) يريد صاحب دائماً في رسائله بالملك السيد

حبله ، في أمر الغامط قابوس^(١) بن وشمكير ، إذ مضى أخوه^(٢) وكان للطاعة عبدا ، ومع أيدي أوليائها يداً ، وهذا الجاحد مغمور في أهله ، مخفور في نفسه وفعله ، يكاد ضمور القدر يخفي شخصه ، وغموض الذكر يتولى غمّصه ، واستجار بنا وهو في قران ذهول ، وضمان خمول ، فظنناه إذا اصططنعناه لمولانا الملك السيد ولنا^(٣) — منتضين له من غمد الامتهان والابتدال ، ومستئين من عادية الامتحان والاختلال — واستخلفناه على بلاد جرجان وطبرستان يشكر النعمة ويرتتها ، ويُدمن الخدمة ويحسنها ، وفرغنا خسيسته ، وجبرنا نقيصته ، وجمعنا له بين التمكن من هذه الأعمال والبقاع ، والإيثار بما فيها من المعامل والقلاع . فحين رأت عيناه ، ما لم يبلغه مناه ، واتسعت نعمته ، بحيث لم تُنله همته — وقد نقلناه إلى رتبة لم يدر أنه راقٍ إلى سماءوتها وأثقلناه بنعمة لم يأمل أن يتعلق بعلاوتها — نفخ الشيطان في سحره ومناخره ، وضرب بالأسداد بين أوائل أمره وأواخره ، وحبّب إليه العناد حتى سيط بلحمه ودمه ، وكرّه إليه الرشاد حتى ألقاه وراء ظهره وتحت قدمه ، وأقبل على الشروط ينقضها ، والمواثيق يرفضها ، والرعية يحتنكها ، والدماء يسفكها ، وسُنن الظلم يحییها ، وسیر العدل يميتها ، والنفوس البريئة يرتتها ثم يغتالها ويُفيتها .

ومولانا الملك السيد في كل ذلك يُؤكّيه صفحة صفحة ، ويوليه العفو من عفوه ، فيتجاوز عنه حلما ، ولا يتجاوز به التنبيه كظما ، ونسلك فيه هذا المذهب ونعتمده ، ونحذره في أثناء الإغضاء ونرشدّه ، رجاء أن ينزع أو يتزع ، أو يُقلع أو يرتدع ، إلى أن عاد بدؤ شره فادحا ، وفتي جهله قارحاً ، فاستبد استبداد المطاع لا الطائع ، والخدم والمتموع لا الخدام التابع واستلان لبس الخازي ومدّ سُجُوفها ، وتلقّب شمس المعالي^(٤) وكان كسوفها ، صنيع من لم يُؤت بسطة في علمه ولا جسمه ، واستولى البؤس على عيشه واسمه . وما غادر مع ذلك من المروق مناطا إلا بلغه ولجج ، ولا بابا من الفسوق إلا قرعه وولج ،

(٣) يريد هنا مؤيد الدولة وكان صاحب وزيره ومشيرو .

(٤) هذا اللقب لقّبه به خليفة بغداد على عادته في تلقيب ملوك الدول الإسلامية التي نشأت في ذلك العصر ألقاباً مختلفة .

(١) أحد ملوك الدولة الزيارية التي تسلطت في طبرستان من عام ٣١٦ إلى عام ٤٧٠ هـ .

(٢) هو بيستون بن وشمكير الذي توفي عام ٣٦٦ هـ ، خلفه أخوه قابوس أميراً على طبرستان ، انظر ابن الأثير طبع أوربا ٥٠٦/٨ .

إلى أن صار السبب في استئلال فلان^(١) ، فدلاّه بغروره ، واستهواه إلى جانب ثبوره ، كأن لا رِقْبَةَ عليه ولا محاسبة ، ولا عصمة بينه وبين الطاعة ولا مناسبة . ولم تُرضه هذه المساوىء التي لا مُساوِيَّ له في ارتكابها ، وقد ملأ حقائقه من اجترامها واحتسابها . فأخرج فلانا إلى جبل^(٢) شيريار ، وبه^(٣) أخونا أبو الحسن علي^(٤) بن كامه مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — من لا يَصْطَلِي المحالفون بناره ، حتى يحرقهم بشراره ، وقد نَسَخَ الجبل^(٥) قرنا بعد قرن ، وأوسع أركانهم وهنا بعد وهن ، فردوا نا كصين على الأعقاب ، متقمصين لباس الخُسْر والتباب .

ثم تصدّع شمل المقيم على العقوق^(٦) ، والمديم للمروق^(٧) ، تصدّعا نتجتة الخيفة والمهابة ، لا الرُّجْعَى والإِنابة . فعلم أن الله قد وكله إلى حول نفسه وخلاه ، وخاف أن ينتقم منه وقد أملاه . وقرر مولانا^(٨) بحضرة سيدنا ومولانا الأمير^(٩) وقتنا وقتنا حال النواحي ومن كنا وليناه ، ودفعه بيد الكفر في صدر ما أوليناه^(١٠) . فكاتبني أمير المؤمنين على ما أشعت من الذكر ، وأشبع من النشر مستكفيا ، وأهاب بي لارتجاع الوديعة من جاحدها مستصغيا . ورأى أن تكون جرجان وطبرستان مضافتين إلى ما نليه حاضر النظر ، ونديره تدير العيان دون الخبر^(١١) . ووافانا من حضرة مولانا^(١٢) أبو حرب زيار^(١٣) بن شهر اكويه مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وعينه فرارُه ، واختاره حيث اختياره ، قد نجدته الحروب ، وخفت عليه الخطوب ، زعيما على من ضامه من خيل ، كقطع الليل ، ورجال ،

- | | |
|---|---|
| (١) يقصد هنا نخر الدولة فقد خرج على أخيه | (٨) يريد مؤيد الدولة . |
| عضد الدولة ، وهاجر إلى قابوس مستنجداً به فقام | (٩) يريد عضد الدولة . |
| وكانت حمايته له سبب هذه الحرب . | (١٠) يريد قابوس . |
| (٢) أحد حصون بلاد الجبل أو الجبال التي كانت | (١١) يشير هنا إلى ما كان من سؤال عضد الدولة |
| تقع جنوب طبرستان . | الخليفة الطائع لله — حين حمى قابوس نخر الدولة — |
| (٣) في الأصل : وبها . | أن يعقد لمؤيد الدولة على أعمال جرجان وطبرستان |
| (٤) أحد قواد الدولة البويهية العظام وقد توفي | فأجابه إلى ذلك ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٥ . |
| عام ٣٧٤ هـ . انظر ابن الأثير ٢٨/٩ . | (١٢) يريد عضد الدولة ، انظر المرجع السابق |
| (٥) هكذا في الأصل ولعلها الجبل وهم سكان | ص ١٥ . |
| جبلان وهو إقليم وراء طبرستان | (١٣) في الأصل : زياد بن اشهر اكويه وهو |
| (٦) يريد نخر الدولة ، انظر ذيل تجارب الأمم | تحريف ، وكان زيار هذا من كبار قواد عضد الدولة |
| نشر آمدروز ص ٢٥ . | ثم ابنه صمصام الدولة . |
| (٧) يريد قابوس بن وشمكير . | |

خلقوا لقطع الآجال ، مقرونا من فلان بالسديد رأيا وروية ، الشهير في مجارى التدبير مشورة ناصعة وبصيرة قوية ، فنهضنا وقد ضمنا الخيل الواردة إلى جيوش ترجف — بعون الله — لها الأرض ، ويستوى بها — والمنة لله — النشر والخفض .

وراسلنا المغرور نناشده حق الصنيعة ، ونبصره فرض الشريعة ، ونعلمه أن هواء الغمط ونيّ ، وفناء النكث فناء وحى ، وأنه — إذا حللنا بعقوته — غرض الخوازم ، وهدف الخواطف^(١) ، وأن أتباعه رجل جراد وافت بها الريح في يوم عاصف . وعادت عنه أجوبة حققت أن الغامط مسوق إلى جزاء أعماله ، مسبوق بقضاء لا مطمع في انحلاله ، إلى أن شافهنا طبرستان وقد طار عنها أخوه^(٢) ، والآخرون ذووه ، واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلاهم نحورهم . فبسطنا بها المعدلة سهولا وجبالا ، وأمضينا^(٣) فيها الإحسان يمينا وشمالا ، وألف الجاحد بإستراذ عديده ، وأرهف حده وحديده ، مستوثقا من مضايقتها ، معمقا لخنادقها ، مقدرا أن الحصون واقية من يطلبه جند الله وحزبه ، وحامية من يدهمه سحق الله وحر به . والمستأمنة منذ أول حطنا بويمة^(٤) ، إلى أن أمضينا في المناجزة العزيمة ، يتقاطرون نافضين أيديهم بالخذلان وزعيمه^(٥) ، آيضين إلى ذمام التوفيق وحريره .

وقد كان المشبور حسب المجاهدة تقع على باب إستراذ المفضى إلى سمت سارية^(٦) ، وهو ضنك على الفارس والراجل ، ضيق على الزارق والنايل ، رجاء أن تتدارك المدافعة ، أو تتماسك الممانعة ، وتأميلا لأن تكون جرجان وراء ظهره ، وباقية مدة مطاولته تحت أمره . وأملنا عنه أعنة الخيول إلى باب إستراذ المواجه لجرجان برأي صائب سافر ، على طريق بكر لم يفتزع بخف ولا حافر ، فبردت أرواح الضلال ، وعلموا أن سعيهم فى وبال وخبال . وشحنّا جرجان بخيل سربناها إليها ، وضممنّاها إلى أبى الوفاء بكتكين الحاجب مولى مؤيد الدولة — أيده الله — ليطنب عليها ، فقد كان أهلها من عسف المارق وخبطه ، فيما ضاعفه عند نهوضنا لمحاصرته وضغطة ، فأرّخى من خناق تلك الرعية ،

(٤) ويمة : بلدة صغيرة كانت فى الجبال بين الرى وطبرستان .
(٥) يقصد بالزعيم قابوس
(٦) إحدى مدن طبرستان .

(١) الخوازم : السيوف ، والخواطف هنا : الرماح
(٢) هو جركاس بن وشمكير ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٧ .
(٣) فى الأصل : وأقصينا .

واستخلصت من أنياب العسف ومخالب الأذية ، وخيمنا فأعدنا الذكري على الفار مع الاقتدار ، وحذرناه العقبي على قرب الدار ، آخذين بإذن الله ، عند مقاتلة البغاة ، ومقاتلة الخوارج العتاة ، فخيل إلى المضعوف أن تركنا التسرع إلى قصده ، استصعاباً للخطب دون حصده ، ناسياً أن الحنف يتاح دفعة فلا يبقى ولا يذر ، والحين يساق ضربة فلا يؤخر ولا يُنظر . ورصد في بعض أيامه لطليعة خفيفة قربت منه فتلقاها بأصحابه جميعاً ، وطمع في أن يركب منها مركباً فظيعاً ، فلم يكتسب بطلب الفرصة ، إلا تجرع الغصة ، ولا من تتبع الغرة ، إلا تدرع الحرّة ، فتحققنا عند ذلك أن تركه في اغتراره ، غلو في تأخيرهِ وإنظاره ، لا سيما وقد بدأ وهو مطلوب ، وتعرض وهو مغلوب ، فصممنا على اللقاء ووجوبه وقد استعدنا من البغي وركوبه ، وزحفنا يوم كذا مستظهرين بعادة الله وعِدته ، معلنين بشعار أمير المؤمنين ودعوته ، ومستنجنين بدولة مولانا الملك السيد وكلته .

وأطاع الغامط أذهب وجهيه^(١) مع الغرة ، وأقضاها بالشقوة المستمرة ، وأقدم على المساورة ، وحض أصحابه على المصابرة ، وخف الأولياء إليهم فخيلت الجبال سائرة ، والبحار ثائرة ، والأسلحة تبص عليهم لمعان الشمس ، وتروع أطباق القلوب قبل إزهاق النفوس ، وشاهد الخاذيل منهم ما أطار العيون عن حجاجها ، وأطاح القلوب من انزعاجها . وشمرت الحرب عن ساقها ، وتنمرت بحمرة أحداقها ، ودارت كأس الموت دهاقا ، وعاد لقاء القرن للقرن عناقا ، فكسرنا المداير بالديلم زرقاً ، وبالفلمان رشقاً ، ومُلك عليهم الخندق^(٢) بعد أن جُعل قتلاهم معابر ، وجرحاهم قناطر ، فما انتصف النهار إلا وقد انتصف الله للحق من الباطل ، وكُنِفنا بالأيد القاهر والنصر الشامل ، واقتسمت الخاذيل الهزيمة بين قتلى أجروا من دمائهم الجداول ، وأسرى استنفدوا الكبول والحبائل . وكان من وجوه المأسورين وأعيانهم ، والمعدودين في جمهور أعضادهم وأركانهم لشكرستان بن لنكرين وفلان وفلان ، فأما من سواهم فلم يتميز بعد مجهولهم عن معروفهم ، لدخول مئتهم في أضعاف ألوفهم . وأفلت المغرور ، في فل الثبور ، مفرداً مزوداً^(٣) ، موحداً مهدوداً . قد عُرف نفسه أوعرفها ،

الرماة ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٦ .

(٣) في الأصل : مزدوداً .

(١) في الأصل : نغنه .

(٢) يشير إلى الخندق الذي حفره قابوس بظاهر

إسترباذ ، وكان قد بنى عليه أبراجاً رتب فيها

وَجُمِعَتْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَسَاوِيهِ الَّتِي اقْتَرَفَهَا ، وَهُوَ مُتَبَوِّعٌ إِلَى أَنْ يَذِيْقَهُ اللَّهُ بِأَسْهٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَذَاقَهُ ، وَيَلْقِيَهُ جَزَاءَ كُفْرِهِ وَقَدْ شَدَّ لَهُ نَظَاقَهُ .

فَأَمَّا مَا مَلَكَهُ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مِنْ مَالٍ وَكَرَاعٍ وَرَقِيقٍ وَسِلَاحٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَفَاءَ مِنْهُ غُنْمًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، مَا سَبَقَ يَدَ الْحَصْرِ وَالْإِحْصَاءِ ، وَقَدْ تَقَدَّمْنَا بِالْمَنْ عَلَى الْأَسْرَى اقْتِدَاءً بِالسَّنَةِ الْمُتَبَوِّعَةِ فِي حَقِّنِ الدِّمَاءِ ، بَعْدَ سَكُونِ الدَّهْمَاءِ ، وَإِثَارِ الْاسْتِبْقَاءِ ، بَعْدَ الْاِقْتِدَارِ وَالْاِسْتِيلَاءِ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَعَزُ الْحَقِّ وَنَاصِرُهُ ، وَمُذِلُّ الْبَاطِلِ وَقَاهِرُهُ ، الْعَدْلُ فَلَا يَلِثُ أَعْمَالُ الْحَسَنِينَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَسْهٍ عَنِ الْقَوْمِ الْجَرْمِينَ ، حَمْدًا يَدِيمُ لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَاءِ الْحِكْمَةِ ، وَمَضَاءِ الْكَلِمَةِ ، وَأَبْهَةِ الْإِمَامَةِ ، وَعَظْمَةِ الزَّعَامَةِ ، وَإِرْثِ الرِّسَالَةِ ، وَعِزِّ الْحِجَّةِ وَالِدَلَالَةِ ، فَالَّذِينَ مَالَهُمْ يُقَرَّنُ بِطَاعَتِهِ نِفَاقٌ ، وَالدُّنْيَا مَا لَمْ تَسْكُنْ مَعَ جَمَاعَتِهِ شَقَاقٌ ، وَأَطَالُ بَقَاءُ مَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ حَارِسًا بَعِزَّتِهِ الْإِسْلَامَ وَحُوزَتَهُ ، وَاقِيَا بَيْسُطَتَهُ وَقَبِضَتَهُ الْإِيمَانَ وَبَيْضَتَهُ ، وَلَا يَنْجِمُ فِي أَوْسَاطِ الْأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا نَاجِمُ فِتْنَةٍ إِلَّا عَاجِلُهُ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ ، وَغَادِرُهُ هَشِيمُ الْمُحْتَظَرِ ، وَأَوْزَعْنِي اللَّهُ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ وَقَدْ أَيْدَنِي وَأَيْدَبَنِي ، وَأَصْلَحَنِي وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيَّ . وَوَقَفَنِي لِأَنْ ائْتَضَتْنِي يَدُ الْخِلَافَةِ صَارِمًا أَذَبَ عَنْ أَنْصَارِ الْمِلَّةِ مُضَيَّتٍ ، وَارْتَضَتْنِي حَاكِمًا أَقْضَى عَلَى كِفَارِ النِّعْمَةِ فَقَضَيْتُ مَفُوضًا فِي كُلِّ حَالٍ إِلَيْهِ عِزُّ ذِكْرِهِ ، وَمَوْقِنَا أَنْ الْقُوَّةَ بِهِ وَالْأَمْرَ أَمْرُهُ .

طَالَعْنَاكَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ — بِهَذَا الْفَتْحِ الزَّاهِرِ ، وَالْفُتُوحِ الْبَاهِرِ ، لَتُوفَّرَ حَقُّكَ مِنَ الْأَنْسِ لَهُ ، وَالشُّكْرُ عَلَيْهِ ، وَتُنْطَقَ أَعْوَادُ الْمَنَابِرِ وَالسَّنَةِ الْمَحَاضِرِ بِهِ ، فَرَأَيْكَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ — فِي إِعْلَامِنَا مَوْقِعَ هَذِهِ الْبُشْرَى لَدَيْكَ ، وَمَا تَوْرَدُهُ مِنَ السَّرُورِ عَلَيْكَ ، وَذَكَرَ مَا نَتَوَقَّعُهُ مِنْ خَبَرِكَ مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٢ — وَلَهُ فِي فَتْحِ قَلْعَةٍ

كِتَابِي ، وَنِعْمَ اللَّهُ عِنْدَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ فِيمَا يَعْلِيهِ مِنْ نَجْمِهِ ، وَيَمْضِيهِ مِنْ حَكْمِهِ ، مُتَوَالِيَةً ، وَكَلِمَتُهُ فِي مَصَارِفِ الزَّمَانِ ، وَأَحْوَالِ السُّلْطَانِ ، عَالِيَةً ، وَأَنَا سَالِمٌ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِعَالِي جَدِّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَوَصَلَتْ كُتُبُ سَيِّدِي مَفْصَحَةٌ مِنْ آثَارِهِ عَمَّا يُطِيبُ النَّشْرَ ، وَيُطِيلُ الْفَخْرَ ،

وعرفت ما يسرته له سعادة الدولة القاهرة ، والعزة الظاهرة ، حتى طهر تلك البلاد عن شوائب الفساد ، وأطلع فيها كواكب السداد ، فصمد له من أمر القلعة التي حسب مودعها أولاده ومستحفظها عتاده^(١) أن حماها لا يرّام ولا يُدرك ، وقاطنها لا يضام ولا يُملك فلما غشاها سيدي هولة الانتقام ، وولّاها جانب الاضطلام ، انحلت بساكنيها^(٢) معاقدها ، وزلزلت عليهم قواعدهم ، فملك قسراً ، وألبسوا ذلاً وقهراً . وتلك عادة الله عند مولانا في أوليائه وأعدائه ، وتابى رايته ومخالفى رأيه ، وعِدته للأمير في الواقفين مع أمره ، والصادقين عن^(٣) رسمه ، والمتمسكين بشعاره ، والمتحسكين بناره ، فلمن أخلص نجيح السعادة وبلوغ المرضاة ، وإدراك الآمال عن كُثْب ، ونيل الأمانى بأقرب طلب ، ولمن داهن الخزي العيم ، والدمار المقيم ، والسعى الذميم ، والعذاب الأليم .

وسيدى سيف الضريبة ، وليث الكتبية ، ما جرده مولانا — أدام الله علاهما — في خطب إلا نفذ وجدّ ، وبرى وقدّ ، ولا أفرداه بأمر إلا أوفى على الذروة والغارب ، وحاز منية الطالب ، وبغية الراغب ، فالحمد لله حمد العارف بمقادير النعم ومحالّها ، ومواقيت الشكر وأحوالها ، حمدا يزيد أبناء الحق ظهوراً ويوسع أشياع الباطل ثبوراً . وعرضت في المجلس العالى ما ورد ، فارتاح مولانا لمودعه ، واهتزّ لتصفّحه ، واستقبل من حمد الله على مننه ما هو رباط عطايه وعقالها ، والداعى إلى أن تتصل موادّها وأمثالها .

والقلعة الأخرى إذا صرّف مولاي أهلها بين خشونة إيعاده ، ولين ميعاده ، وأراهم بريق حسامه ، مشفوعا بهروق إنعامه ، لم يلبثوا أن يسلموها خاشعين ، ويستسلموا لأمره متتابعين ، اللهم إلا أن تكون الشقوة عليهم مكتوبة ، والحتوف مصبوبة ، والمتالف لهم راصدة ، وإليهم قاصدة ، فلمولاي حينئذ استنزال^(٤) عوائد الله عند مولينا ، حتى يسوق إليهم المنايا الحمر ، ويروى منهم الرايات الزرق والصوارم البثر . وسيدى يُضغى إلى ما يورده مولاي حق الإصغاء ويتأمله تأمل مثله من أولى العزائم والآراء ، ويأخذ فيه بأدب الأناة حتى يتدبره ، ويتصور أوله وآخره ، إن شاء الله .

(١) لعله يريد قابوس ، انظر ابن الأثير ٨/٩ .
(٢) في الأصل : لسكنيها .
(٣) في الأصل : مع .
(٤) في الأصل : في استنزال .

هذا ، وقد عرف الله الكافة ممن نهض به فخصه وتنقيره ، أو قعد به عجزه وتقصيره ، أنه — تبارك اسمه — سهل طرائق ذلك ومجاريه ، ورفع قواعده وهبانيه ، بمن انتضى دون الخلافة سيفه فصدق رجاءه ومضاؤه ، وجرد عن الإمامة عزمه فنفذ قضاؤه ، ووقف على حماية الدين خواطره فساعدته الأقدار ، وشغل بالزيادة عن المسلمين عساكره فخير له الاختيار ، وهو مولانا الملك السيد^(١) فما يقصد وعراً إلا آض سهلاً ، ولا يحكم عقداً إلا استعاض حلاً ، ولا ينادى بلفظه مصراً إلا أجاب بالتسليم ، ولا يناجي بفكره صقلاً إلا دان لبأسه العظيم ، ولا يضمر له المداجاة مضمراً إلا خبا جمره ، وتبرم به عمره ، وتقطعت وصائل بقائه ، واتصلت حبال هلكه وفنائه ، فضلا من الله فات روية المرويين^(٢) ، وسبق أخبار الراوين .

وكنت عرفت سيدى حال ابن حمدان^(٣) حين نفته الأرض عن مناكبها ، وضافت عليه من جوانبها ، ونحى اسمه من صحيفة الأحياء ، إلا ما أملى له لاستكمال الشقاء ، وأن الحيرة في مهاربه رمت به إلى الروم ، فلما ظن الشرك يستتر نفسه ، والكفر يستخفى شخصه ، تبعته من سطوة الملك السيد صاعقة خطوب على هؤلاء الأعلاج إيراً^(٤) لمكانها ، وإن رضى بالتذل بين بيعها وصلبانها ، فأخرجوه فريداً حريداً ، وأبعدوه شريداً طريداً ، تملكه الشقوة ويرصده الحمام ، ويزعجه الصبح ويذعره الظلام .

وكان الملك السيد كاتب عرب الشام في اقتناصه ، وإيهام الوجوه دون خلاصه ، فاستقرت أخباره ، واقتفيت آثاره ، وعاجله في البوادي التي تطوح بينها وجوه العرب ، وحشوا إليه رواحل الطاب ، معلنين بشعار الدعوة ، معززين إلى منتهاها ، مستظلين بأكنافها ، موضحين بسياها ، والتقوا فقبكت ريح الإقبال لأولياء الله ، ودبرت ريح الإديار لأعداء الله ، وأخذ ابن حمدان أسيراً ، وخر عقيراً ، ورفع قتيلاً ، وغنمت تنمة ماله ، واضطلمت بقية رجاله ، وصليت جثته إتماماً للعبرة ، وأصدر رأسه على الرسم إلى الحضرة ، فلم يبق لتلك

(١) يريد عضد الدولة .

(٢) في الأصل : الراوين والفعل من الروية روى

(٣) هو أبو تغلب بن حمدان . انظر حربه مع

عضد الدولة في تجارب الأمم لابن مسكويه نشر

آمدروز ٣٨٤/٦ وما بعدها وتاريخ ابن الأثير

٥٠٨/٨ وما بعدها .

(٤) في الأصل : إيواء . وإيراً من أوراً بمعنى

أعلم وأظهر .

العصبة المجاهرة بعداوتها وعدوانها ، المترددة بين كفرها وكفرانها ، من ينتمى إليها بسبب ، أو يضرب فيها بعرق ونسب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة .

ووافق ورود هذه البشرى حضرة مولانا الملك السيد طلوع أخرى جارتها فى رهانها ، وزادت فى علو شأنها ، وذلك أن بنى شيان كان شرُّها استفحل ، وداؤها أعضل ، بعجز من تقدم من الولاة عن رميها بأحجارها ، ومحو آثارها ، وحسم أطماعها ، وقصر أبواعها . فلما عاد الملك السيد إلى مقر غزه من دار الإمامة ، وجوار الخلافة ، جهَّز إليها من مقانب النصر ، وجيوش الكفاية والقهر^(١) ، من يقيهما على مناهج الاستقامة إن لم تسلمها جرائرها ، ويعيدها إلى مدارج السلامة إن لم توبقها كبائرُها ، فأبى الله إلا أن يذيقها وبال ما ارتكبت ، ويُجنِّبها ثمار ما احتقبت . وحسبت ترك المعارف إلى الجاهل يقيها ما أظلمها ، والإيفال فى المسارب والمهارب يحميها ما أقلَّها ، فجَدَّ الأولياء فى طلبها ، وأتاح الله لها قرب الإحاطة بها ، فقسَّم الجمهور منها بين أسرٍ سريع ، وقتل ذريع ، وملكت عليها ذراريتها وأولادها ، وعدتها وعتادها ، وكراعها وسوائمها ، وولدانها وولائدُها ، وطهر الله البلاد من أدناسها ، فتركها عبرة لأضرابها وأجناسها ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين .

فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، ما دام الحمد منطوقا به وملفوظا ، وكان الشكر لازما ومفروضا ، إذ مهد لأُمير المؤمنين الخلافة فعظم دلائلها ، وفخَّم جلائلها ، وظاهر أمارات صحتها وثباتها ، وضاعف سموّ منازلها وعلو رتباتها ، وعضدها من الملك بحافظ عزتها ، وتاج ملتها ، وسائس أجنادها ، ورافع عمادها ، ومذلّ من نكَبَ عن محجَّتها وصدف ، ومال عن قبلتها وانحرف ، وأوزعنى الله أن أشكر هذه المنن التى يقصر عمر الزمان عن إحصائها عدداً ، وحضرها لسانا ويذا ، إنه فعال لما يشاء .

ولما كان ما يتبيهاً من هذه المطالب ، ويُهنأ من هذه المواهب ، مختصا بسيدي للأحوال التى شاركت بين النفوس فى المناح ، والمحاسن والمناجح ، بشرته بهذه الرغائب الجامعة إلى الاستبشار ، اعتبارا بلطائف الله تعالى ، وإلى الابتهاج ، إكبارا لعوارف الله .

٥ — وله جواب ففتح

كتابي — أطل الله بقاء الملك — والأرض مهتزة الأعطاف والمناكب ، ريباً الأطراف والجوانب ، لما يوالى الله تعالى لمولانا الملك من العز الممنوح ، ويظهر لأنصاره من عز الفتوح . ومن أقرب ذلك عهداً ، وأوجبه شكراً وحداً ، ما وردت به البشرى الكبرى ، وتجددت معه النعمى العظمى ، فى افتتاح البصرة أحد العراقيين ، وأشهرها ذكرها فى الخافقين ، حين مُلِكت بجيش الرُّعب ، قبل امتلاكها بأبناء الحرب ، ومَدَكَ الخالفين فيها من الذعر والرهَب ، ما كفى كُلفَةَ اللقاء والطلب ، ووردها أبو الوفاء طاهر بن محمد^(١) — أيدى الله — فى المضمومين إليه من أبناء الدعوة ، وأنشاء القُرْبَةِ والحضرة ، فأفصحوا فيها بشعار الحق ، وخلصوا أحرارها من سمة الرق ، وأماتوا فيها سُنَنَ الجور والاعتساف ، وأحيوا فيها سير العدل والإنصاف .

وقد سَعِدَتْ سَعْدٌ بالطاعة ، وحَصَلَتْ خَصْلَ السابقين إلى عز الجماعة ، وربع على ربيعة من هُجْنَةِ الزَّيغ ما عَفَّتْهُ بِالْإِنَابَةِ والمُتَابَةِ^(٢) ، وتلافته بالتماس العفو وحسن المُتَابَةِ . فإن الموهبة بذلك كادت تجلّ عن لسان الشاكر ، وتعظم عن ذكر الذاكر .
فالحمد لله على حسن^(٣) نظره للأرض برها وبحرها ، سهلها ووعرها ، معلومها ومجهولها ، صعبها وذلولها ، بجمعها إلى خطة مولانا الملك السيد وحوَزَتِهِ ، وتغشيتها بأيده وعزته ، حمدا يُسَعِدُ ما طلعت عليه الشمس وغربت ، بالانطواء فى أثناء سلطانه ، وإضاءة الأرجاء بنور زمانه ، إنه فعّال لما يريد .

وعبد مولانا أَخَصُّ بالخدمة ، وألبس للنعمة من أن يخبر عما تورده هذه الفتوح على نفسه ، وتأتية فى إعلاء منكبهِ وطرفهِ ، ويقوم به من فرض الله — تعالى — على عظيم مننه ، والتحدث على المنابر ، فى الأندية والمحاضر ، بما يجدد الله تعالى من فضله .

(٣) فى الأصل : حسب حسن ، وحسب زائدة لا داعى لها .

(١) أحد قواد عضد الدولة . وانظر فى ورودهِ البصرة تجارب الأمم نشر آمدرود ٦/٣٧٠ .
(٢) فى الأصل : المُتَابَةِ .

٦ - ولله

كتابنا — أدام الله عزك — عن سلامة قد وصل الله أسبابها بالسعادة ، وأجرى فيها على كريم العادة ، والحمد لله رب العالمين . ومواهب الله عند مولانا الملك السيد — وإن كانت فائتة للتعدد ، ضامنة للعز ، سابقة للحصر ، غامرة للشكر ، متجاوزة حدود العرف ، ممتعة على أيدي^(١) الإحصاء والسنة الوصف ، مقبلة بالفتوح المتوالية ، مشتملة على الكلم العالية ، ناظمة أشتات العوائد ، شافعة غر المآثر بزهر الحامد — يحكم تفضل الله فيها باستعلاء نجمه ، واستخراء الزمان لحكمه ، وتطامن الأقدار لرسمه ، واستجابة الأقطار لهمه ، حتى لا يستثنى عند ذكر ممالكه بلد ، ولا يشذ عن احتذاء مراسمه أحد .

إن لكل رغبة تستقبل ، ومنقبة تؤثقل^(٢) ، ومسعاة تستنجح ؛ ومملكة تفتتح ، وراية تذهب قدما ، وروية تنتج غنما ، وداء أعزل الأم السالفة فهان بدولته علاجه ، وطرف أعياء الولاة السابقة فدان لعزته رتاجه ، لحقا^(٣) من الإشاعة والإشادة ، والإفصاح بما جدد الله من كريم العادة ، ليعلم المستعلم^(٤) كما عرف الناظر ، ويوقن البادى كما أيقن الحاضر ، أن الله — تعالى — النافذ أمره ، العزيز نصره ، الجلى صنعه ، الخفى مكره ، قد ذلل لمولانا الملك السيد ولنا فى ظل دولته مصاعب الأمور ، وألف على طاعتها مذاهب الجمهور ، فمن مسعود يسبق إليها فى قران التخيير ، ومن مثبور يحمل عليها فى ضمان التسخير . ذلك بما صرف إليه مولانا الملك السيد عزائم المرتضاة ، وصوارمه المنتضاة ، من حراسة حريم الدين وحياطة حرمته ، وحماية زمامه وشدة عروته ، والقيام لمولانا أمير المؤمنين بإيفاء الخلافة حق الإكبار والتوقير ، والخروج إليها من فرض الإجلال والتعزير^(٥) ، وشرح صدور المخبتين لها بما اعتقدوه وشحذ بصائرهم فيما قصدوه واعتمدوه ، لئلا تميل بهم السبل ، ويختلف عليهم القول والعمل ، واستمالة الناكثين عن لوازمها المكتتبة ، واستتابة الخائدين عن فروضها الموجبة ، بالوعظ إذا أغنى وأقنع ، والإيقاع بمن جمح وامتنع . والله يزيد مولانا الملك السيد ولى النعم المآثر التى قعدت دونها خطرات القلوب ، وعييت بها همات النفوس ، وكذبت

(١) فى الأصل هكذا : ايد .

(٢) فى الأصل : توبل .

(٣) فى الأصل : لحق .

(٤) فى الأصل : المستسلم .

(٥) التعزير : التوقير والتعظيم .

عنها مصارف الآمال ومبالغ العقول ، إنه فعّال لما يشاء .

وقد كنا أعلمناك — عند ذكرنا حال إبراهيم بن المرزبان^(١) في انتقاض غريمته ، واستمرار هزيمته ، واستنقاذ الأجل دَمَاءه من ظبي السيوف وقد شارفته ، وشبا الختوف وقد شافهته ، وذهابه على وجهه فريداً موخّداً ، وطريداً مشرّداً ، لا يعلم أين المفر ، وكيف المفر ، قد احتملته رياح الخيفة ، ومهابة الزانات المطيفة ، واستأمن أتباعه متعرفين الخير في مباعده ، كما تعرّفوا الخسر في مساعدته — أن^(٢) وهسوذان بن محمد قد طالت للدولة العالية مداجاته ، ودامت لأوليائها مماراته ، يوهم ، متى ضُغِط ، طاعةً يُضمّر خلافها ، ويثير ، متى أُهْمِل ، فتنةً يَسْتَدِرُّ أخلافها ، متردداً بين مكائد ينصبها فتقى إليه بتبار ، وتشتمل عليه بدمار ، وتوبقه في خسار ، وتجمع له نكالا إلى صغار . قد غره أن نفس من خنافة وعُدل عن إرهابه ، وإنا عازمون على تحميله أثقال المعاقبة ، وتعريفه آيات سوء العاقبة ، بفضل الله وطوّله ، وظل مولانا الملك السيد وصّوله .

وكان خيّل إليه أن حزنونة المسالك إلى بلده تُتَبَّط الخيول عن استباحة صفحته ، وصعوبة المنافذ إلى مقرّه تستأني الجيوش عن الإناخة بساحته ، ولم يدر أن سعادة مولانا الملك تستخدم الأفضية ، وتعيد الدروب أفضية ، ومناجح سلطانه ترجع الجاهل معارف ، وتثني المناكر معالم ، وعكف على إخراب بلده ، واقتلاع مساكنه بيده ، طمعا في أن تُصَرَف عنه الأعنة ، وتصدف دونه الصفاح والأسنة ، فتبقى تلك البقاع محرمة على الطالبين ، مزورة الوجه عن الخاطبين ، فحاطبنا الولي الصريح والهمي المشيخ ، والوفى النصيح ، أخانا أبا الحسن على بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — في المسير إليه ، والانقضاء في الأولياء المنهضين معه عليه ، وإذاقته وبال ما خَبَب فيه ووخذ ، وقام به وقعد ، مفوضا إلى الله ، فهو المدبّر والمنيل ؛

ما يرى القارئ في تلك الرسالة . ويظهر أن هذه الجيوش كلها كانت بإمرة عضد الدولة لأن المتنبي مدحه بقصيدة طويلة ذكر فيها انتصاراته على وهسوذان ، ومطلع القصيدة (أذاثر يا خيال أم عائد) .

(٢) أطال الصاحب هنا الفاصلة بين أعلم ومفعولها .

(١) إبراهيم بن المرزبان هذا كان أبوه صاحب أذربيجان ، ولما توفي قامت حروب بينه هو وإخوته وبين عمه وهسوذان الذي حاول أن يستولى على قلاع أذربيجان وأن يطرد أولاد أخيه ، وقد حارب إبراهيم فهزمه ، على نحو ما يصف ذلك الصاحب ، ثم لجأ إبراهيم إلى ركن الدولة ، فأمدّه بالجيوش لمحاربة وهسوذان ، وقد تغلبت عليه أخيراً على نحو

والمنتقم والمذيل ، ومعتمداً على راية مولانا الملك السيد ففى الكافلة بافتتاح الأمصار ، وتملك الديار ، وارتفاع الأولوية والأعلام ، وحيازة مزايا الاستظهار والانتقام ، المؤذنة فيمن شرد عن ولائه الأئزم ، وانفرد عن سواده الأعظم ، بتساقط القوى ، وتقاطع العرى ، وتحاذل المنن ، وتهافت الجنن .

وقد كان من أبى نصر المرزبان بن اسماعيل^(١) — أدام الله عزه — ما عرفته إعلانا بشعار الدولة القاهرة والدعوة الظاهرة ، مباينا لجدده وخاله ، ونافضا بهما ليمينه وشماله ، ومستوليا على قلعة شميران^(٢) كما وافقناه عليه ، وأهبنا به إليه ، منتظرا ما نرسم له فيها ، وفى سائر الأمور التى تليها ، فسار أخونا أبو الحسن والأولياء المضمومون إليه بقلوب تستعير الليوت ثباتها ، وصراهم تستخوف المنون شداتها . فما كان إلا أن عرف وهسودان خبر إطلاهم على تلك الديار ، حتى طار كل مطار ، وعاذ بقلعة الكوكبان ، ومنيته ، عظم مناه ، يود لو لم يله أبواه ، وقدّر عند لصيقه^(٣) مدافعة إن لم يحمل بلاء ، ولم يُشمر غناء ، ولديه متنفساً دون معالجة الثبات ، ومفاجأة سوء الانفلات ، فنفضهم سرعان الخيل نفضة أوسعهم ثبورا ، وتركهم هباء منشورا ، وامتلك الطرم^(٤) عليهم بنواحيها ، وضمّ منتشر حواشيها ، وأقيمت فيها الخطبة على سنتها ، وطهرت من ميسم بدعتها . وقد كان من وليها من أهل ذلك البيت صادين عن الدولة العباسية عنادا ، ومظهرين لها شقاقا وإلحادا .

وامتد فلان إلى فناء الكوكبان محاصرا لوهسودان ، وإن كان يسأل ويستميل ، ويخشع ويستقبل ، ويبذل أغرّ بنيه رهينة عنه ، ويحكم فى معقله وسائر ما يراد منه ، ويرقق بذكر سنه وكبرته ، ويخضع فى إقالته سابق عثرته ، وإن قل الإصغاء إليه بمسابقة الحل اعقوده ، ومعالجة النكث لعهوده ، ومبادرة الحث لأيمانه ، ومساوقة الفجور لأقسامه . ولم يبق بمشيئة الله من أمره إلا غبر اهتمام ، وعدة أيام ، إلى أن يُستنزل مستأسرا ، ويقضى عليه الرعب متحسرا .

(١) المتنبي فى القصيدة السابقة فقال :

ما كانت الطرم فى عجاجتها

إلا بعيرا أضله ناشد

يسأل أهل القلاع عن ملك

قد مسخته نعامه شاردا

(١) هو المرزبان بن اسماعيل بن وهسودان

السابق .

(٢) قلعة بأرمينية .

(٣) فى الأصل : لفيقه .

(٤) الطرم ناحية كبيرة فى الجبال ، وقد ذكرها

وولدنا أبو نصر المرزبان^(١) بن إسماعيل باذل في مباينة جدّه غاية طوقه وجِدّه ، ومجتمع مع أخينا أبي الحسن على بن كامّة على ما نحدّ ونمثل ، ومُرخص المهجة في مزيد زُلْفة تتحصّل وقُرْبَة تتأصّل . فالحمد لله محقّ الحقّ بأيّده ، ومُزهق الباطل بكيده ، ومنزل النصر على مستوجبه ، ومُفرغ الخذلان على مستجلبه ، الحاكم بالعز لمن ذبّ عن حَوْزَة دينه ، القاضي بالذل على من استعاض شكّه من يقينه ، حمدا يديم لمولانا أمير المؤمنين اتّساق الأمر ، وعزّ النصر ، وسياسة الأمة ، ووراثه الأئمة ، ويواصل لمولانا الملك السيد ارتفاع الحكمة ، وتظاهر العظمة ، وسموّ الراية ، وعلوّ المكانة والكلمة ، ويوفّقنا لشكر ما أولى ، والقيام بحق ما استرعى وولى ، إنه فعّال لما يريد .

طالعناك — أدام الله تأييدك — نبأ هذا الفتح الجسيم خطرا ، الكريم أثرا ، لتتقدم بإشاعته في الأولياء والرعية ، والتحدث به على المنابر والأندية ، فرأيتك في العمل بذلك ، وإعلامنا أخبارك وحاجاتك ، موفّقاً إن شاء الله .

٧ — وله

النعيم تبدو من مطالع مختلفة الأقدار ، مؤتلفة في جلاء الأبصار ، مفترقة في المواقع والمنازل ، متفقة في إحسان الله الشامل ، لكن أسعدها طوابع ، وأعذبها مشارع ، وأكرمها مناقب ، وأحمدها عواقب ، نعمة تُشرق لها غرّة الخلافة ، وتُطبّق بعوائدها مصالح الكافة ، وتجلو عن عِراض الدين عوارض التبسط ، وتقصر أيدي أولى الغرارة دون التحكم والتسلّط ، وتوافي وقد تقدمتها مواهب ترادفت أرسالا ، وتنصفت جمالا وجلالا ، في فتوح لم يتراخ العهد بين^(٢) بواديها وتواليها ، ولم يتباد الأمر بين أوائلها وثوانيها ، بل مُدَّة^(٣) كل واحد منها بما هو أوفى عددا ، وأعلى مَرَقًى ومصعداً ، إلى أن تحصّلت غاية المبتغى ، وبلغت الغاية القصوى . وتلك نعمة الله عند مولانا الملك السيد فيما نهض له ، وأمر الله مؤدّي إلى مرامه ، ونصر الله منطو على أعلامه من حراسة بيضة الإسلام وحماية حوزته ، والذيادة عن سُدة السرير الأعظم بتوفيق الله وعزته ، واستخلاص بلاد الله وعباد الله من أيدي مضیعة واهنة ، وعواد

(٣) في الأصل : وعد .

(١) في الأصل : أبو نصر بن المرزبان

(٢) في الأصل : من .

وسبعة راهنة ، فلّقاه الله في كل منزل نزله أجل ما حاوله وأمله ، لا يعتاق رأيّه ملتبس ، ولا يعتاص في أحنائه ملتمس .

وكنا طالعناك بما تيسر الملك السيد في فتح أهواز ، إذ حدث الخالفون نفوسهم بالمقارعة وقوارع الأيام تصطلمهم ، وطوالع الحمام تحسّهم وتحترمهم ، إلى أن أجّلت الحرب عن حرب تردد أشياع الباطل في ضلاله ، وتعتزّ حزب الشيطان في أذياله ، فمن بين مأسور ومجرّح ، ومقتول ومطرّح ، وغريق وطافح ، وشريد وطأّح .

وثلثنا بالبشرى ، في فتح البصرة ، وقد استصعبت على وجه الأيام ، واستغلقت على إمام بعد إمام ، فألّان الله للملك السيد قيادها ، ورفع أسدادها ، ومكّن حماة الدعوة منها ، وأزال ميسم ذوى العرّة عنها ، ووافاها — أدام الله سلطانه — فرعاها ، وهى ثغر يُرّاع ، وحاطها وهى سرح يضاع ، وأمات الأحقاد من قبائلها وعشائرها ، وأحيا الصلح والصلاح في باديها وحاضرها ، ووضع الحقّ بذلك الصقع جِرانه ، ووَسّع العدل سكاّنه وجيرانه .

وثلثنا بواسطة في توجه سرعان الخيل المنصورة إليها ، وقد خيم طبقات الخالفين عليها ، فلما نمت إليهم أنباؤهم استفزّتهم بوارق الرعب ، قبل صواعق الطعن والضرب ، فأطاعوا وهلمهم ، وعانوا أجلهم ، وأجفلوا يظاً آخرهم أولهم ، فصاروا ببغداد تأخذ بهم الآراء الفائلة ذات اليمين والشمال ، وتستطير بهم الخطوب الهائلة بأجنحة الشبور والنكاز ، وكانت أمانى الغرور تمثّل لبعضهم ثباتا للمواقفة ، ورجوعا للمكاشفة ، فما كان إلا ريث نهوض الملك السيد عن واسط حتى زلزلت الخفاة أقدامهم ، ونسخ الإحجام إقدامهم ، وأيقنوا أن وعد الله حق فلا دفاع لما أرمه ، ولا امتناع مما شاء وأحكمه ، وصاروا شيعا لا تأتلف لهم كلمة ، وفرقا لا تجمعهم حكمة .

فأما معظم الديلم فلاذوا بجوار الاستئمان وذمته ، وتسرعوا إلى حضرة الملك السيد وخدمته . وأما بختيار فرأى أن لا خلاص ولا مناص ، ولا معاذ ولا ملاذ ، غير حكم الملك السيد وإبقائه ، وعفوه وإغضائه . وكتب يسأل تغمده وإخوته وولده بالصفح عن جرائمهم ، وإغمد الصفاح دون جماجمهم ، ليتوجه إلى الشام معلنا شعار الطاعة ، باذلا

في الخدمة غاية الاستطاعة ، فجرى مولانا على عادته في الرعاية والإرعاء ، والإقالة بعد القدرة والاستيلاء ، فغشاه ظلُّ بُقياه ، وفسح له فيما ابتغاه .

ولما خلت بغداد منه وممن خفَّ معه حدثت العباس^(١) بن فيلسار أحد نبأغ الزمان نفسه بتأليف قوم من شذاذ تلك الأجناد إليه ، والالتجاء إلى طرف يَحْمِي عليه ، وأخذ سمت النهروان ، في طريق ينشعب بين الأهواز وحلوان ، وسبق خبره إلى حضرة الملك ، أدام الله سلطانه ، فرسم لأبي القاسم سعد بن محمد الحاجب ، أيده الله ، التعجل في ثلاثة آلاف من الأتراك والأعراب والأكراد لاقتناصه ، والحجاز بينه وبين خلاصه . وتجاوز ذلك المحين جسر النهروان فقطعه ، مقدراً قطع من ينهض ليتبعه ، فعبر أبو القاسم الحاجب ، أيده الله ، ومن معه في مخاضات ، وعلى عبّارات ، ووقف الخذول ، في هؤلاء الفلول ، للمنازلة ، وكثرهم العسكر المنصور حتى أتى على نفسه ، وأرويت الأرض من دمه ، ودماء من أوثقته حبائش جهله . ومولانا أمير المؤمنين — أدام الله إغرازه وإعلاءه — في كل ذلك مستقر على سرير عزته ، وضارب حجابيه دون بختييار ومن في جملة ، يكتب الملك السيد مسطرة عند إطفاء الفؤاد بحفافي ملكه ، ومجاهرة لما انجلت غمامهم عن رواق عزه ، مُحَرِّجا عليه إن تأخر عن حضرته ، وخارجا إليه من الأمانة في التعجل إلى نصرته ، شاكرًا ما تجشّمه من الأحوال ، وتحمله من الأثقال ، في الوصول إلى بابه مباعة كل مجد وشرف ، ومثابة كل ذى أدب^(٢) وطُرف .

فلما جاز الملك السيد دِيَالِي^(٣) ، وطالما أدالته من مخالفه ، وقضى الله بها على مكاشفيه ، رأى مولانا أمير المؤمنين أن يَقسَم له من الإكرام ، أعظم ما صدر عن خليفة وإمام ، فسار أمير المؤمنين في الماء بكبرياء الإمامة وعظمة الخلافة والزعامة مُبْعِداً في تلقيه ، ووصل الملك السيد إلى عالي مجلسه مستقبلاً بتمهل بشره وتحفّيه . وابتدأ أمير المؤمنين بالإحماذ لمرضى مسعاته ، والإخبار عن موقعه من اعتداده ومرضاته ، وأنه — أدام الله عزه — لم يزل منذ أتاه الله ما أتاه ، واسترعا ما استرعا ، واثقاً بأن الله سيستخلص له قُرْبَه ، وإن تطاولت الأيام بما أحبه ، ليقوم بنشر الدين فيضّمه ، وشعث المؤمنين فيلّمه ، إذ كانت الدولة

(٣) نهر كبير شرق بغداد .

(١) أحد أتباع بختييار .

(٢) في الأصل : أوب .

المهاشمية التي رفع الله عماد الحق بها ، وخفض منار الباطل لها ، لم تزل تعتلّ طوراً وتصح أطواراً ، وتحتلّ مرة وتستقل مراراً ، من حيث أصلها ثابت لا يتزعزع ، وبنائها راسخ لا يتضعع ، فإذا لحقها الالتياث ، وازدحم عليها الأحداث ، بغمز يرتع في أكلاؤها ، وغر يغفل عن شكر آلائها ، أتاح الله لإقرار الأمر في نصابه ، وحفظه على أصحابه ، وليا صفيّاً ، كافياً وفياً ، فلا تلبث أن تعود الدولة على يده غضة العود ؛ معتدلة العمود ، جديدة اللباس ، متينة الأمراس ، فشكر الأمير السيد لله عظيم منه ، وخليفة الله رحيب فضله . وأنبأ عن أن مجرى عزمه ومفضي همه ، كان القيام دون أمير المؤمنين في جمع الكلمة على الطاعة ، وردّ المفترقين إلى الجماعة ، حتى لا يُبقي — بإذن الله — طرفاً مأخوذاً إلا ارتجعه ، ولا حقاً مغلوباً عليه إلا انتزعه ، ويعيد إلى السلطان ما خرق من هيئته ، وإلى الفئ ما أضيع من سنّته ، وإلى الحج ما انتهك من حرمة ، ويدبر الثغور بما يرتق الفتوق مع استفحالها ، ويدمل الجروح مع إعضالها . كل ذلك بعون الله ومشيمته ، وعز أمير المؤمنين وميامن ألويته .

وعاد من حضرة أمير المؤمنين إلى معسكره بظاهر بغداد ، فائتاً من سلف من الأقران ، سابقاً غايات أهل الزمان ، قد سنى الله له فتح الفتوح ، وأفضى إليه بأشرف موهوب ومنوح . وأعلم سكان الأرض من دانٍ وقاص ، ودائنٍ وغاص أن الذي ابتدأه الملك السيد وأجراه ، وأنشأه وأمضاه ، وصل رحيم الدين وشفّع وسائله ، وقوى غارب الإسلام وشدّ كاهله ، وإن ساءت — قبل — ظنون قوم آخرين ، وعرفوا نبأه بعد حين .

والحمد لله رب العالمين ، قول العارف بفضل هذه العوارف ، على ماخول فأجزل ، وسهل فعجل ، ووهب فقرّب ، ووفرّ فيسر ، مؤيّد أوليائه بالظهور والغلب ، متوعّد^(١) أعدائه بسوء المآب والمنقلب ، حمداً يقضى لأمر المؤمنين بما قضى به لأبائهم الراشدين — صلوات الله عليهم أجمعين — من النصر المبين ، والكيد المتين ، وإعزاز الأنجاد والأنصار ، وإذلال ذوى العناد على اختلاف الديار والأمصار . ويهنيء الملك السيد ما أتاه من صنّع لم تره النواظر قبله ، ولم ترو الألسنة مثله ، فما يسدّ سهام اقتراحه إلى مرام فيخشى اعتياضه ، ولا يشهر

(١) في الأصل : متوحد .

حُسام اجتياحه على مرام فيرجي^(١) خلاصه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

طالعناك بهذا الفتح الممدودة أظلمته ، المسعوده أهلتته ، المرفوعة ألويته ، المعمورة أنديته ، لتصدع به على المنابر ، وتشيع نبأه بين الرعايا والعساكر ، فيعلم الحاضر والبادي ، ويوقن الموالي والمعادي ، بأن الله متكفل بهذه الدولة الثابتة البنيان ، الواضحة البرهان ، وإن أملى لأعدائها إلى مدة ، واستدرجهم بعد أنفاس ممتدة ، فرأيتك .

٨ — الفتح الأكبر بمرجان الواقع بين الخراسانية^(٢)

للنعم — أدام الله عزك — من الشكر قيم ، وللمنح من الحمد قسم ، فأغلاها قيمة ، وأعلاها غنيمة ، وأجزلها حظا وقسا ، أثبتتها في صحيفة الجدر سما ، وهي وإن تكافأت طورا وتفاضلت أطوارا ، وتقاربت مرة وتباعدت مرارا ، فمنها فرائد يدخرها الله لأفراد ، ويؤخرها لميقات وميعاد ، حتى إذا حان حينها ، وقدر لها كفوها وأمينها ، سيقت إليه لأمدها المضروب ، ورهنت لديه على سننها المطلوب ، فعدت كريمة الدهر ، واعتدت يتيمة الفخر ، وأضاءت شمساً طلعت بمناجح الأئمة الأبرار ، وسطعت بمصالح الأمة الأخيار ، وألبست شيع الحق عزاً تضيفو أعطافه وذبوله ، وتبدو غراره وحجوله ، ويطنب شرقا وغربا شعاعه ، ويمتد غورا ونجدا ذراعه ، ودرعت أتباع الباطل ذلا يحتم بالعقاب ، ووهنا يحتم^(٣) على الرقاب ، ووهيا ينهك القوى والقدر ، وضعفا يملك السمع والبصر ، فلا يغني عن الضالين التأذر وإن كثروا ، ولا التظاهر وإن أمروا ، كواهب الله التي سوغ مولانا الملك شاهنشاه عضد الدولة وتاج الملة جلائلها ، وقسم لنا فضائلها ، وحازله خصائصها ، ورهن عندنا نفائسها ، وجعل إليه مآلها ومرجعها ، ووسع بنا مرادها ومنتجعها ، وأفاض على دولته عزها وفخرها ، وفوض إلينا عقدتها وأمرها . ذاك بما عَضَد من دولة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وأيدنا ، وأسس وشيّدنا ، ومثل واقفينا ، وسبق وصلينا ، حتى ضرب الدين بجرانه ، وانبعث الحق بعد حرانه ، واستوسق الملك على نظامه ، وأرخت المحاسن

(٣) في الأصل : يحتم .

(١) في الأصل : يرجى .

(٢) كذا في الأصل !

بأيامه ، وسكنت دهاء الأمة وكانت مضطربة ، وخمدت نيران الفتنة وكانت ملتبهة ، وعُرف المعروف وكان منكوراً ، وقهر الإنصاف وكان مقهوراً ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقد علم من كُشِفَ عن سمعه ، و بَغَطَّ على لبه ، و فُتِحَ عن بصره ، ولم يُخْتَمَ على قلبه ، ما جرت عليه الحال بيننا أهل البيت وبين ولاية خراسان قرناً بعد قرن ، وقرناً بعد قران ، ندعوهم إلى طاعة خلفاء الله في أرضه ، ونأخذهم بما كتب الله لهم ^(١) في لوازم فرضه . هذا وقد كانت خراسان دارالهجرة العباسية ، وأهلها شيعة الدولة الهاشمية ، إلى أن بدَّلَ من ولايتهم من دَرَجَ أشنع المذارج ، ورتع مرتع الخوارج ، وغبردهراً يخطب للأموات على المنابر جراءة على الدين . ويحمد للمطيع لله — صلوات الله عليه — إمرة المؤمنين ، والحرب بيننا وبينه ^(٢) قائمة ، وآفاق الصلح مظلمة قائمة ، يجهز جيوشه إلينا فيُهْزَمَ ، ويسرَّب خيوله فتحطم ، ويحشد جموعه فتفرق كل مفرِّق ، ويحشر جنوده فتمزق كل ممزق ، قد فُضَّ أحمد ^(٣) بن محمد بن المحتاج دفعات بذبتنا عن الرايات السود . وفُلَّ ابن قراتكين ^(٤) عن ثبات بدفعنا عن رواق الخلافة الممدود ، ورد ابن عبد الرزاق ^(٥) هزيمًا كسيراً . وأوثق ابن ما كان ^(٦) هشيماً أسيراً . فلم يبق من أصحاب جيوشهم إلا من وسمناه بميسم الانفلال ، وشهرناه في موسم الضلال . فمنهم من لجأ إلى طاعتنا فعاش حميداً ، ومضى سعيداً ، ومنهم من شَرَدَ عن جماعتنا فأنظرَ غَوِيًّا ، وقُبِضَ شَقِيًّا ؛ إلى أن علموا أن القراع لا ينتج إلا قرع صفاتهم ، والنزاع لا يثمر إلا نزع شباتهم ، فبخعوا بالخطبة للمطيع لله — رحمة الله عليه ورضوانه — على أيدينا التي عودها الله البسطة ، وحرس بها الإمام والأمة ، واستعدنا إليهم ثوب الطاعة وقد حُرِّبوه ، وتنجزنا لهم العهد على تلك البلاد وقد حرموه ، فبقوا على هذه الجملة زماناً وعادات الفساد ، تنزى بهم دون

الخراسانية عام ٣٣٤ هـ ، انظر ابن الأثير ٣٤٦/٨ .

(٥) هو محمد بن عبد الرزاق صاحب طوس

وأعمالها . انظر ابن الأثير ٣٥٣/٨ .

(٦) كان مقدم الجيوش الخراسانية عام ٣٤٤ هـ

واشتبك مع ابن العميد في حرب أخذ فيها أسيراً .

انظر ابن الأثير ٣٨٣/٨ .

(١) في الأصل : له .

(٢) في الأصل : بينهم .

(٣) أحد قواد خراسان وقد تولى قيادة الجيوش

الخراسانية كلها عام ٣٢٧ هـ . انظر ابن الأثير

٢٦٧/٨ .

(٤) أحد قواد خراسان أيضاً ، وقد ولى على الجيوش

استعمال الرشاد ، ووشمكير بن زيار^(١) يدب لإغوائهم ديب الخمر ، ويعرض نعم الله عندهم لصوائب القدر ، فهمثوا بالمعاودة ، واهتموا بالمعانة ، وطالبوا أبا الحسن محمد بن إبراهيم ابن سيمجور^(٢) — أيدته الله — بالمسير والاجتماع في منازعتنا مع الضال وشمكير ، فسارت تلك الجنود والتخاذل دأبها ، وبلغت الدامغان^(٣) والتواكل ينتابها ، فلم يرعها إلا خذلان نزل بوشمكير ، فجعله فرية الخنازير ، وكشف لذوى البصائر عن سريرة المقادير ، فاعتبر معتبر ، وانزجر منزجر .

وتراجعت تلك الخيول إلى نيسابور^(٤) ، فلم تشجع الخرسانية من بعد ذكر المنازلة ، ولم يخطر ببالها ذكر المقاتلة ، وأخذوا يعرضون بطلب الصلح فنعرض امتحانا لعقائدهم ، وابتلاء لمغازيهم ومقاصدهم ، إلى أن صرّحوا بعد التعريض ، وصحّحوا بعد التمريض . فجنحنا للسلم حين جنحوا لها إذ كان ذلك أدبا من آداب الله ، وأمرنا نصّا في كتاب الله ، ومميتاً للضغائن والإحزن ، ومزيلاً للحوادث والفتن ، ومفرّغاً لتسديد الثغور عن ذوى الشرك والإلحاد ، وموفراً على عمارة الحج وسبيل الجهاد . وأكّدت العقود ، وأخذت العهود ، وكتبت الشروط وأشهدت الشهود ، وآتى كلّ صاحبه موثقاً من عند الله ، وحلفاً مقروناً بعهد الله ، وجعل ما أمضى من ذلك مشروطاً على التأيد لا يتعقب وفاقه بخلاف ، ومقصوداً بالتخليد يرثه الأقباب عن الأسلاف . فلم يمض ماضيهم لسبيله ، حتى أخذ خلف السوء في تبديله ، بخرق لأوصال الوفاء قطاع ، وعرق إلى الضلالة السوء نزاع ، وبمشورة أحداث لم تعرّكهم الدربة عرا كها ، ولم تعلّقهم الحنكة أشرا كها ، كأن لم يعلموا أن من سلف من سلفهم لم يرجعوا للمصافحة ، إلا وقد عيئوا بالمكاحفة ، ولم يجنحوا للمسالمة إلا وقد عجزوا عن المقاومة ، ولم يركزوا الرماح إلا لأنفذ منها مسارب ، ولم يغمدوا الصفاح إلا لأحد منها مضارب .

وكان من فواتح ما أنكرناه أن أرجأوا الخطبة لأمر المؤمنين الطائع لله^(٥) بعد وقوع

(١) وشمكير : هو صاحب طبرستان وهو والد قابوس ، وتوفي عام ٣٥٦ هـ .

(٢) صاحب جيوش خراسان حينئذ وقد سيره الأمير منصور بن نوح لمساعدة وشمكير ضد ركن الدولة البويهى . انظر ابن الأثير ٤٢٧/٨ .

(٣) بلدة كبيرة بين الرى ونيسابور .

(٤) مدينة كبيرة في أول إقليم خراسان

(٥) هو الخليفة بعد الطمع ، وتولى الخلافة عام ٣٦٣ هـ .

البيعة وتسليم الأمة ، وإصفاق الكافة ، واستقرار سبيل الخلافة ، على عاداتهم الأولى في جَحد الإمام الخي واجب حكمه ، وعقد الجمعة بشعار الميث واسمه ، إلى أن نبهناهم من رقدة الإغفال ، وحلّانهم^(١) عن مشاريع الإهمال ، وشجّنت خراسان بالدعوة ، ومددنا حلم أمير المؤمنين على هذه الهفوة ، وسعينا لهم في تجديد الولاية ، وأكرمناهم بتنجز التشريف وعقد الراية . وجدّدوا على نفوسهم الميثاق لنا على الإخلاص ، وأظهروا الرغبة في إعادة الصّهر دلالة على الاختصاص .

وكان من قواعد الصلح وأحكامه أن لا يُقبَل في جهة من الجهتين أباقُ العساكر ، ولا يُمهّد في جنبَةٍ من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحمّى على من عصَى فشرد ، وشقّ العصا وانفرد ، واعترض — في أثناء هذه الأحوال — أن المخدول قابوس بن وشمكير كشف عن العناد وسفر ، وجحد نِعْمنا عليه وكفر ، فخيب ظنّه وعجّل تكذيبه ، وحسّم داؤه ويسّر له طبيبه . وقد كان من قبل راسل الخرسانية يرؤز ما لديهم في بابه ، ويدلّهم على ما كمن في نصابه ، فشحدوا بصيرته في الخلاف ، ووعدوهم بالثبوتة والاكتناف ، حتى إذا زحزحناه عما أمّل وارتقب ، وطوّحناه جزاء عما احتقب وارتكب ، لجأ إليهم فمهدوا له في جوارهم ، ودلّوه بغرورهم واغترارهم . وقد كان العاق^(٢) رديفَه في الغواية ، وزميله في سوء الهداية ، فراسلهم كرسالته ، وقد ضلّ في مخالفتنا كضلالته ، فحرصوا على قبوله حرصا جليّ عن مدفون ضمائرهم ، وأبدى عن مكنون سرائرهم ، وأوضح أن مرادهم التآليب علينا والتآلب ، والتثريب والتحزب ، وأقبل الأغمار المستولون على صاحب بخارى يحسبون ببصارهم العليّة ، ويرون بأبصارهم الكليّة ، أن أبا الحسن بن سيمجور^(٣) — أيده الله — حجابٌ بيننا وبينهم مشدّد ، وحجاز مستطيل ممتدّد ، وأنه لو قد أزيل عن مقرّه ، لاستمرّ تدبيرهم علينا في ممرّه . غير عالمين بأن ذلك الشيخ هو الذي قد ارتضع أفلاويق الزمان ، وحلب أخلاف الليالي والأيام ، وعرف ما أتانا الله من قوة وإقران ، وعدّة وإمكان ، وبنود

الدولة . وتذكر كتب التاريخ أنه عزل عن قيادة جيوش خراسان وولى مكانه أبو العباس تاش . انظر ابن الأثير ٧/٩ .

(١) في الأصل هكذا : وطدناهم .

(٢) هو غر الدولة كما سبق بيانه .

(٣) يظهر من كلام صاحب هنا أن ابن سيمجور لم يكن من رأيهِ مؤازرة قابوس وحرب عضد

مرفوعة للنصر ، وجنود كعدد القطر ، وأموال ككثبان الرمال ، وذخائر أملاء الهمم والآمال ، وعزائم تُطَبِّعُ السيوفُ على غرارها ويُتَّبَعُ ما تَنْهَجُ^(١) من آثارها . وطفق يَخْصِفُ عليهم من ورق الصيانة ، لئلا تنكشف عَوْرَاتُ قصورهم ، وتبرَّجَ هناتُ أمورهم . لا جرم أنهم قرفوه بالمداينة ، وصرفوه عن رتبته الراهنة . مقدرين أنهم يرفعون منه سِدَاداً ، وإنما عدموا به سِدَاداً ، وظانين أنهم يدفعون بعزله شراً مرصوداً ، وإنما هتكوا عن عجزهم سِتْراً ممدوداً . واعتمدوا لجيشهم تاش^(٢) يستبدلون من الطيب خبيثاً ، ورفدوه بفائق^(٣) يستعوضون من التذكير تأنيثاً . واستنفدوا قواهم فيما جمعوا من الأموال ، وبلغوا مداهم فيمن لقوا من الرجال ، حتى أناخوا على بضائع التجار وأهل الصناعات يَجْبُونُهَا غَضَباً ، وعلى وقوف المساجد والرباطات يتناولونها نهبا ، وعطلوا الثغور باستجاشة من فيها من الحماة ، وسلطوا مجاوريهم من المشركين بمن صرفوا عن وجوههم من الكُفَّةِ . كل ذلك للطمع أن يشفوا من البغي علينا غليلا ، ويشتروا بعهد الله ثمنا قليلا .

وحصل تاش بنيسابور وقد سبقه فائق ، واستعجل نحوها العاق وقد وردها الخذول المارق . فلم ندع أن أصدرنا إلى زعيمهم رسلنا مذكرين بالعهد المبدول ، وميثاق العقد الموصول ، ومحذرين من عاقبة الناكثين ، وما كتب الله من العقاب للناكثين ، ومطالبين برد الآبقين ، على أمان لهما تتبرع ببذله ، وصفح عنهما نأخذ بفضله . فأصرَّ هو ومدبروه على الامتناع ، وعوّلوا على الدفاع ، وأخذوا يشفعون شفاعة التحكم ، ويشفعونها بالتوعد والتجزم ، يحسبون استثناءنا لهم فكراً في حشرهم وحشدهم ، واحتفالاً بجدهم وجندهم . وزاد رفقنا بهم في إغوائهم وإغرائهم ، ووكد مرائر اجترائهم واستشرائهم . وأخذ الخذول قابوس يوههم من نفسه وبقية خيله أمورا ، وملاً مسامعهم بهتاناً وزورا ، ماضياً على شاكلة أبيه في التلبيس عليهم والتمويه ، فيخيل لهم رَفَرَفَ الباطل حقاً ، ويمثل عندهم زخرف القول صدقا . وبدأ العاق يوسوس إنهم بأن موقعه — كان — من هذا البيت يُميل إليه الأعناق متى وقع إكْثاب ، ويعطف عليه الأجناد متى اتفق اقتراب ، ويرِيهم سوء التبصر ما يَأْفِكُ به يقينا ،

(١) في الأصل : يهيج .
وفائق خصي من موالى نوح بن نصر ومن قواد
الحراسانية العظام

(٢) صاحب الجيوش الحراسانية بعد ابن سيمجور

(٣) في الأصل : تفاريق وهو تحريف واضح ،

وما يتنفق بإيراده برهاناً مبيناً . فجلسوا الرسل طغياناً لم يعهد في جاهلية ولا إسلام ، وضيّقوا عليهم المطعم والمشرّب اتضاع همهم وضعف اهتمامهم ، ومنعواهم عن إقامة الصلوات ، ودفعواهم عن الجمع والجماعات ، وفيهم فقهاء أعلام وقضاة تكون بحضرة أمير المؤمنين من دار السلام ، صنيع من لا حياء له يردعه ، ولا دين يهجن له القبيح ويَزَعُه .

وخفّ الخصى^(١) والخذول على طريق نسا^(٢) يتقارضان أكاذيب الأمانى وهى زاد المائى وتعلّة الجاهل ، وامتد التركى^(٣) والعاق على سمت قومس^(٤) يتفاوضان تحديث النفس بالباطل ، حتى إذا عرفوا أن اجتماعهم لدينا كافراقهم ، واختلافهم فى الطرق والعزائم كاتفاقهم ، خشوا أن نبده^(٥) إحدى الطائفتين بانتساف ، ونعجلّ عليها باختطاف : فأذنت الخافّة بينهم المسافة ، إلى أن صاروا يداً واحدة وقد كتب الله بقصرها ، وحرّم على الأقدار تولى نصرها ، وجدّوا فى المسير قبالة جرجان والإقبال عنهم ممتاز منصرف ، والتوفيق دونهم منحاز منحرف .

وقد كنا استخرنا الله — تعالى — فى البروز^(٦) بمعسكرنا المنصور إلى ظاهر جرجان على سمت خراسان مفوّضين إليه ، معوّلين عليه ، راجين ما لديه ، عالمين أن الفلج بيديه ، مولين البغى من تولاه ، والنكت من اختاره واصطفاه ، وقرب المخاذيل فكففنا عنهم إلى أن بدأوا بالقتال ، وحسن لهم الطغيان نخوة الصيال ، وقد كان طردهم بل حصدهم ممكنا — بعون الله — من^(٧) أول لقائهم لولا إيثارنا البقيا فى إهمالهم وإهمائهم^(٨) ، وتقديرنا أنهم إذا مارسوا الحرب فوقذتهم بنارها ، وأقذتهم بعوارها ، وعرفوا ما بين المطوّع له فى أمره ، والمطبوع على قلبه وصدره ، تلافوا أحوالهم ، فلم تُرَقْ دماؤهم هدرًا ، ولم تُفرّق أشلاؤهم جزرًا ، ولم تذهب أموالهم هملاً ، ولم ترجع أملاكهم نفلاً .

واختلف بيننا وبينهم اثنتا عشرة حرباً ، ما انصرفوا عن واحدة منها إلا وقد استحرّ الجرح فى صناديدهم ، وانتقص القرخ من عديدهم ، وغرّضت القيود بأسراهم ، واستعفت

(١) الخصى هو فائق . انظر ابن الأثير

١٠٥/٩ .

(٢) مدينة بخراسان .

(٣) هو أبو العباس تاش .

(٤) كورة عظيمة قصبها الدامغان .

(٥) فى الأصل هكذا : سده بدون نقط .

(٦) فى الأصل : البروز إلى معسكرنا المنصور

بظاهر جرجان . وأصلحناها بما يقتضيه السياق .

(٧) فى الأصل : عن .

(٨) إمهاء : من أمهى الفرس إذا أرخى له من عنانه .

اللعن من قتلاهم ، حتى بلغ عدد من قتل قبل الواقعة الأخيرة ، والصّدمة المبيرة ، ثلاثة آلاف ، قد باء جالبها بأثامها ، وتطوّق الأوزار في أراملها وأيتامها ، إذ ساقهم ليظفئوا نور الله بأفواههم ، ولم يعلموا أن الله يكبّهم قبل ذلك لجباهم . فأما المستأمنة فجاءت كالقطة أرسلها ، وفارقت حرّم الإِدبار مجاهرة وانسلالا . فلم يزد المدابير على الأيام ، إلا إصراراً على الآثام ، ولم ينقادوا للغير اغتراراً بظنون كالأحلام ، إلى أن ناشدنا ما عهد الله إلى الولاة ، في حَسْم أدواء البغاة ، وفَرَض على الرعاة ، في إبادة خَضراء العُتاة .

وكانت لهم يومنا — وهو يوم الأرباء لثمان بقين من ذى القعدة — حركة إلى المعركة ترجّحوا فيها بين تقديم للأقدام وتأخير ، وتعجيل للإقدام وتعذير . مقدرين أنا نجري على العادة في إرجائهم وتركهم يعودون من ورائهم ، فجرّدنا استخارة الله في صدق الحملة ، وتصييرها واحدة الدولة والملة . وأهبنا بالأولياء أسود الدّولف وضراغمه ، ونُسُور الختوف وقشاعمه ، فزحفوا إلى أعداء الله الفجرة ، وأكثروا من شعار المجاهدين البررة . وثاروا فخيّلت الأرض مأجّة ، والبحار هائجة ، والنجوم منكدرة ، والسماء منفطرة ، وصار الفارس أقرب إلى الفارس من ظله ، والسيف أدنى إلى الوريد من حبله ، وتواصلت^(١) الضربات بين زرق بالزانات ، لا يعرف الإحكام انفصامها^(٢) ، وأخذت الرماح تطير شررها ، والنفوس تفارق قصّرها^(٣) ، وثملت الزّويينات^(٤) من الدماء ، فتعثرت في النحور ، وتكسّرت في القلوب والصدور . وعان أعداء الله هول المطلع ، فولوا الأدبار ، وطاروا كل مطار ، وتبعهم الأولياء يفيضون الصوارم على الترائك^(٥) ، فيضّ الصباح على النجوم الشوابك . والخواذيل يتطايرون عن القنا جفاءً ، ويطيحون عن الظّبي هباءً ، ولو عرجوا بمعسكرهم لحمة طارف ، أو وقفوا على ذخائرهم خلصة خائف ، لما تخلص منهم صافر ولا صائت ، ولا نجا منهم ناطق كما لم ينبج صامت .

وكيف لهم بالثبات ، وقد ملّك عليهم حتى فيلهم العظيم الذي توارثه آل سامان ، وهوّّلوا به في الحروب زماناً بعد زمان . وقد ركب سرعان الخيل أقفاءهم ، يشلونهم إلى نيسابور

(١) في الأصل : تواصلت .

(٢) في الأصل : انفصامها .

(٣) القصّر : أصل العنق .

(٤) الزويين : فارسية وهي حربة قصيرة

(٥) في الأصل : الترابك . والترائك جمع تريك

وهي بيضة الرأس .

شلّ النعام ، ويسلبونهم أرواحهم بأيدي الحمام ، ليوقن هؤلاء الأعداء ، أن الأطواد الشم لا تطال بالنجاف ، والجبال الرُعن لا تزال بحصّبات المقداف ^(١) .

فالحمد لله المانّ على خلقه بما لا تناله الآمال كرماً ، ولا تُقلّه الجبال عظماً ، القاسم لذوى طاعته مالا مُنيّة بلغت ، ولا طليبة أنتجعت ، كما أعدّ لهم ^(٢) مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، الراصد لمقارفي معصيته بطلل من الخذلان ترهق وتغسف ، وترهق وتكسف ، وتوبق وتنسف ، وتوثق وتخسف ، كما توعدهم ^(٣) بعذاب الخلود ، حمداً يكون كفاء ما هيباً فقرّب ، وهناً فأطلب . وإليه تُرفع الرغبة الصادقة ، وتقدّم المسألة السابقة ، في الصلاة على النبي ، الهادي المهدي ، أفضل من دعا إلى ربه صادعاً بالأمر ، ونصح خلقه قاطعاً للعذر ، وعلى آله الذين عظّمهم توقيراً ، وطهّرهم تطهيراً ، وإطالة بقاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ساداً مسدّ آبائه الطاهرين ، في شعث يلمّسه ، ونشر يضمّه ، وواه يشده ، وثلم يسدّه ، ليقدح زناد الخيرات بمناره المرفوع ، ويستنزل عهاد البركات بشعاره المتبوع ، وإدامة أيام الملك شاهنشاه السيد ساطع الأدلة ، مشرق الأهلة ، ممدود الأظلة ، عاضداً للدولة ، متوجاً للملة ، ويوفقنا لحق ما استكفناه من حفظ عراض الحوزة وأطرافها ، واستدلال من أخذته العزة في خلافها ، لنحوط الملك من جوانبه وأرجائه ، وندأب في الله دعوب من رضى من أمّنا . ثم الحمد لله حمداً مجدّداً ، باقياً مؤبّداً ، على ما لئن من أخادع هذا الخطب ، وسوغنا من واسع النصر في هذه الحرب ، بعد أن ساءت ظنون ، وزاغت قلوب وعيون ، وحسب كثير أن قد غمّسنا اليد في خُطة صعبٍ مرّامها ، دَخَضَ مَقَامُهَا ، فحقّق الله الأمل بطوّله ، والاستعانة بقوته وحوله . فأصبحنا وقد شهد العدو مضطراً خاشعاً ، شهادة الولي مختاراً طائعاً ، أن لله لسان هداية يُلقى على عزائمنا الصواب محضاً ، ويُفضى بمصارفنا إلى المراد غصاً ، حمداً ترفعه الملائكة المقرّبون ، ودعاء يؤمّن عليه الكرام الكاتبون .

حدّثناك — أدام الله عزك — بنعمة الله وإن كُبرت عن بيان المُخبر ، ولسان المُبشّر ، وإطنباب الكاتب ، وإسهاب الخطاب ، وكانت واسطة في قلائد الدهور ، وجامعة لفوائد

الجمهور ، لتعلم أن الله صادقٌ مَوْعِدُهُ ، محيطٌ بالناسِ كثيرين مَرَّصَدُهُ ، فَأَشِيعُ نبأ ما طالعناك به حقَّ الإشاعة ، وليُقرأ على المنابر لتساهم الرعيةُ أولياء الطاعة ، واكتب بذكره إلى النواحي والأطراف ، وأعلن بنشره في النواحي والأكناف ، وأعلمنا موقعه منك ومن الكافة وإن كان معلوماً ، وأبدي الشكر وأَعِدَّهُ إنه كان فرضاً محتوماً ، إن شاء الله .

٩ — نسخة الخطاب بإسقاط مال الإرساد

وكان كتبها عند هذا الفتح ليمينه^(١)

إن الله — عز اسمه — قد فرض عند كل طارئ من النعم ، وطارف من المنن ، شكراً يُتَلَقَّى به إفضاله فيستحفظ معتاده ، وحماً يقابل به إحسانه فيستجلب مَزْدَادُهُ . وليس الشكر بمقصودٍ على اللسان دون العقد ولا على القول دون الفعل بل الواجب أن تتكافأ فيه نتائج الألسنة وضمائر القلوب وتوصل له مواقف الثناء بالتقرب المقبول ويُجْعَلَ من أمارات المعرفة بحق ما سَوَّغَ الله فرهَن ، وأسبغ فأحسن ، تقديمُ الأعظم فالأعظم مصلحة بين الناس ، والأحسم فالأحسم مَفْسَدَةٌ عن العام والخاص ، ليشمل الجمهور عائدة ما يتوخى ويقصد ، وينظم التابع والمتبوع بركة ما يتحرَّى ويعتمد ، ومن عند الله التوفيق . إنه خير من هدى وأسعد ، بالإرشاد إلى الحسنى لا معقب لحكمه ، ولا خير إلا بإرادته وإذنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

ولئن كانت مواهب الله — عز اسمه — لدينا تقوت حصر المحصين ، وتجاوز ذكر المستقصين ، ومناخه عندنا تحوز غايات التأمل ، وتقوز بحسنات التخويل ، فكنا^(٢) لشكر ذلك مديعين ، وبالحمد عنه مغمورين مرتين ، لا نخلو من الاعتراف بالقصور عما يلزم منه ، ولا نَعْرِى من استدفاع عوارض التقصير عنه . إن ما قسم لنا — تعالى — آثراً من هذا الفتح العظيم ، والسنن الكريم ، والشجح القريب ، والنصر المستجيب ، وسهل من استدلال المخالفين ، وردهم أسفل سافلين ، ومقابلتهم عن البغي ارتكبهوا بالخسار دُرْعَوْهُ ، ومكافأتهم عن النكث احتقبوه بالصغار قنْعَوْهُ ، فَرَضُ^(٣) ما يستقل بنفسه ، ويُطالَب

(١) في الأصل : ليمينها .

(٢) في الأصل : افرض .

(٣) في الأصل : لكنا

في يومه بما قد نُذِر في أمسه ، والله تعالى أسأل أن يرشدنا لمصالح الأعمال ، ومناجح الأفعال ،
ويثبت عزائمنا على الخير نصل مرأثره بعُراه ، والعدل بنسبته فيمن نسوسه ونرعاه ، إنه
رءوف رحيم .

وحين روَّأنا في القُرب التي رأينا تجديدها ، والزلف التي نذرنا تمهيدها ، وجدنا
من أوْلاها بالاهتمام ، وأجراها مع العدل في الأحكام ، إزالة رسوم الإِرصاد بأصهبان قديمها
وحديثها ، عتيقها وجديدها ، أصولها وفروعها ، كثيرها وقليلها ، والإعفاء مما يجري في حقوق
البذرة والمكس فيها^(١) ، وما يلحق من التوابع والمؤن بها ، إذ كان شيئاً لم نأذن في ابتدائه^(٢) ،
ولم نُرخَّص في إنشائه^(٣) ، وإنما تهوَّكت فيه جماعة أذاقها الله وبالها وأساء عاقبتها وما لها .
عالمين بأن نفع ما يُحطَّ من هذه الأحوال يشمل ذوى البضائع في بضاعتهم ، وأولى التجارة
في تجارتهم ، وأرباب البياعات في بيعاتهم ، وأصحاب الضياع والزراعات في غلاتهم ، ثم
لا يقتصِر على ذلك الشُّع وقُطَّانه ، ولا يتفرَّد بمجدواه من يحلّه من سكانه ، حتى يتخطّى إلى
كافة المجهّزين إليه من البلاد الدانية والقاصية ، والكُور المجاورة والمتراخية ، في شرق
الأرض وغربها ، وبرها وبحرها . ويدعو إلى زيادة ما يُنقل ويُمتكّر ، ويرد به المجهزون
والتجار ، فيعظم النفع ويزداد الرخص ، وتشمل البركة ويؤمن البخس .

هذا وأصهبان أوْلى بلاد المملكة — حرسها الله — بالتخفيف ، وأحرى كورها بالحماية
عن أثقال التوظيف ، إذ كانت منشأ الدولة القاهرة ، ومطلع أنوارها الزاهرة ، والنية فيها
وفي أهلها أحسن نية ، وأدعاها إلى تصيير الخيرات شورى بين الرعية . وإذا كان الرصد
في سائر بلادنا مرفوعا ، والاعتراض به على الرُفُق والقوافل ممنوعا ، فذلك البلد بإزالته عنه
أخلق وأحق ، وتكلفه على الرعية فيه أثقل وأشق . وقد أسقطناه مريدين وجه الله بما أتينا ،
لا يثنينا عنه كثرة قدره ، والعُرْجة على نفعه أو ضرره ، إسقاطا يستمر على التأيد . وأوعزنا
فوضِع بحضرتنا عن الدواوين حتى لا يبقى له اسم ، ولا يحى منه رسم . وأذنا في إقامة النداء

(٣) في الأصل : إنشائها

(١) في الأصل : حقها .

(٢) في الأصل : ابتدائها .

بجذفه في أسواق أصبهان ومجامعها ، وأبواب خاناتها ومسجد جامعها ، والتقدم إلى التجار بذكره في كتبهم إلى معاملهم وخلطاتهم ، ومضاربهم وشركائهم ، لا طلبا منهم للشمعة ، ولا مراعاةً بالقربة ؛ بل ليعلموا أن الذي يوردونه ويصدرونه محروسٌ عن التحيف ، محوطٌ عن التخوف ، ويثقوا بأن أموالهم تصل إليهم في ضمان التوفر ، وبضائعهم ترجع عليهم بالزيادة والتثمر ، فيكثرُوا شكرهم لله رب العالمين ، ويُشركُوا لنا بين الدعاء والتأمين . إن الدعاء مرغوبٌ فيه ، متنافسٌ عليه ، موعود من عند الله بالاستجابة له والإجابة إليه .

فاعمل — أدام الله تأييدك — بما رسمناه ، فقد حتمناه ، وامثل ما حددناه ، فقد جزمناه ، وقدمه فقد تقدمنا بإمالة هذا المال من تلك المعاملات ، وحطه عن التقارير والتوظيفات . واصرف عن المراكز هؤلاء العشارين الذين عادتهم الظلم ، ومكاسبهم الإثم ، وطعمتهم السُّخْت ، وتقدم بهدم مراكزهم ، وإبارة مراتبهم ومراقبهم ، ليجتاز المجتاز بما يصدر ويورد ، ويحمل وينقل ، وليس عليه رقبة من معارضٍ ولا مُستَوْقف ، ولا نُقْبَة من مطالب ولا مستخرج ، وما احتيج إليه لحافِظي دروب البلد من جارٍ ، فأطلقه من بيت المال لئلا يبقى أثر لما حُظِر يُتَوَصَّل بقليله إلى الكثير ، ويُتَوَسَّل بصغيره إلى الكبير ، وراع من بعد الأمر مراعاةً تتولاها عيونك من الأمانة ، وأهل الثقة في الإخبار والإنهاء ، فإن عثروا بعاشر أو راصد ، أو تابع لهم أو حافد ، قد استخرج بعد النداء ما قلَّ قدره ، أو عظم أمره ، فلا ترضَ فيه بغير التنكيل ، واجمع عليه العقاب إلى التمثيل .

واقراً كتابنا على مشايخ البلد ووجوهه وتجاره وعيونه . وتقدم بالإشادة به على المنبرين وبثَّ نُسْخَه في المصرين ، لتظهر الكلمة وتشتهر ، ويُعلن بذكرها فلا تستتر . إن سماع الخير داعٍ إلى أمثاله ، وقاضٍ بتكثير أعماله . جعلنا الله مريدين بما نأتى ونذر رضاه ، لا نريد الجزاء والشكور من سواه ، وإليه نرفع الرغبة متوسلين بجلاله ، في الصلاة على النبي محمد وآله ، وعليه نعول ليبارك لنا وفينا ، ويصلح بنا ويصلحنا ويصلح على أيدينا ، فإنما نحن له وبه ، ولا ندعى الحول والقوة من دونه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

١٠ — نسخة الخطاب بالفتح العظيم بجرجان

الذي تقدم الكتاب الكبير به

كتابنا من المعسكر المنصور بظاهر جرجان على سمت خراسان يوم الأربعاء لثمان بقين من ذي القعدة ، وقد أنزل الله النصر أعم إنزال ، فكشفنا لنا كثرين كشف الاستئصال ، وسرنا إليهم يومنا هذا هاجمين على معسكرهم مستنصرين بنصر الله ، مستظهري بعون الله ، معولين على ما عود الله مولانا الملك شاهنشاه السيد المنصور عضد الدولة ، وتاج الملة وعودنا من الإظهار والإظهار ، فحكم أولياء الحق في أشياع الباطل سيوف الانتقام ، وجزروهم جزر الأنعام ، فولى المفلول تاش والمنقوص فائق والعاق على والمنحوس قابوس وقد كملوا طبائع الخذلان ، وأتاهم بأس الله من كل مكان ، ناكسين على الأعقاب ، راجعين على الأدراج ، وغنم أنصارنا كراعهم وأموالهم وأسلحتهم وخيامهم ، وهام من نجا من استلحام الحديد عاريا ، لا يلوى أوله على آخر .

وقد سررنا في طلبهم الأتراك ركضا ، والأعراب حثا ، والأكراد حضا ، وأمرناهم بأن لا يكذبوا عن نيسابور بإذن الله ، وسيستأسر من أخطأه السيف بمشيئة الله ، إن الله متبع الخاسرين الغادرين ذلا بعد ذل ، وههنا بعد وهن ، فالحمد لله الذي منح وأنجح ، ومن ، وأحسن ، ويسر ، ونصر ، حمدا يحرس الدولة ، ويحفظ الدعوة ، ويوزعنا شكر ما ذلل لنا من هذا الخطب الذي أعيا القرون ، وأعجز القروم . رسمنا إصدار هذه الجملة إلى أن ينفذ المبشر بشرح الفتح في غد ، إن شاء الله . آخر الباب من الفتوح .

الباب الثاني

في العهدود

١ - عهد قاضٍ ضَمَّ إلى أعماله أعمال

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد^(١) حين ألفاه الكافي فيما استكفاه ، الوافي بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضاياه ، بما أحمد فيه رضى مسعاته ، مُؤدِّياً حق الله في الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والإمضاء على سنن الشرع ومُفَضَّاه ، لا يميل به هواه عند الارتياح ، ولا يختلف مغزاه في الاعتبار والاجتهاد ، الورعُ مركبُه وسبيله ، والحق مقصدهُ ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشدَّت إلى اقتباس علمه الرِّحال ، فرأى أن يضيف له إلى ما يليه من أحكام مملكته الحكم على آنف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطل الله بقاءه ، إلى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالهما ويعد من سفوحهما وجبالهما ، برَّ ذلك وبحره ، سهله ووعره ، مُمتعاً رعية هذه البلاد بكفايته ، قاسماً لهم حظوظهم من رِعِيَّتِهِ ودرايته ، فأولَى الولاية من جُمع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه في العلم والتقى ، والله ولى الخيرة فيما يراه ، والبركة فيما أمضاه ، إنه سميع بصير ، وعلى كل شيء قدير .

أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات المُردية ، الداعية من استشعرها لباسا ، وجعلها قاعدة وأساسا ، إلى أجدى الأقوال ، وأزكى الأفعال ، وأهدى الأعمال ، وأرضى الأحوال ، الكاسية من أطرحها وراء ظهره ، وصرفها^(٢) عن سبيله وأمره ، خسران الصفة ديناً ودنيا ، وانحلال الربة أولى وأخرى ، لا تُقبل منه حسناته ، ولا تكفر

— على ما يظهر من هذه الرسالة — جرجان وطبرستان بعد فتحهما .
(٢) في الأصل : وصرحها .

(١) قاضٍ معتزلى مشهور ولى القضاء بالرى وبما تحت حكم مؤيد الدولة من البلاد عام ٣٦٧ هـ .
انظر ابن الأثير ٥١٠/٨ . وقد أضيفت إلى أعماله

عنه سيئاته ، يوم تسودُّ وجوهُ المجرمين ، وتبيضُ وجوهُ المؤمنين ، وينجى الله الذين اتقوا بمغافرتهم لا يمسه السوء ، ولا هم يحزنون .

وأمره بأن يجعل مصباحه في ظلم الأمور ، واستنجاحه في الحكم بين الجمهور ، كتابُ الله الذي أنزله ، وبينه وفصله ، وأودعه ما قدم وما حدث ، ونصبه حجةً على من ورث ووُورث ، لا تُنزَف بحاره ، ولا تُبْلَغ أغواره ، ولا تُكسَف أضواؤه ، ولا تُخْلَف أنواؤه ، ولا تلتبس مذاهبه ، ولا تنقض عجائبه ، قاطعةٌ أحكامه ، ساطعةٌ أعلامه ، كافٍ إلزامه ، إليه يرجع كل ذاهب ، وبه يُقَمَّع كل ناكب ، ليس عن محجته مُعَدِّل ، ولا يستبدل بمحجته مستبدل ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — تاليةً كتاب الله في الاقتداء ، وجاريةً مجراه في الاقتفاء ، إذ كانت العروة التي لا تنفصم ، والعمدة التي لا تنثلم ، والصراط الذي لا يميل ، والبرهان الذي لا يستحيل ، قد رتبها الله بيانا لما أشكل ، ولسانا لما أعضل ، وعيانا لمن غاب ، وإيقانا لمن ارتاب ، فآلمته سك بها ناج يوم الخيفة ، راجٍ للدرجات المنيفة ، والخل بها مدخول دينه ، خفيفة موازينه ، ومن يرد الله به خيراً يهيء له من أمره رشداً .

وأمره بأن يتلقى الإجماع بالاتباع ، ويحترس معه من الابتداع والاختراع ، فقد خصَّ الله بفضيلته أمتنا دون الأمم الماضية ، وشرَّفهم به على القرون الخالية . وهو حبل من الله ممدود ، وكنف في دين الله ممهود ، لا تضطرب أسبابه ، ولا يهتِك حجابيه ، ولا تُعْمَل الآراء مع وجوده ، ولا تُسَوَّغ العِبرة^(١) بعد معقوده ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نُؤَلِّه ما تولى ، ونُضِلِّه جهنم وساءت مصيراً .

وأمره إذا عرض له ما لم يفصح به الكتاب نصاً وإسماعاً ، وإن لم يُفَرِّط فيه تضميناً وإيداعاً ، ولم تأت به السنة كشافاً وتنوياً ، وإن اشتملت عليه فحوى وتنبيهاً ، ولم يسبق فيه اتفاق ، لا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظراً يُفَعِّمه ، ويُصاير الفكر فيه فلا يسأمه ، فإن الله إذا علم أن الحق بُغِيته ، والصالح نيته ، أدَّى به إلى ما يريد ، ووقفه فلا يضل .

(١) العبرة الاعتبار ، وفي مصطلح الفقهاء القياس .

ولا يحيد ، ورفده بصائب الخواطر ، وهياً له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم يُبهم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه ^(١) .

وأمره بأن يكون اختياره إذا اختار ، وإشاره إذا اعتمد الإيثار ، من أقوال السلف المشهورين ، وفقهاء الأمة المذكورين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يُعرج بالمذاهب الشاذة ولا يتقبلها ، ولا يترخص في الأقوال الشاردة ولا يتحملها ، ويصدر أحكامه عن قولٍ شهير وبيان مستنير ، واستبصار واضح المنهاج ، واعتبار متألي السراج ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى المعارف الموفورة ، من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية ، وللإسلام حلية ، فإنه وإن كان موصوفاً بالاستقلال ، فما أحدٌ خلق للكمال ، وقد جعل الله في وفور العدة ، مزيةً لم يجعلها للوحدة ، وعرف في الاستمداد والاستكثار ، فضيلةً لم يوجد لها في الاستبداد والاستئثار ، ثم له الإمضاء إذا استشار ، والقضاء إذا تخير واستخار ، فقد أفصح منصوص الذكر ، بقوله تعالى : وشاورهم في الأمر .

وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدب عاداته قبل أن يؤدب من قبله ، ويروض أخلاقه على الحلم فإنه أحمَدُ ما اعتاد ، والصبر فإنه أفضل ما ارتاد ، لئلا يقضى في حال قلق أو غلق ، أو غيظ أو حنق ، أو ضجر أو ملال ، أو حرج أو كلال ، بل ينظر بين الخصوم ، وقد سدَّ خصاصته ، وقضى عامّة أربه وخاصته ، واستظهر بملك نفسه وإربه ، وعرك المساخط والمغايظ بجنبه ، ليؤدى فرض الله في عظيم ما تطوّقه من الفروج والدماء ، ويحتذى أمر الله في جسيم ما اعتنقه من حقوق الدماء ، فإن الله سائله يوم تشهد الأشهاد ، ويُحشرُ العباد ، عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبه على صغير ذلك وكبيره ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين .

وأمره بأن يعدل بين الخصوم في مجالس قضائه ، ويعمهم بحسن استماعه وإصغائه ،

(١) يشير صاحب هنا إلى الآية الكريمة : "ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم" .

ولا يَعَجَلُ بمن قد غشيت هيبته الحكم فيخصر ويخرج ، ولا من ملكته روعة الخضم ، فيحسر ويتلجلج ، ولا يقسم لواحد منهما في لفظه إذا لفظ ، ولحظه إذا لحظ ، إلا مثل الذي يقسمه لصاحبه ، ويوجهه لمنازعه ومجاذبه ، لئلا يطمع قوياً في انظلام ضعيف ، أو يجزع مشروف من اهتضام شريف ، فالحق أكبر من كل ذي محل وثروة ، والدين أعظم من كل ذي منزلة وحظوة ، والله على كل قاض فيما يخفيه فيبطنه ، أو يبديه فيعلنه ، رقيب لا تلحقه غفلة ، وحسيب لا تفوته خصلة ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وأمره أن يتخير كُفاته وخلفاءه ، وكتابه وأمناءه ، فمن نصح وعف ، وصلاح وكف ، أقره ، وفسح له ممره ، ومن صدف عن التورع والظلف ، وانحرف إلى الجشع والنطف ، قدّم عزله ، وحسم عن المسلمين كله ، فالمرء مسئول عن بطانته ، كما هو مسئول عن أمانته ، يوم تُوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

وأمره بأن يتصفح الشهود تصفح مَنْ عدالة المسلمين آثر إليه من الجرح ، وسلامتهم في الدين أوقع لديه من القدح ، فالمسلمون بظواهرهم عدول ، إلا من ثبت منه فسوق أو غلول ، وأن يخبر أحوالهم بعد أن لا يقبل ظنيماً ولا عبداً ، ولا من أقام عليه القذف حداً ، ويستشفهم فيما يُصدرون ويوردون ، ويتحملون ويُؤدون ، لئلا يقدم أحدهم في شهادته على لبس ، أو يهجم به ضعف درايته على زيادة أو نقص ، فما كل الشهود يؤتى^(١) من سوء السريرة ، وإنما يؤتُون من سوء المعرفة والبصيرة ، ولذلك فُضِّل من فضله علمه وقُدِّم من قدّمه فهمه ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد ، فلا يعول في حفظه إلا على الأمين السديد ، ويُوكَّل به عيناً من ملاحظته ، ويداً من حفظه ومحافظته ، ليؤمن فيه الأكل بالباطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ، ولينفق منه عليه إنفاقاً وسطاً في التقدير ، بين التبذير والتقتير ، إلى أن يبلغ الحلم والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصل ماله في يديه ، ويُشهد به عليه ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً

(١) في الأصل : يؤتى به .

فليستغفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا .

وأمره بأن يضع المواريث إذا دُفعت إليه مواضعها من الاستحقاق والاستيجاب ، ويوصلها إلى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سَمَّى وأَسهم ، وأبقى بعد ما قسم ، وأن يُجْزَى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور الأمة ، من إيجاب التوريث عند فقد ذوى التعصيب ، فلو لم يكن في ذلك إلا حراسة التراث ، عن (١) معارضة عمال المعاون (٢) والأحداث ، لوجب تغليب من هذه فُتْيَاه ، والحق فيها غرضه ومرماه ، فكيف وقد تُتلى في نص كلام الله : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .

وأمره ألا يفسخ حكم القضاة قبله إذا كان مما يُسوغ الرأي مثله ، فلو نُقض الاجتهاد بالاجتهاد ، لما استقرت أحكام قضاة البلاد ، وإن هو وجد من ذلك ما خالف إجماع الحجة ، وخرج عن اتفاق الأمة ، أتى فيه ، ما يلزمه في تلافيه ، فالباطل أولى بأن يُدفع ، والحق أحق أن يتَّبَع .

وأمره بتزويج الأيامي اللاتي ولايتهن إليه ، وعقدتهن بيديه ، متخييرا الأُكفاء ، وطلبا في الصدقات الوفاء ، علما أن تقديم ذلك أدعى إلى العفاف ، وأرجى للكفاف ، وأقرب إلى العدل ، وأبعد من العضل ، وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن المبين : وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغْنهم الله من فضله ، والله واسع عليم .

وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ، ويصدق اشتغاله بها واهتمامه ، لئلا تبور أصولها بالضَياع ، أو تفوت حقوقها باقتطاع ، ولتجْزى أقسامها على ذُلِّها ، وتُصرف في وجوهها وسُبُلها ، وتحمى عن مكائد من يسعى في نقضها برأى من آراء المجتهدين ، ويتأتى حلها بفتوى من فتاوى المختلفين ، فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه .

وأمره إذا ثبت عنده الإعسار أن يُنظر ويُمهّل ، ويؤخر ويؤجل ، فإن الله فرق بين ذى المتربة والمقدرة ، فقال : وإن كان ذو عُسْرَةٍ فَنِظْرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ .

وأمره أن ينصب لحفظ السكك في دور الضرب أمناء يحرسون العيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليكون ما يُطبع على الإمام المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد دَغَلًا ، أن يوقع خَلَلًا ، فتجري المعاملات على السداد ، وتحفظ النقود عن الفساد ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

وأمره إذا رُفِعَ إليه ما يوجب حداً أو قطعاً ، أو قتلاً ، أو جَلْدًا ، أن يأخذ بأبعد المذاهب من إباحة ظهر المسلم فإنه الحمي ، وإراقة دمه فإنه الحرمة العظمى ، وإبانة أعضائه فالأصل الحظر ، ولا إطلاق ما استعجم الأمر ، وأن يُجَرَّدَ عند ذلك المسألة عن البيّنات ، ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات ، فإن وضح له ما يوجب إقامة الحد أنهاه ونفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رافة في دين الله .

هذا عهدنا إليك ، وعهد الله به عليك ، لم نألك فيه تذكيرا ، وإن كنت به بصيرا ، ولم ندّخر عنك بيانا ، وإن كنت تقتله علما وإيقانا ، فاستخر الله المقيت يُلقك سَدَدًا ، ويؤتلك ما بقيت رشداً ، إليه تفويضنا فيما نبدي ونعيد ، وعليه ^(١) تعويلنا فيما نعزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢ — وله عهد في الحسبة

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين لفلان . إنا لما أنهى إلينا ، وتناهى في الوضوح لدينا ، من علمك المشهود ، وسترك الممدود وموقعك في أعيان الفقهاء ، وموضعك من الاضطلاع والغناء ، رأينا اعتمادك لما صدق به اهتمام الأئمة ، ومست إليه حاجة الأمة ، من الحسبة التي تنظم مصلحة الكافة ، وتجمع مرارة الحق إلى حلاوة الرافة ، فقوضناها بالرى وأعمالها إليك ، ناظرين للرعية ، وطالبيين فيها وجه المزية ، إذ الاحتساب مشتمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي

(١) في الأصل : وعلينا .

بالحامد والتناهي عن المقابح . والله ولي إرشادنا وتأييدنا ، وإسعادنا وتسديدنا ، نعم الوكيل ،
وعليه التعويل .

فباشر ما عَصَبَنَاهُ بِكَ ، مُؤَثَّرًا تَقْوَى اللَّهِ ، فَهِيَ الْعُدَّةُ وَالْعَصْرَةُ ، وَالنَجْدَةُ الَّتِي فِيهَا
النَّصْرَةُ ، وَالْحِجَةُ الْأَمْنَةُ مِنَ الْإِخْتِلَالِ ، وَالنَّجَاةُ السَّالِمَةُ مِنَ الْإِعْتِلَالِ ، مَنْ اعْتَصَمَ بِحَبَالِهَا ،
وَتَدَرَّعَ بِسَرِبَالِهَا ، تَقَدَّمَتْ خَطَاهُ ، وَسَلِمَتْ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ ، وَمَنْ زَاغَ عَنْ مَقْتَضَاهَا ، وَرَاغَ
عَنْ مُفَضَّاهَا ، اتَّصَلَ عَثَارُهُ ، وَأَثْقَلَتْهُ أَوْزَارُهُ . وَأَوَّلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَنَارِهَا ، وَإِقَامَةِ شَعَارِهَا ،
مَنْ عُدَّ فِي ذَوَى الْعِلْمِ وَالْدِرَايَةِ ، وَاعْتَدَّ فِي أَوَّلَى الْفَهْمِ وَالرَّوَايَةِ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .

وَنَفَّذَ مَا اسْتَرْعَيْتَهُ بَيْنَ عَفَافٍ يُهْتَدَى فِيهِ بِهِدَاكَ ، وَيُقْتَدَى بِمَقْصِدِكَ وَمَغْزَاكَ ، فَإِنْ
مِنْ أَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ تُقْبَلُ دَعَاؤُهُ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، وَامْتِثِلْ قَوْلَهُ فِي الْكَفِّ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ ،
وَبَيْنَ غَلْظَةٍ عَلَى أَهْلِ الْفُسُوقِ تَقُومُ دَرَأُهُمْ وَتُثَقِّقُهُ ، وَتَهْدِبُ مَائِلَهُمْ وَتُوقِّقُهُ ، فَهَذِهِ الْعَصْبَةُ
مَتَى لَمْ تَرَجَانِبَا مَنِيعًا ، وَلَمْ تَخْشَ إِنْكَارًا وَسِيْعًا ، انْهَمَكْتَ فِي شَهَوَاتِهَا ، وَتَدَارَكْتَ عَلَى سُوءِ
عَادَاتِهَا ، وَلَيْنَ عَلَى الْمَشْهُورِينَ بِالْإِسْتِرِّ وَالْعَفَافِ ، لِيَرْغَبَ الْمَتَازِعُنُهُمْ فِي الْإِنْحِيَازِ إِلَيْهِمْ ، فَذَلِكَ
أَقْوَمُ قِيْلًا ، وَأَهْدَى سَبِيلًا ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَاهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمَعَايِيرِ وَالْمَكَايِيلِ ، وَالْقِسْطَاسَاتِ وَالْمَوَازِينِ ، اهْتِمَامًا يَقْتَضِيهِ افْتِقَارُ الْمَعَامِلَاتِ
أَجْمَعٍ إِلَيْهَا ، وَرَجُوعُ الْمُبَايَعَاتِ عَلَيْهَا ، فَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَصِّ الْمَصْحَفِ ، وَزَرَ الْبَاخِسِ
وَإِثْمَ الْمُطَفِّفِ ، فَقَالَ : وَيَلُ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا
كَالَوْهُمْ أَوْ زَنَوْهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ .
وَأَجْرُ الرِّعْيَةِ ، عَلَى طَرِيقَةِ سُوِيَّةٍ ، فِي الْمَنْعِ عَنِ الْمَجَاهِرَةِ بِمَا يُحْظَرُ ، وَالْمُبَادَرَةِ بِمَا يَنْكَرُ ،
غَيْرَ مَفْرَقٍ بَيْنَ أَبْنَاءِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ ، وَإِخْوَانِ الْخَلَّةِ وَالْإِعْسَارِ ، فَالْجَمَاعَةُ عِبِيدُ اللَّهِ ، لَا تَخْتَلِفُ
فِيهِمْ حُدُودُ اللَّهِ ، بَلِ الْأَغْنِيَاءُ — إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ — أَجْرًا عَلَى الْمَنَاكِيرِ ، وَأَقْدَرُ عَلَى
بُلُوغِ اللَّذَاتِ بِالتَّبْذِيرِ ، إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ .

وَأُزِمَ النِّسَاءُ إِذَا تَخَلَّلْنَ الْأَسْوَاقَ ^(١) وَالْحَالَ ، وَدَاخِلْنَ الشُّوَارِعَ وَقَابِلْنَ الرِّجَالَ ، أَنْ

يضر بن بخمُرهن^(١) على جيوبهن ، ويمددن جلايين على وجوههن ، فذلك أدفع للمحة الفاسق ونظرته ، وأسلم للعبد الصالح وعفته ، ولهذا أمر الله تعالى بغض العيون كما أمر بتحسين الفروج ، قل للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم .

وراع السلع مراعاة تحوطها عن الغشوش ، فأتمها عظيم ، ووزرها جسيم ، ولها إفساد للبياعات ، وتخريم للمعاملات ، إلى الوكس الداخل على أهل الملة ، وأولى العهد والذمة ، ومن صحَّ إصراره على استعمالها ، وإقدامه على وبائها ، فبالغ في تقويمه يَصِرْ مُثَلَّةً لمن سواه ، وعبرة لمن يجري مجراه ، إن الله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

وامنع من سدِّ الشوارع دون السابلة بأمتعة الباعة وآلاتها ، وبضائعها وأدواتها ، فليس لأحد أن يضيق على المسلمين طرقهم ، ويشحنها بما عسى أن يعوقهم ، ليلزم كلُّ منهم موضع بيعه وشراه ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، إن أذى المسلم حرام ، وحجازه دون مجازه آثم ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وخذ أهل الذمة بلبس الغيار ، وعقد الزنار ، والتميز عن المسلمين الذين ألبسهم الله ثوب العزة ، وأفردهم حتى في انشعار والبزة ، وحامهم الذلة والهون ، وأعلاهم ولو كره المشركون .

وقد أذن لك في حبس من يجب حبسه ، وتأديب من تغرّه نفسه ، لتعم المصلحة وتُقْلِعَ المفسدة ، ويخف العنت وتكف المردة ، بعد ألا تدع تقديم الإنذار ، والتقويم بالإنكار ، فإن نجح القول فذاك أقرب مأخذا ، وأرشد منفذا ، وإن احتيج إلى تعديبه فلا إقصار دون القيام بحق الله ولا اقتصار^(٢) على ما يُغري بسخط الله ، إن الله لا يحب الفساد .

هذا ما عهدناه إليك ، فاستمر على منهاجه ، واهتد بسراجه ، وإن عرض ما يقتضيك الاستئثار ، لا الاستئثار ، فأنه يأتك من التبصير ما يُخرج عن وحشة الاستبداد والانفراد ، إلى أنسة الاستظهار والاستمداد ، واستخر الله تعالى يخر لك ، ويسدّ عملك ، نعم المولى ونعم النصير .

(١) في الأصل : بخمورهن .

(٢) في الأصل : والاقتصار .

٣ — ولله

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد ، حين ولاه قضاء القضاة بالرى وقزوين وسهرورد وقم وساوة وما يجرى معها ، ويتصل بها ، علما بما لديه من علم يهتدى بأضوائه ، وورع يستسقى بأنوائه ، وكفاية يكتنفها الحلم والحجى ، وأمانة يبعثها النسك والتقى ، وموقع فى علية أهل الدين ترمقه النواظر ، ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر ، والله ولى الإرشاد ، والمعونة على حسن الارتياح . أمره بتقوى الله ومراقبته ، وتحوف سخطه ومعاقبته . إن التقوى زمام الأفعال الصالحة ، وإمام الأعمال الراجحة ، من لجأ إليها أتاه التوفيق فى مصارفه ، وواتاه السداد فى مواقفه ، ومن مال عنها تحاماه الرشاد فى أنحائه ، وتخطاه الصواب فى آرائه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا . وأمره بأن يجعل القرآن قبله مساعيه ، ووجهه مطالبه ومباغيه ، فينصب إليه تاليا ، وينتصب له قارئا ، ويخلو به متدبرا ، ويواظب عليه متبصرا ، فهو حادى الحكم ، وهادى الأمم ، والجلاء عند الاشتباه والاستعجاب ، والضياء فى مشكلات الإعضال والاستبهام ، من فزع إلى ذخائره أثرى من المرشد واستظهر ، ومن عدل عن بصائره أقوى من الحماد وأعسر ، فلو أنزل على الجبال خلشت ، أو على الأطواد لتصدعت ، ما فرط فيه ، ولا تجوز فى أوامره ونواهيه ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه — مرجعا ، ويرضى بها مرادا ومنتجعا ، فيرد إليها أحكامه ، ويلتمس منها حلال الدين وحرامه ، إذ كانت العدة إذا اشتبهت الأمور ، والعمدة إذا اختلفت^(١) الجمهور ، وفيها تفصيل ما أجملته النصوص ، وتبيان ما اعتوره العموم والخصوص ، تنكشف بها^(٢) الشبهة ، ويؤمن بها^(٣) العمه ، محبتها بيضاء ساطعة ، وحجتها غراء قاطعة ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا .

(١) فى الأصل : اختلفت .

(٤) فى الأصل : به .

(٣) فى الأصل : به .

وأمره بأن يتلقى سالف الإجماع بحسن الاستماع والاتباع إذ كان حبل الله المعقود لا تُنتكث قواه ، وظله الممدود لا تستباح حماه . فضل الله به أمتنا على الأمم ، وجعل كلمتها فيه فوق الكلم ، حتى وسمها في كتابه بالوسط ، وآمننا فيها من الخطأ والغلط^(١) ، لا يُخشى على اتفاقها عوارض الالتباس ، وقد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، فليس لدى حكم ونظر ، وأخذ بتأويل آية أو خبر ، أن يخالف ما أطبقت عليه الأمة ، وسبقت إليه الأئمة ، بل عليه التسليم والافتاء ، والتفويض والافتداء ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونُضله جهنم وساءت مصيرا .

وأمره إذا عن ما لم يشتمل الكتاب عليه تعيينا ، ولا كشف عنه الأثر تبينا ، ولا سبق به الإجماع يقينا ، أن يعمل فيه اجتهاده طويلا ، ويُنهض له ارتياده بُكرةً وأصيلا ، ويستشهد مُودع النص وفخواه ، ويستنجد موجِب الأثر ومقتضاه ، ويقيس الأشباه والنظائر ، ويستنبط الأمارات والدلائل ، فذاك الجدّد الذي كان السلف الصالح — رحمهم الله — يسلكونه وقال الله تعالى . لعلمه الذين يستنبطونه .

وأمره إذا عارض في الأحكام ما يعضل استخراجه ، ويستبهم رتاجه ، أن يتبين ويتنّد^(٢) ، ويفكر ويجتهد ، ويستشير أمثال العلماء ويستمد ، ويأخذ من آراء الفقهاء ولا يستبد ، حتى إذا وضحت له القضية أكل فضل الاستشارة بيمين الاستخارة ، وأضى من الحكم ، ما يأمن فيه مصارع الظلم ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يُواصل النظر بين الخصوم ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، فاتحا لذلك بابه ، ومُليّنا حجابيه ، ومسوّيا في الخصومة إذا اشتجرت ، والألحاظ إذا تصرفت ، والألفاظ إذا جرت ، بين الغنى المثرى ، والفقير المُقوى ، والقوى الموقر ، والضعيف المستحق ، فليس بالثراء تشرف المنازل وترتفع ، ولا بالإقواء تضعف الوسائل وتتضع ، وبعد فكل عباد الله يسعهم فضله ، وشرع في حكم الله يشملهم عدله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يدرع الهينة ، ويؤثر الوقار والسكينة ، يُعشى ما استكفيه جمالا ، ويوفّي ما استرعيه جلالا ، ويسير سيرة لا الضعف يتخللها فيوهنها ، ولا العنف يتجللها فيهجّنها ،

١ يشير إلى الأثر المروى "لا تجتمع أمتي على ضلالة" .
(٢) في الأصل : يتايد هكذا .

لتستمر أحواله مكنوفة بالحاسن ، محروسة عن المطاعن ، مروية في السير الصالحة ، محمية عن الألسن القاذحة ، متوكلاً على ربه ، في قل أمره وكثره ، وصغر شأنه وكبره ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وأمره بأن يتخير لأحكامه الأوقات التي يجمع لها لُبه ، ويملك فيها إِرْبَه ، ويأمن معها منازعة الوطر ، ومساورة الضجر ، لتصدر قضاياه عن رأي مُستَجْمِع ، وصدرٍ متَّسع ، ونفس مُراحَة ، وعلل مُراحَة ، ذا كراً عند القضاء ، فصلّ القضاء ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأمره بأن يتسلم ديوان القضاء من المتولى — كان — قبله بمحاضره وسجلاته ، ومثابت حججه وبيّناته ، وذكر المحتبسين بمبالغ الحقوق وأسماء الخصوم ، ويعرضه بفهرست يعقده فهو جامع للمسلمين حقوقاً جمّة ، وعقوداً مهمة ، ويؤكّل به من ثقافته من يحوطه عن الأيدي الممتدة ، والأطماع المشتدة ، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

وأمره بأن يختار لخلافته على قضاء البلدان المقررة في يده ، المذكورة في عهده ، ولكتابته ، وسائر ما يتوكل من جهته ، من يجمع إلى الرّعة عزوفاً عن النّطف ، وإلى المعرفة عكوفاً على الظّلف ، ويطالع أخبارهم ، ويشارف آثارهم ، فمن زاع عن الطريقة المثلى ، ولم ينحش وخيم العقبي ، صرّفه زَجْراً وتحذيراً ، وردعاً ونكيراً ، ومن استقرّ على الحسنى ، وسلك المحجة الوسطى ، أقرّه بعثاً لمثله ، على الأخذ بهديه ، والافتداء بسعيه ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وأمره بأن يستشفّ أحوال الشهود ويستكشفها ، ويبالغ فيها حتى يتعرفها ، فعليهم مدار الأحكام ، وبهم استقرار النقض والإبرام ، فمن ألفاه ستيراً سديداً ، حراً مسلماً رشيداً أحله محل المزكّين أعمالاً ، المقبولين أقوالاً ، ومن ارتاب في أمره ، وامترى في ستره ، وقف ببابه إلى أن ينحسر وجه ارتيابه ، ومن انكشف له عن ظنّة لا تؤمن معها مضرتة على الدين ، أو شهادة زورٍ تكثرت بها معرّته على المسلمين ، جرحه جرحاً ظاهراً ، وكفى الناس شره مجاهراً ، فقد قرن الله قول البهتان بعبادة الأوثان ، فقال : فاجتنبوا الرّجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور .

وأمره بإقامة الحدود على مستحقها إذا وجبت ولزمت ، وقامت بها البيئات وانتظمت ، وأن يدرأها بالشبهات ما أطاق ، ويَحْتَقِنَ الدم ما جاز ألا يراق ، ولا تأخذه في إمضاءها على حقها رافة مانعة ولا ملالة دافعة ، فقد نبه الله على ذلك تنبيه الزاجر فقال : ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .

وأمره بأن يحتاط على الوقوف أشد احتياط وأوفاه ، وأحفظه لما لها وأوقاه ، ويعتمد فيها على أمناء يَعْفُونَ عن خِبَّة^(١) المطاعم ، ويكفون عن خطّة المآثم ، لتصل ثمراتها إلى أصحابها ، وتُنْفَقَ في سبلها الصادرة عن أربابها ، وليوضع ما يجب إنفاقه على المساجد الجوامع ، وإنفاذه إلى الثغور والمصانع ، مواضع الاحتياط ، فتؤمن عوادي التخون ، وتنقبض أيدي الحيف والتخرّم ، وتحصل بذلك الزلفة عند الله تعالى ، وما عند الله خير وأبقى .

وأمره بمراعاة العيار ، في هذه الأمصار ، ومطالعة أحوال السكك لتجرّد في الحرم كلّ سنة على السنّة في مثلها ، ويُبْطَل مَحْوًى وكسراً ما كان منقوشاً قبلها ، وأن يحتاط على الإمام المقرر لدار الضرب بالحمدية عينا وورقا ، ويؤخر إلى صاحب العيار بالتخفظ ممن يوقع غشا ، أو يُعْمَل دَغَلًا ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وأمره بتزويج الأيامي اللاتي إليه ولايتهن ، ولا وليّ سواه لهن ، أو يريد الأولياء عضلن ، إذا وجد الكفّ وحلّ العقد ، وبذل صدق المثل ، ولم تحجز شبهة ، ولم تبق عدّة ، كما قال الله تعالى في كتابه المبين : وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغْنِهِمُ اللهُ من فضله ، والله واسعٌ عليم .

وأمره بالاحتياط على مال اليتيم الحاصل في حجره ، اللازم له تدبّر أمره ، وأن ينفق عليه إنفاقاً قصداً ، ولا يُلْقِيهِ إِسْرَافاً ولا جهداً ، حتى إذا بلغ الحلم مميّزاً بين مصالحه ومفاسده ، ومضالّه ومراشده سلّم ماله إليه ، وأشهد به عليه ، قال الله تعالى ، وقوله الحق ، وأمره الحتم : وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستغفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً .

(١) خِبَّة بكسر فسكون ففتح : الخبيث

وأمره بحبس من يثبت الحق في ذمته ، ويطالب الخصم بحبسه على توفيته لحقه ، إلى أن يبرأ مما حبس [عليه ^(١)] أو يخرج منه على واجبه ، أو تقوم البينة على إعساره ، فيؤخذ بحكم الله في إنظاره ، كما قال الله تعالى : وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .

وأمره بأن لا يفسخ حكم من تقدمه ، ولا ينقض ما أبرمه ، إلا إذا كان للإجماع خارقا ، ولللسان الأمة مفارقا ، فإذا وجد ما قد خرج عن تأويل المتأولين ، وقول المختلفين ، فله أن ينقضه ويتعقبه فيدحضه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذا ما عهدنا إليك فاقترف دليله ، واحتذ تمثيله ، واستهد الله يهدك ويُرشدك ، واستكفه يُعِنك ويُسدّدك ، إليه نفوض ، وعليه نعول ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل .

٤ — و ل ه

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى إسفهلار بن كوريكنج ^(٢) مولى أمير المؤمنين حين ولّاه أعمال الصلاة والحرب والأحداث والمعاون وسائر وجوه الجبايات بقزوين ونواحيها ، إلى الأعمال التي كان يليها ، مقدرا فيه حسن الاضطلاع ، والوفاء بحق الاصطناع ، والأخذ بالهدى الصالح ، والتأدب بالسعى الراجح ، والله ولي التوفيق والتسديد لأحمد نهج وطريق .

أمره بأن يتقى الله حق تقاته ، ويحذر عظيم نقاته ، ويراقبه في سرّ أمره وجهره ، ويخشاه في بطن حاله وظهره ، فذلك المشرع الذي من ورده فاز ونجا ، والمهيّع الذي من تنكبه ضلّ وغوى ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وأمره بإقامة الصلوات على المفروض والمسنون من حدودها ، واستعمال الخشوع في ركوعها وسجودها ، وحراستها عن التأخير والمهل ، وحياطتها من ^(٣) التسويف والكسل ، لتؤدّي على شرائط القبول ، وتُحمّى عن عوارض الخداج ^(٤) والغلول ، ويقام شعار الدعوة

(٣) في الأصل: على .

(٤) الخداج: النقص .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) هو أبو منصور بن كوريكنج الملقب

بالإسفهلار صاحب قزوين . انظر ابن الأثير

على ماضى السنّة فإنه نظام الجماعة ، وعنوان الطاعة ، وقوام السعادة الثامة ، وملاك الخاصة والعامّة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

وأمره بأن يتدبر لوازم القرآن وأوامره ، ويتجنب نواهيه وزواجره ، ويقتفى ما أوصحته السنّة من مجمله ، ودلّ عليه الإجماع من متأوّله ، وأرشد إليه الاجتهاد من ودائع منزله ، فإنه الشفاء من كل معضل ، والجلاء لكل مُشْكَل ، والبصيرة عند اعتراض العمّة ، والواضحة عند اعتراء الشبهة ، من اعتمد عليه غنم ، ومن أُلْحِدَ فيه قِصم . كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على سيد المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بإشاعة العدل بين الرعية ، وحملهم على المحجة السويّة ، والنظر بالنصفّة بين المستظهر الموسر^(١) والمُرمَل المقوى ، ليرتفع التغالب والتجاذب ، ويمتع التعادل والتناصف ، ويأمن الضعيف سطوة القوى ، والفقير غزوة الغنى ، فإن الكل من عباد الله ، وشرع في شرائع الله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يجرى الخراج والمواقفات وسائر أهل المعاملات على رفوتهم^(٢) المقدرة ، وشروطهم المقتنّة ، ويستوفى حقوق بيت المال في محالها ونجومها ، وعلى عقودها ورسومها ، لا حيف ولا إغفال ، ولا جنف ولا إهمال ، ليكون ما يورده ويصدره ، ويقبضه ويدبره ، واقفا مع السيرة العادلة والنصفّة الشاملة ، فإن الله تعالى عالم بما يخفى ويعلن ، ويُبْدِي ويُبْطِن ، وكان الله بكل شيء عليما .

وأمره بأن ينفذ الطرق عن أهل العيث والفساد ، ويشحنها بأولى الجلد والجلاّد ، لتحاط عن الخراب ، وتعمّر بالمير والأجلاّب ، وتؤمن عوادي المتلصّصة على الرّفق والقوافل ، والجوادّ والعوادل ، وتشمل الأمانة فتنتظم ، وتنحسر الخافّة وتنحسم ، فمن ظفر به من قطاع السبيل ، قابله بالعقاب والتنكيل ، إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

كلمة رفوتهم بمعنى الأواصر ولعلها جمع رفّت الفارسية ومعناها ذهب ، ويكون معناها هنا الأواصر الماضية .

(١) في الأصل : المورث

(٢) في الأصل هكذا: رفوتهم وتكرر في الرسائل

وأمره بأن يُعَظَّم المنصوب للحكم ويُكَبَّره ، ويعزَّره ويوقِّره ، إذ الأحكام أولى الأمور بالاهتمام ، وأجلها في شرائع الإسلام ، والمتولَّى لها معتمدٌ لصالح الدهاء ، ومؤتمنٌ على الفروج والدماء ، وأن يقبض الأطماع عن المعارضة فيما يورده ويصدره ، ويمضيه ويقرره ، ويقصر الأبوابَ عن مجبسه ويطلقه ، ويفرج عنه ويوثقه ، وأن يُلزم الموسم^(١) بالمعونة إحضار من عسى أن يتأبَّى عليه ، أو يتقدَّم بسوء القول والفعل بين يديه ، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين .

وأمره بتخيير أصحابه ومتصرفيه وكتابه ، إذ كانوا السُّفراء بين الرعية وبينه ، والمباشرين لكثير من الأمر دونه ، وأن يأخذهم بالتزهد والظلف ، ويزجرهم عن الشره والنطف ، ويقبض أطرافهم عن الرعايا أجمعهم ، ويؤكِّل بهم عيوننا لا ترقد عن تصفحهم وتتبعهم ، فمن كانت الثقة سبيله ، والرَّعة دليلاً أقرَّه على أمره ، وشرح بالإحسان من صدره ، ومن ألفاه خبيث المطعم ، جريئاً على المأثم ، لا يكفُّ عن المأكَل الذميم ، ولا يَعِفُّ عن المَشْرَعِ الوخيم ، صرفه وأبعده ، ونبذه وشرَّده ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان .

وأمره بأن يُلزم متولَّى دار الضرب إيثار الصحة ، ويقوى المنصوب للعيار على حفظ السكك ، ويُلزمهما اتباع الإمام المُنفذ من الحضرة لئلا يعترض — بعدُ — مخالف ، أو يروج بهرجاً أو زائفاً ، ومن عرف منه إذهانٌ في ذلك وقلة أمانة ، وإجراءٌ إلى غشٍّ أو اجتراء على خيانة ، تركَ عبرةً للناظر ، ومثلاً للنواظر ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وأمره بأن يأخذ أهل الذمة كلَّ حولٍ بجوالى^(٢) رؤوسهم ، المستبقية لأرواحهم ونفوسهم ، فيستوفى على كلِّ حالم جزيته ، ويحصن بها مهجته ، ولا جالية على معضوب ولا شيخٍ فانٍ ، ولا على الأنث والولدان ، بل يُلزمها الأصحاء البالغون ، ليؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وأمره باستيفاء الصدقات على العدِّ والإحصاء ، وحوطها عن الظلم والاعتداء ، واختيار السعاة النصحاء لها ، واستكفاء الكفاة الصلحاء فيها ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع ، ولا يد على أكلة^(٣) الراعى وفحل الغنم ، ولا رخصة في اختيار الأعيان

(٣) أكلة الراعى : الشاة التي تُتَعَزَّل للأكَل وتسمَّن ، ويكره لصاحب الصدقة أخذها .

(١) الموسم بالمعونة : هو القائم بأمر الشرطة .
(٢) الجوالى جمع جالية ويريد بها صاحب الجزية على أهل الذمة .

والعِمْ^(١)، فقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام في الأوامر التي بعثه لها: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها.

وأمره بأن يؤثر^(٢) الأمر بالمعارف أشد إيثار، ويتعمّد المناكر بأعظم الإنكار، فهما مفروضان بحسب الإمكان، وموجبان على اختلاف الأزمان والأديان. لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون.

وأمره بحراسة المسكילים والموازن عن التطفيف والبخس، والزيادة والنقص، فشأنها عظيم، والمتسمّح فيها أثيم، وقد أنطق الله بالوعيد في ذلك كتابه المبين وأنزل في نصه: ونيل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون.

وأمره إذا ارتفع إليه فيما يوجب حدًّا، ويُلزم قودًا، أن يتشبّت في تعرف البينات، ويعمل على درء الحدود بالشبهات، فإذا ثبت لديه ما يصحّحه النظر ويحقّقه، وتتحاماه^(٣) الشبهة فلا تعوّقه، كتب مَصَوِّرًا مستأمرًا، وأصدر كتاب الحاكم قبله مستظهرًا، ليأتيه من الأمر ما يديره، ومن الحكم ما يرسمه. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون. وأمره بأن يحفظ على المسلمين أباقيهم إلى أن يُعادوا إليهم، وضواهم ولقّطهم لترد — بالتعريف — عليهم. ومن اشتبهت حاله فلم يهتد لصاحبه، وما استمر استعجأه، فلم يُظنّر بمالكه وُضِعَ على يدي موثوق به يُسكّنُ إليه، واستُطدّع الرأي فيما يُعمل عليه. إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها.

وأمره بأن يستكفي سوق الرقيق عفيفًا في نفسه، مالكا لإرّبه، خشنا في دينه، خاشيا لربه، لِيَكْتَبَ العهد بعد صحة الرق، في الأمان من الحرية والعق، ويحتاط على الإماء، فإن أمرهنّ متصل بشواجر الأنساب، وبواشج الأحساب، ومراعاة أحوالهن في المواقيت، أمّن من دخول الفساد على المواليد، قال الله تعالى في محكم الفرقان: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام.

(٣) في الأصل هكذا: بعاه.

(١) العيم جمع عيمة، وهي خيار المال.

(٢) في الأصل: يورث.

وأمره بأن يُغشى العوامَ ظلَّ هيبته ليردعها عن التحزب ، ويمنعها من التعصب ، ويدفعها عن التباين والتدابير والتوصل^(١) باختلاف المذاهب إلى التمداد والتنافر ، ليقبل كلُّ على عمارة ما آثره لمعاده ، ويشغل بالإقامة على ما تخيره لزاده ، إلا من قال قولاً خرج عن إطباق الأمة ، وخرق إجماع الحجة ، فإن للسلطان — دون الرعية — استكشاف ما أتاه ، والمعاقبة بما يراه ، ومن خالف هذا المنار المضروب ، والمثال المكتوب ، موقدا نار الفتنة ، ورأشاً نبَلَ الفرقة ، أحلَّ به ما يعتبر معه أعوانه ، ويزدجر إخوانه . لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت الآية .

وأمره إذا عنَّ له ما لم يعهد فيه إليه أن يطالع ويستمد ، ويتطلع فلا يستبد ، إلى أن يُكاتب بما يجعله وجهة حلّه وعقدّه ، وقبله صدره وورده . هذا عهدنا إليك فاقتف معالمة ، واحتذ مراسمه ، واستعن بالله يسدّدك ، وعوّل عليه يرشّدك ، وانقطع إليه يؤيّدك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٥ — وله

كتابي — أطال الله بقاءك — وأنا بدولة الأمير مؤيد الدولة سالم ، والله تعالى شاكر ، وإليه في الصلاة على النبي محمد وآله راغب .

ولما ورد — أعزك الله — أمر مولانا الأمير ركن الدولة ، وخرج إذن مولانا الأمير المؤيد بارتياح من بلي ناين^(٢) ودهاتها^(٣) ، مدبرا عملها ، ومتلافيا خللها^(٤) ، ومصلحا فاسدها ، ومتألفاً شاردها ، ومعيداً عماراتها ومحصناً ارتفاعاتها ، وماحياً ما ينمى فيها من آثار الجور والظلم ، وقاصراً ما بسط على الرعية فيها من أيدي الاهتضام والغشم .

وكنت — أعزك الله — من قد عرفت في الأيام المتطاولة ، واتصال المعاملة ، لزومك طريقتك المثلى ، وسلوكك الحجة الوسطى ، فاستخرت الله وليّ الخيرة في تفويض الناحية إليك ، والاعتماد في ضمانها عليك ، فتقلد — أدام الله عزك — ذلك وتطوّقه ، وتشمّر له واعتقه ، واجعل تقوى الله — عز وجل — قبلك التي لا تنحرف عنها ، ووجهتك التي

(١) في الأصل : التوصل .

(٢) ناين من قرى أصبهان .

(٣) في الأصل : ودواتها ، ودهاتها جمع دِه .

بالفارسية أى قرية

(٤) في الأصل : ظلها .

لا تَسْتَبْدِلُ مِنْهَا ، فَإِنْ مِنْ اهْتَدَى بِهَا هَدَتْهُ ، وَمِنْ صَدَفَ عَنْ سَبِيلِهَا أُرْدَتْهُ .

وَسِرُّ فِي الرِّعْيَةِ ، بِالنِّصْفَةِ وَالسُّوْيَةِ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَعْتَرِضُ اسْتِيفَاءُكَ عَنَفٌ ، وَلَا يَكْتَنِفُ مَعْدَكَ لَتَكَ ضَعْفٌ ، وَاسْتَوْفَ حَقُوقَ السُّلْطَانِ عَلَى الْعِبْرَةِ الْقَائِمَةِ وَالرَّفُوتِ الْجَارِيَةِ ، وَالْقَوَانِينِ السَّابِقَةِ ، فِي مَوَاقِيتِهَا الْمَعْلُومَةِ ، وَعَلَى نَجْوَمِهَا وَتَوَارِيخِهَا الْمَعْرُوفَةِ ، وَلَا تُخْلِ مِنْ قَعْدَتِ بِهِ حَالَهُ عَنِ الْمَسَارَعَةِ إِلَى التَّصْحِيحِ ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى التَّوْفِيرِ ، مِنْ إِنْظَارٍ وَمِيَّاسَةٍ ، وَإِهْمَالٍ وَمُقَارَبَةٍ ، وَطَهْرٍ الْبَلَدِ مِنْ دَنَسِ الْمَغَالِبَةِ وَالْمِرَاغِمَةِ ، لِيَكُونَ النَّاسُ سَوَاءً فِي الْمَجَاوِرَةِ وَالْمَعَامِلَةِ ، وَحُطِّ السَّابِلَةِ ، وَالرَّفَقِ الصَّادِرَةِ وَالْقَافِلَةِ ، لِتَدْرَ الْأَجْلَابُ ، وَتَتَّصِلَ الْأَحْمَالُ ، وَتَتَّقِ التَّجَارُ ، وَأُذْكَ الْعَيُونِ فِي الْمَفَاوِزِ الْمُتَّصِلَةِ بِعَمَلِكَ عَلَى أَهْلِ الدَّعَارَةِ ، وَالْمُتَعَرِّضِينَ لِلْمَارَّةِ ، مُسْتَنْشَأُ أَخْبَارِهِمْ ، وَمُقْتَصَّ آثَارِهِمْ ، لئَلَّا يَتَوَجَّهَ لَهُمْ عَلَى أَمْوَالٍ مُجْتَلَبَةٍ ^(١) حِيلَةٌ ، أَوْ تَسْتَمِرَّ مِنْهُمْ عَلَى أَرْبَابِ الْجَلَبِ مَكِيدَةٌ ، فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى مَا نَطَالِبُ بِهِ ، وَأَوْلَى مَا تَشْتَغِلُ بِضَبْطِهِ .

وَصَحَّحَ لِأَبِي مَنْصُورِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ مَالِ الضَّمَانِ عَلَى وَاقِعِ الْعَقْدِ ، وَوَاجِبِ الشَّرْطِ ، مَغْنِيًا عَنْ هَزٍّ وَحَثٍّ ، وَحُضٍّ وَبَعَثٍّ ، وَأَنَّهُ — أَدَامَ اللَّهُ عَرْكَ — أَمْرَ الْجُنَايَاتِ إِذَا عَظُمَتْ ، وَالْجَرَائِرِ إِذَا كَبُرَتْ ، لَنَحْدُ لَكَ فِيمَا يَجِبُ مِنْ عَقُوبَةٍ ، أَوْ حَدٍّ مَا تَقِفُ لَدَيْهِ ، وَتَعْمَلُ عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ ، وَعَلَيْهِ التَّعْوِيلُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

٦ - وَلَهُ

كِتَابِي أَيُّهَا الْقَاضِي — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ — عَنْ سَلَامَةِ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ مُؤَيَّدِ الدَّوْلَةِ وَعَافِيَتِي بَعْدَهُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا لِنِعْمَتِهِ ، وَصَلَوَاتِهِ عَلَى النَّبِيِّ وَعِثْرَتِهِ ، وَمَا زِلْتُ أُرَوِّي فِي أَمْرِ [قَاضِي] قَاسَانَ ^(٢) وَأَسْتَعْلِمُ الْقَضَايَا بِهَا وَالْأَحْكَامَ ، فَيُبَلِّغُنِي مِنْ شَرِّهِ الْمَوْسُومِ — كَانَ — بِالْحُكْمِ وَنَطَقِهِ ، وَسُوءِ تَأْتِيهِ وَقِلَّةِ ظُلْفِهِ ، مَا يَبْعَثُ عَلَى النُّكْرِ ، وَيَفْرُضُ الْإِهْتِمَامَ بِالتَّغْيِيرِ ، فَتَعْوَقُ قَوَاطِعَ ، وَتَعْرِضُ مَوَانِعَ ، فَلَمَّا انْقَطَعَتْ سَمَائُهَا ، وَأَسْفَرَتْ غَمَامُهَا ، أَهْنَيْتُ مَا كَانَتْ الْأَخْبَارُ تَتَوَاتَرُ بِهِ وَتَتَظَاهَرُ ، وَالْأَلْسُنُ تَتَرَاوَدُّ عَلَيْهِ وَتَتَنَاصَرُ ، إِلَى مَوْلَانَا الْأَمِيرِ مُؤَيَّدِ الدَّوْلَةِ فَأَوْعَزَ — لِمَا عَلَيْهِ نَيْتُهُ مِنْ إِفَاضَةِ الْمَعْدَلَةِ فِي رِعْيَتِهِ ، وَقَبْضِ يَدِ مَنْ عَدَلَ عَنْ سِيرَتِهِ وَمُسْجِيَتِهِ —

(٢) قَاسَانَ نَاحِيَةً بِأَصْبَهَانَ .

(١) فِي الْأَصْلِ : مُخْتَلَفَةٌ .

في صَرَف ذلك الطبري — صرف الله قلبه وتقليد من أتحقق سَدَادَه وعلمه ، فلما تدبَّرت ونظرت ، وصوَّبت وصعدت ، لم يَعدُ الاختيار من سبق له الاختبار ، وهو أنت — أدام الله عزك — فأبنتُ عن مكانك من الدِّراية والصيانة ، والمعرفة والأمانة ، وأحمد مولانا مؤيد الدولة مارأيتَه ، ورسم إمضاء ما اجتبيته ، وكانك القاضي أبو انقاسم عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر — أدام الله عزه — مفوضاً الحكم بقاسان وأعمالها إليك ، ومُعتمداً في قضاياها عليك . ولئن كنت برشادك واعتقادك ، وفضلك وسدادك مستغنياً عن التبصير ، مكفياً مؤونة التذكير ، إن رهني لسانى عنك ، وارتهانى بما يبدو منك ، يبعثاننى على تقديم الوعظ ، ويقتضياننى الحض على موضع الخط ، فاتق الله حقَّ تقاته ، واخشَ عظيمَ نقماته ، واعمل بعلمك ، وتصرف على حُكم عَقْدك ، وانظر إلى الدنيا بعين الخارج عن أبوابها ، ونافس في الآخرة منافسة الواثق بثوابها وعقابها ، وادَّرِع من ثوب عفافك ، ما يشمل كافة أطرافك ، وعدِّل الأمر بين الخصوم ، وخذ من الظالم — وإن عزَّ — للمظلوم ، وسوِّ بين المتنازعين في ملاحظتك ، ثم في مجلسك ومخاطبتك ، واحتطَّ على أموال الوقوف والأيتام ، وزوَّج الأيامى اللاتى ولايتهن إلى الحكم ، وميز أمر الشهود فاقبل من ظهرت عدالته ، وعُرفت أمانته ، واجرح من تدنس بمحطام ، أو تلبَّس بآثام .

وليكن دليلك في كل الذى قلته كتاب الله ، فقد جمع ما يكفى ، وأودع ما يشفى ، بين حظير يوثق ، وإباحة تطلق ، وندب يُرغب ، وحتم يوجب ، وحكم يفصل ، وقضاء يعدل ، وأمر يلزم ، ونهى يجزم ، ووَعظ يُصلح ، وسَعْي يُنْجِح ، ثم سنة رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فهى أثارة العلم التى من اهتدى بها وَرَى زَنْدًا ، وسعدَ جَدًّا ، واهتدى حلاً وعَقْدًا ، ومن أعرض عنها تعثر فى الضلالة ، وتخبَّط فى الجهالة ، ودُفِعَ عن موقف الهداية ، ورُدِّدَ فى أثناء الخِزَاية ، ثم إجماع الأمة خير الأمم ، ففيه كشفُ الغمِّ ، وإنارة الظلم ، وزوال الاختلاف والمضادة ، وانحسام الافتراق والمشادة . ثم لك رأى قد حصَّل شروط الاجتهاد فأثره عند فقد النص والأثر ، وأغمَلَه عند عدم الاتفاق والخبر ، غير طالب الرخص من شواذ الأقوال المتروكة ، ولا منتهز الفرص فى شوارد الفتاوى المهجورة ، ففى آراء مشهورى العلماء فُسْحَةٌ للطلاب ، ونُدْحَةٌ للراغب .

وليكن جلوسك للحكم بعد تخليتك ذَرْعَكَ ، واستنفادك فى الاستخارة وَسْمَكَ ،

وقضائك أوطارَ نفسك ، وجمعك لوقارك وحلمك . والله وليُّ توفيقك وتسديدك ، وإرشادك وتأيدك ، وهو حسبي وكفى .

٧ — وله عهد عامل إلى الناحية

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين محمد بن أحمد الكاتب . إنا لما عرفناه من غنائك وكفايتك ، وجرَّ بناه من وفائك وشهامتك ، وشهدت له آثارك فيما مارسه ^(١) ودلت عليه أفعالك فيما لا يسته ، ورجونا فيك من مزيد الاضطلاع ، عند زيادة التقديم والاصطناع ، رأينا تقليدك القمدان ^(٢) سنة كذا وما بعدها ، أعمالها وأموالها ، وخراجها وأعشارها ، وصدقاتها وجواليها ، ومراصدها وسائر ما يجري معها وينضاف إليها .

وأمرناك بتقديم خشية الله فيما تبطن وتظهر والاعتصام بمراقبة الله فيما تقدّم وتؤخر ، فإن عصمة التقوى تهدي المناجح ، وتدني السعادات والمصالح .

وأمرناك باقتفاء ^(٣) سنتنا في إفاضة العدل وبسطه ، ونشر الإنصاف وفرشه ، ومحو آثار الظلم والاهتضام ، وإزالة مراسم الجور عن الخاص والعام ، لتنبوَّ الرعية أكناف الأمن والدعة ، وتتفيل في أطلال الرفاعة والسعة ، لا يمتد طمع الى تحييفهم ، ولا تتسلط يد على تعسفهم .

وأمرناك بحمل المعاملين مع اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم ، على رفوتهم القائمة ، ورسومهم الثابتة ؛ لا تنقض لأحد شرطاً ؛ ولا تتبع عقداً مؤبداً حلاً

وأمرناك بتتبع آثار المتلصصة ، وأهل العبث والدعارة ، وإذكاء العيون عليهم في مظانهم ومكانهم ، وإفشاء ^(٤) الطلب إليهم في معادتهم ومساكنهم ، لتأمن المارة وتتطهر السبل ، وتصفو الأطراف وتهذب الطرق ، وتتصل القوافل وتتقاطر المير والرُفق ،

(٣) في الأصل : باقتفار .

(٤) في الأصل : لإنشاء .

(١) في الأصل : رسمته .

(٢) هكذا في الأصل .

ومن ظفرت به من هذه الطبقة ضيّقت حبسه ، وأنهيت أمره ، لنحدّ لك في بابها ما تقتضيه أحكامُ الملة ، وتوجيه معالِمُ السنة .

وأمرناك باستيفاء الحقوق السلطانية على شرائط العقد ورسوم من تولى قبلك ، متصرفاً مع المعدلة والتعديل ، ومتوخياً لسواء السبيل ، من حيث لا تُغمض عن استيذاء واجب ، ولا تُغضى عن استيفاء لازم ، حاملاً المؤدين على نجومهم وآمادهم ، وشروطهم وآجالهم .
وأمرناك بأخذ الجوالى على العد ، من كل ذمى بالغ الحد ، لا جزية على صبي ولا أنثى ، ولا شيخ فإن قد بلغ المدى .

وأمرناك باعتماد من يأخذ الصدقات على فرائض الله المكتوبة ، وأحكامه الماثورة ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع .

وأمرناك باستطلاع الرأى فيما يعرض مما لم يُعهد فيه إليك ، ولم يُعرض مثاله عليك ، لتؤمر بما تلزم حدّه ، وتقف عنده .

هذا عهدنا إليك فانهج ما مثل ، وانه إلى مارسَم ، واستعن بالله فى أمورك يكفك ، وعول عليه يهدك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٨ — وله عهد لتولية أمر الوادى

قد اعتمدناك — لما تؤول إليه من كفاية مستفادة عن الدربة ، ودراية مُستقاة من الحنكة ، وأمانة موجبة للاستقامة ، وسدادٍ مستدعٍ للسكون والاعتماد — فى تولى قسمة ماء وادى زرين رود .

ورسمنا لك أن تباشر ذلك باتقاء الله تعالى ومراقبته ، فإنهما يزجران عن احتقاب المآثم ، والإسفاف لخبيثة المطاعم ، وتعديل الحال بين أهل الرساتيق والضياع ، حتى يستوفى كل حظه فى وقته المعلوم ، ويستوعب قسطه فى شربه المقسوم ، وتقصر دون الحيف الأيدي الغالبة ، وتحسم عن الظلم الأظاع الكاذبة ، ويكون الناس فى حقوقهم أمثالاً لا يتفاضلون ، وعلى سواء لا يتفاوتون ، ويجرى الأمر فى المقاسم والفرض والسدود والرشانات على ما توجيهه الدستورات القديمة ، والمثبت العتيقة ، والرسوم المعهودة ، والشئن الموروثة ، وتقع الاستعانة بالجوبذين^(١) الثقات الذين لا يوطئون العشوة ، ولا يقبلون الرشوة ، ويستظهر عليهم بأغلظ

(١) الجوبذ : القيم على النهر .

الأيمن ، وأؤكد الأقسام ، فمن عُثِر منه على خيانة ، عوقب بما يتركه سُمعة ، ويغادره مُثلة .
وإن اجتراً أحد من الأكرّة والمزارعين ، والحماة والمتولين ، إلى اقتطاع ماء إلى غير حقه ،
أو سَكَره^(١) إلى أرضه في غير شرّبه ، عوقب عقاباً رادعاً ، وقوّم نكالاً وازعاً ، ولم يُنبَقَ
عليه وإن كانت النضيعة من خاصّ ضياعنا ، وخالص أملاكنا . فالأمر الذي قلده قوام البلد ،
وملاك الدخّل ، وقيمة الأملاك ، وأخرى المهمات ، بالاهتمام والمراعاة ، أمر [ماء^(٢)] الوادى
الذى جُعِلَ منه كل شيء حيّاً . فكن عند الظنّ بك ، واحذر خللاً أو زللاً يقعان منك ، فقد
علمت أنا نعاقب من تجاوز أوامرنا أو تعدّاها ، كما نثيب من وقف عندها لا يتخطاها . واستوف
الرسم الجارى لك ، ولعمال الماء قبلك ، على أحسن وجوه الاستيداء ، وأرفق طرق الاستيفاء ،
والله يهديك للحسنى ، ويوفّقك للطريقة المثلى ، وهو حسبنا وكفى .

٩ - وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين
لإبراهيم بن محمد الحاجب حين قلده الراورق يدين^(٣) . أمره بتقوى الله وخشيته ، والاعتلاق
بذمة مراقبته ، وتوخي رضاه في إعلانه وإسراره ، وتحرى زلفاه في إبدائه وإضماره ، فالتمتى لله
فائز في دنياه ، حائز النجاة في آخره . وأمره بإقامة الصلوات على هيئة ، ووقار وسكينة ،
وتوفية لما فيها من فرض ونفل ، وحتم وفضل ، وشحن منابر عمله بشعار الدعوة التى تحصّن
الخيرات ، وترتهن البركات ، وتورد مشارع الهدى ، وتحلّى^(٤) عن موارد الردى .
وأمره بيسط النصفه لمن فوّض تديره إليه ، واعتمد في سياسته عليه ، وتحول جميعهم
بإيالة لا العنف متخلها ، ولا الضعف متجلّها ، ففي ذلك ما نظم الأمور وأصلح الفاسد ،
وهذب الشئون وأقام المائد ، وجمع شمل الخير وضمّه ، وأحصّد^(٥) حبل البركة وأبرمه .
وأمره بأن يستعين بصالحى الولاية ، ويستظهر بأمناء الكفاة ، الذين يتزهون عن خبثه
المطاعم ، ويتعففون عن خُطة المآثم ؛ وأن يكون له عليهم أعين راصدة لا ترقد ، ولواحظ

(٤) فى الأصل : تجلّى .

(٥) أحصد الحبل : أحكم فتله .

(١) سكر النهر : سدّ فاه .

(٢) زيادة يقتضيه السياق .

(٣) هكذا فى الأصل .

مُذْكَاةً لا تهجد ، فمن أحسن السيرة وأجملها ، وأخلص السريرة ونَحَلَهَا ، جزاه عن فعله جيلا ، ومن أسفَّ إلى الخيانة ، وأخلى طويته من الأمانة ، أوسعاه عن جُرمه عقابا وتنكيلا ، ليتبصَّرَ كَافَّةً من يليه ، وترشُدَ جماعة من يولييه ، فيؤمنَ التحيفُ للحقوق السلطانية ، واستمرارُ الحيف على ضعفاء الرعية .

وأمره باستيداء ما يستأديه على لين في المعاملة ، ومعدلة في المواقفة ، ورفق في المحاسبة ، وتأنسٍ بالسنن العادلة ، وإماتةٍ للرسوم الجائرة ، واعتمادٍ للثابت القديمة الراتبة ، وتعويلٍ على الدستورات الصحيحة الخالدة ، واستخراج على النجوم المقدرة القائمة ، لتأمن الرعايا غوائل الاهتضام ، وتسكن أفياء السلامة والسلام .

وأمره بصرف همه ووكداه ، وجده وجهده ، إلى تطلُّب الأكراد المردَّة ، وسائر المتلصصة المفسدة ، إذ كانت قد اتخذت تلك البقاع دار هجرتهم ومأواهم ، وجعلتها أمَّ مسكنهم ومثواهم ، وصدقِ النية في إرواء السيوف من نحورهم وطلَّاهم ، وتمكين الرماح من أكبادهم وكلاهم ، لتغفو آثارهم من تلك الديار بإذن الله ، وتسرع إليهم موادُّ التَّبار بحول الله ، كما فرض الله في أولى العناد ، وأمضى حكمه في الساعين بالفساد .

وأمره بأخذ الصدقات من دون ظلم ولا إعنات ، بل على الفرائض المشهورة ، والسنن المنقولة الماثورة ، وعند استكمال الحول في وفاء من النصاب ، لتوضع مواضعها المتلوة من الأصناف^(١) . وأمره بالحماية على أهل الزمة ، واستيفاء ما كتب عليهم من الجزية ، ليشغلوا بمكاسبهم آمنين ، ويؤدُّوها عن يدٍ صاغرين .

وأمره بالتوفر على العمارة بأقصى ما يطيق وأبلغ ما يستطيع ليتشمر الدخل ، ويزول الخلل ، وتبدو صفحة الغناء فيما قلَّد ، وتلوح غُرَّة الكفاية فيما نُصِب له واعتمد .

وأمره بالتعديل بين الغنى الموسر ، والفقير المقتر ، إذا رُفعا إليه ومُجمعا للنظر بين يديه ، لئلا يطعم الكثير ليساره ، في اهتضام المقلِّ لإعساره ، وليكون المشروف والشریف ، والقوى والضعيف ، في الحكم على سواء ، لاحتمامة تُعتَور ، ولا محاباة تُحَذَر ، فإن الله مسائلٌ عن خطفات العيون ، وخطرات القلوب ، يوم ينادى المنادى من مكان قريب .

للقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، الآية .

(١) يعني بالأصناف أصناف أهل الصدقة المذكورة في سورة التوبة ، وهي : إنما الصدقات

هذا عهدنا إليك فانتهج معاملة ، وأمرنا لك فاقتفِ مراسمه ، واستطلع الرأى فى الأمور السانحة عموماً ، وفى الحدود الواجبة خصوصاً ، يأتِكَ ما تعمل عليه ، وتنتهى إليه ، واستخر الله يخرك لك واستكفِه يرؤف بك ، وهو حسبنا كافياً ومعينا ، وناصرنا ودليلاً .

١٠ — و—

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على للحسين بن أحمد ابن عبد الله بن هرون . إنا لما قدمت من حُرمة مكتسبة وموروثة ، وأثلت من عصمة قديمة وحديثة ، واستظهرت به من وسائل توجب الاقتضاب والاصطناع ، والتجأت إليه من ذرائع تقتضى الإلحاق بأهل الغناء والاضطلاع ، قلَّدناك الخراج بأصفهان لسنة كذا وما بعدها ، بعد أن استخرنا الله تعالى طويلاً ، ورغبنا إليه فى حسن الهداية كثيراً .

فباشر ما قوَّض إلى منابك ، ووكل إلى قيامك ، مستشعراً خشية الله التى من جعلها قبلة يتوجه إليها بأعماله ، وعصمة يعوِّل عليها فى أفعاله ، هدته إلى الضياء المبين ، وأعلقته بالحبل المتين ، وأدته إلى المشارع العذبة ، وأخذت به إلى الشرائع الرحبة . واجعل جل ما تقترب بتوحيه ، وتطلب الزلفة بتحرّيه ، إثارة النصفة فيما تقتلده ، واستعمال المعدلة فيما تحلّه وتعقده ، والصدوف عن موارد الأثام ، والعزوف عن مسالك الظلم المحفوفة بالظلام ، مقتدياً بهدينا فى إيضاح معالم العدل ، وطمس آثار العداء والغشم ، وادِّرع من التعفف عن أموال رعايانا ثوباً تلوح عليك جدته ، وتبقى عليك بهجته ، واحذر خبثة المطاعم التى لا يقار عليها وجيه^(١) لوجاهته ، ولا يُرخص فيها مع نبيه لنباهته .

واحمل أر باب الخراج على رسومهم القائمة ، وشروطهم الثابتة ودستورات البلد الخالدة ، وأوارجاته الواضحة ، من دون تغيير لسنة ، ولا فسخ لشريعة ، ولا أخذ واجدٍ بمعدم ، ولا مطالبة برئٍ بمجرم ، ولا إلزام شريك عن شريكه ، ولا بسط يدٍ على قسمٍ عن قسمه ، ولا قُط^(٢) لمتحير^(٣) ، ولا تجديد تقسيط عن بائر ، ليأمن الجميع درّ كانوا ينالهم من حيث لا يجب ، وتبعية تلحقهم من حيث لا تلزم .

(٣) متحير الماء : مجتمعه أى المستنقع

(١) فى الأصل : وجيها .

(٢) القِط بالكسر : الصك وكتاب المحاسبة .

وافتح النجوم في الأوقات التي يخرج بها الإذن ، ويتجدد فيها الأمر ، على رفقٍ بالمؤدين وإمهال ، محوطين عن التراخي والإهمال ، وأورد الديوان عند كل نجم حساباً بأصله وإضافاته ، وإقطاعاته واحتساباته ، وما تقوم به الحجة من نفقاته ، ليخلد ديوان الأصل بعد تتبعه في ديوان الزمام ، فإذا انقضت السنة الخراجية فارفع حساباً جامعاً لدخلها وخرجها ، وأصلها وفرعها ، وزوائدها ونواقصها ، واحذر إيقاع التحويلات ، إلا على الملاءمات ، بعد تصديرها من حضرتنا . واقتبض أيدي الكتاب عن تغيير يتجه لهم في اسم ، أو حيلة تنفذ منهم في حاك ، أو تسمع يقدمون عليه في تبديل ونقل ، فالخراج مادة المملكة ، وقوام الجيش ، وقيمة الأملاك ، وأرواح الرعية ، وعمدة السلطان . وبحسب هذه الأحوال يجب على متوليهِ فرط التشمير والتيقظ . وتناول المسمى لإقطاعك ، ومبلغه عشرون ألف درهم ، مستعينا به على أداء حق النصيحة ، والتنزه عن الماء كل الذميمة ، واستكف الله يكفك ، واستعن به يهدك ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

الباب الثالث

في الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير

ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجري مجراه

— ١ —

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة لفلان وفلان . إنا لما نؤثره في وفد الله من حجيج بيت الله صيانةً تكنفهم وتحرسهم ، وحمايةً تتغمدهم وتخصمهم ، ورققا بهم صادرين وواردين ، وإشبالا^(١) عليهم ذاهبين وعائدين ، رأينا تفويض زعامة حجاج الرى والمنضمين معهم إليك ، والاعتماد في تديبرهم وتسييرهم عليك ، لما عُرف من سداد مذهبك وجميل غنائك في المعصوب بك ، فتول ذلك مؤديا حق الأمانة فيما استرعيته ، وفرض النصح فيما استكفيته ، وتوخ من الإحسان إلى هذه الرُفق ما يُجزل حظوظها من الحماية ، ويعتمدها بفضل الحفظ والرعاية . وسِر بها سيرا لا يجهدا تعجلا ، ولا يفوتها المناسك تمهلا ، وأحسن التوقف على الضعيف والراجل ، والفقير والمُرمل ، والمبدع^(٢) به وذوى المرض .

وتوخ في الجماعة أفسح المنازل ، وردّ بهم أعذب المناهل ، وكن شفيقا على أموالهم ، رفيقا بهم في أحوالهم . واعرض هذا المنشور في المسالك التي تقطعها ، والمراصد التي تردها ، ليُعَلِّم تقليدنا إياك ما قلدناك ، وتؤثر ومن في جملتك بالعناية في متوجّهك ومغزأك ، وتُقصّر الأبواع من مضارتك ، وتحسّم الأطماع عن هَضيمتك . والله وليّ توفيقك في مصارف الأحوال ، وتأيدنا في مجارى الأقوال والأفعال ، عليه نعول ، وإليه نفوض ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) إشبالا : عطفًا .

(٢) أبدعت الراحلة : ظلت وكلّت .

٢ — وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة لفلان . إنه أنهى ما اضطررك إلى الحال التي ركبتهما ، والخطة التي احتقبتها ، والتماسك من نظرنا ما يثبت قدمك ، ومن أماننا ما تتلافى به فرطك ، فأنت متى سلمت القلعة إلى ثقاتنا ووردت حضرتنا ، أو أين اخترت من بلاد مملكتنا ، آمن بأمان الله — عز وجل — وأمان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأماننا المقرون بالوفاء ، المعروف حكمه في الدهماء ، ولك عندنا تجديد الاصطناع وسنى الاقطاع ، لا نؤاخذك بجريرة تقدمت ، ولا جريمة سلفت . وعهد الله بذلك مبذول ، وعليه مأخوذ ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

٣ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور لفلان . إنك أنهيت الحال في ترويع فلان لك ، وإشفاقك من بعض ما أنكرنا فيه فعلك ، ورغبت في إجرائك على عادة الاحسان ، وإنشاء ما تسكن إني من الأمان ، واستظهرت إلينا بشفاعة النبيه مكانه ، الوجيه كلامه ، فرأينا لما عليه عادتنا في الصفح عن المجرم ، وإقالة المنتدم المتحرّم ، تحقيق طلبتك ، وتصديق رغبتك ، فعاود مسكنك في كنف أماننا وعهدنا ، لتجربى على سنة إنعامنا ورفدنا ، وتسكن ظلّا من الإغزاز لا ينحسر ممدوده ، ولا يتجافى ممدوده ، ما استأنفت حالا ترضى منك ، وأقلعت عن مثل ما بدر عنك . ومن قرأ كتابنا هذا من الولاة والضّمّاء ، والعمال والأولياء ، فليعمل بما رسمنا ، وليحذر على ما نهجنا ، وليحذر مخالفة ما أمرنا .

٤ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة لأهل قسبة الدينور . إنا لما عرفناه من حالكم ، وتمثلنا من اختلالكم ، وتصورنا من كثرة عددكم ، واشتراك عالم من الضعفاء وأهل المسكنة في مؤدى خراجكم ، رسمنا تعهدكم بالصيانة والحراسة ، والحماية والحيطة ، وإجرائكم في الخراج المقسوم بينكم على عدل الشئ ، وأخف القوانين ، لازيادة تلحقكم ولا مؤونة تلزمكم ، ولا

كلية تتوجه إليكم ، ولا مرفق ولا نائبة عليكم ، ولا تتبع ما تناصفت بينكم ، ولم يستأكل قوئكم ضعيفكم ، وكنتم على سنن التواصي والتظاهر ، ولم تخرجوا إلى التحدى والتناكر ، وحظرنا أن يزداد عليكم في الإتيان بطروق من يطرق من الخيول ، وزيادة من يزيد من الجيوش ، وتقدمنا بتعفية ما كان عمال السوء وولاة الجيش يأتون مداخلة في هذه المعاملة ، يتوصلون بها إلى ارتشاء منكم ، وارتفاق من جهتكم . فمن قرأ أو عرّض عليه كتابنا هذا من الولاة وعمال الحرب والخراج والمعاون بكورة ماه^(١) الكوفة فليعرف ذلك من رأينا وأمرنا ، وليحذر من مخالفة مثالنا ورسمنا ، إن شاء الله .

٥ - وله شرط

هذا كتاب كتبه للأمير المؤيد مؤيد الدولة فلان على نفسه مختاراً لأمره ، في صحة من جسمه ، وثبات من عقله ، حين تخوله — أدام الله عزه — بإحسانه ، وظاهر عليه ملابس إنعامه ، ووسمه باقتضابه واصطناعه ، واعتمده بسابغ نظره وإقطاعه ، وأوجب له ولأصحابه من مواد خيره وإفضاله ، ما وسعهم كلهم ، وتحمل ثقلهم وكلهم ، واعتمد بهم بحماية الطرقات والمنافذ ، وحراسة الرفق والقوافل ، وخفارة الضياع والمزارع ، بالرى وقزوين وقم^(٢) وساوة^(٣) وآبة^(٤) والتيمرتين^(٥) وما كان جارياً في حماية من أعمال أصفهان .

شرط فلان على نفسه أن يقوم بما فوض إليه مشيحاً ، ويباشره جادا نصيحاً ، ويتصرف على أحكام الطاعة وإقامة فرائض الجماعة ، وينفض السبل عن أبناء العيث على اختلاف أجناسهم ، ويظهرها من معارهم وأدناسهم ، ويكفهم مما يخرجون إليه من مدافعة ومقارعة ، وممانعة ومواقعة ، لا يعتن بكثرة أعدادهم ، ولا يحتاج بفضل ازديادهم ، ويكفي أرباب الإقطاعات والتّناءات^(٦) والمقاطعات مضاراً أصناف الأكراد والمتلصصة ، والشهبان

(١) ماه بالفارسية : قصبة . وماه الكوفة :
دينور ، سميت بذلك لأن معاوية جعلها لأهل
الكوفة صراداً حين كثروا . انظر معجم البلدان
لباقوت في مادة نهاوند .
(٢) مدينة كبيرة بين أصفهان وساوة .
(٣) مدينة بين الرى وهمدان .
(٤) آبة : قرية من قرى أصفهان أو قرى ساوة
(٥) التيمرتين : قريتان من قرى أصفهان .
(٦) التّناءات : إقطاعات الدهاقين .

والمتشبهة ، لتكون الرساتيق دانيها ونازحها مكنوفة بالأمنة ، والمسالك جوادها وعوادها محروسة عن الخفاة ، مسلوكة بالمير والأجلاب والبضائع والحمول غير محتاجة إلى استظهار من يذب مصاحبا ، ويحمي مسائرا ، فتمت وقع في النواحي والطرق التي تكفل تهذيب مدارجها ، وتطهير مناهجها ، عيث أو إفساد ، أو ضرر أو إضرار ، أو سلب أو انتهاب ، كان على فلان تتبع الجاني حتى يسلم أو يهلك ، ورد ما أخذ أو أرش به بالغ ما بلغ ، لا يقبل له في ذلك ولا في شيء منه عذر ولا اعتلال ، متى وقع خلل أو إخلال .

وشرط أن يزعم أصحابه ووجوههم ، وأتباعهم وأماثلهم ، وأشياعهم ورءوسهم وأذناهم ، لتكون الطاعة ملابسهم ، والعفة مقاصدكم ، والمسمى لهم مطاعهم ، لا يسفون إلى خيبة المآكل ، ولا يتوجهون إلى وارد أو صادر ، ولا يتجاوز هو ولا هم في الخفارات وغيرها الرسوم المقررة والرفوت المقتنة ، ويستوفى ذلك على يد الكاتب المنصوب من الديوان المعمور ، ويعفى أهل الضياع بقم والتميرتين من التنزل على قراهم ، وحلولهم في مشتاهم ، ويقتصر في المسارح والأفياء ، والمياه والأكلاء ، على البقاع التي رسمت له ، ووسمت به ، لا يتعداها إلى ماعداها ، ولا يتخطاها إلى ماسواها ، ومن جاوز من أصحابه هذه الأمثلة المضروبة ، والمراسم المشروطة ، عاجله بالقبض عليه ، وعمل فيه بما تنفذ به الأوامر إليه ، وأن يخف مع هذه الشروط في البيجارات العارضة ، ويتصرف فيها مع ولده ورجاله بالنيات الخالصة ، لا يحتج بأخذ أهبة ، وتأخر عدة ، وتناقص عدة ، بل يباشر ما يهاب به إليه ، باستقلال من رباط الخيل وشاكي الأسلحة وعدد الاستظهار .

شهد الشهود إقرار فلان بالتزام هذه الشروط واعتناقها بعد معرفته بما بذل فيها ، وذلك في شهر كذا سنة كذا .

٦ — وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة مولى أمير المؤمنين لفلان . إنه أنهى عنك إخلالك بمركزك من كذا خيفة من أحوال رقيت عنك ، وانبساط أيدي الضمنا في فضل استخراج منك ، ورغبتك في إنشاء أمان تعود به إلى وطنك ، موفورا

غير مغدور ، فرأينا — لما عليه النية ، في كافة الرعية — الإيعاز بذلك ، فأنت — متى عاودت مقرك ، ولزمت شأنك وأمرك — آمن بأمان الله وأمان رسوله وأماننا الذي لآحل لمعقوده ، ولا نقض لمعقوده ، ولك أن نوعز بصياتك ، وحياطتك ، وقبض الأيدي عن هضيمنتك . ومن قرأ أو عرض عليه كتابنا هذا من طبقات الولاة والضمنا ، والعمال والأولياء ، فليعمل ذلك من رسمنا ، وليقتف ماضى حكمنا ، إن شاء الله

٧ — ولله

كتابي — أطال الله بقاءكم — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، واطراد السعادات في أحواله ، وانتظام البركات بإقباله ، وعافيتي في ظلاله ، والحمد لله ، وصلواته على النبي محمد وآله . وقد علمتم — تولاكم الله — أنكم بدأتكم بحضور البساط العالي راغبين ، وسألتم القبول والإقطاع طالبين ، فأحسن مولانا الإصغاء لكم ، والرفق بكم ، وأبدلكم من التوحش اصطناعا ، ومن التفرق اجتماعا ، ووطنت لكم المشاتي والمصايف ، وأفيضت عليكم العطايا والعارف ، وشهركم في جملة الأولياء ، وميزتم عن النظراء والأكفاء ، ولم تنسلخ سنة إلا عن زيادة تؤثرون بها ، ووجوه نظر تؤهلون لها ، من إحسان ونعمة ، وحملان وخلعة .

وكان ما ينوون فيكم أكثر مما أفيض عليكم ، وما يدخر لكم أوفر مما أوصل إليكم ، ووثق بكم الثقة بالأخصين من الخدم ، والمتحققين من أنشاء النعم . ثم أنهى أن إخلالا وقع منكم بمراكم ، ومفارقة لمواضعكم ، مع توالى الكتب بأن أكابركم ووجوهكم كرهوا ذلك ولم يتحمدوه ، وأن الأصاغر أقدموا عليه وآثروه ، وأجرت طائفة إلى قطع الطرق ، وأخذ أموال الرفق ، نكوصاً على الأعقاب ، وتحككاً بالعقاب .

ووردت الآن [رسل^(١)] منكم يذكرون أن أخبارا كانت سقطت إليكم استطارتكم حذرا ، واستفزتكم خوفا وذعرا ، فأنهيت إلى مولانا الصورة ، وأوضحت القصة ، واستقلت لكم العثرة ، واستوهبت الزلة ، فقال مولانا : إن حرمتهم تقتضى التغميض عن

(١) زيادة يقتضيه السياق .

هفواتهم إذا أنابوا ، وعصمهم تبعث على غفران جرائمهم إذا تابوا . وقد أنشئ المنشور بالأمان ، والوعد بالإحسان ، وختم بعالي ختم مولانا ، لازال نافذا في الأقاليم ، ماضيا مضى المقادير .

وكتبت أبا عيسى بما يذكره لكم ، ويلقيه إليكم ، لتزدادوا سكونَ نفس واشتدادَ ظهور ، فعاودوا مواضعكم ، والزموا أما كنكم ، واجرؤا في الطاعة على رسومكم ، ولا تُضيّعوا متوكّد حقوقكم ، فظلّ الخدمة أمدّ ، ولباس عزها أجد^(١) ، وإنما تقع هذه النزوات أيما ثم تأتي العواقب بمالاقبل به ، ولا ثبات في وجهه ، وأبو الهيجاء بكتاش الحاجب مولى مؤيد الدولة قد رُسم بقاسان ، وهو صائر إليها ، ومكاتب باعزازكم وإكرامكم ، وإيثارك وبسطكم ، ودفع كل أحد عن مضارّكم ومساءتكم . وأبو منصور بن محمد مخاطب ببلوغ الغاية في الاشتغال على جماعتكم ، وتوفية حقوق كافتكم . وأنا أنتظر ما يكون منكم ، خار الله لكم ، والخيرة أجمعها في الطاعة المأمونة الغوائل ، المرجوة الفواضل ، الجامعة إلى صلاح المعاش ، صلاح المعاد ، وإلى تحصيل النجاح ، سلامة الأرواح ، وهو — تعالى — حسبنا ، ونعم الوكيل .

٨ — وله في مراعاة أوقات المعاملات والكبيسة من السنين

وصل كتاب الأمير ركن الدولة بما ورد به أمر مولانا أمير المؤمنين من نقل سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث ، ليزول التفاوت الذي تخلّل السنين بين الشهور الخراجية والشهور الهلالية ، ولتكون المعاملات جارية على أوقاتها ، والإجازات منسوبة إلى زمانها ، والجماعات مصدّرة بمحالتها ، والتواريخ منتظمة على حقوقها ، والكبيسة واقعة على رسومها . وحمدت الله وشكرت له على مامن به على الأمة ، وأفاضه على أهل الملة والذمة ، من نظر أمير المؤمنين ورعايته ، واهتمامه بمصالحهم وعنايته ، وتدير أحوالهم بما يجريها على أذلالها ، ومطالعة أمورهم بما يؤمن من اختلالها ، وتنقيف شؤونهم بما يضاهي سنن آبائه الراشدين ، من الخلفاء الماضين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ممن استرعاهم حياتهم ، ووكل إليهم سياستهم ، حتى أصبحت الكلمة بيمن إيلاته متفقة^(٢) ، وأسباب البلاد والعباد

(١) في الأصل : واجد .

(٢) في الأصل : متفقة .

متسقة ، وحتى برز الحق في أحسن ملابسه ، ونجم العدل في أزكى مغارسه ، وأصبح الظلم لا يُقْتَدَى بحكمه ورسمه ، ولا يُعْرَف إلا بذكره واسمه ، حمداً يحصن لأمر المؤمنين جلائل مواهب الله ونعمه ، ويمتري إليه فواضل منحه وقسمه ، ويؤذن له بدوام قدرة لا تختل قواها ، وبسطة لا تنحل عراها ، ويوجب للأمر ركن الدولة — بذبه عن دين الله ، وقيامه بحق خليفة الله ، وتوفره على ما أصلح خدمته ورعاياه — مزيد مناجحه وعطاياه .

وقابلت الأمر بامتثاله ، على الرسم في أمثاله ، وأوعزت في بناء الحسابات ، وعقود الضمانات ، وما يجري مجراها من الشروط والمواقفات ، على ما رُسم ومثل ، وقرّر وحصل ، فصار كل حول يدعو إلى نفسه ، ويخبر عن دخله وخرجه ، لاجابة لعامل ولا معامل إلى تبديل جارى سنة ، واستعارة اسم سنة لسنة .

وكتبت بذلك أصحاب الأطراف التي استخدمني الأمير السيد في مراعاتها ، ليُجرّوا عليها أمر رفوعها وحسباناتها ، فيكون ما تجدد من رأى أمير المؤمنين شاملاً شمول عوارفه ، وما قدمه الأمير السيد عاماً عموم فواضله ، وليصير رسماً يدوم ويخلد ، ويقرّر على وجه الدهر ويؤبد ، لانهتدى الأيام إلى فسخه ، ولا ترتقى الليالي إلى نسخه ، فيتجدد لأمر المؤمنين — على تجدد الزمان — الذكر الجميل الماثور ، والثواب الجزيل الموفور ، وللأمر السيد الدعاء المؤذن بالمنائح الشاملة ، والسعادات العاجلة والآجلة . أنهيت إلى مولانا الأمير وليّ النعم ما أقت به رسم الخدمة ، فإن رأى الأمير أن يديم تشريف عبده ^(١) ، بالتصريف بين أمره ونهيه ، فعل إن شاء الله .

٩ — ولله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة لصدقة بن أحمد وأولاده . إننا — لما أظهرتموه من انحياز الى جملة الأولياء المخلصين ، وامتنياز عن غمار الأكراد المفسدين ، وأبديتموه من صفحة الإقلاع ، وتعلقتم به من عصمة الارتداع ، والتمستموه من قبول انقطاعكم ، وسألتموه من تجديد اصطناعكم — فسحنا لكم في ورود حضرتنا ، مستظهريين بأمانتنا وذمتنا ، فأتم وكل واحد منكم — ما اعتنقتم شروط الموالاته ، وتطوqتم عهود المصافاة ،

(١) في الأصل : عهده .

وكنتم لأشباعنا شيعة ، ولأنصارنا تبعاً ، وعلى المارقين يدا قاصدة ، وعينا راصدة — آمنون على أنفسكم ودمائكم وأرواحكم وشعوركم وأبشاركم ومالككم وكراعكم ، وسائر ما تنضم عليه ملكتكم ، بأمان الله — جل اسمه وتعالى جده — وأمان رسوله — صلى الله عليه وعلى آله الذين اجتبي — وأماننا الذي لا يتسلط الإخفار عليه ، ولا ينبسط الانقباض إليه ، لا تؤاخذون بجرائركم الواقعة قبل إنابتكم ، وكبائركم المكفرة بمثابتكم .

ففقوا بذلك مثني وموحداً ، واسكنوا إليه شتى وجميعاً ، وردوا الباب ليوصل إليكم حلاوة الطاعة وبرودها ، وتدر لكم أخلاف الإحسان وتوفر مزيته . ومن قرأ كتابنا هذا ، أو أقر به ، أو عرف أمرنا فيه وأنبيته ، فليعرف صدر ذلك عن أمر جزم ، ونفوذ عن مضاء غزم ، وليحذر تعدى أحكامه وحدوده ، وتخطى مراسمه وشروطه ، إن شاء الله .

١٠ — وله

إنما عرفناه من كفايتك ، ورجوانه من غنائك ودرايتك ، رددنا أمور الدرب والبذرة^(١) الموفرة أموالها على العرب إليك ، واعتمدنا في ضبطها واستخراج الواجب منها عليك ، ورسمنا لك أن تستوفي الرسوم من حيث لا يلحق الرعية والسالبة اهتضام ، ولا ينال استحقاقات العرب انتقاص واخترام ، وأن تجعل الإمام الذي ترجع إليه فيما تستوفيه ، المنشور الوارد من الحضرة البهية وما يُبين فيه ، وتحصل الأموال على حقوقها مياومة ومُشاهرة ، وعند كل رفقة صادرة وواردة ، ولاتستعين إلا بمن تسكن إلى ثقته ، إذ كنت المؤاخذ بعهدته ، ليخرج حق إبراهيم بن محمد الحاجب من الأموال بقسطه ، ويوفر^(٢) كل من العرب على حقه وقسمه .

فباشر مامثلناه ، بإيثار للنصح لا تتعداه ، ونقاء من الجيب لا تتخطاه ، ورفق بالمعاملين بحسب مادة التظلم ، واستقصاء للأولياء يغنيهم عن التألم ، واستزد من إحساننا إليك بالمقام على الطريقة الحميدة ، والشيم الراشدة ، إن شاء الله .

(١) البذرة : الحفارة .

(٢) في الأصل : يؤثر .

الباب الرابع

في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الشغور

١ - كتاب في أمر الحجيج

كتابي — أطل الله بقاء الأمير صاحب الجيش — وأمر السلطان وأحوال ممالك مولانا مطردة في استقامة المجارى وتعادُلها ، واتفاق المناجح وتواصلها ، على ما يوجب الحمد مغرقا فيه ، والشكر مسهبا في تعاطيه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين . وكان وصل كتاب الأمير على عادته في عمارة سبل الخيرات ، والبعث على الأعمال الصالحات ، أحسن الله أداءه^(١) ، وشكر إسعائه^(٢) ، فتلقيت رسمه بالامثال ، وأنهيت إلى حضرة مولانا حقيقة الحال ، فاعتدّ للأمير بلطف البداية إلى ما فيه مرصاةً مُغتنمةً ، وفي تقديمه مثوبة ومكرمة ، وأوغر في أمر الحاج بما لا شك في انتهاء أنبائه ، فلا حاجة في إعادة القول بعد ابتدائه ، وأصبحوا الكتب إلى الحضرة بمدينة السلام ، وإلى طريق الجبل وهذان بما شملهم ظله ، وعمهم فضله . وحين عاد الجمزة^(٣) أنهيت هذه الجملة إلى الأمير ، والله يُنهنّني بالتصرف على مراده ، ويوفّقني لاجتلاب رضاه وإحماده ، بمنّه ، فإن رأى الأمير أن يخاطبني بأمره لأتقيله ، ورسمه لأمتله ، فعل إن شاء الله .

٢ - وله جواب كتاب صاحب الشغور بالإجماع له

كتابنا ونعم الله لدينا موفورة ، وعوارفه مشكورة ، ودعوة الحق بنا منوطة ، وحوزة الدين عندنا محوطة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك صادرا عن ثغر أردبيل^(٤) — أحسن الله حمايته ، وتولى وقايته —

وفي الأصل : المحمرة .

(٤) مدينة كبيرة بإقليم أذربيجان .

(١) في الأصل : أداءهم .

(٢) في الأصل : إسعاءهم .

(٣) الجمزة : الذين يركبون الجمازة : الإبل .

تصف استقامة شأنه ، وتراجع سكانه ، وانتظام أموره ، وتكامل العماره في سوره ، بحسن تأتيك ، وجميل تهديك ، وتجردك لتتلافى ما تشعث من بنيانه ، وردّ من نفر من قُطّانه ، حين ألجأهم سوء الملكة ممن كان يليهم ، ويسير سيرة العدوان فيهم ، إلى الإخلال بديارهم ، ومفارقة محالهم ومقارّهم ، فحَمِيت للدين ، حمية مثلك من المهتدين ، وقت بحق الله قيام الجادين المجتهدين ، فعاد الشارد ، واستقام المارد ، وأنس النافر ، وسكن الثائر ، وانحسرت أطماع الكفرة عن الثغر — حرسه الله — بعد امتدادها إليه ، وردّ الله آمالها خائبة بعد انقضائها عليه ، وأن الذي قطعك عن مكاتبة حضرتنا ، بعد اعتصامك بطاعتنا ورايتنا ، هذه الحواجز التي ملكت عليك اختيارك ، إلى أن بلغت فيها إيثارك ، وأنجح الله مساعيك وآثارك .

وفهمناه حامدين من له الخلق والأمر ، وييده النفع والضر ، على ما تكفل به من إعزاز دينه وإعلانه ، وإظهار أنصاره وأعوانه ، وإنارة برهانه ودليله ، وإعانة المجاهدين في سبيله ، حمدا يقضى لأوليائه بالغلب ، وعلى أعدائه بسوء المنقلب ، وأحمدناك على جدك في خلل أزلته ، وأود عدّته ، ونازح استعدته ، وثلم سدّته ، ووهن شدّته ، كفاء اهتمامنا بما أصلح الدنيا والدين ، وعنايتنا بما أحاط حريم المسلمين ، فقد آذن الله بمحصّد شوكة الكفار والفجار ، حزب الشيطان وكلاب النار ، والله المرشد ، والمعين ، والمسدد — في فضّ حكمتهم ، وتفريق كلمتهم ، وفك أسلتهم ، ومحت أثلتهم — عزيمة حاضرة ، تعلو — بمشيئة الله عز وجل — دعوتها ، وتبطل سطوتها ، ويُعلّى جدّها ، ويمضى حدّها ، وتُشرح صدور المؤمنين عندها ، والله بالغ أمره ، متم نصره .

وعذرناك في تأخير كتبك ورسلك حتى الآن ممهود ، وشغالك بما صرفت إليه جهدك ووكذك محمود ، فأحسن المثابرة ، على ما أنت بصدده من المجاهدة ، واستدلال الكفرة بصدق الجالدة ، فكثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، ومعاشهم غرور ، ومعادهم ثبور ، وأنصار دين الله قتلها كثرة ، ومحنتها منحة ، وبقاؤها سعادة ، وفناؤها شهادة ، تكتب خطاهم حسنات ، ويُكفّر بها خطيئات بعد خطيئات ، والله زاندهم إلى عزهم عزًّا^(١) ، ومرسل الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزًّا ، وثقّ منا بالعناية الصادقة ، والإلحاق بأهل الخصوص والسابقة ،

والتخوّل بالإحسان والإينعام ، والتعهد بالتشريف والإكرام ، وعرف من لديك من الرابطين
لوجه الله ، والمجاهدين في سبيل الله ، ما عندنا إشبالا عليهم وعلى أمثالهم ، واشتالا على
ما قوى من آمالهم وأحوالهم ، ليزدادوا على الكفرة العجزة ثقل وطأة ، وصدق جرأة ، وحدة
جوانب ، وشدة مناكب ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة
يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن
أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

وتابع كتبك بأخبارك وآثارك ، فيما يجدد الله من إذلال الكفرة في أطرافك ، وأطرافك ،
واستمع من رسولك ما يؤدّيه ، واتهيج نهج الامتثال فيه ، واعرض ما يسنح ويعنّ من
أربك ، والله راعيك وكافيك ، وواقيك وهاديك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٣ — وله في إجماد صاحب الثغر

كتابي ومولانا الأمير مؤيد الدولة فيما يوجبه الله تعالى من ولائه ، ويسطه من ولايته ،
ويعضيه من رأيه ويعليه من رايته ، ويعزه من كلمته ونصره ، وينفذه فيما قرب وبعد من أمره ،
على أفضل ما أقام الله به قناة الجماعة ، وألف معه الأهواء على حسن الطاعة ، وما أدبره من
أمر خدمته مستقيم ، وإحسان الله فيه جسيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على نبيه محمد
 وآله أجمعين .

ووصل كتابك نافذا من ثغر أردبيل — حمّاه الله السوء^(١) — فسرني ما أخبرت
به من حاله ، ودلت عليه من عمارته واستقلاله ، وعود سوره بعد اختلاله ، وأوب من أخلّ
من سرايطه ورجاله ، حين أنالهم من كان يليهم ، ولا يراقب وصية الله فيهم ، ظلما أزعج
ساكنهم ، وأخرج قاطنهم ، وكاد الإسلام فيه يضعف ركنه ، والشرك يصدق ظنه ، إلى أن
انتدبت انتداب النذب في دينه ، الثبت في يقينه ، الحامي بحميته ، المرامي بحسن نيته ،
فتلافت ما فرط^(٢) وأدنت [ما]^(٣) اشحط ، واستعدت من شرد ، واستدلت من عند ،
وعمرت ما تشعت ، وأبرمت ما انتكت ، واستدف^(٤) أمر الثغر^(٥) حاطه الله — وقد شارف

(٤) استدف : استقام .

(٥) في الأصل : الثغور .

(١) في الأصل هكذا : سو .

(٢) في الأصل : فرط .

(٣) في الأصل : وأشحطت .

الانتشار ، واستمر عقده — وكده الله — وقد صافح الانتار ، وتراجعت آمال الكفرة خاسئة على أذنانها ، خائبة على أعقابها ، قد ردَّ الله مكائدها في نحورها ، وبقيَ لواخها في صدورها ، وعدًا منه حقا في قسم كل من أراد بالدين سُوءًا ، وكان للمسلمين عدوا ، إما في عاجلة تُلبسه ثوب الصغار ، أو في عاقبة تورده دار البوار .

وقد حمدت الله — تعالى — على ما قواك عليه ، وأجراك إليه ، وسألت الله أن يصلي على محمد خير بشير ومبعوث ، وأفضل وارث وموروث ، وعلى آله ، ويزيد دينه تمهيدا ، والمجاهدين فيه عزًا وتأييداً ، ويحسن جراك عما اخترت وآثرت وأبليت .

وعرَّض كتابك بحضرة مولانا الأمير المؤيد فاهتز لسماع ما أنهيته ، ولقائك الرضا عما أتيت ، كفاء ما تقتضيه هممه التي وقفها على ضمِّ نشر الإسلام ، ولم شعث الإيمان ، فعمَّ الله الجماعة بعد له ، وخصَّ أبناء الطاعة بفضله ، وأوضح منهاج الحق في ظله ، وأثقب سراج الدين بين عزمه وفعله ، وأحمدك على ما أبديته في ملاقات الكفرة أعداء الله من نجدة وباس ، وشدة ومراس ، واعتذك في خاصَّ خدمه ، ورصدك بلاحقٍ نظره ، فوسيلتك أوجه الوسائل وأوقعها ، وذريعتك أنبه الذرائع وأرفعها ، جهاد في سبيل الله رب العالمين ، واجتهاد في تذليل أعداء الله المشركين ، وبذل للمهجة في مرضاة الله ، وتحمل للمشقة في ذات الله .

وقد قبل مولانا ما قدمته من العذر ، وتصور تشاغلك عن المكاتب بمصالح الثغر ، ولا خدمة عنده — أعلى الله جده — أدعى إلى نيل القربة ، وأقضى برفع الرتبة من الاشتغال بمثل شغلك الذي تحمى به من حواشي الإسلام حاشية ، وتسد به من نواحي الجهاد ناحية ، وسينجز الله بمولينا الملك السيد والأمير المؤيد وعده ، ويصدق عهده ، فعزائمهما في اجتناب دوحه الشرك محصية ، قد آن أن يُنجزا ميعادها ، وصوارمهما لاقتلاع عمدة الإفك مرهفة قد حان أن تهجر أغمادها ، وسيشاهدُ بمشيئة الله عز وجل عن قرب كيف تحقق ألوية الحق وراياته ، وكيف تتلى قوارع النصر وآياته ، وكيف تجتمع حلقتا البطان^(١) ، على عبدة الأوثان والصُّلْبَان ، فيعذبهم الله بكفرهم ، ويريههم وبال أمرهم ، لا يجدون في السماء مصعداً ، ولا على الغبراء مقعداً ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن

(١) البطان : آخرهم الذي يكون على صدر الراحلة .

تجد لسنة الله تبديلاً ، فهذه الدولة المحمودة ، والدعوة المسعودة ، هي التي أنشأها الله ليعمر بها أفنية الإيمان ، ويضعضع أبنية البهتان ، ويعيد وجه الإسلام غضاً ، ويترك جمع الضلال منفصلاً ، له القوة والحول ، ومنه القدرة والطول .

وعنايتي بك عناية يفرضها الدين ، وتكتبها وتقتضيها صحة اليقين ، وتوجبها لما ظهر من حسن قيامك ، وفضل اهتمامك ، ثم لما اعتلقتك من حبل الخدمة لمولانا الأمير ، فما أحد اعتصم به إلا أكتب مرآده ، وأمرع مرآده ، وفلجت حجته ، ووضحت محجته ، وقد أدى رسولك ماحملته ، وصادف من القبول ماأمّلت ، وأعدت إليه في الجواب ما نسكن إليه ، وتعمل بتوفيق الله عليه ، فدُم — أيدك الله — على ماأنت بصدده ، واستمِرَّ على القصد من جدّه ، فإنه المنهج الواضح ، والمتجر الرابع ، إن الله لا يضيع أجر الحسنين . وتابع كتبك إلى الحضرة البهية بما يتجدد من خبر ويتسهل من ظفر ، ويُحمد من أثر ، ويعرّض من وطر ، فلاحظة مولانا تضمن الإيجاب في مطالبك ، وتنجزى يسفر في تقريب مآربك ، إن شاء الله .

٤ - وله

كتابي — أطل الله بقاء الأمير صاحب الجيش — والله تعالى عند مولينا منأخ تقسابق إلى نهايات السعادة وآمادها ، وتناسق بعبادات الزيادة وأعدادها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد نبيه وآله أجمعين ، وكان كتاب الأمير ورد على مهنتاً طوله الذي لا أخلو من استغشاء لباسه ، واجتناء أغراسه ، فسألت الله تعالى أن يديم مامنحه ومنح به أوليائه ، ويشكر له غنى ما لا أستطيع جزاءه .

وعرفت ما رآه الأمير صاحب الجيش في أمر الحاج اهتمام منه بمصالح المسلمين والإسلام ، واختصاصا لبیت الله الحرام ، وعرضت ماورد على بحضرة مولانا فكان ارتياحه لطلعه ومودعه كفاء ما عنده من الاهتزاز لكل ما يجزى له صاحب الجيش ذكرا ، ويعيره هما وفكرا . هذا إلى ما لديه من العناية السابقة ، والرعاية الصادقة ، لهذه العصابة القاصدة خير مقصد ومثابة ، وأكرم بقعة منتابة ، وقد أقاموا في اجتيازهم وظلال الكرامة تقيمهم ،

ونهبوا وأجفحة الحماية تحميمهم ، وامتد الجمّازان معهم إلى الحضرة العالية ، وسينهيان ماسارت به الركبان عن مولانا الملك السيد في تسيير وفد الله أجمعين بين أطراف محفوظة ، ومصانع معمورة ، ومعالم منيرة ، ومشارع غزيرة ، وللاُمير صاحب الجيش في كل ذلك أجرُ المساهم وثواب المُقاسم ، فالدال على كل خير كفعاله ، والشافع فيه كعامله . وحين انكفأ الجمّازان أنهيت هذه الجملة إليه ، وجُدّدت ذكرى لديه .

٥ — وله جواب الكتاب الوارد في إصلاح قنطرة النوبهار

كتابي — أطل الله بقاء مولانا الملك السيد — والأُمير المؤيد موفور السلامة ضافها ، مسعودٌ في الأعمال التي يخلف مولانا فيها ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله .
ووصل ما خوطبتُ به من المجلس العالي بذكر قنطرة النوبهار^(١) ، فتشرفت بما استخدمت فيه ، وأهلّت للقيام به ، وحمدت الله تعالى على ما يحضر مولانا الملك السيد في كل حال وأمر من الاهتمام بمصالح الخلق ، وحسن النظر لهم عن قرب وبعد ، والمأثرة في شأن هذه القنطرة عظيمة ، والثوبة جسيمة .

وقد جمعت وجوه القياسين والجصاصين والمصهرجين وأخرجتهم إلى الموضع لتأمله ، وأوصيتهم ببناء الأمر على ما يقصد به التأيد والتخيل ، ويؤمن عليه عدوان الماء عند الزيادة الحادة ، وتقدمت إليهم ببناء سدٍّ أمام القنطرة يدفع عن أساسها حدة الماء إذا كثر ، فعلى هذا عملت القناطر المتقدمة بهذه الديار ، فلم تتمكن السيول من الإضرار بها ، وحددت أن يقدروا تقديراً ما ، وإن كان الاعتماد في الإنفاق على ما يخرج العمل بأيدي الثقات .

وأشير في الخطاب العالي إلى استخدام فلان في ذلك ، وهذا أمر يُحتاج له إلى من يلزم ذلك المكان ولا يفارقه إلى حين الفراغ ، وفلان محالف للدار والخدمة ، ولا يكاد يفرغ أكثر نهاره ، وخادم مولانا يستخدم في هذا غيره ممن ينوب منابه ، ويقوم فوق قيامه ، ويُجرى المال على يد فلان ، وينهى أمر التقدير إذا عاد القياسون ، وابتدىء بابتياح الآلات لتكون مُعدّة لانحسار البرد . ونسأل الله التوفيق لشروط الطاعة .

(١) النوبهار : موضع قرب الرى .

٦ - وله

كتّابى ، ونعم الله عند مولانا على ما يرفع نواظر خدمه ، وأنا سالم بكرىم نظره ، والحمد لله وصلاته على النبي محمد وآله .

ووصل كتاب سیدی فسرني ازدياد الدار قريبا ، وما تولّاه به [الله^(١)] فى مسيره كفاية وحفظا ، وسألته أن يجعل مواهبه لديه دائرة لا ينقطع لها مدد ، ولا يقف بها عدد ، وقد كان مولانا متطلعا لأقرب أخباره عهدا ، وأدناها ورّدا ، وارتاح لما أنهيته ، وأنس بما حكّيته . وكان رسم تسمية من يستقبل سیدی ويشحن بالخدمة طريقه ، وفى هذا خرج فلان فيمن أضج من القواد ، والله يوفقهم للتقرب إليه ، والتخفف بين يديه ، ويسعدنى بوده ، وكرىم عهده .

فأما الحجيح فمولانا على اهتمام بأمورهم ، ومراعاة لأحوال جمهورهم ، وملاحظة لسيرهم ، حتى يقعوا^(٢) فى ظل الصون والسداد ، ويأمنوا عوارض العيث والفساد ، وإذ قد [ورد]^(٣) الأمر الممثل بذلك من الحضرة العالية ، فإن النافلة فيه تعود فرضا حتما ، وحكما جزما ، ومتى ورد الكتاب بذكر انفصالهم أخرج العدد والعدد الجم من الأولياء ، وليهم الله ، ليوردوم بإذن الله مكنوفين محوطين ، من أعين محروسين .

٧ - وله فصل فى أمر الحاج

فأما الحاج - أحسن الله كفائتهم ، وأجل حمايتهم - فقد اعتدّ الأمير المؤيد بما رسم إنشاءه فى أمورهم ، وابتدأه من هزّ لحقوقهم ، إذ كان جمال ذلك ليس بخافى الخبر ، ولا عافى الأثر ، بل هو مسعد ديناً ودنياً ، ومُحمد البدء والعقبى ، ومن أوّلَى بأن يهدى للمحجة الوسطى ، وينبه على مواقع الخير والهدى من الأمير ، وهو علّم فى العلم بالسياسة ، وجامع مصلحة العامة إلى مصلحة الخاصة ، وقد لزمى عن كل كتاب وصل شكره أستاذف فرضه وأستجدّه ، واعتداداً أجتهد فى حقه وأجده .

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) زيادة للسياق .

(٣) فى الأصل : يقع .

وقد كان الأمير — حين عرف انفصال الحاج — رسم إنهاض من ينفذ السبل
ويقدم الرفق ، ويسير آخر من ورد . ووصلوا مكنوفين ، وهم على الخروج ، محوطين ،
وقد نفذت الكتب مد الطريق بما يبعث الجميع على إعزازهم ، وإكرامهم في مجازهم ، وهم
بذلك عاملون متقيون ، بمشيئة الله .

٨ - وله

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ومولانا الأمير المؤيد مستفيد من
مزيد العز والنعمة ما يطابق مواقع البغية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد
 وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير الجليل قد ألبسني فيه من مستجد التقريظ مع قصرى بنفسى
عن^(١) رتبة التقريظ^(٢) ، ما أحسن ظنى بأمرى وقد ساء ، وعظم على منه كيف شاء ،
فقول الأمير حتم ، ورضاه شرف ومجد ، وحمده ذخيرة وعز .

وقد عرفت ما أحمد الأمير من جميل نشر الحجيح عن هذه الحضرة ، وكل الذى بلغ
ويبلغ بالمنفصلين عن تلك البقاع — حرمها الله — فظلال الأمير تمتد عليهم ، وسحائب
اهتمامه تنصب إليهم ، معتقد وجوبه ، مستشعر لزومه ، مقرر بالقصور عن المفروض منه ،
غير مستدعى — بعد قبول العذر — الشكر عنه ، ومهما وفقنى الله له فى هذه الأحوال
فبرأى من الأمير حسن فى وأرانى الرشد ، وهدانى القصد ، أعانى الله على ما يزلف لديه ،
كما بسط بأنواع العرف يديه .

٩ - وله

كتابي يا أخى وأثيرى — أطال الله بقاءك — ومولانا مؤيد الدولة سالم فى نفسه ،
محروس فى ملكه ، موفق فى أمره ونهيه ، وأنا معانى فى ظله الظليل ، مؤوف بدولته أحكام
التأميل ، والحمد لله وصلواته على خيرته ، محمد النبى وعترته .

(٢) هكذا فى الأصل .

(١) فى الأصل : على .

ووصل كتابك صادرا عن الثغر أحسن الله وقايته ، وأجل رعايته ، بعد أن تُرُقِبَ لصدق الاهتمام بخبرك وحالك ، وأحوال أتباعك ورجالك ، إذ كان مولانا — والله يعز سلطانه ويعلى شأنه — يراعى من أمور الثغر ما يستتضح — إن شاء الله — مناهجه ، وتظهر نتائجه ، فيزداد دين الله ظهورا ، وأعداء الله ثبورا ، وقد أنسَ — كبت الله حساده ، ورفع عماده — بما أنهيت من حسن قيامك في حراسة ما إليك ، ومياسة من لديك ، والغلظة على الكفار عنده الإيمان ، وعبدّة الصلبان .

وقد رسم — أدام الله علوه — أن تُعَدَّ في المستخلصين من أوليائه ، والمختصين بحسن رائه ، ولذلك توابع من كرمه ، وشوافع من نعمه ، وقد وفقت في التماس الخطوة ، كما وفقت في إقامة الدعوة ، ومهما ازددت على الكفر بأسا وشدة ، زادك — أدام الله سلطانه — إكراما وقُرْبَةً ، وضاعف لك بعد رتبة رتبة ، فأحسن — أيدك الله — الثبات على أمرك ، وقوّ بصائر القائمين بنصرك ، فإن الكفار وإن كانوا ذوى عدد كثير قَيْدُ الخذلان يقللهم ، وعزّ الإيمان يذلّهم ، والله الكافل للدين ، والقاصم للملحدين .

وعندى لك — أيدك الله — الإكبار الذى يتبعه الإيثار ، والإكرام الذى يشفعه الإنعام ، كما يفرضه العقد الصحيح ، والدين الصريح ، ثم ما أنبأ به كتابك من فضلك ، ودلّ عليه من وفور عقلك ، وإذا ورد رسولنا فأكرم مورده ، وأحسن مصدره ، بإذن الله ، فتابع كتبك ، واذكر أنباءك وما ربك ، إن شاء الله .

١٠ — وله

كتابنا عن سلامة ، قد وصلها الله بحسن الولاية ، وارتفاع الراية ، والمجد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك — أيدك الله — صادرا عن الثغر المعصوب بك — حرسه الله — وقد كنا له متطاعمين ، ولما أنهيته من خبرك متوقعين ، كفاء ما فرضه الله تعالى في حكم الدين ، من إعظام أعلام المجاهدين ، فسَرَرْنَا ما أنبأت عنه من استقامة الأمر ، ولطف كفاية الله في مهمات الثغر ، إلى ما وصفته من حسن مشايعتك ، وحسن موالاتك ومناصحتك وإقامتك الدعوة لنا سالكا أحمد المذاهب ، وحافظا في طاعتنا أسعد الضرائب .

وأحوال الثغور من أهم ما نراعيه ، وأخص ما نُخلص الاهتمام فيه ، وستكشف الأيام
— بمشيئة الله — عما شحذناه من العزائم ، وأرهفناه من الصّرائم ، حتى ينجز الله — تعالى —
على أيدينا وعده ، وينصر تحت رايتنا جنده ، ويُعزّز الدين وحضرته ، ويذل الصليب
وعبّده ، فكن — أيدك الله — على عزيمة الثاقبة ، وبصيرتك الصائبة ، فإن الله يتم
الإنعام ويسبغه ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وإن أهل الكفرة إلى حين ، وأمل
لهم بكيد متين .

وعنايتنا لك — أيدك الله — شاملة ، وأمدادُ نظرنا — متى أردت — متواصلة ،
ومعونتنا لأبناء الجهاد مبذولة ، وسيوفُ أوليائنا على أبناء الإلحاد مسلولة ، فاقوّ نفساً وظهراً ،
ورأياً وأمراً ، ولا يهولنك كثرة الأرجاس ، فإنهم أزواد الضباع ، وآ كال السباع ، ومشارع
السيوف ، ومراتع الختوف ، كثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، وهم بين سواتين ، إما إملاء بمقت
— من الله — عظيم ، أو إفضاء^(١) إلى عذاب أليم ، كما أن المجاهدين في سبيل الله بين
حُسنيين ، إما سعادة في الحياة الدنيا ، أو شهادة في التي هي خير وأبقى ، والله وليّ تأييدك
وتسدّيدك ، وتقوية أنصارك وعديك .

(١) في الأصل بكتابة الضاد ظاء .

الباب الخامس

في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة

والتودد إليهم بمباستطهم وما يقارب ذلك

١ — كتاب تودد واعتذار من تأخير إطلاق

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ونعم الله عند مولانا الملك السيد في تهذيب الأمور وتسديد الثغور ، وتزايد النصر المبين ، وشفاء صدور المؤمنين ، على أفضل ما وعد تعالى وعود ، وجدّد في حال ومهد ، ومولانا مؤيد الدولة مصحّح في جسمه ، موفق في بسطه وقبضه ، وحلّه وعقده ، وما أراعيه جارٍ أحمد مجاريه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير على عادته لدى في مبرة يصل أسبابها ، ويوثق أطناها ، ويتابع عددها ، ويلت مددها ، ولو قد كان الشكر وقي ، بسالف مأولى ، لرجوت أن يستقل بفرض ما نستقبله ، ويقابل آنف ما يُخوله ، ولكن فضله بتواليه يعجز عن أمّد الوجوب ، ويقف بصدد القصور واللغوب ، فأطال الله بقاء الأمير في نعم تكفه غير منحسرة ، وتشمله غير مُقَصّرة ، وأدام على المكارم إعانتة ، وإلى المآثر هدايته ، إن الله يفعل ما يشاء .

وقد أدّى فلان ماتحمّل بذكر الضياع والتماس حلها ، واستخلاصها لحقها ، وعرض ماورد من الحضرة البهية بذكرها ، ووصف اهتمام الأمير بأمرها ، فصادف الجميع عند مولانا ارتياحا للخطاب ، واهتزازاً للاطلاب ، ومحبةً لأن تكون تلك الأملاك مقررة على سبلها ، وما تحوى في وجوه دخلها . وقال — أدام الله علوه — إن أمثالها لو أريدت لأصاغر من على ذلك الباب لما رأينا غير الإسعاف والإيجاب ، فكيف بالأوجه رتبة ، الأنبة قرينة .

هذا والأمير صاحب الجيش الوسيط والمشير ، فلا خلاف عليه ، فيما يوصى بالإيثار إليه ، إلا أن الدليم تعرّف صورهم في الإقطاعات إذا علّقوها وفارقوها ، وتملكوها وفكّوها ، وإن

ارتجاع ما يراد تخليصه منهم مقتضى أدنى ترفقٍ وتمهل ، والإرضاء بالابدال من دون تهجم وتعجل . ولولذلك لما عاد الرسول إلا بالإجابة التي كانت النفس معها أذهب ، ولها أطلب ، وقد مُثِّلَ لي أن أشغل كتاب الجيش والإقطاع بتعويض من رضى بالمعوضة ، والإسعاف بالزيادة والمعونة . وهذا أمر يلزمني فيه مع امتثال الأمر بذل الجهد ، واستغراق الوُسْع ، وسيأتي بمعونة الله ما يقرب المدة ويُدْنيه ، وييسرها ولا يُراخيها .

٢ - ولله

كتابي — أطال الله بقاء الشيخ — ومولانا الأمير سالم النفس ، متظاهر العز ، نخيم السعادة ، نافذ الأمر ، وأنا بدولته — ثبتها الله — مستقل الجسم ، مكنوف من الله بلطيف الصنع ، والمحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتاب الشيخ فكان الوافد المؤثر ، والوارد المنتظر ، وتضمن من أبناء الحضرة في السلامة الجليلة ، والسعادة المتصلة والمسار المتوالي ، والحجاب الجملة الصافية ، ما يقيم النفوس ، ويشرح الصدور ، ويرفع نواظر الأحرار ، ويرضى عن مجارى الأقدار ، لازالت نعم الله لديه محروسة عن التنكر ، محظورة عن التغير ، باقية بقاء المسند ، نامية انتهاء الأبد .

وعرفت من خبر الشيخ في نفسه ، والخاص والعام من أمره ، ما يُهِنُّني المواهب ، ويُمَلِّئني المنح الرواتب ، ففي حراسة الله لرِباعه ، وبسطه لأمله وباعه ، جمال للفضل ومن أخذ منه بخصل ، وقوة للكرم ومن حظى منه بقسم ، فأدام الله ما آتاه ، وأحمده عقيب كل أمر ومأتاه ، والذي يأتيه الأمير في مواصلة مولانا لمخاطبته ، ومراسلته ، وعمارة مسالك برّه وشفقته ، قد غرس في صدره ، من وده ، ما لم تسمع الآذان بشبهه ، ولا يوفى العيان بكُنهه ، فكيف الخبر بتقصي حقه ، والإصابة في وصفه . وقد عرض فلان ما صحبه من المكاتبات ، وردفها من المشافهات ، وعززها من المبرات ، فكان لكل منها أخص موقع في الاعتداد والتقبل ، والزيادة في الحمد والتحمد .

أما الخطاب فلما تضمن من خبر مؤنس للنفس كان متوقعا ، وأما الشفاء فلتفاوض بودائع الصدر كان متطلعا ، وأما التحف فلرفعها كلفة الاحتشام ، ودفعها سُدقة الانقباض ،

وفسحها الطريق إلى إيثار الاسترسال ، والجري على سَنَنِ الانبساط في كل حال .
ولما تيسر لفلان وقتُ الإياب ، وَحَمَلَ ما وجب في كل باب ، كاتبت الشيخ بمواصلته
التي تهدي إلى الصدر روحاً ومسرة ، وللطرف جِلاء وقرّة ، وعلى ذكر فلان فهو السديد
أداءً وسماعا ، الحقيق تقديما واصطناعا ، ما أعرُتُه — يشهد الله — شهادة ، ولا أعطيته فيها
زيادة ، فقد أحمد مورده ومصدره ، وارتضى مطواه ومُنشَره ، ومولاي أولى بما قيل في
عظيم من الكرام ، سهل الحجاب مؤدّب الخدام ، ورأى الشيخ في مواصلتي بكتبه ،
وتصريفى على مآربه ، موفقٌ إن شاء الله .

٣ - وله اعتذار وإيجاب

كتابى — أطال الله بقاء الإصفهيد^(١) — ومولانا ثابتُ معاقدِ العز والقدرة ، راهنُ
عوائدِ الملك والبسطة ، وأنا في ظليل ظله محظوظٌ من إحسان الله وفضله ، والحمد لله .
وقد أنتنى للإصفهيد كتب تحملت من جميل قوله ما لا أستبدعه مع خلوص وده ،
وتضمنت من لطيف بره ما لا أستغربه مع خصوص عهده ، ووقفتُ على آخر ما أهدته مخاطبته ،
وأدّته مراسلته ، وعجبت من الأحوال التي كانت سبقت إلى فكره ، وانتهت إلى تضيق صدره ،
فقد علم الله مالك الشقاء والسعادة ، وعالم الغيب والشهادة ، أنى منذ وصل الله حبل المشاركة
بينى وبين الإصفهيد آخذ نفسى فى الاشفاق على بيته ونعمته ، والإيثار لمحبه ومصلحته ،
بما لا أحسب أحدا يحاسب ضميره على مثله ، ويجده فى مودّع سره ومتصفح جهره ، لأمر :
منها مكانه العظيم فى مشايخ الدعوة ، وموقعه الشريف من الإكبار والحظوة ، وتصرفه
للدولة السامية مع الاخلاص الغضّ ، والوفاء الحضّ ، فى حالى الضرورة والاختيار ، وزمانى
الكراهة والإيثار ، ومنها أن التعصب لبيته الرفيع ، وشرفه الواسع ، واجب على كل
ذى جبلة صحيحة ، وأرومة صريحة ، ومنها ما فى الطباع من مقابلة الجميل بالجميل ، ومكائلة
الود الوكيد بالإخلاص البليغ ، وقد أظهرت إلى الأيام منه ما عقدت عليه بنائى ، وانصببت
إليه بجنائى .

(١) لقب أمراء طبرستان .

هذا إلى سائر البواعث التي يكثر تعديدها ، ويصعب تحديدها ، وكان مما يُقر عيني في بابه ، ويشرح صدرى لأسبابه ، ما أجد عليه مولانا إكباراً لوزنه ، وإيثاراً لبسطه ، وتحسيناً لذكركه ، واهتماماً بأمره ، فإن وقع في وقت استبطاءٍ فعن غير تنكر ، ولا تنمر ، ولا اعتراض تغير ولا تذمر ، بل كما لا يَخْلَى من مثله الأعمام ، والأقارب الكرام ، وكيف جاز أن يتخالَج الإصفهيد رَيْبٌ ، أو يَغْشَى فكره رَيْنٌ ، بتسرّع متسرّع إلى مضارّته ، وتَعْجَل متعجّل إلى محادثته ، لم يُرَفِد بِإِذْنٍ ، ولم يُخْلَ من عَثْبٍ .

وسطرت هذا الكتاب بخطى ليزداد الإصفهيد إليه سكونا ، وعليه عكوفاً ، فلعله قد عرف مني أني لا أطلق يدي إلا بما أقبله يقينا ، وألبسه برهانا مبيّنا ، فليتحقق أن مكانه من رأى مولانا مكان لا يهتدى له الزمان ، ولا تؤثر فيه الأيام ، ولا تجري بخلاف استقراره الأوهام ، أعان الله الإصفهيد على استحفاظ ذلك بدواعيه ، وغرر مساعيه — وفيما يكتب به فلان — مما سمعه لفظاً ، ووعاه عند مولانا حفظاً — غُنِيَّةٌ دون التطويل ، وعمدة تؤثّل الاستنامة كل التأثيل ، وسيعرف من نتائجه ما يُقر الناظر ويسلم الخاطر ، ويُحمد العقب ، وينفى الرّيب بإذن الله ، فإن رأى أن يخاطبني مواصلاً ، وبياسطني مطاولاً ، فعل إن شاء الله .

٤ — وله في إظهار المشايعة والبسط

كتابي وأمر الحاضرة على ما عوّد الله فيها من الرجاء رفعةً شان ، ومنعةً سلطان ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله . ووصل كتابك بوصف ما شاهدت عليه فلانا مقاماً على أجمل ما وعد الوفاء عنه ، وشاهدته عين الثقة منه . وعرفته وسائر ما تولّيت الإيابة عن صورته ، والتحدث بحقيقته .

وقد علمت أن مودّتي لفلان ليست لدواعي الرغبة وبواعث الرهبة ، وإن كان مرغوباً إليه ، ومرهوباً منه ، وإنما قصدي عمارة موقعي من رائه ، وأن يعدّني في أوّل نصّحائه ، كما أعد نفسي أولى أوليائه ، وأن يحفظ الله نظام هذه الأمور التي وُكِّدَتْ دعائهما ، ورفضت معالمها^(١) ، وكُتِبَ حسدتها ، وقُمِعَ عندها ، ويكون ما خلص له عند مولينا راسخاً على

(١) في الأصل : معالمها .

الدهور ، وثابتاً على اختلاف الأمور ، لا ترتقى همّة الأيام إلى فسخه وتحويله ، ولا تقوى مُنّةُ الزمان على حله وتبديله ، وأن يعلم — في مصارف الأقاليم — أنى ما توسطت أمراً إلا حفظت شرائطه وحرسها ، ورفعت مبانيه التي ابتدأتها وأسسها ، لا سيما إذا كان موليانا — كبت الله حسدتهما — لا ينقضان ما أبنيه ، ولا يقفان ما أمضيه .

وكان فلان — على ما أقدر بل أتيقن ، وأحسب بل أتحقق — يُحلّنى محل من يُرجع إليه ، ويعوّل على ما لديه ، ويعلم أنه لا يريد بما ينقض ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، إلا ما هو أَرْضى لذات البين ، وأحمد على مرّ الجديدين ، وزادنى ارتياحاً لما وَرَدَ منك أن هذه الأيام التي غبت فيها شُحِنَتْ صدورُها وأعجازُها ، وبُكِرُها وأصاها ، بكتب مولانا تتضمن من ذكر فلان ما فسح لى في مذاهب الجدل ، كما حقق سوابق الأمل ، وأنكر — حرس الله ملكه — ما أقدم عليه ، وتقدم [به] ^(١) المشكو إليه ، إنكاراً كاللتنكر ، واستبطاءً كاللتنمر .

لا جرم أنى أصدرت كتابك على جهته ، وكتاب فلان كهيئته ، بعد تقديمي مخاطبات ، وإسلافي مقدمات ، اقتضاها ما كان المنابذون ^(٢) يرجفون به ، ويوجفون فيه ، من أضاليل شهدت ببطلانها ، وأباطيل نصصت على بهتانها . وتوقى قرب عود كما يُغنى عن الإطالة فلا يقعن تأخر دون التعجل ، ولا توقف دون التسرع .

٥ — وله في تحقيق الأمل وأمن المحذور

كتابى ، ومولانا سابغ السلامة والسعادة ، ونعم الله لديه مضمونة العادة والزيادة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فأنسى الله بما أحسن من تأديتك ، وأجمل من صحابتك ، وسألته أن يَكُنْفَكَ بالخيرات دانياً ونازحاً ، وصادراً ووارداً ، وعرفت ما ورد عليه من الأمير ثباتاً على وثيق العقد ، وإخلاصاً في حفظ العهد ، وكانت السعادة المقسومة لأيامه بذلك واعدة ، وعليه معاهدة ، والثقة من مولينا — أدام الله علاهما — تامة ، لا يتغيّر عليها غيب ، ولا يتمشى إليها ريب ، ولكنى بما أدين له من طاعته ، وأنصب إليه من مشايعته ، وأفرضه على نفسه من

(١) زيادة للسياق .

(٢) في الأصل : المنابذ بالإنفراد .

المشورة بما هو إلى صعود جدّه أقرب وأدنى ، وبسعود نجمه أحكم وأقضى ، أحب أن تكون الأحوال واضحة الصفحة ، رابحة الصفقة ، محروسة عن عوارض الشبهة ، محفوظة عن عوائق المرية ، لا سيما إذ كانت المئونة في ذلك خفيفة لا تُجهد حالا ، ولا توقع اختلالا ، وكانت الجنبه التي وصل الله السبب بها أعلى جنبات العالم ، وأجمعها للسلطان الشامخ والعز الراهن والملك الشامل . وكنت مع هذا المتطوق للوساطة ، والمعتنق للسفارة ، والناظر بين الموالاة والكفالة ، ولا غرض أرميه ، ولا مغزى أنتحيه ، إلا أن يحرس الله نعمه عند من عمّر صدرى بمحبة أيامه ، ويظهر منحه لمن وقف فكري على مصلحة أمواله وبلدانه ، والله يشفع هذه الشوافع بعين حوّطه ، ويدّ صوّنه . ولولا تقريبك الأمد في العود لكنت أبسط الخطاب وأفرش الكلام ، ولكنني أجد الشفاء أعذب منها ، وأقرب متناولا .

وقد أصدرت كتابك إلى الحضرة العالية ، لأدفع في صدر الأكاذيب المتوالية ، وحداني على ذلك أن مخاطبات مولانا تتابع على أيدي رسل متقاطرين ، وفيوج^(١) متظاهرين ، متضمنة من ذكر الأمير ما يشهد الله أنه رفع ناظري ، وجمع خاطري ، إذ دلّ من الاهتمام على ما لا يصدر إلا عن ذلك الكرم الفسيح ، والمجد الصريح ، ولا يُستحقّ إلا في هذا الجنب ، الواسع الرحاب ، الشريف النصاب ، وتَنوُّول من كان شكى من اللوم بأحدّه غرار ، بل من الذم بأشده إنكارا . وأما اعتداد مولانا بما يخصه^(٢) من ود الأمير مولاي فما أرضى عبارتي للإخبار عنه وإن لم تكن قاصرة لبلوغه^(٣) النهاية التي لا تُدرك ، واستيلائه على الأمد الذي لا يباحق ، ولولا إن ذِكرَ الوصل بين العطاء تنزهه عن الابتذال للوصف ، لاجتهدت في قصد الشرح والكشف . وأنا أرجو أن تُعني بقرب الإياب ، عن استعجال الجواب ، فقد أوحشت ببعدهك ، وإن آنت بحسن سعيك . وأنا أتوقع أخبارك ، وأوطارك ، إن شاء الله .

٦ - وله تودد واعتذار من اطراح الحشمة

كتابي — أطل الله بقاء الأمير صاحب الجيش — والله ذي المنّ والإحسان عند الملك السيد ، والأمير المؤيد ، مع مؤتلف الأيام ، ومتصرف الزمان ، منائح متصلة الورود ، جامعة

(٣) في الأصل : بلوغ .

(١) جمع فيج بمعنى فوج .

(٢) في الأصل : يخص .

أحكام السعود ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
ولولا علم الأمير بأن موالاته دينٌ أكمل به فرائضى ووظائفى ، ودرس أشحن به
مصارفى ومواقفى ، وأن التحدث بنعم الله فى حراسة أيامه ، ونفاسة أعوامه ، شعارٌ لا أخلُ
بإلزامه بادئا وعائداً ، ومنارٌ لا أضلُّ عن معالنه جاداً وجاهداً ، لاقتضتنى أيدى الأمير عندى
بالإفصاح عما يحنه صدرى ، ويكننه سرى ، وتتناصف فيه شرائع لسانى ، وودائع جنانى ،
وظواهر أخبارى وبواطن استشعارى . والله يديم له ما قسم من مواهب أصبح ظلها على
الناس ظليلاً ، وفضلها للخاص والعام جزيلاً ، فلم يتفرد بها حتى أفاضها مرتجلاً ومحتفلاً ،
وبذلها ملتزماً ومتنفلاً ، والله يشكر للشاكرين ويزيدهم دهر الداهرين .
ورأى الأمير أن يُصدر إلى حضرة مولانا أحد أنشاء خدمته ، وأغذية نعمته ، ليؤدى
فصولاً يحملها ، ويعود من سائر الأنباء بما يوفر السرّة ويكملها ، فصدر فلان ورسم أصحابه
ما تقبض خفة قدره عن إجراء ذكره ، وإن كان المراد فيه تصيير الاسترسال فرصة توجّد ،
ونهزة تعتمد . وإعلم مولانا الأمير بأننى آخذ نفسى للأمير مأخذ المقيمين بحضرته ، المنفردين ^(١)
بخدمته ، ما رسم لى أن أكتب ، معرباً عن الغرض فيما أصدر ، ليتجه العذر إن استنزل .

٧ — وله فى استعطاف وتودد

وصل كتاب الأمير محمد عبده ؛ على كريم عادته عنده ، لما خدم فيه من أمر الخطابية ،
حتى جرى على الطريقة الواجبة ، فلبس عبده بذلك شرفاً لانطمع الأيام فى خلعه ، وادّرع
مجداً لا يتطلع الزمان إلى نزعه . وبواعث الأمر على ما يوافق محاب الأمير ، أكثر من أن
يحتاج معها إلى اجتهاد سفير ، وجد نائب ومشير ، إذ هو — أعز الله نصره — يستقصر
فى مسرّته ما يعظم عن درك العيان ويكثر عن حد البيان . يوفتنى الله للخدمة التى فى حجبها
رُبيت ، وبلبانها غُذيت .

٨ — وله فى شكر وملاطفة

كتابى — أطل الله بقاء الأمير — ومولانا سامى الراية مظفرها ، وافى السعادة موفرها
ومولانا المؤيد معمور ساحة العز ، محروس عرصة الملك ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

(١) فى الأصل : المنفرد .

ووصل كتاب الأمير على عادته المظهرة كل وقت فضلا جديدا لم يشهد ، ومنّا عظيما لم يُعهد ، وإحسانا وسيعا لا يضبط قُطْراه ، وامتنانا رحيبا لا ينقطع عصره ، وأنبا من استقامة أمور حضرته ، واستيفائها لشروط محبته ؛ عما إذا قارن النعم العظام أوفى ^(١) عليها وزاد ، واستغرق طاقة الشكر أو كاد ، وسألت الله — سؤال مَنْ قَوْلُهُ كسريّة صدره ، وسيان لسانا سرّه وجهره — إطالة بقاء الأمير في عزٍّ مستجد لا يُخلق ، وأمل مُدرك لا يُخفق ، وابتناء للمكارم يستوقف الضمائر على محبة أيامه ، ويستخلص السرائر لاستدامة زمانه .

وعرفت ما اعتزمه ^(٢) الأمير من تعهد سيدي أبي فلان برسول يؤدي إليه شريف ما يحمله ، ويظاهر عليه ما يتعهد به جميل خطابه ويتخوّله ، وأنه حين ذكر خبر انكفائه عن وجهته ، رأى العدول إلى أفراد الجمز بمخاطبته ، شيمة منه — أدام الله تأييده — عظيمة في إسباغ البر على من قرب بحضرة مولانا موقعه ، وعظم في ظله الكريم مشرعه ، وقد وصل الكتاب إليه ، فأكبر مَطْلعه عليه ، وشكر جميل التعهد شكرا لم يدخره مضاعفة وزيادة ، ولم يسأله بدءا وإعادة ، وصارت هذه اليد مما يكثر اعتداد الملك بها إذا رقي خبرها ، كما اعتدّ بها مولانا الأمير المؤيد لما أنهى موردّها ومصدرها ، إذ ^(٣) كان فلان مرموقا بالدولة — ثبتها الله — لقرّبه وزلفته ، وحظه وحظوته ، فإن رأى الأمير أن يخاطبني أمراً وناهياً ، لأجيب مؤتمراً ومنتهياً ، فعل إن شاء الله .

٩ — وله تودد وشكر واستعطاف واعتداد

كتابي ومولانا الأمير المؤيد فيما يواصل الله إلى عراض غره ، من مزيد إحسانه وفضله ، ويحرس من حمى أيامه وكنف ملكه ، على أحمد ما تسمو له الآمال ، وأسعد ما يساعد عليه الإقبال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدي موصل المسارّ ومسنّيتها ، ومتحمّل المبارّ ومهنّيتها ، فتعرفت البركة به مطويا ومنشورا ، واستملت الغبطة عنه فصولا وسطورا ، وفكّته فبشر من انتظام الأمور بحضرة الأمير بما أجد النعمة فيه تنظم الشاهد والغائب ، وتخص الأبعد

(٣) في الأصل : إذا .

(١) في الأصل : وأوفى وأسقطنا الواو

(٢) في الأصل : اعترفه

خصوصها الأقارب ، إذ كان الله قد جعل محامد أيامه شائعة لا تنفرد بطرف دون طرف ، ولا تحد بكنف دون كنف ، والله يديمها محفوظة عن هم الزمان أن تنالها ، وآمال الحداث أن تتصدى لها .

وعرفت من خبر سيدى فى عافية يسبغ الله ثوبها عليه ويضيفه ، ونعمة يسوغ شربها له ويضيفه ، ما لا تعدونى ثمرته ، ولا تخطونى نتيجه ، بحكم الأحوال التى جمعنا الله عليها ، وأجرى بأسباب مودتنا إليها ، فإنى إذا وقفت خنصرى لأثنيه على أكرم عهد أحرزته ، منذ صحبت الزمان وسبرت الأنام ، كان عهدہ الذى أستوزع الله شكر الموهوب منه ، وأستصرف عيون الكمال ولحاظ التمام عنه ، والله يواصل له ما أعطى وخول ، ويملى أهل وده الجمال بفضله وقد فعل .

والذى وصف سيدى من الأسباب المنعقدة بين مولانا ومولای أبهر ضياء ، وأرفع سماء وأشرف مناظر ، وأفسح مبادئ ومحاضر ، من أن يأتى عليه الذكر ، وإن اشتغلت به الأيدى الكاتبة ، والألسن القائلة ، واشتركت فيه القلوب الحافظة ، والأذان الواعية . وأما الاسترسال فى الألفاف ، المتوسطة حالتى الإخلال والإسراف ، فهو الذى يشرق له أفق المشاركة ، ويعمر به طريق الثقة الصادقة ، وللأمير من الابتداء بهذا البر والعود فيه ، والافتتاح له والرجوع إليه ، ما لا يجارى إلى أمده ، ولا ينازع فى قصبه ، كما استولى من كل فضيلة على سبقها ، وأخذ فيها بأزمة حقها .

وما رأى — وفق الله آراءه وأطال بقاءه — تجديده الآن منه قد عرضه فلان أجمل عرض ، وأخذ من اعتداد مولانا بأوفر حظ ، ورآه نتيجة ودّ يقتضى بالجميل وصالا ، ويستدعى الحسنى منه حالا فخالا . وتصرفت فى القول من الجنبتين كفاء تحقيق بهذه الحضرة البهية ، وتخصصى بتلك السدة الزكية ، فإنى وإن كنت بعيد الدار عن الأمير فالإخلاص البالغ يدنينى من رائه ، ويقربنى من ولائه .

ولما تيسر عود فلان خاطبت سيدى على يده شاكرًا كتابه الواصل وبره المتضاعف ، وقبل ذلك بما يمهده بحضرة الأمير من موارد قولى وفعلى ، ويصوره من خلوص نيتى وعقدى .

١٠ — وله تأنيس بجميل الرعاية وبعث على الزيادة فيما يكسب حمدا

كتابي ومولانا الأمير موفور أسباب العز والتمكين ، محفوف بالسلطان الراهن والنصر المين ، وأنا سالم بصعود حكمته ، وسعود خدمته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك على حين تطلعت وتشفقت ، وارتقبت وتوكت ، أنسا بخطابك ، وثقة بودادك ، ومراعاة للحال معك^(١) ، وإجابا صادقا لك ، وقبل ذلك ، لما كنت أعرفه من جميل رأى مولانا فيك ، ومحافظته على سوابقك ودواعيك ، وملاحظته لجارى أمورك ، ومصارف شئونك ، بعين كرمه ، التي لا ترقد عن خدمه .

وقد كان العذر في تأخير الكتب عن الديوان المعمور ، وإبطاء الرسل على الباب المسعود ، واضحاً لا يغير صورتك ، ولا يبدل منزلتك ، وقد عرضت ما ورد منك فصادف من تقبل مولانا وإصفائه ، ما أوجب حسن عنايته ورائه ، وصدق — حرس الله عنه — قولك ، وتمثل — أغر الله نصره — أمرك ، ورسم الكتاب إلى حضرة الملك بالشكر لما أظلك من إنعامه ، وقسم لك من شريف اهتمامه ، وذلك مستثمر من مزيد الرعاية ما يستهل إلى الطالب ، ويؤمن من أسباب المحاذر ، وسأعرض على فلان ما ينبي عنه الديوان من معاملتك ، وما كان الأمر جاريا عليه من موافقتك .

ويجب الآن أن تعمر ما أمسته من تحصيل القرية ، واستمداد الزلفة ، بالكتب فإنها تمهد من موقعك بالحضرة ما يجذب بضبعك ، ويختصر الطريق إلى مآرب نفسك ، وتصادف لدى من المعونة والعناية الموفورة ما تستوجهه بفضلك وأصلك ، ومحامد أمرك ومكارم نجرِكَ .

الباب السادس

في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة
وتهجين العقوق بين ذوى الأرحام وما يشاكل ذلك

١ - كتاب في مشايعة وإطلاب وشفاعة

كتابي - أطال الله بقاء السلار^(١) - ومنأخ الله عند الملك السيد ، والأمير المؤيد ،
متضمنة من وفور النجح ، وفوز القُدْح ، وتظاهر القدرة والإمكان ، وتضاعف القوة
والإقران ، ما يشرح صدور الأولياء ، ويجمع أحكام السراء ، وما أخدمهما فيه جارٍ أحمد
مجاره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
ووصل كتاب السلار ، فصادف لدى المنة التي لا أخلو من لبسها ، ولا أنفك من اجتناء
غرسها ، وتعرفت من نعم الله لديه ما أجده يعم طبقات الفضل ، ويرفع درجات المجد ،
والله تعالى يواصل المواهب إليه واضحة الوجوه ، ويوزعه من شكرها ما يضطلع بالوجوب ،
إنه يفعل ما يشاء .

وعرفت ما ذكره السلار في معنى فلان ، وعرضته ، وكشفت عن الغرض وأوضحته ،
فقال الأمير : إن هذا الحديث لو لم يكن متصلا بابن يجب كفه عن هجنة العقوق
ووصمته ، ودفعه عما يحاوله بفضل غرته ، بل كان مع أجل منازع للسلار ومراجم ، ومضاد
في ناحيته ومزاحم ، لما وجد عندنا وعند من تعلق بجملنا إلا الإبعاد والإسلام ، والانتقام
والاصطلام ، إذ لا ترى نعمته - فيما يجب من غض الأطماع عنها ، وقبض الأبواع دونها -
إلا لخالص نعمنا ، وخاص المالك المتوسطة له ولنا .

وقد رسم - أدام الله ملكه - لي ، فأمرت كلا من فلان وفلان بزجر من يتصرف

ابراهيم ، وقد مر ذكرها في ص ١٦ .

(١) سلار معناها سردار أى قائد . وهو لقب
لأمرأ أذربيجان ، ولعله المرزبان ، أو ابنه

في جملهم ، ويعتصم بسببهم ، عن معاونة المسف إلى العقوق ، إن التوى به الطريق ، وانزوى عنه التوفيق ، بل أمروا بأن يكونوا له حربا ، ومع مدافعيه من أصحاب السلار إلبا . والسلار يرى في إعادة فلان رأيا ، فقد طال الأمد ، وكثر الوعد والتردد ، والإيجاب إذا تمدى زمانه ، وتراخت أيامه ، نضب ماؤه ، واقتضب رواؤه .

٢ — وله في الدعاء إلى الطاعة والسكون

إلى كتاب أمان وما بسط من الأمانة

كتابي ومولانا معمور الساحة بالعز والملك ، وأنا في ظله سالم النفس ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وقد أنفذت إلى حضرته نسخة المئين التي حلفت بها في تسليم القلعة والضيعة معها إذا أومنت ، وأقطعت ما رمت ، فحمدت الله تعالى على أن هداك وأرشدك ، وسألته أن يوفقك ويسدّدك ، فإني أعلم أن الضرورة دعتك إلى ما ركبت ، وأوقعتك فيما فعلته ، وصورت ذلك في المجلس الشريف حتى تنجزت لك أمان مولانا بكريم صفحه ، محتوما بعالي ختمه ، ووقعت فيه بخطي عن نافذ أمره ، وضمنته كذا إلى ذكر الإقطاع ، ومزيد الاصطناع .

وعرفت أنك تؤثر التسلم ممن يصدر عن الحضرة البهية فتسكن إلى مكانه ، وتركن إلى كلامه ، واخترت فلانا إذ كان مع موقعه من رأى مولانا وإيجابه ، وتقدمه في أكابر حاشيته وحجابه ، يختص بجنبتي كل الاختصاص ، ويحل عندى محل ذوى الإيثار والإيناس ، فأضغ لكلامه الذي تحمله ، واغتم الحظ في وقته لتحصله .

وياك والمدافعة والمراجعة فإنهما يهدمان ما قد بينته لك ، ويثلمان ما مهدته عنك ، واعلم أنك إذا فعلت ما رسمته تقدمت بكذا ، وما بعد هذا أمد يُنزع إليه ، أو يُعَوَّق الأمر عليه . وفلان يؤدي إليك ، ما تحقّقه هذه المواعيد لديك . وأسأل الله — تعالى — لك العصمة من الخلل والزلل ، والتعرض لما لا طاقة به ولا قبيل .

٣ — وله في إيناس نافر وإحماد ساع

كتابي ومولانا عزيز النصر والأولياء ، منصور الراية واللواء ، وأنا بدولته سابغ النعمة ،
والحمد لله وليّ المنّة .

ووصلت كتبك فأحطت علما بما شرحته ، وعرضت في المجلس العالي ما أوضحت ،
وكشفت عما أتيت به جدّا واجتهاداً ، واستغراقاً للطاعة واستنفاداً ، وسألت الله تعالى أن يحضرك
من التأييد والتسديد ما تسلك به أحمد الطرق وأسعد السبل بمنّه . وقد أحمد مولانا خدمتك
إلى حيث انتهيت ، واستصوب كثيراً مما أنهيت ، فأما اضطراب الرجل بعد أن حلف
واستجاب ، والتمس الاستقالة واستجار ، فليس إلا لتخوفه منك ، وتحرزه عنك .

ورأى مولانا إخراج فلان وأصحابه كتب الأمان والوعد بالإقطاع وإمضاء ما يوجب
للرجل باتفاق واجتماع ، ومشافهته بما يذكره فيستمع له ويعمل به ؛ لأن ذلك الإنسان إذا
أبصر رشده ، وعرف قصده ، فقد صلحت حاله واستقلت ، وثبتت قدمه واستقرّت ، وإن
كان منه بعد ما بذل إصراراً — ولن يكون — فلا انتقام قريب ، والاضطلام مجيب .

وسنبليح بإذن الله تعالى ما يتأدب به كل جامع^(١) في عنانه ، وطامح إلى ما ليس من
شانه ، وأنت تقدم العمل بما رسم ليلتقي فلان وفلان مع الرجل فيؤمن ، ويجمّل وعده ويحسن ،
ويؤتزم له الوفاء ويضمن ، وينزل عن القلعة ، ويفرج عن الضيعة ، ويرتب فيها من
الخواص المقيمين هناك من يسكن إليه — إن شاء الله — القوم ولا ينفرون عنه ، إلى أن
يرى مولانا على رأيه فيه إن شاء الله .

٤ — وله

كتابي — أطل الله بقاء السلار — ومولانا على أحسن ما عود الله خدّمه عليه ،
علوّ شان وسعادة أيام ونفاذ أمر فيما قرب و بعد ، ومضاء حكم على ما غاب وشهد ، وذلك
بتفضل الله ومنّه ، ونظره وفضله ، ثم بدولة مولانا الملك ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على
النبي محمد وآله أجمعين .

(١) في الأصل : جامع .

ووصل كتاب السلار مفتتحاً بما عهده من جميل يُجزّل منه حظي ، ويُستنفد له شكرى ، ويُستوقف عليه إخلاصى وحمدى ، فسألت الله أن يديم له المنح واضحة الوجوه والسبل ، ويظهر عليه النعم متراخية الزمان والأمد ، ولا يُعدمنى التحمل لأيديه ، والتجمل بما يوليه ، وهو — تعالى — ولى الإجابة .

وعرفت ما قاله السلار بذكر فلان فيما كان عقده له وعهده إليه ، ورسمه به وأنعم فيه عليه ، وتدبرت مساق الحديث إلى حيث وصف : أن أ كابر الولد يستزيدون إلى ما كانوا رضوا بقدره ، ويستضيفون إلى ما كانوا استجابوا إلى أخذه ، ويحاولون أن تُبتدأ قِسْمَة ، ويُؤفّقوا إلى تلك السهمات سُهمَة ، وتصورت ما اتصل به من حديث حللانا^(١) فيما كان وهب منها ، وحظر الآن من ارتجاعه عن اليد المتصرفه فيها ، للعلة التى ذكرها ، والصورة التى شرحها . وأنهيت الجميع فى المجلس العالى فأصغى له مولانا إصغاءه إلى مثله ، فيما يرد من خطاب السلار ومهمه ، وقال فى جوابه : إن هذا الأمر لسنا نريد فيه إلا ما هو لذلك البيت أحفظ ، ولشملة أجمع ، ومن أسباب الخلاف فيه أبعد ، ولليوم والغد أحوط ، ثم لا نرضى بأن نقول فيه إلا ما نرضاه من مصارف آرائنا إذا أمضيناها ، وعزائمنا إذا أجريناها ، فغاية النصيح أن يرضى المرء لأهل وده ، ما يرضاه ويحبّيته لنفسه .

وهذا الذى عقده السلار ليس بيسير ، فيُطلق القول بنقضه ، وما أقسم عليه ليس بخفيف فتستجاز الرخصة فى نكته ، بل العهود توقع على وجه الزمان ، والقسم فيها يوضع للتأيد على الأيام ، فحلّها وهى ، والرجوع فيها وهن . ذلك لو كانت المدة متمادية ، والمهلة متراخية ، فكيف والعهد طرى ، والتاريخ فتى ، والدكر قد اضطرب ، والخبر قد شرق وغرب ، وعندنا أن السعى فى إبطال ما أمضى وفسخ ما أحكم هو الذى يغمر تلك الصدور بالسخائم ، ويشقب فى القلوب نيران الضغائن ، فلا يدع للخلاف باباً إلا فتحه ، ولا للنزاع زندا إلا قدحه . والسلار بعد ذلك أولى باختياره ، وأحرى بإيثاره ، وأخلق بتدبير بلاده ، وأحقّ بهذيب أولاده ، فما عندنا أن أحدا منهم يشجع — إذا جُزم عليه الأمر ، وساوى السر الجهر — بمخالفة حكمه ، والالتواء على رسمه ، وقد اعتدنا بأن واضعنا ما فى صدره ، وأطلعنا على ما فى نفسه ، توفيةً لحقوق المساهمة ، وفروض المودة القائمة .

(١) فى الأصل هكذا وربما كانت اسم موضع أو بلد .

وقد أديت — أدام الله عز السلار — ما استملت عن لفظ مولانا ، وهو عندي وجه
الرأى الذى لا خفاء به ، والسلار أعلم منى بالصواب فى مثله ، أجرى الله أموره ، وفق^(١)
اختياره وأنفذ فيها أقداره بإيثاره ، إنه فعال لما يشاء .

٥ — وله

كتابى — أطل الله بقاء الشريفين سيدى وكبرى — عن سلامة مولانا الأمير
مؤيد^(٢) الدولة ، وانتظام أمور سلطانه ، وعافيتى بدولته وعلوشانه ، والحمد لله رب العالمين ،
وصلاته على خيرته محمد وعترته .

وقد علم الشريفان أن الصلاح تجتمع أطرافه ، وتُحرسُ أكنافه ، باطراح الظفائن^(٣) ،
وتسوية الظواهر والبواطن ، والأخذ بالخلق السمح ، وترك المشاحة والشح ، وأن المعارة
تورث التباعد ، وتزيل التعاون والترافد . والأشراف العلوية بقزوين بينهم وبين سائر
الطوائف شحنة لا تكاد تسقط جمراتها ، ولا تنجلي غمراتها ، وقد كتبت فى ذلك كتابا
أرجوه يجمع على الألفة ، ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك المنازعة ، والجنوح
إلى الموادة ، فإن المهادنة تحمل بين الملتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسأل توفيقاً
لأنفسنا ولهم .

وإذا عرفت لما يجرى من ذلك تأويلا ، وإن كان ضعيفا ، فليت شعرى لم بين
آل أبى طالب — أيدهم الله — تمار وتباغض ، وتناء وترافض ، وشر قد تعدى إلى إراقة
الدم ، وقطع العصم ، ونسيان الذم ، وبيت الرسالة يجمعهم ، وظل النبوة يكتنفهم ، ورحم
الوصية تؤلفهم ، وهل ذلك إلا من حبائل الشيطان ومكائده ، ونزغاته ومراصده ، وقد
اعتمدت الشريفين لأمرين عظيمين : أولهما وأولاهما إزالة هذا التنازع والتقاطع بين بنى الم
حتى يكونوا متوازيين متعادلين ، إخواناً متقابلين ، وإن احتاج بعض إلى احتمال ضيم
لبعض ، والتزام هزيمة وغض ، فالدين يقتضى ذلك اقتضاء لا رخصة فى تركه ، ولا تأويل
فى حله ، ولا عذر فى هجره .

(٣) هكذا فى الأصل بإبدال الضاد ظاء .

(١) فى الأصل : ووفق .

(٢) فى الأصل : المؤيد .

وأنا أتوقع ما يكون من هؤلاء الأشراف — أيدهم الله — في الاستجابة لما رسمت ،
والتزام ما ألزمت ، ومن الشريفين — أيدهما الله — في إصلاح ذات البين والصبر على إيقاع
الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستعادة الائتلاف ، وإمالة الاختلاف ، إن شاء الله تعالى .

٦ — وله

إن الله — سبحانه — حين استكفى مولانا من أمر بلاده ما استكفى ، واسترعاه من
حال عبادته ما استرعى ، وأتاه السياسة التي يُضرب بها المثل ، ويعتدل بها السهل والجبل ،
وحى أيامه من الفساد ، بقدر ما شحنها به من السداد ، ألهمه أن يتصفح مصارف الرعية
ومذاهبها ، ويستشف مواقفها وضرائبها ، ليجزى المحسنين إحساناً عالياً ، والمسيئين^(١) إساءة
وتقويماً ، فيكون الخير دولةً بين الأَكابر والأصاغر ، وفرصة بين الوارد والصادر ، والعدلُ
شاملاً لمن لزم الطريقة المثلى ، وأقام على المحجة الوسطى ، والعقاب حالاً بمن زاغ عن سواء
السبيل ، وراغ عن ضياء الدليل ، والله يحفظ على الرعايا ظله ، ولا يُعْدمها فضله وعدله .
وهذه مقدمة اقتضاها ، وأوجب الإطالة في معناها ، ما قد شجر بين أهل قزوين
— أحسن الله كلاً منهم — من خصام تنفق أسواقه ولا تكسُد ، وتهب رياحه ولا تركُد ،
ونزاعٍ تتصل مواده فلا تنقطع ، وتطبق غمامه فلا تنقشع ، فهم دائماً بين تباينٍ وجدالٍ ، وتباغُذٍ
وقتلٍ ، وتهاجُرٍ وتقاطُعٍ ، وتظالمٍ وتنازعٍ ، وما جعل الله في التدابر صلاحاً ، ولا أرى في تركِ
التوازر نجاحاً . وقد زاد جهَّالهم إغراءً ، وأغمارهم إغواءً ، أن هذه العَوايَا قد طال أمدها ،
واتصلت مُدَدُها ، وتراخى زمانها ، وانبسط عنانها ، فهم يقدرُون أن الاحتمال والإهمال ،
والتغافل والإغفال ، سيستمر على طريق قد ألقوه ، ومجاز قد عرفوه ، ولا يدرون أن لكل
أجل كتاباً ، كما أن لكل ذنب عقاباً ، وأن مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — لا يُضْطَلَّى
بنار إنكاره ، إذا أقام المَعذرة بإعذاره ، ولا يُوقَف لحر انتقامه ، إذا وفى الإنذار أوفر أقسامه .
ومن قواعد الفساد أن هناك زعماء للعوام ، يحسبون محالهم تحفظُ بنصرة السفهاء إياهم ، وركوبهم
الصعبَ والذلَّ في هواهم ، فهم يحامون عليهم ويدافعون ، ويذودون دونهم ويمانعون ،
فجل الرعية مَمْنُونٌ بما يجرى إليه هؤلاء المتهوكون ، والفساق المتهتكون .

(١) في الأصل : المسيء .

ولقد ورد الباب المعمور من الأشراف العلوية — أدام الله عزهم — من حكي العظام التي تُسْتَفْطَعُ أخبارها ، ويُفَرَضُ إنكارها ، لولا ما أوجبه الدين من التبيين قبل الإقدام ، والتثبت قبل الانتقام ، حتى قالوا إنهم يُمنَعون عن التسوق والتكسب ، ويُتَعَمَدون بالتبعية والتطلب ، ويُخَوَّجون إلى حراسة أملاكهم عن الغارة ، ومنازلهم عن الإيابة ، وما ظننت ذلك يقع في فهم وفكر ، فضلا عن أن يُشَكَّى عن مرأى عين ومسمع أذن ، مع أنى قد تحوّلت هؤلاء الواردين — أيدهم الله — بالموعظة والتبصرة ، وأطلت عليهم بالتعريف والتذكرة ، وعرفتهم ما يلزمهم من حراسة شرف المناصب ، بشرف الأعمال والمذاهب ، وحماية كرم المناصب ، بالثبات على القول الثابت .

وسيلك ، يا أخى — أطل الله بقاءك — أن تعقد جمعا تحضره الوجوه والأعيان والأمثال ، والصدور والأفاضل ، دون الأذنان الذين لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يعون ، وتقرئهم كتابي ، فإن الله يعلم أن بغيتي صلاح عامتهم ، وحصول الخير لجماعتهم ، واتفاق كلمتهم ، وارتفاع الشر من جملتهم ، لا أن طائفة تلزم العدول عما اختارته من مذهب وعقيدة ، واجتنبته من نحلة ضالة أو رشيدة . فالخلاف متقادم بين الجماعة ، لا يرتفع إلى قيام الساعة ، وإنما يأمر السلطان بأن يلزم كل ما تخيره من دون مشاركة ، وينفرد بما آثره من غير مضارة ، فمن انقاد لحكمه ، ووقف عند رسمه ، كان قد حمى روحه وماله ، ومهجنه وحاله ، ومن أضرم للفتنة نارا ، ورفع لها منارا ، كان قد أباح من نفسه المخطور ، ومن ملكه المحرم المحجور ، ولحقه من النكير ما يتركه سُمعة رادعة ، ومثلة وازعة .

وقوام ما بعثت عليه ، ودعوت الكافة إليه ، أن ينفي كل قوم من في جملتهم من خارب وداعر ، وناثق في الفتنة وناعر ، وأن لا يقاروا المتسمين بالعيارة ، والمتوسمين بالشطارة ، بل يقبل كل قوم على أمورهم ومكاسبهم ، وشؤونهم ومطالبهم ، شاكرين لله تعالى على كلمة الإيمان ، وعدل السلطان ، وخصب الزمان ، مستعيزين به من الأفعال التي تغير ما بهم من نعمة ، وتحل ما يخشى من نقمة .

وهؤلاء الأشراف — أيدهم الله — فليعرف لهم الانتهاء إلى من هدى الله به الأمة ، وكشف الظلمة ، وأنار الدين ، وأبار المشركين ، وهدى إلى صراط مستقيم ، وكان رءوفا

بالمؤمنين ، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ، وكما يلزم ذلك لهم فليُبْعَثُوا على ما يلزمهم
إكبارا لمشيخة العلماء وأعيان الفقهاء — أغرهم الله — ورفقا بسائر الناس ، وتنزها عن
المعار والأدناس .

ثم إن نفعت هذه الفصول في أهل تلك البلدة ونجعت ، وكفّت وكفّت فالحير أردنا ،
والصلاح قصدنا ، وإن عاد عائد إلى ما أنكر ، وأقدم على ما حُظِر ، فأنه — أيدك الله —
حاله ، ليناله ^(١) في جسده وذات يده ما يُزِيل عنه نزوات البطر ، وغفلات الأشر ، وأنى
ذلك ! فمن تعدّى طوره ، وتخطّى قدره ، فلا يُنْقَبِضُ بعد توقيفه ، عن تثقيفه ، وبعد الإنذار
إليه ، عن الإنكار عليه ، وامتدّد على العلوة ظلام الإغراز والإكرام ، يؤمنهم معارّ الجهال
والطغام ، إن شاء الله .

٧ — وله

كتابي — أطال الله بقاءكم — ومولانا الأمير فيما يظاهر الله من غره ، ويُعْلَى من رايته
وأمره ، على أسرّ الأحوال إلى خدّمه ، وأنا معافى بدولته ، مكنوف بنعمته ، والحمد لله
حمد الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكنت أقدر — أغركم الله — أن كتبكم تتابع إلى حضرتي فانقطعت ، وأحسب
أن رسلكم تترادف فتأخرت ، وزادت معاذيركم ضيقا لما انصرفتم عن مشايعتكم ^(٢) ، فلم
تقدموا أنباءكم إلى ، ولم تقرّروا صورة مرجعكم لدى .

وقد رسم مولانا أن ترّدوا الباب المعمور لتجدّد مناظراتكم ، وتقرّر معاملاتكم ،
وتُضَيّ إقطاعاتكم وخيفاراتكم ، ويتوسط أبو عيسى أحمد بن إبراهيم أمور رهائتكم ، وتجروا
في مشايعته على ما عهد إليكم ، ورسم لكم . والخيرة لكم — أغركم الله — في التعجل ،
وترك التهل ، وإغذاذ السير والإعراض عن التوقف ، ففي الإبطاء ، ما يعرض للأئمة
والاستبطاء . وليس يَحْتَلُّ عليكم ، ما سبق من إحسان الأمير المؤيد إليكم ، إذ وطأكم بساط
خدمته ، وكنفكم بجناح نعمته ، ووسمكم بميسم الاصطناع ، ومهد لكم وطاء التكرمة والإقطاع ،

(٢) في الأصل : مشايعتكم .

(١) في الأصل : وليناله .

ولولا هنات ، وزلات وعثرات ، لما لحقكم فضل استقصاء في ارتهان من ارتهن ، وامتهان من امتهن .

وهذا أوان التلافي لفرطاتكم ، والتدارك لغلطاتكم ، لتعود صوركم كأجل ما عهدت ، ومنازلكم كأقرب ما تعودت ، فقابلوا مارسم بالمسارعة ، وحسن الانقياد والمتابعة ، ولا تجعلوا كتابي هذا عُرْضَةً لجواب تتكلفونه ، واعتذار تزخرفونه ، وإياكم وسلوك طرق التحكم التي لا تحمد مصائرهما ، ولا تستعذب مواردها ، فإن السلطان إذا استعطف كان إسعافه أقرب ، وإنعامه أخلق . وإن ذهب ذاهب منكم عن الطريق الذي نهجته ، وأخل بالذهب الذي أوضحته ، فإلى نفسه قد أساء ، وعليها جنى ما شاء ، وكان بها مُعَرِّضاً ، وللنكير متعرِّضاً ، ولسوالف حُرْماته مُضِيْعاً ، ولدم رهينته مُشِيْطاً .

وأنا أرجو أن يحضركم من التوفيق ما يصلح فاسدكم ، ويؤلف شاردكم ، ويجدد ذرائعكم ، ويكثر شوافعكم ، فتدبروا — أعزكم الله — ما أوردته من الخطاب وأصدرته ، وأبدأته من القول وأعدته ، فإني لم آلكم نصحا ولا تبصيرا ، ولم أدخر عنكم تنبيها وتذكيرا ، بل دعوتكم إلى ما عليكم تظهر عائدته ، ولكم تحصل فائدته ، ورجوت معه أن تكون الصنيعة لديكم زاكية ، والنعم عليكم وافية ، فلا تجاوزن عن هذا الخطاب بأن القلوب تنافرت ، والنفوس انزعجت ، لا اعتقال من اعتقل ، فإن ذلك ما استُجِيز ولا فُعِل ، إلا بعد جرائر وجرائم ، وكبائر وعظائم ، وبعد أن ردعنا فلم تردعوا ، ومنعنا فلم تمتنعوا .

ولو لم يكن في استخدامكم رغبة لما احتيط عليكم ، ولا استوثق منكم ، ولتركتكم سُدىً تفرقون كيف شئتم ، وتمزقون كيف أحببتم ، ولكن مولانا أدبكم ليستصفيكم ، وهذبكم ليدينكم ويخلصكم . وعلم — كبت الله أعداءه — أن الذي أسلم أموركم للخلل ، وأفقدكم الصواب في القوز والعمل كان لتحزب أهوائكم ، وتشتت آرائكم ، وأنفة كل واحد من الانقياد لصاحبه ، وذهابه بنفسه عن وطء عقبه ، فتجرى — أدام الله أيامه — جمع كلمتكم على من تقدمت له الرياسة فيكم مكتسبة ومستورثة والإمارة بينكم متقادمة ومستحدثة .

وكل ذلك مما يقتضى صفاء نياتكم وعقائدكم ، واستواء غائبكم وشاهدكم ، وأن تعرفوا حق النعمة فيه بتجنب جحودها ، والقيام بوظائفها وشروطها . وقد تحمّل فلان في المجلس

العالى ما يؤديه على جهته ، ويحكمه لكل على صورته . والله وليّ التسديد ، وعليه التعويل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٨ - واه

وصل كتاب السلار قد أعارني فيه من أوصافه الجميلة ، ما تجاوز أحكام النعم الجسيمة ، إلى ما يريب الريب من لبه ، ويغطي عليه مصارف فعله ، و^(١) كساني من التقريظ ما لا أعرف به نفسى ، وإن أملت استحقاقه بما نبه عليه من أمرى .

والسلار ينظر إلى أحوالى بعين الود ، وطالما قد حسنت القبيح ، وكثرت القليل ، وعظمت اليسير ، وإن كانت لى محاسن فى معدودة فى قطرات بحره ، ومكرّمات فخره ، إذ كنت من تلاد بيته ونعمته ، وفى عداد الخصوصين برأيه وبركته . وأعود لحديث فلان وما قاله السلار فيه واصفاً مصارف الأيام ، ومواقف الاهتمام ، ومجارى العزم ، ومسالك الرأى والفهم ، وما رآه فى بابيه ، وارتضاه له من أسبابه ، فسألت الله للسلار طول المدة ، وتراخى المهلة ، وثبات الوطأة ، وحراسة المهجة ، ما كان للفلك مجرى ، وللنجم مسرى .

وصادفت ما أنكر فيه ، مضاهياً عزائمى التى يكنفها التوفيق من جوانبها ، ويلتحف التسديد على أنحائها ومذاهبها .

وعرضت الكتاب فى المجلس العالى فقال مولانا : إن فلانا كان خاطبنا السلار بذكره ، وخطب ما خطب فى أمره ، وبعد فهو نجيب بيته ، ووسيط أهله ، وغصن من شجرته يُرجى ثمره ، ويؤمل تكثيره ، وطاعة السلار علينا بالأبوة ، والاصطناع إليه فريضة لا تُهمَل ، ولازم لا يُضاع ، ونحن نحب له ما أشير إليه ، ونشير بمثله عليه . وقد كاتبناه وحضضناه على ما فيه حظّه من حضور السلار متصرفاً على حكمه ، وممثلاً لرسمه ، وروسل على لسان فلان ما يزيد فى انشراح صدره ، وإمضاء عزمه . وأقول مع هذا عن نفسى : قد علم السلار أن فلانا وإن كان نسبته إليه أدنى ، وهو بتدبيره أحق وأولى ، فهو لمولانا ولد قد اصطفاه ، وعضد قد ارتضاه ، فالعيون تطمح إلى ما يوليه السلار عند هذه الحال ، وما كان منه إليه فهو بعين مولينا وأذن ، لا سيما إذا كان بعد مشورة من عنده وإذن .

(١) فى الأصل : أو .

٩ — وله

وصل كتابك تذكر موردك على سيدى ملقى من الإكرام بتلقيه ، ومن الإيثار بتحفيه ،
ما خصنا منه ولزنا حمده ، وتصف ما صادفته عليه اهتزازاً لما أدّيته ، وارتياحاً لما أنهيته ،
وعلمنا بأن الذى كرّر على سمعه ، واعترض بينه وبين حزمه ، من اختلاف أعداء لنا ، وله ،
طالما اعترض الشجى فى حلوقهم ، وتردد القذى فى عيونهم ، وظنوا أن الذى يسعون فيه يروح
عن قلوبهم ، ويفسح فى آمالهم وظنونهم ، ولم يدروا أن وراء ذلك من تكفل الله ما يعيد
أمانهم على أدراجها خاسرة ، وأيديهم دون امتدادها قاصرة . وتمثلنا ما كان منه استقراراً
فى مركزه المعمور بالرشد ، وتصرفاً على أحكام رأيه الصدق ، وعزمه الثبت ، وإفصاحاً
بالتزام أحكام الصفاء ، وخلوص العهد والوفاء ، وقد علم الله أن الذى كان يسوء مما جرى
ويُثقل ، ويُخرج ، ويُزعج ، ويكدر صفوة النعمة فى الموهوب منه إذ كان قسيم المهجة ،
والشريك قبل النعمة ، فى العمر والمدة ، تقدير أعداء الدولة أن الذى ابتدأه إلى تمام ،
وما أنشأه إلى نظام .

فالحمد لله الذى أرى القريب والبعيد والدانى والسحيق أن على ألفتنا عينا منه كائلة ،
ويدا من رعايته واقية ، فإذا عنت شائبة لم تلبث أن تقشع سحائبها عن إضاءة تعاضد وتآزر ،
وإشراق ترافد وتظاهر ، ثم الحمد لله الذى أسعدنا جميعاً من طاعة مولانا بما يحفظ على الأعمار
امتدادها ، وعلى الأيدي اشتدادها ، وعلى الدعوة تحصنها ، وعلى الدولة تمسكها ، وإياه نسأل
أن يطيل بقاء مولاي كما لطف ، لإزالة الشبهة عن نفسه ، ونسخ الشك باليقين عن صدره ،
وقفنا الله تعالى لإيفائه حقوق المشاركة ، وفروض الخالصة ، وأرانا فيه غاية محابه ومحابناله ،
وأنا له فى مصالحه مراده وآماله ، فرأيتك — أدام الله عزك — فى التسرع إلى حضرتنا ،
والعلم بحسن موقع سفارتك من محمدتنا ، إذ كنت المتبرك بقيامه ، المسكون إلى منابه ،
موفقاً إن شاء الله .

١٠ - وله

السلار أقوى عزيمة ، وأصح بصيرة ، وأحسن بالأيام معرفة ، وأتم بالزمان خبرة ، من أن يرضى لأفعاله بالتناقض ، ولخلاله بالتدافع ، ولعقوده بالتهافت ، ولشروطه بالتفاوت ، وحين عاد فلان وفلان فأدباً ما هو الجميل المقدر من مثله ، والرأى المقرر في نتائج فضله ، حمدت الله كثيراً ، وشكرت له طويلاً ، ووجدت إلى الخدمة في الجهتين طريقاً فسيحاً ، ومجالاً رحيباً ، وقلت الآن حين أُجَلِّي عن عقيدتي ، وأفصح عن طويتي ، فلم يلبث الكلام بين السمع والقلب إلا أقل من رجوع الطرف ، حتى أتت الأخبار بما شرع فيه أصحابه من بناء حصن بقرب من زنجان^(١) كان الكف عنه واقعاً ، وتوختى مرضاة الأمير السعيد — قدس الله روحه — بالإمسك دونه سابقاً ، فوجد مولانا هذا الصنع منافياً للرسائل المتحملة ، متجافياً عن الشرائط الملتزمة ، فإن الحصن وإن بناه السلار في ناحيته ، ورفع في مملكته ، فثله إذا أسس محاداً لهذه النواحي موحش ، والاشتغال به بعد الإعراض عنه في سالف الأيام محرج .

والسلار يطيع الرأى الثاقب ، لا الهوى الغالب ، والصواب الأصيل ، لا الخطأ الدخيل ، ويحرس الحال بين مولينا وبينه عما يريب السامع ، وينطق الحاسد ، ويوقع النّفار من الجنبتين ، ويقدر في صلاح ذات البين ، فقدر هذا الحصن معروف ، وخطر الجدوى فيه معلوم ، ووزن الضرر في إعفاء رسمه مضبوط ، وقد بادرت بخطابي إلى حضرته ليصيح لمودعه ، ويحكم إجالته في تتبعه ، فإن وجدني صدعت بالنصح أصغى له إصغاء قابل ، وإن اعترضه الشك أعرض عنه إعراض دافع ، وقد أوحش هذا الفعل كل الإيحاء ، ليس للحصن ومقداره ، ولكن لتصيير أول الصنيع دليل أعقابه . وما أطيل علماً بأن الإيجاز يكفي مع تمثله كل أمر على وجهه ، وسبّره بجزالته واستدراكه لغوره ، فإن رأى — أدام الله عزه — أن يجيبني جواب من يحرس مخاطبته عن المعارضة ، وناصحه عن المناقضة ، ويغلب مودات العطاء على بناء المعامل ، فإنها الحصن في العاجل والآجل ، فعل إن شاء الله .

(١) زنجان : بلد بأذربيجان .

الباب السابع

في المدح والتعظيم

١ - كتاب إطراء وتعظيم وإظهار عناية

جنابُ السّالار مولاي الجنابُ المورود المعهود ، ولقاؤه الطائرُ اليمونُ المسعود ، فعَيْنَا كل بعيد عنه تحسدان ناظرَي كل قريب منه ، ولا غرو فاللوا حظ تأنس بالروض مَوْلِيًا^(١) والزهر جَنِيًّا ، والذهب مسبوکا ، والوشى محبوبکا ، فكيف أنسها إذا نظرت إلى حدائق مجدِ دَثْرٍ ، وأنواع عِزِّ غَمَرٍ ، وحظيت برِيعِ كرمِ جَمٍّ ، وشرفِ ضخمٍ ، حيث البيت رفيع ، والجناب منيع ، والفضل وسيع ، والشَّيم حَبَرٌ ، والألفاظ درر ، والليل سَحَرٌ ، فلقد افتتحت كتابي مع الشريف وأنا أغبطه ، وإن كنت أعتبط له ، وأناكفُسُه ، وإن كانت نفسي نفسه ، لما يأمله من مشافهة المحاسن بارزة ومكنونة ، ومشاهدة المحامد راهنة ومضمونة .

وحين راسلني السّالار بإصداره إلى حضرته تمنيت لو كنت المستدعي ، وآثرت أن أكون المستدني ، فروية أفراد الجد والفضل فرص العمر ، ونهز الدهر ، والأيام شِجَاح كعادتها في التكد ، وشيمتها في التعقد ، فأما الشريف فقد جمع شرف منصب عِمْ ، إلى شرف خلق عظيم ، يستمد المودّات إلى نفسه ، ويستجِرُ النيات إلى حبه ، ويسلم على السَّيْرِ ، سلامة الإبريز على السبكِ . ثم حاله عندي حال تفتقر الأخوة إليها ، وتعدُّ الرحم الماسة علاوة عليها ، فإني خبرته على تصرف الأوقات فكان النقيّ الجيب ، البريء من الريب والعيب ، يتناسب أصله وفرعه ، ويتناصف نجره وطبعه . وخدمته للسّالار قديمة ، وموهبة الله برأيه جسيمة ، إلا أنني أحب أن يكون لمصدره عني ، وموقعه مني ، مكان أخصّ مما سلف ، وأعزّ مما سبق ، ليس لأنّ على الأول مستزاداً ، ولكن قد استحسنوا الفضل معهوداً ومستفاداً . وإذا يسّر الله له من السعادة في لقائه ومشهده ما قدره ،

(١) المولى : الذي أصابه الولي وهو المطر الثاني .

وقضى من تجديد العهد بيبابه ومجلسه وطره ، فالإذن له في الاجتماع معي على بث فضائل السلار ، إحدى مننه ، بل واحدة مننه ، وأمره ونهيته متوقعان لاعدمتهما وجميل إحماده فيهما .

٢ - وله تقریظ وتشكر

مكاتبة الشريف — أطل الله بقاءه — من فرص الأزمان وغررها وحجوها ، فالنفوس الشريفة تنافس فيها ، وتشاح عليها ، وتشيع إليها ، إذ كانت مودته تصدر عن عرصة المجد والكرم الدثر ، وحومة الفضل والشرف الغمر ، ولا غرو فالعرق بين الرسالة والإمامة ، والدين دين العدل والاستقامة ، والخلق سمح سهل ، والعادة برّ وبذل ، والأدب فائض فسيح ، والعقد ثابت صحيح ، والعهد قوى لا يثلم ، سوى لا يكلم .

وعرض على قاضي^(١) القضاة فصلا من كتاب الشريف إليه قد أودعه ما أطابه من ذكرى ، وأطاله سيدي ، فلم أستبدعه من ذلك الخيم الكريم ، والخلق العظيم ، وأين أبلغ إذا اجتهدت واحتفلت ، واحتشدت واستقلت ، مما يلزمني للسادة من هذه العترة التي ألبسها الله العز تفضيلا ، وردّاها الكمال تقدما ، وأذهب عنها الرجس وطهرها تطهيرا . واتفق أن قرأت تنمة الكتاب ارتياحاً لمساقط لفظه ، واهتزازاً لآثار يده ، فعثرت بالحديث الذي كان كتابي نفذ بذكره ، وما شكاه الشريف أبو الحسن من صنوه ، وآثره من ترتب موثوق به ، مسكون إلى دينه وسنّره ، وسألته عما نتجه خطابي فشكر اهتمام الشريف بما أراده ، وأن وقف الأمر لتميل الرأي فيمن ارتاده ، ونشر الشريف أبو طالب مثل ذلك نشرأ حسن مسمعه وموقعه ، وأضاء مطلعته ومجمعه .

وقد قدمت في كتابي^(٢) الأول من وصف الشريف أبي الحسن ما الله العليم بأنني لم أستقص معه حقه ، ولم أستوف حظه ، إذ كان ممن زان الله به شجرة الوحي والتنزيل ، وعترة الرسول ، والوصي والبتول ، صلى الله عليهم أجمعين ، وإن رغمت معاطس الناصبين . وهذا الشريف أبو طالب يرى به علمه وراء سنّه ، وقد زاده الله فضلا إلى فضله ، وجعل

(١) لعلة عبد الجبار بن أحمد الذي مضى ذكره (٢) في الأصل : كتاب .

حلية بين أهله ، وما اقتضت الحاجة أن أبسط هذا البسط ، وأقصد هذا القصد ، لا سيما مع أشغالي التي أحاسب نفسي معها على اللفظ أقتضيه ، والسطر أكتبه ، ولكنني أجد في الإفصاح عن محاسن سادتي روحا في نفسي فيستحضر الهزة ويبرد الغلة ، ويجلو الصدى ويقوى المنة . وإذا سمحت الأيام منهم بمن يعمر بيته معرفة بالله وتفقهها في دين الله فذاك الطيب أصله وفرعه ، والزكي بذره وزرعه ، يختص بي اختصاص العضو بالجثة ، والبعض بالجثة . وقد نص الشريف لذلك المسمى وهؤلاء الأصحاب على من تقدمت خبرته لأمره ومعرفته بسبره . والشريف قد ابتدأ المنة فليتم ، وقد أسرج في العارفة فليلجم ، فلو كان الكلام في قضاء الجانبين ^(١) ، والصلاة في ^(٢) الحرمين ، لكفى ما أصدرته من خطاب ، وخطبته من إيجاب ، وكتاب الشريف متطلع بخبره ووطره ، واهتمامه في هذا الأمر ونظره إن شاء الله .

٣ - وله في الإجماد والتأنيس والبسط من الأمل

كتابي ومواهب الله تعالى عند مولانا الأمير المؤيد فيما يُمضى الله من حكمه ، ويُسد من نجمه ، ويُنفذ من أمره ، ويُعز من نصره ، ويرفع من لوائه ، ويظهر من بسطته وعلائه ، على ما يقتضيه تصرف الأقدار على اختياره ، واستجابتها لإرادته وإيثاره ، وأنا سالم في ظله الظليل ، ورأيه الجليل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكتب فلان يخبر بما كان منك حضوراً عنده ، والتقاء معه ، وإخباراً عن الحال التي أزالته عن المحجة القاصدة ، والمعاذير التي ألجأت إلى الاختبارات الفاسدة ، وأنت قد تبينت ما هو أحمد حاضراً ومغيّباً ، وتحققت ما هو أسعد بدءاً ومعقباً ، وألزمت نفسك من فروض الخدمة أضييقها ، واعتلقت من حبال الطاعة أوثقها ، حتى تقابل إعلانك وإسراك ، وتنصف كتمانك وإظهارك ، وعلمت كيف الطريقة المثلى ، وأين العروة الوثقى . وشهد بما شاهدك عليه صفاء نية ومعتقد ، واعتصامك بولاء مستخلص ووفاء

معتمد ، وبسط القول في ذلك بسطاً سألني معه أن أكون بحضرة مولانا كفيلاً بما بذلته وزعيماً بما ضمنته ، وأنفذ ما حلفت عليه منتهياً إلى أقصى آماذ التوكيد ، وسارعت إليه في ضمان الرشاد والتوفيق ، فحمدت الله تعالى على أن أحضرك من العزائم أرضهاها ، ومن الآراء أقواهاها ، وعدل بك عما لا تحمد دلائله ، ولا تؤمن غوائله ، ولا تُرجى محابه ، ولا تسلم مغابته .

وقد علم الله أني لم أزل لحقك موجباً ، وفي اصطناعك مرغباً ، ولتنبهك على حظك مؤملاً ، ولتبينك موقع رشدك متمثلاً ، ولن جاورك من العمال فأساء عشرتك ، وقبح مجاورتك ، ذاماً لأئما ، ولتوبيخه وتهجينه مكرراً مداوماً ، وقد عفا الله عما سلف ، وجلل صفح الأمير المؤيد ما فرط . وأوردت في مجلسه الشريف عنك ما وثق كل التوثقة بك علما بأن امرأاً أنزله هذه المنزلة من قيامي ، وأرتبه هذه المرتبة من اهتمامي ، كيف يقابل بالجد في تحقيق ما أوردته ، وكيف يعاجل بالاجتهاد في تصديق ما أضمنه .

وقد جمع مولانا لك بين التجاوز عما سبق حتى سقطت الحاسبة عليه ، والمراقبة عنه ، وبين إحسان يبلغ المراد ، ويعجل الإسماعاد ، وتقديم يزيد في الخطر والرتبة ، وينظم بسط الجاه إلى تقوية المنة ، وستخطب السنة الأيام بما تلبسه من رياش الخطوة ، فتأسف على مافات من أوقاتك ، وتراخي من أمد سعادتك ، وكل الذي عقده فلان معك مُمضًى على التأيد ، مُجرًى على التخليد ، لا يتعقبه نسخ ، ولا يتتبعه فسخ ، وأنا بالجميع متكفل ، ولحصوله وحصول أوفر منه متنجز ، والله المشيئة .

وعليك أن تظهر من إخلاصك ، ما يبعث على اختصاصك ، وتبدي من ولائك ، ما يحث على اجتبائك ، فلن يمضي إلا يسير من الزمان حتى يُحمد الله تعالى على المناجح التي تصالحك ، والخيرات التي تغاديك وتراوحك ، وملاك ذلك أن تحرس طاعتك عن التلون ، وعقيدتك عن التنقل ، ليعرف ثباتك على ما تعتقده ، واستمرارك على ما تصدره وتورده ، وتأتي في زمرة الأصحاب ، والتشدد على أهل العيث والفساد ، ما يطيب خبره ، ويحسن أثره ، وتتظاهر أنباؤه ، وتوضح مذاهبه وأنحاؤه ، وتأنس بالخدمة والطاعة أنس الأصيل فيها لا الدخيل ، فيسمع صاحبك — إذا ورد الباب بمشيئة الله — ماتوقن معه أن

الثقة إليك توجهت ، والظنة عنك قد صرفت ، وفلان يزيدك في هذه الأبواب بصيرة ، ولا يدخر عنك في النصائح ذخيرة ، وأنا أنتظر ما تنهيه حالا فخالا ، وترد به كتبك تواليا واتصالا ، مع ذكر أخبارك ، وعارض أوطارك ، إن شاء الله .

٤ — وله تشكر وتزكية وإحماد

كتابي عن سلامة قد هنأ الإنعام فيها وسوغه ، وظاهر الإحسان بها وأسبغه ، ما يتابع الله لمولانا من السعادات التي فأتت الأعداد وسبقها ، ووصلت المواد ونسقتها ، ومن أقر بها عهدا صرفه — أدام الله علوه — للأعنة إلى جوار الخلافة ، ومثابة الكافة ، بعد أن تهذبت في أحوال الديارات والجزائر عراضها ورباعها وأطرافها وقلاعها ، ومحيت آثار الخالفين المشبورين ، ورتب من استكفي من الأولياء المنصورين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ولئن كان السلار موقفا في أحواله وآرائه ، مسددا في أعماله وأنحائه ، واضعا أموره مواضع الصواب والرشاد ، موردا غرائمه مشاريع الاستقلال والسداد ، إن الذي أتاه في أمر الولد الأثير فلان حين استكفاه واستعمده ، واسترعاه وقلده ، وقدمه على أكابر الولد مائلا عن المحاباة إلى الاختيار الصحيح ، وجانحا بالمالمأة إلى الرأي الصريح ، هذا إلى ما أسنى له من أعطيته^(١) ، وتعمده به من أحبيته ، كذلك من محاسن شيمه ، ومعاطف كرمه ، على ما يتقدم السنة التقريظ ، ويُعدُّ الوسطة بين الإفراط والتفريط .

ومن اشتبهت عليه صورة ما أراده ولم يعرف فيه نيته واعتقاده ، فالحال لدى واضحة السنة مشرقة السحنة ، لا تستبهم عند التدبر ، ولا تستعجم على التحقق والتصور ، وذلك أنه مع قضائه في فلان حق الولادة والنجابة ، وذمام الأصالة والإصابة ، أجرى بما أتى ، إلى الأسر إلى ، والآثر لدى ، واختص من ولده من كان سببه بحضرتي أقوى ، ومكانه من عنايتي أقرب وأدنى ، فالنية متمثلة ، والمنة متقبلة ، والمبرة معظمة ، والمقابلة ملتزمة .

وكنت أحسب كتاب السلار ، بما عقده من هذه الحال ، أول طالع ، فلما أبطأ عن

(١) في الأصل : عطيته .

حينه ، وأخطأ الظن بعد يقينه ، أحسنت التأويل له وقلت ، إنه لما رأى ما جدد ميرةً إلى حضرتي أداها ، وحسنى بعنايتي أهداها ، كره الكتاب بما يجرى مجرى الاعتداد ، الذى يُصان عنه خلوص الاعتقاد .

٥ — وله فى البر والإحسان

كتابى وأمور الحضرة فيما يحرس الله من عراض ملكه ، وينفذه من أمره وعزمه ، ويمضى على الأرض وبنيتها من حكمه ، جاريةً أسعد المجارى وأفضلها ، ومستمدة أشرف النعم وأجزلها ، وأنا سالم بدولته — ثبته الله — ورأيه — أعلاه الله — والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فكان ما تصفحته من فصوله صادرا عن العقل الرصين وتوفيق الله اللطيف ، وتلك عادته — عز اسمه — فيمن أخلص للدولة القاهرة نيته ، وعقد بموالاتها عقيدته ، وسرّنى الله بخبرك فى السلامة ، وجرّى الأمور لك على منهاج الاستقامة ، وهو — تعالى — يوكد ما منحك وقسم لك ، ويحرس ما أعطاك وخوّلك ، ولم تُضف من وصف طاعتك لمولينا — أدام الله علاهما — إلا بما شهد القلب لصحته ، ودل على وضوح صفحته ، إذ كانت هذه الطاعة تُيسّر لمن كتب فى السعداء ، وأوتى فضل الله فى استمداد النعماء ، فلا يثابر عليها مثابر إلا قرت عيناه وانبسطت يميناه ، وبلغ مراده وصافح مبتغاه .

وقد أوردت ما أنهيته — فى المجلس العالى — مورده ، وأوقعته من الإحسان الشريف موقعه ، ومولانا واقف عليك من محمده وارتضائه ، وعنايته وجميل رائه ، ما تصغر أعراض الدنيا فى جنبه ، وتنال منى النفوس ومطالب القلوب منه ، وقد أدّى رسولاك ما تحمله ، وأعيد إليهما جواب ما أورداه ، فكن — أيدك الله — منشرح الصدر ، قوى الأزر ، بسيط الأمل ، فسيح الرجاء فى مسلك الوطر ، فإن هذه الرعاية الكريمة ستسفر لك عما يغبطه الولي المصادق ، ويشاحك فيه الأخ الموافق ، واهتمى بذلك متكفل ، والموعود به متنجز بمشيئة الله ، وإذا عاد الجواب عما كتبت به [إلى (١)] الحضرة العالمة أنك كتابى على شرح تعتمده ، ومثال تقصده بعون الله .

(١) زيادة يقتضيه السياق .

٦ — وله في التأنيس وبسط الأمانة

كتابي — أطال الله بقاء الإستيذار — ومولانا فيما يرفع الله من كلماته ، وينصر من راياته على أسعد ما عوده الله في مجارى الأمور ومصارفها ، ومشاهد القدرة ومواقفها ، وأنا سالم في ظله ، والحمد لله ، وصلاته على النبي محمد وآله .

ووصل كتاب الإستيذار ، فاشتد سكوني ، وتضاعف — بما عرفت من ترادف النعم عليه — سروري ، وسألت الله أن يجعل منأخه عنده حاضرة لا تغيب ، وراهنه لا تعزب وتستجيب ، إن الله تعالى فعال لما يريد .

وعرفت ما وصفه الإستيذار من تصرفه منذ كان على طاعة الدولة القاهرة يسوَّى فيها بين سره وإعلانه ، ويثابر عليها مثابرة لياليه وأيامه ، وذلك — والله الحمد — مشهود منه ، لا يحوج إلى إقامة شهادة ، وموعد لا يضطر إلى استزادة ، ومولانا مُحمَّد لمذاهبه ، راضٍ عن شاهده وغائبه ، ناوٍ فيه ما ينويه — حرس الله ملكه — في أخص المُعْتَزِّين إلى رائه ، والمُعْتَزِّين بولائه .

وقد حضر فلان المجلس فأدَّى المشافهات ، وحكى وجوه المهمات ، وسمع في الجواب ، ما أصدره لسان الصواب ، ثم حضرني فجوابته ما يؤديه ، ويعرف الإستيذار مقصدي ومعتقدى فيه ، بإذن الله ، فإن رأى أن يواصلنى مواصلة الواثق ، ويسترسل في المهمات والعوارض ، فعل إن شاء الله .

٧ — وله في إعظام النعمة فيما يكسب من الإحماد

ويوفق فيه من لزوم الطاعة

كتابي — أطال الله بقاء مولانا الملك — والأمير مكنوف بنعمته ، وأنا مسعود بخدمته والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووقف خادم مولانا على ما أهل له من المجلس العالى خطابا ألبس به إحمادا عما أداه وأنهاه فلان ، وفقنا الله معا للخدمة المفروضة وشكر النعمة الموفورة ، وعبد مولانا وابن عبده ، إذا ورد عليه ما يفوت سرى أمله وظنه لم يكمل لجواب ، ولم يشجع لخطاب ، فيجعل الدعاء جُنَّةً ، ويَجْمَع عليه سره وعلا نيته .

والله يطيل بقاء مولانا مصرفاً للأيام والزمان والأقذار والأمصار ، فلا يزال خدمه في ارتفاع نواظر ، وكُفَّار نعمه بين مهالك ومحاذر . والمهمات التي رسم مخاطبة خادم مولانا فيها يوكل بها همّه ، وبصره وسمعه ، ويستنزل توفيق الله في أداء لوازمها ، وسلوك مناهجها ، وينهى ما يتجدد في كل أمر على سنة أمثاله بمشيئة الله .

٨ — وله إيجاب وإيناس ورفع وتنويه

كتابي ومولانا سابغ ملابس البسطة ، متظاهر الملك والقُدرة ، وأنا سالم بدولته البهية^(١) وكلمته العالية ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .
ووصل كتابك سارّ المطلع والموقع ، بارّ المورد والمودع ، فكان ما ضمنت من خبرك في سلامة — يسوغك الله موادّها — ونعم — يثمر لك أعدادها — زائداً في الارتياح لتدبره ، وانشرح الصدر لمصدره ، والله يوالى إليك منائح آتية من وراء الآمال ، مواتية لأسباب الإقبال .

وقد عرض كتابك في المجلس وصادف من إيجاب مولانا [ما^(٢)] قد بشرتك بوصفه ، وشحنت سابق كتابي بذكره ، وإنه — حرس الله أيامه ونصر أعلامه لنا ولك أدام الله عزك — وفاك^(٣) ما يُوفى على أصنى مباغيك ودواعيك ، إذ كان مبنًى سياسته الكريمة ، على إعزاز ذوى البيوتات القديمة ، وأنت — أيدك الله — في واسطة فضل لا تخفى مذاهبه ، ولا تغمض معاقده ومناصبه ، وعندى من تمهيد هذه الحال عند كل ذكر تقتضيه ، وأمر يسوغ الشروع^(٤) فيه ، ما تطالبني به محاسنك ومناسبك ، ومحامدك وضرائبك ، وسيعين الله بدولة مولانا على ما فى النفس قضاءً للوازمك التى تحض المروءة عليها ، وتهيب الحرمة إليها .

وفلان يعرفك مارسمت إخراجك من معاملتك ، فتعلم أنى احتطت لك احتياط الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوى الاهتمام الصريح . وحذفت ما كانت العميدية والقمية ألزمت^(٥) من صروف وطالبت به من قروف . وأما المكاتبة عن الديوان المعمور فقد تقدمت بزيادتك فيها والتبليغ بها إلى رتبة لا أعرف أحداً يكاتبُ بمثلها ، ولا كوتب منذ استقر

(٤) فى الأصل : الشرع

(٥) فى الأصل : وألزمته .

(١) فى الأصل : إليه .

(٢) زيادة للسياق .

(٣) فى الأصل : وفيك .

مولانا على سرير ملكه بالرى إلا بما هو دونها ، وعنايته — حرس الله ملكه — تضاعف لك على الأيام إكراما إلى إكرام ، وتصل إنعاما بإنعام .

٩ — والـه

وصل كتاب مولانا بذكر الحلف الذى رسم مولانا عقده عند وروده البصرة بين سعد وربيعة ، أخذاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأوس والخزرج حين وافى المدينة ، وقد تحيقت حروبهم أعدادهم ، وضاعفت أحقادهم ، واستفزت أحلامهم ، وبرت أجسامهم ، وفرقت أهواءهم ، وأراقت دماءهم ، وتحوّنت أحوالهم ، وانتسفت أموالهم ، فجمعهم على السلم مع الإسلام ، وألف الله بين قلوبهم بيمان الإيمان .

وقد كان هذا النزاع — أطال الله بقاء مولاي — والنزال ، والعراك والقتال ، تالى ما حكيت فى إحنٍ تثار ، وعقول تستطار ، وأملاكٍ تنتهب ، ودماء تهدر ، وضغائن لا تخلق حتى تستجد ، ولا تنحسم حتى تستمد ، قد شابت عليها مفارق الزمان ونواصى الأيام ، واندرج فى مضارّها ومعارّها من لم يكن يضرب فى الحيين بعرق ، ولا عدّ منهما^(١) فى شغب ، سوى خطة جلبها الاشتراك فى الخطة ، ودائرة ولدها تجاور الدار والحلة ، فذكرت بهم الحروب المتطاولة كحرب ابني^(٢) وائل وقد دامت ثمانين ، وحرب ابني قبيلة^(٣) ، وقد بقيت مائة وعشرين ، وكتب الله لمولانا من جمال هذه الألفة وفخرها ، وثوابها وأجرها ، ما يوازن الجبال ، ويعادّ الرمال ، فكم خائف أمين ، وفضل رهن ، ودم حقن ، وحمى حرس ، وصلاح غرس ، وسداد أسس ، ونشر ضم ، وشعث لم ، وخير أتم ، وسيف أغمد ، وضالّ أرشد ، وهدى مهد ، لا زال العالم فى ظل سلطانه ، وفضل زمانه .

وأما الكتاب الذى أنشأه مولاي فى هذا الأمر فعقيلة الدهر ، وقيمة الفضل ، وزبدة الأحقاب ، وفصل الخطاب ، أقول ذلك متحققاً لا متجاوزاً ، ومتثبتاً لا مترخّصاً ، قول من أتقن شروط الأحلاف ، بين الأسلاف والأخلاف ، فدرى كيف كان حلف المطيبين^(٤)

(٤) حلف كانت فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام وكان النبي وأبو بكر من المطيبين ويقال لهم خمس قبائل من قريش .

(١) فى الأصل : منها .
(٢) حرب بكر وتغلب .
(٣) حرب الأوس والخزرج .

وحلف الفضول^(١)، وحلف الأحابيش^(٢)، وحلف الأحلاف^(٣)، وروى ما أنشئ بين المضرية والربيعة، وبينهما وبين اليمنية، ومع ذلك فما قرأت أكل شروطاً، ولا أتقن أصولاً، ولا أكثر عيوناً، ولا أمتن فصولاً، ولا أقرب ألفاظاً، ولا أبعد أغراضاً، مما أنشأه سيدي، فمن يعلمني قلت بما عرفت، وشهدت بما علمت، وإلا فليدع تنمية النفس الباطل، وليرتع مع النعام الهامل، فلا يقدر مولاي ما اتجه من نتائج البلاغة، وثمار البراعة، فإني عارف بما يناله وسعهما ويزخر به بحرهما، وإنما هو إقبال مولاي — كبت الله أعداءه، وأدام سلطانه وعلاءه — ينفت في جنانه، ويلقى على يده ولسانه، ولكن الشأن في طبع يقبل الإقبال، وخاطر يحتمل الاستقلال.

وليس من فرض ذلك الكتاب أن يختصر على هذا القدر في الوصف، ولا يوفي بقدر الطاقة بعض الحق، ولكن وصوله وافق علة قد شكوت — إلى سيدي — أمرها، وإن كان — كما وصل — مُديلاً بالشفاء منها. ومن هذا الذي لا يشفيه ذوبُ العلوم وصوبُ العقول — حرس الله مولاي — للعبارة عن تلك المكارم والمعالي، بتلك الألفاظ والمعاني، وأنا أعتذر إلى مولاي من صدر الكتاب بغير خطي وتخلل الخلل لفظي، فإن الضعف قبض يدي عن التحرير وخاطري عن التجويد، لا عدمته مفيداً ومقيلاً، وآخذاً بالسبق فعلاً وقيلًا.

١٠ — وله ثناء وتقريظ وإطراء وتعظيم

وصل كتاب مولاي، فبشرتني عادة بره بما يتلقاني من المسار عند فضّه، فصدق ظني بفكه إياه عن محاسن لا تقتصر على جلاء الطرف، حتى تشفعه بجلاء الفهم، وتمتع السمع، إمتاعها للقلب.

لاجرم أني أجدد التباهي بما حاز الله لسيدي من فضائل هجّنت من قبّله، وأتعبت من بعده، وإن كان لا هُجّنة على من تخلف عن جرّيه، ولا مطمع لتالٍ في بلوغ هديه،

(١) حلف كانت بين هاشم وزهرة وتيم من قريش على دفع الظلم.
(٢) هم أحابيش قريش تحالفوا أنهم يد على غيرهم.
(٣) كان عمر من الأحلاف وهم ست بطون من قريش: عبد الدار وجمح ومخزوم وبنو عدي وكعب وسهم تحالفوا على ألا يتخاذلوا.

أدام الله له ما حباه ، وأوزعه شكر ما أولاه ، فإن الشكر إن كان فرضاً حتماً ، ولزاماً جزماً ، عند نعمٍ توفر حالاً ، وتكثر مالا ، فإنه أوجب في مواهب فضل تزيد في قيمة المرء ، وتملكه زمام السبق .

وتمثلت ما أجاب به مولاي في معنى الرّوم ، ولا ارتياب عند من صحبته مُسَكَّةٌ عقل ، أو نصح له لسان حزم ، في أن همة مولانا لا ترقد عن هذا الداء العياء حتى تحسمه ، ولا تهجع عن هذا الشتات المسرف حتى تنظمه ، فقد بلغ سيل الدين رُبابه ، واستشرى الكفر ونال مناه ، ولم يكن الله وإن أمهل ليهمل . وما تعرف الأبواب ولا أربابها الله سيفاً لا ينبو عن ضريبتيه ، وللإسلام ليثاً لا يُكذَّب عن فريسته ، غير مولانا — أدام الله علاه — فليرهف مولاي خاطره لإنشاء الفتوح شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً ، لا سيما وقد بشرت القصيدة نسيجة وحدها ، وقرينة دهرها ، وكريمة لداتها ، وعقيلة أخواتها ، بما أراني القوة في أزر الإيمان وساعده ، والضعف في أداني الكفر وأباعده ، والله يسهل لمولانا المطالب ، ويحصن بدعوته المشارق والمغارب ، ويحرز هذه الفضيلة خصوصاً لأيامه ، حتى يلم شعث الإسلام بمكانه ، فما وراءها حسنة تقاس إليها ، فضلاً عن أن تفضل عليها .

وأعود لذكر القصيدة ، أما تعجب سيدي من ترايد هذا الشعر ، وإثقاله عواتق الوصف ، وارتفاعه عن أبواع الفضل ، وجمعه بين شرف المصدر ، وسهولة المأخذ ، وعلو المطلع ، ولطف الموقع ، وبعد المقاصد ، وقرب الموارد ، فقد جلبت من الدعاء ، مثل الذي أوجبت من الثناء ، وستصير الدنيا دار ندوتها ومنبر خطبتها ، فلا نعمة على المسلمين أعظم من تقوية المنن بها ، إلى أن ينجز مولانا وعده فيها .

وسائر من عوّل مولاي على قيامه واهتمامه ، وانتصاره وانتقامه فجوابي فيه أن حرارة الأكباد تبرد بالشراب ، دون لمعان السراب ، جعل الله العالم وقاية ركاب مولانا ، وعمرّ غزه عمر النور والدهور ، إنه فعال لما يشاء .

وعبدُ مولاي — أدام الله عزه — المنحازُ إلى ظله ، المرتَهَنُ بفضله ، أبو محمد صاحبي
مستَصحب القصيدة التي خدمت معالي مولانا بها ، وعوّلت على تشجيع مولاي ونشيدته
لها . هذا ولولا كرم مولانا — حرس الله سلطانه — لما شجّعنا على إيراد هذه البضائع
المزجاة أسواق مجده ، وإن كان لا تثريب على مستنْفِد وسعه ، وباذل جهده ، فإن رأى
سيدي أن يجيب بما يمهد أسباب تطوله ، ويصرفني في محابّة على ما أعتد بتحمّله ، فعل
إن شاء الله .

الباب الثامن

في الذم والتهجين

١ - كتاب في تقييح آثار غامط نعمة والاعتذار مما ناله من نقمة

وصل كتاب السلار بذكر فلان أحسن الله توفيقه ، فتمثلت ما ذكره ، وتبينت ما صورّه ، وقوله المسموع الذي لا يراد ، وكلامه المقبول الذي لا يضاد ، ولكنه بعقله وفضله يعرف ما يجب على المأمور للآمر ، ويلزم المسوس للسائس ، ويتحقق أن الأمير السعيد - رضوان الله عليه - إنما أقرّ فلانا - تولى الله إصلاحه - وقدمه ، وبسطه وأكرمه ، ومنحه وأولاه ، وقلّده وولّاه ، استخلاصاً لنيته وعقده ، واستصفاءً لطاعته في يومه وغده .

وإني حين أفضت الأمور في ظل مولانا إلى تدبيري ، ووقفت الأعمال على تقديري ، جريت على تلك السنة إقراراً له على عمله ، وتحقيقاً لظنه وأمله ، بل زدته إكراماً في الخطاب ، وأقساماً من الإيجاب ، لموقعه من سيدي ، فما أفرق بين أقاربه وأقاربي ، ومناسبه ومناسبي ، وكان هو مستمرا على طريقة لاشك في أن سيدي قد تصورهما وأنكرهما ، وعلمهما وذمهما ، فجعلت أغضى عليها ، ولا أخليه من التنبيه فيها ، وصارت كتبه تنفذ إلى جنبات كان ينقبض من قبل عنها ، وبدأ يستمد المعونة والمغوثية منها ، وأمرته غير مرة بالحضور ليزداد تأنساً بالخدمة ، وأزیده من موارد النعمة ، فجرى على شاكلة واحدة إخلالا بالخروج ، وتصرفا مع كواذب الظنون ، فلم أضايقه في اختياره ، ولم أسد عليه طريق إشاره ، واستدت على الرعية وطأته ، واشتدت في نفوسها وأموالها شوكته ، وكانت الاستغاثة منهم تتصل ولا تخف ، والعادة منه تدوم ولا تكف ، فلا أبلغ في التنكيل والتغيير المبلغ الذي يلزم تأميلا لارتداعه ، وكراهة لتقصير باعه ، إلى أن دعت الضرورة القوم إلى ممانعته ومدافعته ، فحسبته لا يستنصر إلا بجنبتى ، ولا يلتمس العُدوى إلا من حضرتى ، وانتظرته لأرده قوى اليد ، ماضى الحد ، فعدل إلى نواح مختلفة ، وورد مشاريع مفترقة ، وأنا في كل ذلك أكره فيه

ما يختار لنفسه ، وأعلم أنه مأخوذ عن طريق حزمه ، وأن سيدي غير مُحمَّد لما بدا من فعله ، إذ النعم لا تقابل بالشروء على موليا ، والغموط لمستدعيها ، ولم يجز ترك العمل شاغراً ، فأخرجت فلانا ضابطاً وناظراً .

وكان فلان — أحسن الله رُجعا ، ووفقه لما يرضاه — بذل من نفسه تسليم القلعة ، إذ التحصن بذلك البلد — مع انصرافه وانحرافه — لم يسع ، ثم تلون جارياً على طريق الممانعة ، ومخاطباً أصحابه بالمنازلة والمقارعة ، ووقع من فلان ضرب من التسرع — حفره له القوم — بابتداء المنازعة ، وتخطيها إلى المنازلة ، وقد علمت أن سيدي يؤثر مصالح الدولة على كل قريب وقربى ، ولا يحتمل في مضرته ذا رحم بعيدة أو دنيا ، أمتع الله بحياته واتصال مدته .

٢ — و —

كتابي — أطل الله بقاء السلار — ونعم الله — تعالى — عند مولانا تجمع سمو المكان ، إلى علو الشأن ، وثبات الأركان ، إلى القدرة والإمكان ، وما أخدم فيه بحضرته أجلها الله ، وفي ممالكه ، حرسها الله ، جار على السداد ، مطرد أحسن اطراد ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكان كتاب السلار ورد على عادته في برٍّ يصل أوله بآخره ، ويجمع بادئه إلى حاضره ، فبشر من اجتماع السلامة والسعادة لديه ، بما سألت الله إيمانه له وإفاضة عليه ، وتطوقت منه كما اعتنقت شكره ، وسألت الله أن يجعلني بفرضه من الناهضين ، وبحق فضله من العارفين ، وعرفت ما خاطب به السلار أبا الحسن متعرفاً خبره ، ومستعلماً فيما باشره أثره ، ووقع ذلك بحضرة مولانا أحسن موقع مثله ، وعدّه في المشكور والمنشور من بر السلار ونتائج وده ، وتلك الأمور التأمّت أحسن التأم ، وجرت على أسدّ نظام .

هذا وكان هذا المولى تلك البقعة محظوظاً من العناية والقربة ، ومستوعى تدبير هاتيك النعمة ، ومقدراً فيه أنه يشكر بلساني الطاعة والخدمة ، وأخذ يتلون فيمهل ، ويتبدل فيحتمل ، ويكتب أطرافاً لم يسوغ له الانقطاع إليها ، فيزجر ، ثم ينظر ، ويحذر ثم يؤخر ، رجاء أن ينتبه من رقدته ، ويستيقظ من سِنته ، وكان أشد ما يُنكر منه ، وأقبح

ما يذكر عنه ، البلوغ إلى أخذ الأموال المحجورة ، والولوغ في الدماء المحظورة . وكانت المواعظ تصدر إليه فلا تعمل في صدره ، والأمثال تقلب على عينه فلا تؤثر في قلبه ، إلى أن خلعت تلك الرعية اضطراباً فلم يكن له غناء دافع ، ولا وفاء ممانع ، وحسبناه يرد الحضرة البهية فيداوى كلمه ، ويسد ثلمه ، إلى أن أخذ [إخذ^(١)] ه مرة نحو بقاع الجبل فنفي عنها ، وعدل إلى جرجان فأبعد منها ، وامتد إلى حدود خراسان فلم يسكنها ، وظن قلاعه بناحية الدامغان تحمي أصحابه عن الدمع والإبعاد ، والقصد والإقتصاد ، فما كان إلا ريثماً أضربوا على الغي ، واقتدوا بصاحبهم في البغي ، حتى تبرأ منهم حصنهم ، واشتمل عليهم وهنهم ، وقد كان الأحب إلى مولانا أن لا تتكدر عند ذلك الرجل الصنيعة ، ولا تترجع لقلّة أمانته الوديعه ، لحقّ أبيه وذويه ، وقبل ذلك لا اتصاله بفلان نسباً ، وإن باين رأيه طريقاً ومذهباً .

وهذه — أدام الله عز السلار — الدولة التي حكم الله لها بالاستظهار والاستيلاء ، وأوطأها متن الاستقلال والاستعلاء ، فمن شايها ربح متجره ، وصفا مورده ومصدره ، وكان بين عيش رغد ، وطالع سعد ، ومن ولأها ظهره أظلمت عليه مذاهبه ، وخسرت بضائعه ومكاسبه ، وأصبح على جدّ عاثر ، وأمسى بشمل متناثر . والذي وكّد الله بين مولينا الملك السيد والأمير المؤيد وبين السلار من حال رفعت كلفة التميز ، وأماطت حشمة التحيز ، يقتضي بحق السفارة ، وخدمة الوزارة ، أن أهدى إلى سمعه من أنباء جيوشها المنصورة ، وألويتها المنشورة ، ما أتيقنه يرتاح له أصدق ارتياح ، وينشرح صدره به أتم انشراح ، والله يصل هذه الوصل بالثبات ، ويكنفها بخلوص النيات ، ويزيد الأعداء سقوطاً على الأفواه والشفاه ، والمناخر والجباه .

٣ — وله

وصل كتابك بذكر ما سهلته سعادة الدولة العالية ويمنها ، ولطف عادة الله عندها وحسنها ، حتى استجاب الخالفون المخاطبون من نواحي كذا لما رُسِم ، ووقفوا عند ما مُثِّل

(١) زيادة يقتضيها السياق .

وَحُتِّمَ ، فسرني الله تعالى بذلك سرورا ينتجه ما يواليه عند أولياء النعم من إظهار وتمكين ، واستيلاء على أمد الماضين والغازين^(١) ، وسألته أن يديم لموليدنا من العز أثبته قواعد ، وأرفعه مصاعد ، وأعلاه سماكا ، وأجراه أفلاكا ، إن الله يفعل ما يريد وأنهيته ما وفقت له قرعاً للأمر من بابه ، وتوثيقاً لدواعيه وأسبابه ، حتى أسمح المراد فيه ولم يجمع ، واستمر المرام فيه ولم ينجح ، واستوفى سعيك من الإجماد ، ما يفوت غايات الطلب والارتياح . وفلان أبى إلا خذلاناً تعثر في أذياله ، وتمرغ في أحواله . وقد ساءني ماجرى لا لقدره ، بل للجرأة فيما يذيع من ذكره ، وسيعرف مغبة ما أتاه ، ويحتني ثمرة ما جناه ، وتسلمه يده بحيث لا تستقر قدماه ، ولله المشيئة والأمر ، ولأولياء الدولة العلو والقهر ، فمن زاغ عن^(٢) سراط الدولة المستقيم صلي بعبابها الأليم . هذه سكرات ولها إصحاء ، وغمرات بعدها انجلاء ، والموفق من لم يُقَدِّم على ما تسوء مصائر ، ولم يَرِدْ على ما تستوخم مصادره .

٤ — ولله

كتابي وورد من فلان ما أنبأ بأن فلانا حين صار إلى شاطئ البحر فاستوقفه مشتمل الذعر . استولى من نديهم فلان على موضع كذا ، فلم يجد الخالف وراءه مرجعا ، ولا أمامه مشرعا ، وأنه على جملة في الحيرة والدمار ، والحدار من سواد الليل وبياض النهار ، وأن أكثر من قدرهم أنصاره خذلوه ، وقلبوا له الجن وأسلموه ، وقد ترصدت فرق آخر لتفريق شمله ، وتقطيع حبله ، وهذه عادة عند من جحد إحسان مولانا وإنعامه ، ثم لم يقبل إقالته وقد أعطاه أمانه ، وستنجلي الحال إن شاء الله عن انتهاء أمره وتناهي عمره . إن غمط النعمة عقاب يمنم ، وعثار يصرع . وقد أنفذت الكتب إلى المجلس العالي ، وأنا راج أن أشفعها بكتاب في ترك فلان آية من آيات الله عبرة لمن اعتبر ، ومثلة لمن ازدجر .

٥ — ولله

كتابي والأمور بحمد الله ومنته ، وما قسم للدولة القاهرة من فضله ونعمته ، جارية على ما يزيد الأولياء قوة مناكب ، والأعداء ضعف جوانب ، ولله الشكر ، وصلاته على نبيه محمد وآله أجمعين .

(٢) في الأصل : من ، وسراط لغة في صراط

(١) في الأصل : هكذا : العارن

ووصل كتابك فأنست لما أتيت ، وأحدث ما أنهيت . أما فلان فقد كُفيت شغل الصدر^(١) به ، وتوزع الخاطر بسببه ، لأن الرجل قد علم بمكان فلان من الخصوص بالدولة ، وأنه رب ذلك البيت وتلك النعمة . وحديث كذا قد عجت من فكرك فيه وذكرك له : ومن دون ليلي ذو بحار ومنور^(٢) : والذي يجب أن يشتغل به فلان حديث فلان حتى يذيقه من وبال فعله أمر مذاق . وملاك ذلك أن يُعان فلان معونة تؤمنه انتهاز فرصة من ناحيته ، أو نفوذ حيلة في مساءته^(٣) ، ثم التجرد لما يحصّ جناح فلان ويبريه ، ويُنسكى ضرباً من النكاية فيه ، فليس يكفي أن يكون التأثير أجمع قولاً لا فعلاً ، ووعداً لا إنجازاً .

والذي يُحتاج فيه إلى قيامك واهتمامك أن تراعيني بأخبار فلان في مقارّر قدمه وإن كانت دَحْضَ مزلة ، ومصارف غزمه وإن كانت بين خلة وذلة ، فإن مولانا خاطبني اليوم بفصل مفرد ، وقال : أو عز إلى فلان ليراعى بأخباره غضة ، ويجعل إعلامك أحواله نوبة ، فأما اجتماعه مع من اجتمع معه فكما يقال : مثل استعان بذقنه ، وعبد صريحه أمة^(٤) وإن سفت به الريح في أثناء الأمواج إلى مكان سحيق فرب طائر بجناحه ، إلى موضع اجتياحه .

٦ - ولـه

وصل كتابك وعرفت ما أنهيته واقتصصته ، وأبديته وخلصته ، وليس على عناية مولانا بك مستزاد ، ولا وراء إيجابى لك مراد ، ولكن الأمور المنوطة بك منتشرة ، والأسباب الموكولة إليك مضطربة ، وأيدي الأكراد بالعيث والفساد منبسطة ، وهيبتك عن قلوبهم ونفوسهم مرتفعة ، وذلك يثلم جاهك وينتقصه ، فيكدر عليك الأنعام وينغصه ، وليس يمكن ألاّ أصرّح بقصورك ، ولا أخبر عن عجزك وحُسُورك ، وكيف جرت الحال فسبيلك أن تزاد اجتهداً وجدّاً ، وتستنفد الطاقة حتى لا تبقى وسعاً ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتلطف لحسم أدوائه ، قبل أن يضجر السلطان — أطال الله بقاءه — ويقول :

(١) في الأصل : القدر

(٣) في الأصل : مساءته

(٢) ذو بحار ومنور جبلان في ظهر حرّة بني سليم . والشر من شعر لبشر بن أبي خازم .

(٤) يضرب مثلاً للضعيف يستصرخ بمثله

اصطنعناه ، ورفعناه ، وأعطيناه ، فلما تركناه وأمره ضاعت المهمات على يديه ، كضباع
إحساننا لديه .

وأنا مجتهد مع الأشغال القاطعة ، والمهمات المانعة ، في إمدادك بمن تطول بهم يدك ،
وينبسط معهم أمرك ، ولكن بعد ألا يطول مكثهم ، ولا يتراخى لبثهم ، ويكون
سبيلهم سبيل النجدة التي لا تصل حتى تفصل ، أمراً وحياً ، ولا تنتظر أمداً قصياً . وهذا
يا أبا عيسى خمار سكر كنت أحذر منه ، وأدفع بجهدى عنه أيام القبض على هؤلاء الأوغاد ،
الذين ارتضعوا درّ الفساد ، ففرّتك الغوار حتى توصلت إلى استنقاذهم ، وحلّ عقابهم .

لاجرم أنى ألقيت حبل الأمر على غاربه ، وعلمت أن مشاركته تظلم عليك من مغاربه ،
وكيف جرت الصورة فليس بجميل أن تستسلم للعجز ، وتنضو ملبس الكافي الشهم ، فابن
بابويه وابن عنترة قد أجريا بنواحي أصفهان إلى منكرات ، وقطعا^(١) الطرق دفعات ،
ولا بأس فسوف يرى بإذن الله ومشيتته كيف تروى السيوف العطاش ، من دماء أولئك
الأوباش ، وكيف يتركون طعمة للسباع ، وأكلة للضباع . وقد تكون للباطل جولة ،
وللفساد مهلة ، ثم يأتي من الانتقام ، والاصطلام ، ما يسقط الهام على الأقدام ، وما يعجزك
في هذين الغارة على أحيائهم ، وسبي أولادهم ونسائهم .

على أن مولانا موعز في إنهاض سبعائة رجل من الأتراك والعرب إلى أصبهان لحوط
أطرافها ، وصون أكنافها ، فقد طال عهد أكرادهم ، بعادتنا في صلبهم ، وتنكيلنا بهم .
وأنا أتوقع تأثيرك في هذه الطوائف مسقطاً للرقبة ، ومصرفاً لهم على أحكام الرهبة ، ولا تفكرن
في ابن عكبر فإنه سيشتغل بنفسه ، ويسقط ليديه وفمه ، والسلام .

٧ — واه

قد عرف مولاي أمر عكبر بن إبراهيم في تمرده منذ حلت تمامه ، وسوء معتقده
منذ فارقت حواضنه ، وأنه كان لا يقصّر عن الإفساد ما أطاق ، ولا يكف عن الإضرار
ما استطاع ، فتي لز من جنبه كتب يظهر طاعة منبئة القرائن ، ويبدى موالة مذمومة

(١) في الأصل : قطعوا

الدقائق ، ويوهم أنه وارد الحضرة ، أجلبها الله ، ومختلط بخدمها ، أيدهم الله ، فإذا أرخى من خناقه عاد لرأيه الذي فيه أوضع ، وعليه وضع ، ورجع لمذهبه الذي به غدى ، وعليه أنشئ ، حتى إذا جرد مولانا غزمه لإبادة هؤلاء المفسدين أبيضاً للملك ، وحميةً للدين ، قدر عكبر أن أباطيله تروج بحضرته ، ومخاريقه تنفق في جنبته ، فواصل تلك الكتب الطويلة الألفاظ القصيرة الأغراض ، مع رسل لا يتحملون إلا إفكاً ، ولا يتأبطون إلا شراً ، فلم يدع مولانا مع علمه بقصده وغزمه أن قبِلَ كتابه ، واستمع كلامه ، وصرف أعنة خيوله المنصورة عن طلبه ، ووقف لُجْمَ جيوشه المظفرة عن الإيقاع به .

فلما وجد إلى المدافعة سبيلاً ، وصادف إلى المراوغة طريقاً ، مضى على غرته ، واستمر على شرته ، وعلمت الخسروية والجرجانية ، أنه متعثر في ذبول الخلدان ففارقوه ، واعتصموا بحبل الطاعة ولزموه ، ودبر أمرهم بما أثمر أمن السبل واتصال الرُفَق ، وعمارة المزارع والديار ، وزوال الرقبة عن الوارد والصادر . فكرر عكبر راجعاً عن مضايقه ، فرسم مولانا تلقيه عنى بكتاب يقطع طمعه عن ورود هذه الحضرة ، ويحذره من دخول الأعمال المدبرة من هذه الجنبه ، وانتشر ذلك في أصحابه ، فتخلف عنه ^(١) أكثرهم ، وتقاعد به معظمهم ، وبادروا إلى الطاعة ، ضارعين في التماس الإقالة .

ورأى الرجل أن الطرق عليه مظلمة ، والمنافذ دونه مبهمه ، فخرج إلى الحضرة البهية ، تقوده الضرورة التي وصفها ، وتحدوه الصورة التي كشفها . وهؤلاء الأكراد الذين ضمهم إحسان مولانا وأمانه ، وشملهم فضله وإنعامه ، كان من أول ما شرط لهم وعقد ، وألقى إليهم وعهد ، أن لا يجري لعكبر وإخوته عليهم رياسة ، ولا تملكهم منه قيادة ، ومولانا محيط بأن ركن الدولة يعرف الرجل وخبثه ، وإفكه ونكثه ، وأنه لا يؤهله لزعامه ، ولا يُحظيه باستنامة ، إلا أنه أشفق من أن يوحى بكتاب يتضمن هذا الذكر ، ولم يكن عن قوة غزم ، ولم يصدر عن أمرٍ جزم . وهؤلاء الشهبان وحش في صورة الإنس ، فلم يؤمن متى طرقتهم هذا النبأ أن يتأخروا عائدين في جهالتهم ، مرتدين في عمايتهم ، ويصير ما قد أنشئ من التدبير حتى انضم النشْر وانسد الخلل ، بعرض الانتقاض وبسنن الانتكات ، وما مراد

عكبر إلا هذا ، فإن القوم لو راجعوا غوايتهم لنفقت سوق عكبر بعد ما كسدت ، ولهبت ريحه بعد ما رككت . ومولاي يتدبر ما أوردته ، ويقف على كتابي إلى أبي إسحق الكاتب أغزى الله فقد بسطته ، وينوب عن مولانا — أدام الله أيامه — بحضرة مولانا الأمير حتى يورد جميعه مورده ، ويبتدئ القول فيه ويردده ، ففي ذلك التقرب إلى الله ، تعالى ، ثم إلى أولياء النعم ، وكل طائفة من طوائف الأمم .

٨ — واه

وصل كتابك ، أيها الحاكم ! — أطل الله بقاءك — وعرفت ما أنهيته ، وتمثلت [ما ^(١)] تشكيته ، وقد خاطبت أبا فلان في بابك ، بما يؤدى إلى محابك ، وقد بلغتني هنات فلان ، ولا يزال يتردد في مخازيه ، ويتعثر في مساويه ، إلى أن أوغر ^(٢) في تناول السحت الذى جمعه وأطغاه ، والخطام الذى نظمه وأغواه ، وأيم الله لئن أشكاك من بعد لأتركه عظةً وازعة ، وعبرة رادعة ، فتقدم بعرض هذا الفصل عليه ، ليكون جارياً مجرى الإنذار إليه ، والذين يرشون نبلة ، ويُفَوِّقون جهله قد أخذت عليهم هذه الرقعة بحجة الإمهال ، وكرهت فيهم ^(٣) خطة الاستعجال ، فإن عادوا رأوا كيف يكون التقويم والتثقيف والإنكار والتأديب . وقد بلغنى أن فلاناً اعترض بعض ما حكمت به ، وزعمه مخالفاً لقول الأمة بأسره ، وأبو على ممن إذا أحسن لم يحسب له ، وإذا أساء لم يحاسب عليه ، وهو — فى مذهب نفسه — ضعيف الحفظ ، فكيف فى علم أصحابنا ، وهو أوسع من البحر ! ، وقد ناله من الإنكار ، ما ألجأه إلى خطة الاعتذار ، وكان سبيلك أن تزجره زجراً يمنع من التطويل ، والقال والقييل ، فإنك بحمد الله ومنه ، الموثوق بدينه وعلمه ، ومعرفته وفهمه ، وموقعك لدى أخص موقع ، ومشرعك عندى أعذب مشرع ، وكاتب بأخبارك وذكر أوطارك ، إن شاء الله .

٩ — وله ذم وتهجين

اختلف — أطل الله بقاء مولاي — أهل الدين فى خبر الواحد هل يوجب العمل

(٣) فى الأصل : فيه

(١) زيادة يقتضيه السياق

(٢) لعلها أوغرني

بغالب الظن ، وقد صار مولاي يقول في خبر الفاسق بإيجاب العلم ، فلست أدري ما هذا الرأي الذي حسن خرق الإجماع لديه ، وحسب ترك الاتفاق إليه . وبعد فعهدى به وطود يذبل وأنف مُعْتَق ، لا يطوران^(١) بمقارنة حلمه ، ولا يُقَدِّمان على مسابقتها في اجتماع لبه ، فكيف استخفه^(٢) ما لا يرفع السمع أستاره لوعيه ، ولا يكشف القلب غطاءه لحفظه ، وقد ألفت منه رجوعاً إلى رأيي فيما يشاهد ، واستمداداً لمشورتي فيما يعاين ، فكيف استبد دوني بأمر يغيب عنه وأحضره ، وآثر عزلي عن مهمّ ينأى دونه وأقربه .

وقد كان هذا الأهوج فلان الذي فقد الحياء صغيراً ، فلم يحظَ به كبيراً ، منذ استبدل أبو محمد — أدام الله عزه — يطلق فيه من القول ما لا يتسع صدر البحر لاجتماعه ، ولا يثبت قلب الصخر على سماعه ، فيتجاوز ويتجاوز ، ويسامح ويترخّص ، ولا يراه [إلا^(٣)] كلباً نبح فلا يعرّج عليه ، ولا يلتفت إليه . ثم لا أمسك عن تقويمه إلا استحقاراً ، ولا أنصت عن تأديبه إلا استصغاراً ، حتى صار الإبقاء إغراء ، والإغضاء إغواء ، فجلس — وحياة مولاي التي أعدها غموساً — في صحن دار مولانا فتكلم فيه بما يوجب الحد ، ويقتضى الجلد ، ولم يكن ذلك منه مساترة ومصاداة ، بل وقع مجاهرة ومباداة ، إلى أن اشتراك الخالص والعالم في معرفته ، ووقف الملك والسوقة على جلسته ، وحملته القحة بعد ذلك على معارضة أبي محمد — أدام الله عزه — حتى إذا مسه بطرف من تأنيبه صرّح في وجهه ، بما كان يورده وراء ظهره ، ففنّعه تقنيماً ضعيفاً بحسب عجزه وضعف قلبه ويده ، وبلغ ذلك الساقط إلى نسوان جمعهن حتى حضرن واستغثن ، وما ترك طريقاً للتشنيع^(٤) إلا سلكه ، ولا باباً للتقبيح إلا قرعه بل ولجه .

وقد كان خبر ما تلفّظ به ترقى إلى مولانا وامتنع ، ورسم معاقبته لولا أن أبا محمد انقبض ، ولم يَغْنِه ما أتاه ، ولا أقنعه ما جنّاه ، حتى أخرج البرد تهوى نحو جرجان ، كأنها قد أتت تخبر بشر بن مروان بقتل مصعب ، ونشط مولاي لتلك الأساطير الطوال والطوامير العراض ، ولم يقل ما حمى^(٥) دمه : لآل إسحق بن بندار بأصفهان : فلان قدس الله روحه

(٤) في الأصل : للتشيع

(٥) هكذا في الأصل . ولعلها : لسامعي ذمّه

(١) لايطوران : لايجومان حوله ولايدنوان منه

(٢) في الأصل : استحقه

(٣) زيادة يقتضيها السياق

فلم لا أتوقف ، ريثما أتعرف ، وأحلم ، قدر ما أعلم .
ولو جرى هناك ما يُستَغْظَم هذا الاستعظام ، ويستوجب هذا الملام ، لكان ذلك الصديق
الصدوق ينكر أو يخبر ، ويؤدّب أو يُغيّر . لا جرم أن هذا الوقاح أخذ الكتابين بيده
يطوف بهما على كل باد وحاضر ، وحاف وناعل ، ومستغش وحاسر ، حتى ترك أبا محمد
مضغة ، وألبسه في الخدمة الشريفة هجئة ، وكاد يدُرّع جاهه وُصْمَة ، ويوسع بناءه ثُلْمَة ،
و بلغنى ذلك وهو لا يقلع عن الإذاعة ، والنشر والإشاعة ، فبعثت من تناول الكتابين منه
وإن كان على ما بلغنى فرّق من نسخهما^(١) ما صحيفة المتلمس أقل منه ضررا ، وكتاب قريش
في مباينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن منه أثرا ، والله المستعان .

وأنا أكتب — يعلم الله — ويدي تتعثّر غيظا مما ورد ، وحنقا مما اتفق ، ولأن مولاي
تبلغ به سلامة الطبع وسلامة الخلق إلى أن يُتَلَّعَب بحلمه ، ويُتَعَبَّث بصفحه ، أيقدر
مولاي أن هذا العين استبقى موضعا للتظلم لم يطأه بأعقاب عثرته ، وغادر مكانا للتألم لم يعمره
بأشخاص أسرته ، وأنه لم ينظم نسوة يتضاغين^(٢) بباب الميدان العالى ، فلو لم أستكف
سطوة مولانا عن هذه الشجرة الملعونة في القرآن لكانت تحت من أصولها ، وتقتلع
بعروقها . وكنت على ترك المكاتبة استيحاشا إلى أن يحضنى مولاي عليها لما أنكره من
أنباء الكتابين الواردين . وما^(٣) عرف مولاي جليلة الحال ، ولا اطلع على صدق المقال ،
ولا غرو فإن ذا الحلم قرعت له العصا ، وقععت له الحصا .

وأقول أخرى : إن مولانا قطعنى بقدر ما وصل ذلك الحر النفيس ، وأوحشنى بحسب
ما آنس ذلك الأخ العزيز ! ، نعم ورأيت مولاي يشهد له في فصل من كتابه بالفضل ،
وأظنه لم يكتب بذلك حتى استغفر الله سبعين مرة ، ثم لم يجد مغفرة يرجي نفعها ، ويحسن
وقعها ، ومن الكبائر أن أبا محمد يقطع مكاتبته لهذا الزور الذى قام مقام رأى العين ، وعاد
عثمان فيه ذا الشهادتين . لست أروى من التقرّيع ، ولكنى أمسك ونيران قلبى تغور ،
وأرض صدرى تمور . وأنتظر كتاب مولاي أبى محمد بما يمسح وجه الظلم بيد العدل ، وإلى
بألف^(٤) طومار من التنصل ، إن كان سمعى يفتح للعذر ، والسلام .

(١) فى الأصل : نسخها
(٢) فى الأصل : يتضاغين
(٣) فى الأصل : لما
(٤) فى الأصل هكذا : وإلى نالف

١٠ — وله في تهجين غاش لوليّ النعمة وذم طريقته

كتابي — أطل الله بقاء سيدنا — ونعم الله لمولانا الأمير المؤيد متضاعفة ، ودواعي التوفيق والتأييد إليه مترادفة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وعاد الجواب عما طالعت به حضرة سيدنا — أحضرها الله المناجح — ففقد لي أنواعا من التشريف لا تكمل الهمم لاقتراحها ، ولا تقوى المنن على التماسها ، وسألت الله الكريم أن يجعلني لأنعم مولانا من الشاكرين ، ويمد ظله علينا كافةً خدمه المغمورين بأياديهِ ومننه ، والمستظهرين على الدهر بحسن رأيه وعزرايته ، وكرم إيجابه وشرف رعايته ، إنه إذا شاء فعل .

وعُرض ما لم يجز الإعراض عن إنهائه ، وهو أن إبراهيم بن القاسم كان ، كما عرف سيدنا ، يلبس هذه المدد طريقته ، ويغشى بأنواع الحيل صورته ، ويتصرف على أصناف من الخيانة صارت السبب في ضياع الأموال ، وتبذل الأعمال ، وتحجز الناس كافة عن التنصّح ، بما اتفق له من فضل رتبة ، وتحسم الأطماع جميعا عن التقرب بما اتجه له من مزية القربة ، وتقسم ما استُرعيه بين تضييع اقتضاه عجزه ونقصه ، وتغميض أوجه ارتشاؤه وغشه .

وقد كنت ألقيت إلى سيدنا الأستاذ اطلاع مولانا الأمير على بعض ما أناه بامتداد الأيام ، وجناه بمساعدة الزمان . هذا إلى ما كان يشير به من أسباب حدثت المغاب والمصائر عن مغزاه منها ، ويبعث عليه من أحوال أخبرت^(١) النتائج والعواقب عن مرماه فيها ، فلما بسطني مولانا لمشاركة هذه الأمور بجميل هدايته ، ونشطني لمطالعة هذه المهمات بموفور عنايته ، لم أدع أن أزلت الشبهة على هذه الأوقات في احتياله واختيانه ، ودفعت المرية في اقتطاعه واحتجانه ، وكشفت عن حقائق ارتفاقه عن الحقوق المنتهية ، وارتشائه عن الأموال المقتسمة ، وأبنت عن أخذه من بيت المال أكثر ما وصلت إليه يده ، ومن مستضعفي الرعية ما أوهمها أنه يوفره ، مقبحا للأحدوثة عن ولي نعمته ، وواقفا في مهبط سخط الله ونقمته .

وقد كان هذا أجمع يُتجاوز عنه ، ويُغضى عن سالف ما بدر منه ، ويُقتصر على قبض يده عن التبسط ، وغضّ منزلته عن التسلط ، حتى أحب أن ينتعش من عثرته بأيمان

يُجَدِّدُهَا ، وَيَرْمِي مَنْ رَتَبَتْهُ بِأَقْسَامِ يَوْمِ كَدِّهَا ، فُخِيفَ بِحَيَاةِ مَوْلَانَا — أَطَالَهَا اللَّهُ — عَلَى أَشْيَاءَ
لَمْ يَتَجَاوَزِ يَوْمَهُ حَتَّى أَقْرَّ فِيهَا بِخُنْثِهِ ، وَلَمْ يَتَخَطَّ نَهَارَهُ حَتَّى أَفْصَحَ بِكَذِبِهِ وَبَهْتِهِ ، فَوُجِدَ
الْإِغْضَاءُ عَنْ هَذَا عَجْزًا لَوْ كَانَتْ سَيِّئَاتِهِ السَّابِقَةُ حَسَنَاتٍ مَقْبُولَةً ، وَجَرَأَتْهُ السَّالِفَةُ مَسَاعِيَ
مَشْكُورَةً ، فَكَيْفَ وَهُوَ رَهِينٌ جَرَائِرُ تَخَرُّجِهَا الصَّدُورُ ، وَغَرِيقُ كِبَائِرِ تَضْيِيقِهَا الْحُلُومُ .

لَا جَرَمَ أَنَّهُ أَذِيقَ وَبَالَ تَلْبِيسِهِ بِالصَّرْفِ عَمَّا كَانَ يَلَابِسُهُ ، وَقَلَّدَ طُوقَ الْخَزْيِ بِالْإِبْعَادِ
عَمَّا كَانَ يَتَقَلَّدُهُ ، وَحُلَّ إِقْطَاعَهُ جِزَاءً لِمَا يَقْتَضِيهِ . فَأَمَّا الْحَنْثُ فِي الْيَمِينِ فَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا أَنَّ يَمِينَهُ
لَوْ أُخِذَتْ فِي مَقَابِلَتِهِ ، لَمَا تُعَدِّي أَيْسَرَ الْوَاجِبِ فِي مَعَامِلَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ مَوْلَانَا لَمْ يَفَارِقْ كَرِيمَ
طَبْعِهِ ، وَلَمْ يَحُلَّ كِبَرُ الْخِيَانَةِ حَبْوَةَ حَلْمِهِ ، وَرَسَمَ أَنْ يُقْتَصِرَ مِنْ مِرَاقِبَتِهِ عَلَى طَرْدِهِ وَرَدِهِ
إِلَى قِيَمَةِ مِثْلِهِ ، وَتَرَكَ مَطَالِبَتَهُ بِعَظِيمٍ مَا ضَمَّ عَلَيْهِ يَدَهُ ، وَمَلَأَ مِنْهُ حِضْنَهُ ، وَذَكَرَتْ جَمْلَةً
الْحَدِيثِ عَلَى رِسْمِي فِي الْخِدْمَةِ ، أَنَّهُ ضَنَى اللَّهُ بِحَقُوقِهَا ، وَوَقَفَنِي لَشُرُوطِهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الباب التاسع

في التهاني والأجوبة عنها وما يجري مجراها

١ - كتاب في تهنئة بولادة وزيادة رتبة

كتابي - أطال الله بقاءك - عن سلامة ، قد وصل الله أسبابها بالنعم راعها ومؤتمنها ،
ووكّد أطناها بعزة البسطة وشرفها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .
ووصل كتابك مفتوحاً بما عود الله العزيز أمره ، العليّ ذكره ، من اعتزى إلينا برأيه
ورويته ، وعول علينا في سر أمره وعلايته ، وكان على الإخلاص لنا مثابراً مواظباً ، وفي
التحقق بنا ثابتاً راتباً ، من تيسير المحابّ وتسهيلها ، وتقريب الآمال وتعجيلها ، ليتناول
أمانيه بطراوتها وطلاوتها ، ويحتني ثمار زكائها وحلاوتها ، لا يعتاص عليه بعيد ، ولا يتوعر
دونه شديد ، وبوصفٍ ما كان من السلار إليك حين راعى مع حق النجاة التي أفردك الله
بمزيته ، والكفاية التي توحدك الله بحليتها ، حاولك لدينا محل أعز الأولاد ، وآثر الأعضاء
والأنجاد ، فأتى إليك بعهد ، ووصل ضمانه بعقده ، واسترعاك معقب أمره ، وأوطأ عقبك
كافة أهله ، ومكّنك في حاضر الوقت وعاجله ، الأمر من عدة قلاع ، شفعها بعدة من
الضياع ، إلى ضروب من التكرمة صارت السنة نيته فيك واعتقاده ، واعتضاده بك واعتداده .
وشرح فلان الصورة وفتحها ، ولخصّ القصة وحققها ، فحمدنا الله كثيراً على ما عودناه
في المؤثرين لدينا ، والأقربين إلينا ، تمكيناً وتمهيداً ، وتقديماً وتأييداً ، لتتسابق المناجح إليهم
متصلة الورود ، وتتظاهر المناجح عليهم مرتفعة الجود ، واعتدنا للسلار بما اعتمد فيه توخي
مسرتنا والزيادة في دواعي الثقة بحضرتنا ، وذلك هو المأمول من مثله ، في وفور فضله ،
وعرفانه بالدهر وحكمه ، وعلمه بالتقرب أين مفضاه وعمره ، ومجاله ومستقره .

وسرّنا له فيما دبر به أمره ، وحفظ^(١) فيه نيته ، أن عزل الهوى عن زمامه ، وعدل

عن الرأى وأحكامه ، فولّى من كان أشدَّ أزرًا ، وأثبت حِجْرًا ، وأطيب خبرًا ، وأكثر نفرا ، وهو منتمٍ من صلة السبب بنا إلى ظل لا انحسار لمداه ، وحبل لا انحلال لقواه .
وسألنا الله له إطالة العمر وتأخير الأمد ، وإدامة السلامة وتبليغ الأمل ، وارتحنا لما ألقيت إليك مقاليدَه استيجابًا واستحقاقًا ، لا إيجابًا واتفاقًا ، فإنك بحمد الله ومنه النجيب الذى لا يفصح قادحه ، واللبيب الذى لا يمسك مادحه ، قد اكتنفتك بواعث الاستقلال ، وشملك الغناء فى كل حال ، أنال الله فيك المراد ، وحرس عليك إحسانه المعتاد ، وضاعفه بعد ذلك وزاد .

ويجب أن يتلقى ما كان من السلار بحقه من التقبل والإكبار ، وحسن القبول والائتمار ، فقد قضى الحق وبالغ ، وتناهى فى الجميل وسارع ، واستعمل ما يستعمله الجامع علماً بالأيام وخبراً بالنقض والإبرام ، وإتقاناً لأسباب السياسة ، وكلاً فى السبّر للعامة والخاصة ، وقد كاتبناه نشكر له ما قدمه ، ونلتزم له المنّة فيما تجشمه ، ونعلمه أن الذى أتاّه زيادةٌ فى التمازج ، ومادة للتصافى والتواشج .

٢ — وله تهنئة بجعل ولد ولىّ عهد

كتابى — أطل الله بقاء السلار — وأمر ممالك مولينا الملك السيد والأمير المؤيد فى الاستقامة والاطراد ، كفاء ما عودها الله من الإنجاح والإسعاد ، وأنا فى ظلّهما حامد لله رب العالمين ، وراغب إليه فى الصلاة على النّبي محمد وآله أجمعين .
ولولا أن صفوة الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — وخيرة الله من الخلفاء الراشدين أفضيا بالعهود إلى ذوى الاستقلال ، ورأياه من أصالة الرأى وآلة الكمال ، وصار ذلك دولة فى دول العرب والعجم ، وسائر الملوك والأمم ، حتى عدّ المغفل له ^(٢) مضيعاً عزمه ، والمقدّم له مطيعاً حزمه ، لما كتبت مهنئاً بما رآه السلار من إلباس فلان جمال العهد والتفويض ، مشفوعاً بإحسانه السائغ المستفيض ، مع ثقى بأن الله يحفظ الجمال بمكان السلار أبداً ، ويصل فى البقاء بعد أمدٍ أمدًا ، ولكن أسأل الله أن يديم أيامه عامراً مكانه بنفسه ، ومصرفاً أمره بيده ، ورافعاً ولده بامتداد من عمره ، وبالغاً فيهم ما يحاول بمرأى طرفه ، ويجعل

ما عقده أيمن معقود ، ومن اعتمده أنصح مفوض إليه استحقاقاً . وحصل من اعتداد مولانا عما أتاه ما لا يقارِع على وقور أقسامه ، ولا يراحم على مشارعه وجمامه .

٣ — وله تهنئة بولاية عهد

كتابي ، أطل الله بقاء السلار ، ومولانا سابغ ملابس العز والاستظهار ، مسعود بمواتاة الأيام والأقدار ، وأنا سالم في ظله الظليل ، وبرأيه الجميل ، والحمد لله وحده .
ووصل كتاب سيدي مخبراً بما أتاه السلار في معناه ، وتوخاه من وفاق مولانا وتحراه ، حتى جعله ولياً أمره وعهده ، ومرجواً يومه وغده ، وأفضى إليه بسدّ خصاصه ، وأوطأ أغزته أثره زيادة في اختصاصه ، غير ذاهب عن الجلية إشاراً للأقرب نسباً ، بل ماضياً مع الصواب أين صادف مطلباً ، فسرّني الله بهذه المنح المترادفة ، والمِنن المتناصفة ^(١) ، وسألت الله إطالة بقاء مولينا لنبلغ في ظلالها الآمال ، ونكتسب بعزها الجلال والجمال ، وشكرت له أن أحضر السلار من العزائم أثبتها قواعد ، وأوكدها معاهد ، ومن الآراء أرفعها مراقب ، وأحمدها عواقب ، وحمدته — تعالى جده — أن سني ^(٢) لسيدي ما أحبه ، وأسنى حظّه فيما آثره وطلبه ، وأعلم من خبر عن قرب ، أو نظر عن بعد ، أن فضيلة الولاية ، طبقت مفصل الكفاية ، وولاية العهد حصلت للمستقلّ الفرد ، وحماه عن أن يكون الهوى رائداً في اصطفائه ، وقائداً إلى استرعائه .

وقد أنهيت إلى المجلس العالي ماورد ، فاهتز مولانا لسماعه ، واستشرح فلانا حقيقة أحواله وأوضاعه ، واعتد للسلار اعتداداً طال عنانه ، وحسن ارتهانه ، وسكن إلى ما أوتي سيدي من الأمر الذي كان مترتباً به حتى استقر قراره الاستحقاق ^(٣) ، واستمر بأحسن اطراد وأجل مساق ، فحار الله لسيدي فيما لا بسه وتطوّقه ، وبلغه في كل حال أمله وحقيقه ، وأعانه من طاعة مولانا على ما هو ملاك النعم وقوامها ، ومساك الرتب ونظامها ، ووقفه لمقابلة اعتماد السلار إياه ، بقضاء الفرض فيما استكفاه وولاه ، إنه يفعل ما يريد .
وسيدي يجعل عماد ما أوتيه ، والعتاد فيما أوليه ، الانقطاع إلى الله تعالى في سر أمره

(١) في الأصل : المتنا . ثم واءها بياض قليل .

(٢) سني سهل وفي الأصل : يسني .

(٣) في الأصل : لاستحقاق .

وجهره ، وبطن أمره وظهره ، وينوى الخير ، فإنها نية تحفظ الرغائب عن الشرور ، وتحرس المواهب عن الندود ، ويخاطبني بخبره ووطره ، إن شاء الله .

٤ — وله تهنئة بمتجدد نعمة وعلو رتبة

أما قبل أطل الله بقاء سيدى ، فالحمد لله مولى النعم ، ومُسدى المنح ، منه ابتداء الإحسان ، وإليه مرجع الشكر آخر الزمان ، وصلى الله على النبي محمد وآله الأخيار .
وأما بعد فهنا الله سيدى الموهبة التى ساقها إليه ، ومدّ رواقها عليه ، إذ^(١) كانت من عقائل المواهب ، مسفرة عن خصائص المراتب ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد صدرت عن مالك الأرض ، وولى البسط والقبض ، ومصرف الثقلين ، ومدبر الخافقين ، مولانا الملك السيد ، مكنوفة بكرم رائه ، وشرف اختصاصه واحتبائه ، وخطبتها عناية مولانا الأمير المؤيد ، وحلت من سيدى محل الإيجاب ، والاستيجاب ، والاستحقاق ، دون الاتفاق ، فعرفه الله ميامن أغزر شريعة بأشرف ذريعة ، وأبرع فضيله حصّلتها بأرفع وسيلة ، كما عرفنى فيه ما لم أزل أوثره وأرتجيه ، وأأعده به وأمنّيه ، فحقق الله ما قدرته ، وصدق طيرى الذى زجرته .
وأنا فى كتاب مولانا دالاً على أنواع التكرمة التى أهل سيدى لها ، وأصناف الأثرة التى اختصه بها ، فقوى أملى وامتدّت ، واستحصف أزرى واشتدّ ، ودعوت له ثم لمولانا الأمير بثبات الوطاة ، ودوام القدرة ، واتصال السلطان والبسطة ، لنبلغ المنازل السامية باستيطان طاعتها وخدمتها ، وشكر فضلها ونعمتها ، لما به تُستدام النعم دون الشرور ، وتحفظ المنّ عن مشارع الكنود ، والله يسمع ويحيب .

كتبت هذه الأحرف من بوزنجرد^(٢) ، وإذا يسر الله وصولى إلى الحضرة العالية بمنه ، ومشولى فى المجلس بإذنه ، قمت عن سيدى بحق الشكر ، وخاطبته بمزيد تخلص وشرح ، وأقول قولاً مجملاً ، ليقابل سيدى هذه الرعاية بما يُرغب فى تشييدها بأشباهها ، وتشجيعها بأمثالها ، فقد علم أنى لم أُجلّ له قط عن صورة إلا أرتته الصواب ولم أُجلّ قلمى إليه بمشورة إلا لفته الرشاد والله حسبي وصلواته على محمد وآله .

وبوزنجرد : قرية من قرى همدان

(١) فى الأصل : أو

(٢) فى الأصل هكذا : برسرحد .

٥ — وله جواب تهنئة بمزيد رتبة

كتابي ، ونعم الله متظاهرة ، في الدولة القاهرة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك يبسم عن ثغر الإخلاص الصادق ، ويصل طاريء الحق الواجب براهن الذمام السابق ، قد وصفت فيه مورد البشري عليك ، وعظم النعمى بها لديك ، فيما جدده لى مولانا تشريفاً لم تخاطبه طوابع الآمال والطلبات ، ولم تخطبه نوازع الهمم والرغبات ، بل تطوعت به سماء المجد ، وجادت له أنواء الملك ، فتضمن من الخلع أسناها ، ومن السيوف أمضاها ، ومن الأفراس أجراها ، ومن المراكب أبهاها ، ومن الإقطاعات أوفرها وأنماها ، ثم لم يقنع بأن جاد أرضى ، ونور روضى ، حتى تتبع كل وارد فى جملى ، وناهض الخدمتى ، فطبقه بغيث خصه بسقيه^(١) ، وفضل توحد سناؤه وسناه .

وهذه المواهب والرغائب ، وإن علت بها المنازل والمراتب ، وتجددت معها المفاهيم والمناقب ، وكان فيها العز الراهن الراتب ، فإن الملك السيد أتبعها بعارفة فغم الخافقين عرفها ، وأفهم المشرقين وصفها ، وتوضحت جباه التاريخ بغررها ، وافتتحت صفحات السير بخبرها ، إذ ركب — أدام الله سلطانه — إلى بنفسه ، غلواً فى الكرم ، وإسداء لقاصية النعم ، وتوخيّاً لوفاق مولانا فى خادمه ، وربيب مكارمه ، فكان يوماً غبطت سماؤه أرضه ، ونجومه تربه ، ووقع الإجماع ، بحيث ارتفع النزاع ، على أن هذه المكرمة لم تقسم لأحد قبلى ، فيجارينى فى رهانها ، ويجاذبنى على عنانها .

والحمد لله مسنى المنن ومتيحها ، ومجزل الفواضل ومبيحها ، حمداً يوفق لشكر نظره الجميل ، وإنعامه بما يوفى على التأمل ، وإياه أسأل أن يصلى على النبى محمد وآله ، ويطول بقاء مولانا ملك الملوك ما رويت أخبار مساعيه ، وتليت آثار معاليه ، مشبوح الباع بتصريف أزمنة^(٢) الزمان ، يدين له الثقلان ، ويتصرف — كهمة — الملوان ، ويديم أيام مولانا الأمير المؤيد ، ورايته تفرع الرايات ، وولايته تسع الولايات ، نافذ الأوامر ، ضاحك

(١) فى الأصل : سقيه

(٢) فى الأصل : أزمنة

المآثر ، مخدوماً بأيدي الأقدار ، مبلغاً في أوليائه وأعدائه قاصية الإيثار ، ومعونتي على أن أكون لهما خادماً تزكو لديه الصنعة ، وتحرس عنده الوديعة ، وتعتمد منه النصيحة ، وتشهد لديه النية الصريحة ، والله سميع مجيب .

وأنت — أيدك الله — مستغن عن أن تصف حالك في قوة أملك ، وشدة جذلك ، إذ كنت أعرف ذلك منك بالاختبار ، قبل الإخبار ، وبالمشاهدة قبل شهادة البيان ، لاعدمتك ، وأعان الله على المنوى فيك .

٦ — وال — ٤

كتابي وأروقة العز علينا ممدودة ، وأفنية الملك لدينا ممهودة ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

ووصل كتابك مخبراً بانكفائك عن وجهتك ، متعرّفاً المناجح في عزمتك ، ملقياً المحاب في نهضتك ، ربيع السعي في مسيرك وأوبتك ، فأنسنا الله بما ألبسك من أثواب الجلال وأفاض عليك من مدارع الإقبال ، حتى عرف البعيد عرفان القريب ، وأيقن الغريب إيقان النسيب ، أن الدولة القاهرة حين عُددت ابنها وفتاها ، وصنوها وأخاها ، منحتك من السعادة ما يفوت الآمال أن تخطبه ، والظنون أن ترومه وتقتضبه ، وتلك حالها وحالك ما أردت ، وأين توجهت وقصدت .

فالحمد لله وليّ الحمد ومستحقه ، وقاسم الفضل لمن فضل من خلقه ، وزاد الله أيام مولانا الملك امتداداً ، وأركان عزته اشتداداً ، وقوّانا على طاعته التي من استشعرها امتطى النجم تمثيلاً ، وأوسع الدهر تذليلاً ، وأوزعنا الله أن نشكر ماعودناه في أنفسنا إبراءً زند ، واعتلاء جند ، واتصال سعد بسعد ، ثم في الخُلصين لنا والأخصّين بنا ، تمكناً من الرغائب ، وتدرّجاً في المراتب ، وافتراءاً لحاسن الزمان ، واتساعاً في المكان والإمكان ، وزادنا ابتهاجاً بما أوتيته وأتيته وانتهيت إليه وأنهيته ، فأكمل به فلان سيدي رفده ، وأنجز معه وعده ، وتجاوز به الاقتصاد إلى الإكثار ، وجمع فيه الإيثار إلى الاستبصار^(١) ، حين

(١) في الأصل : تراء الاستبصار

اختصك بالقلمة التي كان قدّمها على قلاعه ومعاقله ، وجعلها أخصّ رباعه ومنازله ، مبالغا في التنويه ، ومتحرّيا من الجميل ما لا ينازع فيه ، ومثله آت من المآثر ما يطيب شكره ، ويطير ذكره ، ويحصل به من إحماد مولانا ما تنافس عليه القلوب والنفوس ، ويشترك في استمداده الرئيس والمرءوس ، ومن اعتدادنا ما لا تميل قواعده ، ولا تحول معاهده ، فهناك الله ما أطرقت ، وعرفك بركة ما استأنفت ، ومنحك أضعاف ما استزدت واستضفت ، ونحن نتوقع ما يرد منك بتخليص الصورة وإيضاحها ، وإنهاء جليتها والكشف عن أوضاعها ، مع أخبارك وأوطارك ، إن شاء الله .

٧ — وله تهنئة بمتجدد الوزارة

كتّابي — أطال الله بقاء الشريف سيدي ومولاي — والأمور بمضاء ^(١) رأى مولانا وعلا رايته ، ونفوذ حكم مولانا الأمير المؤيد وعلو حكمته ، على ما عودها الله الكريم نجما صاعداً ، وعزا زائداً ، وسلطاناً متيناً ، وفضلاً مبيناً ، وما فوضاه إلى منابى ، وناطاه باستخدامي ، جار بعون الله تعالى على ما النجح فيه مضمون ، والخلل عليه مأمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدي مهنئاً بالنعم التي ألبسني الله — تعالى — أجدها ، ومنحني أجلاً ، فيما أهلني له مولانا من إكرام اقترن طارثه براهنه ، وناشئه بقاطنه ، وإنعام هو ، وإن كانت شعابه تسيل إلى منذ صحبت الزمان ، وتقر عندي منذ عرفت الأيام ، فإن موافيه أوفى ^(٢) على ماضيه ، وحاضره أرمى ^(٣) على منقضيه .

وشرفني به مولانا من اختصار طرق الآمال إلى ، وجمع شعب الأعمال في يدي ، إلى ضروب من الإحسان ، إن استنجدت عليها الوصف تقاعدي ، وإن استمدت لها بالشرح لم يهتزلي ، وعرفت ما أنبأ عنه الشريف من طاعته سلطان الغبطة ، وبذنه الإمكان في إكبار المنحة ، وتصرف فيه من الأدعية التي موافيقها مأخوذة ، ومواقيتها معلومة ، وصحفها منشورة ، وكتبها مرقومة ، فهي بالإجابة متقبلة ، وبالسعادة متكفلة .

(٣) أرمى : أربي

(١) في الأصل : بمصار أبي هكذا

(٢) في الأصل : أفي

وفهمت الجميع ، وأما تفضل الله على فقد جاوز حدود النعم الموهودة ، والقسم المشهود ،
التي تضمن آيات عز^(١) وسعادة جد ، ومساعدة قدر ، فإنه — وله المنة — شفع كل منحة
سوَّغها ، بمحنة ردّي^(٢) المناذير فيها ، وكل رتبة فتح لي بابها ، بنكبة مكن منهم أنيابها ،
فنت^(٣) بحوله وقوته ما ابتغيت ، وقد بُغِيَ على وما بَغَيْتُ ، وبقي أن أودى فرائض هذا
الطَّوْل العظيم والمنّ الجسيم .

وأما إفضال مولانا الملك السيد فهو الذي لو استعرت له كواهل الأطواد ، ومتون السبع
الشداد ، لما أقلتته عظما ، ولرأته^(٤) أمما ، ولو كان البحر مدادا ، والشجر أقلاماً حداداً ، لما
طمعت في الإخبار عن قدره ، والإفصاح عن علو أمره ، ولكني أَكِلُ إلى ما يرويه
الركب ، وينطق به الشرق والغرب .

وأما ماجدده مولانا لخادمه وغذّي مكارمه من التشريف الذي لو ضربت به الأمثال
لقلت جاز الجوزاء سمتاً ، وعزل السماك الأعزل سمكا ، فإن لم يكن ذلك فقد أتى بما أناف
على الحساب والمحسبة ، والمنح الراهنة والمكتسبة ، وجاد^(٥) من المواهب بما لا يطول به باع
الدهر ولا يتسع له صدر البحر .

والله تعالى يضاعى عليهما ملابس التمكن ، ويحرس سلطانهما على الدنيا والدين ،
لتدوم الحوزة محفوظة في أيامهما ، والبيضة محروسة في ظلال أعلامهما ، إنه فعال لما يريد .
والشريف مستغن بما جمعنا الله عليه من حال لولا أنه من مضر في سويداء قلبها ،
ومن هاشم في سواد طرفها ، ومن الرسالة في مهبط وحيها ، ومن الإمامة في موقف عزها ،
لقلت هي القربي والرحم الدنيا ، فلا غرو أن أكون عند النعمة أسوَّغها ، والدرجة أبلغها
ناظراً في عطف مسرة واعتباط ، وعامراً طرفي بهجة ونشاط . وهذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم سبق فرسه فحشا ونعر ، وهذا جعفر بن أبي طالب أثني عليه فحجل . بلغ الله
الشريف في نفسه وأحبته ، نهاية مراده ومحبته ، ولا أعدمى وده^(٦) الذي لو مثل شخصاً
لأوطأه الوفاء خده وجبهته ، ولو أصبح الزمان أدها لكان قرحته ، لا بل والله غرته ،

(١) في الأصل : وعز

(٢) في الأصل : ردّي

(٣) في الأصل هكذا : قيلت

(٤) في الأصل : ولا رأته .

(٥) في الأصل : وجدت

(٦) في الأصل : اده

ولكن على الشريف ، بعد هذا تكليف منى وتوظيف ، وهو أن يُنْهَضَ لى لسانه وقلمه ، ويتعب بنانه وفه ، شكرا للأمير الجليل صاحب الجيش مولاي ومن أنا عبده ، عن أياديه التى هى مشارق الجدد ، وأثمان الكرم المحض ، ولقد ملأنى منها أنفأً ، بعد الذى أولانى سالفاً ، ما يُحْصَى رمل عالج قبله ، ولا يستطيع غير الحفظة حفظه ، وهذه جملة تغنى من ألقى السمع ، وأخلى لها الذرع :

وقد يُدْرِك الموحى لُبَّانَةً نَفْسِهِ وذو القول لم يدرك من الأمر طائلاً
الأشغال — أيد الله الشريف — على مزدحمة كالعادة فى با كورة الأعمال ، وكرهت تأخير الجواب طلباً للجمام ، وانتظاراً لخلو الفكر وتوقعا لانتجاع القريحة فأملت إملاء من يسابق لسانه قلم كاتبه ، ويسترسل فيلقى الكلام على عواهنه ، علماً بأن الشريف إن رأى جميلاً أراه ، وإن شاهد تقصيراً واره .

٨ — و —

كتابى — أطل الله بقاء الأمير مولاي — ومولانا بما يكنفه من تفضل الله وإحسانه وبركة الملك السيد وسعادة أيامه معافى موفور ، والله محمود مشكور ، وصلاته على خيرته محمد وعترته ، وقد جمع الله للأمير صاحب الجيش من علو الخطر ، وحسن الأثر ، وارتفاع المكان ، وانقياد الزمان ، والرأى المستنبط دفائن القلوب ، والعلم المستخرج ودائع الغيوب ، والفضائل التى لو قسمت على البرية ماضيها وغايرها ، وبرها وفاجرها ، لو سعت جماعتهم ، وكفّت كافتهم ، ما يكبر معه محله عن التهانى بما يتجدد لديه من النعم ولو كانت القطر عدداً ، وأعجزت الألسنة وصفاً ، وتخطت الشكر سبقاً ، وأتعبت الأيدي حسباً ؛ إلا أن الأولياء الخالصين والأوداء المختصين أن ينبئوا عن إكبارهم لما يضاعف الله الكريم من بسط يده وإسعاد جدّه ، والزيادة فى ارتفاع قدره ، وانبساط قدرته وأمره .

وعرفت خبر الوصلة التى لا مرعى يطلب وراءها للجلال ، ولا نُعمى تقف إزاءها فى الجلال ، ولا شمل أشرف منها ^(١) اجتماعاً ، ولا مزية أتم منها ^(٢) ارتفاعاً ، فبينما أنا فى توفية هذه الحال حظها من الاستبشار بها ، والتبشير بكرم منصبها ، إذ عرفت خبر البلد الذى أحسن

(١) فى الأصل : فيها

(٢) فى الأصل : منه

الله إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أضيف إلى ما يلاحظه الأمير بعين إيمانه ، وينفي خله بفضل أصالته ، فلزمتني فروض شكر أسأل الله المعونة على أدائها ، والتوفيق لتحمل أعبائها ، ومن سرّ — أدام الله علو الأمير — في هذه الحال لنعم مستفادة ، ورُتب من زيادة فسرورى لما أعلمه — أدام الله عزه — يكتسبه في كل عمل يدبره ، وأمر يقرره ، من أحدى جملة ، ومثوبة جزيلة ، ويؤثره من إحياء عدل وإماتة ظلم ، ونشر نصفة وطى غشم ، ورفق بضعيف ، وإغاثة للهيّيف ، وعمارة لسبل الخيرات ، وإيضاح لطرق المبرات ، فبارك الله للأمير في الأمر الذى عقده ، وأحمد إياه وأسعده ، وجعله موصولا من زكاء الولد ، ونماء العدد ، واتصال الحبل ، وتكثير النسل ، وعرفه ، من يمن ما باشره ، بتدبير الخير والخيرة ، والبركات الحاضرة والمستظرة ، وجعل المنايح إليه أرسالا ، لاتملّ تواليا واتصالا ، وعين كلاءة الله ترعاها وتراعيها ، ويد حراسته تحفظها وتقيها ، إنه فعال لما يشاء ، فإن رأى أن يُصَرِّفنى على أمره ونهيه فعل إن شاء الله .

٩ — وله تهنئة بالوزارة إلى أبى الفتح بن أبى الفضل بن العميد

أنا أهنيء — أطل الله بقاء مولاي — الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها ، وبلوغها في ظله إرادتها ، وانحيازها إلى جنبته واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوه عليها ، وعطفه عنان الفكر إليها ، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقت بيديه نارها ، بعد أن هفا قلبها إشفاقاً من استشراف أناسِ النقص لها ، وخرج صدرها من تحدث أحلاس الجهل بها .

ولا غرو فهي وليدة داره ، قد آلت لا تخطّ خطته ، وعاهدت لا برحت عرصته ، فالحمد لله الذى أقرّ عين الفضل ووطأ بها دار المجد وترك الحساد يتعثرون في ذبول الخيبة ، ويتسقطون في فصول الحسرة ، حمداً يديم أيام الأمير السيد ويطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور الحاسن ، وشدّ ظهور الحامد ، بتفويض الصدر إلى من وليه بحقين : قديم وحديث ، وأوليه بفضلين : مكتسب وموروث ، لأن مولاي وإن كان بكفايته ، مستغنياً عن التعويل على أوليته ، فليس الاعتزاء إلى العميد — قدس الله روحه — ييسر فيحقّر أمره ، ولا الانتماء إلى الأستاذ الرئيس — برّد الله ضريحه — بقليل

فيترك ذكره . هيهات ! إن الرياسة خيِّمت ثمَّ متشبَّهة بأعطافهم ، متنقلة في أكنافهم ، حتى استكمل مولاي جلالها ، ووقَّافها حظها وجمالها :

فلم تكُ تصلحُ إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها

وفقه الله لطاعته التي هي أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة ولي نعمته ، فهي حتم لا يُرفع مكتوبه ، وفرض لا يُنسخ وجوبه ، ولقاءه في نفسه الكريمة نجراً وطبعاً ، الشريفة أصلاً وفرعاً ، أفضل سعادة قسمت لوالى عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسامى أمل ، بمنه . أنا مستغن — أطل الله بقاء مولاي الأمير — عن أن أصف ما خصني من بهجة هذه المنحة ، وخلص إلى من جدّة هذه النعمة ، فإني والوزارة في خدمة الأستاذ الرئيس أخوان ، وردناها^(١) جميعاً ، وورّثناها مولاي معاً ، غير أني قد جلوت من الشكر لله ما رجوت أن يحميني مواقف الجحود ، ويؤذن مولاي بعوارف المزيد ، وصدّقت نذوراً أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت شروطاً قدمتها منذ برهة ، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين .

١٠ — وله تهنئة بمولود

من المواهب التي يجب على إشاعة ذكرها ، والإطناب في شكرها ، وارتياح نفوس أولى الأخطار لها ، وانشرّاح صدور ذوى الأقدار بها ، موهبة كثرت محاسن الأرض ، ووفّرت أعداد أبناء الجد ، وأطلعت مزيداً في نجوم السرور كالموهبة عندك يا مولاي ! — أدام الله عزك — في الفارس الذي بسط البشر على وجوه الزمان ، وأرى الطلاقة في مطلع الأيام ، وضاعف المسرة في قلوب الأودّاء ، وأهدى الكمد لنفوس الأعداء . وإلى الله — عز وجل — أرغب في تعريفكم معاشر سادتي وآبائه ، أعظم السعادات في طلوعه ونمائه ، فإنكم أهل بيت تقوى بهم مئّن المكارم ، ويشتد فيهم أزر المحامد ، وتقرّ لهم أعين الحاسن ، ومن هذا الذي لا يمتلىء بهجة ولا تفصّ أعضاؤه غبطة ، وقد طلع في أفق الحرية أسعد نجم ، ونجم في حدائق المروءة أزكى غصن . وأقول الحمد لله ، كلمة رضى الله تعالى بها من خلقه على عظيم منّه ، وجسيم إحسانه وطوّله ، وأتبعها بالشكر لله استدامة للظيف صنعه ،

(١) في الأصل : وردناها .

واستزادةً من كريم فضله ، وأسأله — بعد الصلاة على النبي محمد وآله — أن يعمرَكَ يا مولاي ! حتى ترى هذا الهلال قرأً باهراً ، وبدراً زاهراً ، تكثر به عدة حفدتك ، وتعظم به غصّة حسدتك ، ثم تهنّأ في أسباطه بعد أولاده ، وتكفل الجميع على مرادك ومراده ، من حيث لا تهتدى النوائب إلى عراضكم ، ولا تطمع الحوادث في انتقاصكم ، والمستول ، أكرم مأمول .

أنا أشكو — يا مولاي ! — تأخر المبشّر عنى مع المشاركة التى وكّد الله أسبابها ، والمشابكة التى مهد أنسابها ، وقد كان يجوز أن يُحسّن الظن بمساهمتى ، ويُجمل التقدير فى مخالفتى ، ولا أحلّ بمنزلة الأبعد عن الأهل والعشيرة ، وأقابل عما عندى من صفاء العقيدة والسريّة . وأعتذر من تأخرى لملازمتى المدينة ، على خدمة الحضرة الجليلة ، وأسأل تعريفى اسم الفتى — أيده الله — وكنيته ، فغرة الفضل لا يخفى اسمها ، وقرحة المجد لا يطوى ذكرها ، ولو ترك غفلاً لوسمته المفاخر ، وسمّته المناقب ، وقيل : هو الشعرى العبور والنجم الثاقب .

١١ — وله إلى أبى الفرج الحنّاط

وصل كتابك ياسيدى وولدى ! — أطال الله بقاءك — فأهدى مسرة طال بها العهد واشتدّ قبلها العتب ، وفككته عن التهنئة بهذه النعمة التى جلّت عن النعم ، ووسعت بفضلها كافة الأمم ، فلا فتح يُقرّن إليها مذ عرفت فتوح الأمصار ، ولا بشرى تقاس بها منذ رويت السير والأخبار ، منّا من الله أصفاه لمولانا الأمير المؤيد ، مؤيد الدولة — أغرّ الله نصره وأدام ملكه — حتى أعلن كلمته ورفع حكّمته ، وأعلى يده وجنده ، وجمع أسباب السعادات عنده ، وعرفّ القريب والبعيد ، والضال والرشيد ، أنه راع دولته^(١) ما اتصلت الأيام والليالى متوالية ، وحافظ رأيت ما اعتقبت الظلم والأنوار متنافية ، والله منجز ميعاده ، ومسترعٍ من يرتضيه عباده وبلاده .

وأما اغتباطك بما جدد الله من فضله ، ومنحنى من طوّله ، فجارٍ مجرى المشاهد الذى

لا يقام عليه شهادة ، ولا يلتبس فيه أمارة ، إذ كنت آخذ بنصيبك في أبناء الدولة ، ثم
مكأنك مكان أخص الأولاد وأعز الإخوة ، بلى تعجبت من فصاحتك كما أعجبت ببلاغتك
وتخيل إلى أن روح عبد الحميد انتقلت إليك ، وقرينة ذى الرياستين^(١) خلعت عليك ،
وخاطر الحسن بن سهل أعيد فيك ، وبديهة إسماعيل بن صبيح^(٢) حُصِّلَتْ لك . وأرجو
أن تكون قد اكتسبت من الفضل بعدنا ما أوجب هذه البراعة العجيبة والصناعة ، أو
شاهدت ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، فسألت أن يجعلك الله إمام الكتابة ،
وزمام الخطابة ، فصعد الدعاء إلى الله سريعاً ، ونزات^(٣) الإجابة تحمل من الله فضلاً وسيعاً ،
فإن يكن ما أوُمل كما أوُمل ، فالحمد لله مؤتي الفضل من يشاء من عباده ! وإن يكن سقياك
من غير غمامك ، وجلادك بغير حسامك ، فلا بأس قد يجيد الفارس الطعن برمح مستعار ،
ولو شئت لقلت من ألقى النسخة إليك ، وأملاها على يديك ، فتعلم أن بجران قوماً يعرفون
عيب أصهبان ، وهذا مزح ولكنه صدق ، وانبساط ولكن تأويله حق ، كفاني الله
بُعْدك ، وأراني وجهك ، وسلم عليك وسلمك ، وأبقاك ما أحببت وأغنمك ، وحسبنا الله
نعم الوكيل .

ليحي البرمكي ثم الرشيد ثم ابنه الأمين
(٣) في الأصل : نزع

(١) هو الفضل بن سهل وزير المأمون وكتابه
(٢) من جلة كتاب العصر العباسي ، كـ

الباب العاشر

في التعازي

١ - كتاب تعزية

سيدي يعرف من شروط الزمان وعاداته ، وشئون الدهر وتاراته ، ويخبر من شيمة الأيام في تبعيد القريبين ، وتفريق ذات البين ، ما يملك معه حلمه ، ويراجع له حزمه ، متى أتت الليالي بما تعاقبت القرون على مثله ، وأعيت الحيل دون دفعه . ولولا أن الحال النازمة لنا تتصل باللحمة ، وترفع حجاب الحشمة ، لأوجب أدب التوقير في بعض ما يقتضى تسلية ، ويستدعى تعزية ، فضل الانقباض عن الذكر ، والتعويل على مودع الصدر ، ولكن تجاوز المودة الصادقة ، إلى الأسباب المتلاحقة ، يجري مجرى النفس الواحدة ، في المسرة إذا اتفقت ، والمساءة إذا طرقت .

و بلغني من خبر المفقوده السعيدة ، أحسن الله منقلبها ، ورفع مع الصالحات رتبها^(١) ، فكان جزعى عليها جزع المرء على كريم الأمهات ، وعقائل العبات ، وشاركت سيدي في الوحشة مشاركة من لا يتميز في منحه ويحنه ، ولم أطل في الإبانة عن صورتى علما بما يتمثله منى قبل التمثيل ، ويتيقنه عندى أمام التطويل ، فللضائر السنة ناطقة ، وعبارة سابقة وسيدي أصدق رأيا ، وأثبت قلبا ، وأحضر عزما ، وأجمع لبا ، من أن يكف عن الجزع بلطيف التذكير ، ويصد عن القلق بحسن التبصير ، فأطال الله مدته ، وحفظ مهجته ، وحرّم على الحوادث أعزّته ، وجعل ماعرض خاتمة الرزايا قبله ، وبلغه في دينه وديناه أمله

وكان في الحق إذ تعذرت حال المشافهة ألا أقصر في التعزية على المكاتبة ، حتى أصدر أوجه كتابي ، وأنبّه أصحابي ، ولكني عرفت ما في التخفيف فأثرت ، واقتصرت على هذا الخطاب فأصدرته . وسيدي يعرفني ما أتاه الله من التوفيق الكريم ، في جميل العزاء وحميد التسليم ، لأنصبه حيال طرفي ، وأجعله مثال فعلى .

٢ — والـه

أنت — ياشيخي — أثبت عقلا وديناً ، وأحضر فضلاً و يقيناً ، من أن تتصدى لما يولى الله من نعمة إلا تصدى الشاكر ، وتتلقى ما يُبلى الله من محنة إلا تلقى الصابر . ذلك هو الهدى الصالح ، والمتجر الرابح ، وعنده تحصل مرضاة الله فتكثر الحسنات ، وتتبع إرادة الله فتكفر السيئات .

وعرفت ما أزعجك ، أيدك الله ، من الفجيرة في قرين الخير -- جعل الله المنقول إليه خيراً له من المنقول عنه — فساءنى ذلك لا تسخطا لقدر الله وهو عدل ، ولا تكرها لقضاء الله وهو فصل ، بل لما علمته يصل إليكم ، أيد الله الجماعة ، من جزع لا تخلو منه قلوب البشر عند طروق الثوب .

وشاهدت من انزعاج فلان مازاد في الوجوم زيادة قربه إلى ، وتقدمه أهل الخصوص لدى ، ولك^(١) في بقاءه مع إيفائه على أ كقائه ماسد ثم الرزية ، وأغنى عن إطالة التعزية ، وقد أطلت عند ركوبى إليه وعظه ، وأذكرته في التسليم لله حظه ، جبر الله مصابكم وقد فعل ، وألهمكم التسليم لما حكم به فعذل .

٣ — والـه

كتابى ، والأمور بالحضرة العالية ، وهذه الحضرة البهية ، مستقرة على ما عود الله فيها وأسعد من مجاريها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
وتهيب الأ كابر — أدام الله تأييد الأمير — فرض وكيد ، وحتم على من ألقى السمع وهو شهيد ، ومن قضاياه الانقباض عن الإ كثار ، عند حوادث الأقدار ، إجلالا ، والاقتصار على الدعاء بكراً وأصلاً ، لتحصل مزية التقرب ، ولا تُغفل قضية التهيب .

ولما عراض بحضرته — أجلها الله — ما أوجب التسلية عن السعيدة رحمها الله ، فزعت من المطاولة بالتعزية إلى مواصلة الأدعية ، فأطال الله بقاء الأمير مسروراً غير مهموم ، وموفوراً غير مثلوم ، وكتب له عن أجر ما قدره وأجراه ، واقتضاه وقضاه ، أفضل ما كتبه

(١) فى الأصل : وذلك .

لمن سلم له تعالى أمره وحكمه ، ولم يتسخط قدره وحتمه ، وورثه الله عمر من قدمه ، وغفر لمن اختار له جواره واستقدمه ، وما أذكر ما مسنى في هذه الحال ، ذهاباً مع فريضة الإكبار والإجلال .

٤ - وله

ورد كتاب مولاي بذكر مضي فلان ، فوجدت نفسي كالمصاب بنجيب من أبنائه ، أو عزيز من أعضائه ، وورد على قلبي ما غشاه كرباً يتعذر دواؤه ، ويتعسر جلاؤه ، فما أدري بعد هذا ما أكتب وما أقول ، وكيف يُدَمُّ هذا الزمان الخؤون ، ولكنني أنشد : (ما أعلم الدهر بمن أحب) : وأردد :

هذا الزمانُ يسوءني فجمعاً بكل خليل
فكأنه يمضي إلى ما ساءني بدليل

والله أسأل أن يطهرنا للقائه ، فكلُّ — لا بد — وارد هذا الحوض ، وإن مدَّ في أجله وأخرى مهله ، ونعوذ بالله من طول الآمال وقصر الآجال ، وشُرور النفوس وسيئات الأعمال ، ورحم الله فلانا فلقد كان قليل النظير في أشكاله ، بل عديم المثل في أمثاله . وسأكتب إلى فلان معزياً ، وإن لم أجده أولى مني بالفجيعة ، فإخاء المودة الخالصة فوق الرحم الماسة .

٥ - وله

كتابي — يا أخي ! — وأنا لا أعلم أعزّيك أم نفسي ، فليس المصاب عندك بأعظم منه عندي ، لأن فلانا وإن كان أخاك ميلاداً ، فقد كان أخي إخلاصاً ووداداً ، وإن فجعت به وفقدت كبيراً يُعوّز البدل منه ، فقد رزيتُه فعدمت أثيراً يُعوّز العوض عنه . وقد مضى لي أقارب ، ضمّتهم إلى المناسب ، فلا أذكر فجیعة بهم أخذت مأخذ هذه من صدري ، وأثرت تأثيرها في صبري ، وما أرضى خاطري — مع استيلاء القلق واستعلاء الجزع — لإطالة الكتاب ، والإبانة عن قدر الاكتئاب ، فرحم الله فلانا رَحْمَتَهُ أُولِيَاءَهُ ، وأجزل في أكرم داريه جزاءه ، وعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل تطهيرنا لما نترقبه ، فهذه آجال — لا بد — متناهية ، وإنما هي آماد دانية ، وأخر متراخية .

ومخاطبتي لك تنظمتك وسائر الإخوة والولد ، والله يجبر كسرکم ، ويوفر أجرکم ، ويلهمکم فضل التسليم ، ويجرسکم عن الإصرار والتصميم ، وأنا لکم ولفلان^(١) ، رحمه الله وأعزکم ، كما تأملون ، وأزید مما تحاولون ، بل يتضاعف اشتاکی واهتمامی بفقد من فقدتم ، وتجدون شفقتی وإيثاری أين أردتم . وفلان ينوب عني في صغير مهمکم وكبيره ، وقليل أمرکم وكثيره ، فمرفونی ما يهدی الله إليکم من رُوح تسليته وحسن الانقياد بمشيئته ، إن شاء الله .

٦ — وال — هـ

قاضي القضاة الأجل — أطال الله بقاءه وأحسن عزاءه — يعرف من وجوه حكم الله في عبادته ، ونفوذ مشيئته في أنواع مراده ما يدعو إلى التسليم إذا أتته نائبة تزعج فكره ، ويحدوه على الصبر الجميل إذا اعترته حادثة تخرج صدره ، ويجرسه عن التناهي في الجزع إلى ما يحظره الدين ولا يسوغه ، وينازع القليل البصيرة فيبلغه .

وإن امرءاً علم أن الإحياء والإماتة يجريان بأمر من لا يتهم عدله ، ولا يصدر إلا عن الحكمة فعله ، خلّيق بأن يقدّم الصبر والاسترجاع ، ويؤخر التفجع والالتياح ، فكلنا عواريّ بعرض الاقتضاء ، وأغراض لأسهم القضاء ، والله يوفقنا للقاءه ، ويجعلنا من الصابرين لبلائه ، إنه رؤوف بعباده لطيف .

وبلغني نفوذ قضاء الله في الخال — رحمه الله — فشاركته أقضى القضاة فيما مسّ قلبه ، وساهمته فيما تحيّف صبره ، وتصورت استيحاشه — كان — منه فازدت استيحاشاً لانتهاه أحله ، وانقضاء مهله . على أن أيام العمر ، وساعات الدهر ، كمراحل معدودة ، إلى وجهة مقصودة ، فلا بد مع سلوكها من انقضائها ، وبلوغ الغاية عند انتهائها ، والله يغفر للمتوفّي ويرحمه ، ويجرس قاضي القضاة ولا يثلمه ، ويصونه في نفسه وسائر أعزته وأهله بلطفه ، وعطفه .

وقاضي القضاة — أدام الله تأييده — يمدني بذكر ما يستحضره من عزيمة ، تفل غرب المصيبة ، وتقوى نفس ابن الخال — أعزّه الله ورحم أباه — بنصبه منصبه وإجرائه مجراه ، ليتدارك ما ضعف من مُنته^(٢) ، ويتماسك ما خار^(٣) من قوته ، إن شاء الله .

(٣) في الأصل : خامر

(١) في الأصل هكذا : ولعسان .

(٢) في الأصل : منيته

٧ - ولله

للفجائع ، يا شيخى — أطل الله بقاءك — اختلافُ مواقع ، وللمصائب تباينُ مراتب ، ومن أشدها لذعا ، وأعظمها وقعا ، فجیعة أخرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خست العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبى عثمان — رحمه الله وأكرم مأواه ومشواه — فقد كان للإسلام جمالا ممتدا ، وللدين ركنًا مشددا ، وللعلم شهابا لا يخبو ، وللأدب سهما لا ينبو ، يذب عن حق الله القائم ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم . عاش عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر . التقوى شعاره ، واليقين دثاره ، وحجج الله مفزعُه ، وآيات الله مَرَجِجُه ، فياله مصابا ما أعظمه على الموحدين ، وأسره إلى الملحدین ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار ، ونقول — كما أدبنا الذکر الحكيم — إنا لله وإنا إليه راجعون . ونسأل الله العدل فى قضائه ، الرحيم بأوليائه ، أن يتغمد الماضى بغفرانه ، ويُفَسِّحَ له فى رضوانه ، ويجزل حظَّه من حسناته ، ويرفع درجاته فى جناته ، فلقد كان واسع الحظيرة ، نقي السريرة ، قوى البصيرة ، لا تتغير به فى خشية الله عادة ، ولا تملكه فى مخافة الله هودة ، ولولا أن الموت طريق يسلكه البرى والسقيم ، ومشرع يرده البرّ والأثم ، لما انشرح بالعزاء صدر ، ولا حُجِبَ مع البلاء صبر ، غير أنها سنة الله فى أنبيائه — صلوات الله عليهم — وأوليائه ، يُبْقِيهم ما كان البقاء أعمر لكانهم ، ويتوفاهم إذا كانت الوفاة أصلح لأديانهم ، وإن تشمت ملحد فى كلمة الله ، ومعتز لنقمة الله ، فتلك عادة من ختم على قلبه وسمعه ، فى الشماتة بالمؤمنين وما يحل بهم .

كتب بعض الثنوية إلى موافق له فى ضلالتة ، مطابق له على جهالته : كتابى وقد وهى عمود الإسلام ، وانقضت دولة الكلام ، وشاخ أبو الهذيل ومات النظام ، فأبى الله إلا أن جعل من أخلافهم من صدع بالحق ، وذب عن حوزة الصدق ، فاعلم يا أخى — أدام الله عزك — أن أبا عثمان ، رحمة الله عليه ، وإن كان لك أبا ، فقد كان لى عما حديبا ، وأخا فى دين الله منتجبا ، ما وزنت به أحدا قط إلا رجح ، ولا أنهضته لمسعاة فضل إلا أنجح ، وقضى نجه ، لما أنزل الله أمره ، فسنى من ألم المصيبة ما أجرى الدمع ، وشغل الذرع ، وأنفذ

ذخيرة التماسك ، وكاد يغرى بقبح التهالك ، لولا التأسي المكتوب ، والتعزى المفروض ،
والتسلى المحتوم ، فإن كنت فقدت منه — قدس الله روحه — شخصه ، فما فقدت مع اهتمامي
إشفاقه وبره ، وحنوه وفضله ، وستجد ، إن شاء الله ، عندي من الإكرام لك والرفع منك ،
والبسطة من جاهك ، ما يُجَوِّج كثيراً من الناس إليك حاجتهم إلى الشيخ ، رحمه الله ، قبلك .
وقد خاطبت في حاضر الوقت مولاي أبا العباس ، أدام الله تأييده ، في ذلك بما يصير
عنوان رأيي فيك ، ورعايتي لدواعيك ، وإن كان هو — أدام الله عزه — بفضل
وعقله ، من الاهتمام بالدين وأهله ، على حال تغنى عن البحث ، وتجزىء دون الحث ،
فادّرع — أيدك الله — التسليم لما قضى الله وأمضى ، وتلقّ حكمه بحسن الصبر والرضا ،
فلولا استئثار الوفاة بالآباء ، لما علت درجات الأبناء . وعرفني ما تُوفِّق له ، ثم كاتبني في
حاجاتك خصوصاً ، وحاجات كل متوسل بك ومتقرب إليك عموماً ، فسيأتيك من الجواب
والإيجاب ما يزيد على العادة المألوفة ، والخليقة المشهوددة أيام أبيك ، أحسن الله خلافته فيك ،
إن شاء الله .

٨ - وله

هو الدهر — يا شيخى وكبرى ! — فلا تعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه ،
عطاؤه في ضمان الارتجاع ، وحبائوه في قران الانتزاع ، بينا يمنح المرء حتى يسلب ، وبينما يعطى
حتى يحرب . واللبيب يستشعر الفجعية ، حين يولى الوديعة ، ويتمثل الفقدان ، ساعة يصفاح
الوجدان ، علماً بأن الله تعالى جعل الدار دار امتحان لا دار مقام . وبلغني من مضى الفتى —
قدس الله روحه وبرّد ضريحه — على حين أملت له لأحوال ، ورجوته لكفاية واستقلال ،
ما أجرى الدمع ، وأعظم الفجع .

ولم أدر أأتصور^(١) حاله ؛ وقد اختُصِرَ شبابه ، وتقطعت أسبابه ، ولم تُغنِ عنه طراوته ،
في العيون وحلاوته ، وعزه على العشيرة ، وكثرة الحامين له دون العظيمة ، فلا يملك عن
روحه دفعاً ، ولا يستطيع للحتم ردّاً بنفسه ولا بذويه ، أم حالك وقد أخذَ عن عينك قرتها ،

(١) في الأصل : أتصور بهمة واحدة .

وعن نفسك ثمرتها ، وعن دنياك حسنتها ، وعن منك غايتها ، فلا القلق ينفع ، ولا الحيلة تدفع ، ولا الفدية تُقبل ، ولا البلية تُهمل ، وكل ذلك يزيد المؤمنين إيماناً ، والموقنين إيقاناً ، فَيُعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِمَنْ يَغْلِبُ ؛ وَلَا يُغْلِبُ ، وَكَيْفَمَا شَاءَ يَفْعَلُ وَيَقْلِبُ ، إِلَّا أَنْ الْأَرْضَ خَلِيقَةً ، وَالْأَهْدَى طَرِيقَةً ، مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّطِيفَ الرَّءُوفَ لَا يَعْطِي إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَطَاءُ أَرْبَحَ ، وَلَا يَأْخُذُ إِلَّا إِذَا كَانَ الْأَخْذُ أَصْلَحَ ، وَابْنُكَ وَإِنْ كَانَ طَهْرًا ، فَقَدْ عَادَ أَجْرًا ، وَإِنْ كَانَ فَخْرًا ، فَقَدْ رَجَعَ ذَخْرًا ، فَأَحْسِنِ الْعِزَاءَ وَأَجْمِلِ الرَّجْعَى ، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَبْلَكَ فَجَعُوا فَجَزَعُوا ، وَدُهُوْا فَدَلِهُوْا ، ثُمَّ لَمْ يَرُدِّ التَّسْلِبُ مِنْ مَاتَ ، وَلَمْ يَرْجِعِ التَّهْلَاكُ كُلٌّ مِنْ فَاتَ ، فَعَادُوا إِلَى التَّسْلِيمِ ، وَفَوَّضُوا إِلَى الْقَادِرِ الْحَكِيمِ ، وَإِنْ الْمَرْءُ لِيَقْدَمَ السَّلَوةَ فَيَجْبِرُ مَصَابِهِ ، كَمَا يُؤْخِرُهَا فَيَحْبِطُ ثَوَابَهُ . أَخَذَ اللَّهُ بِكَ إِلَى مَا هُوَ أَوْلَى بِسَنِّكَ وَدِينِكَ ، وَحَسَنَ عَقِيدَتِكَ وَيَقِينِكَ . أَحِبَّ أَنْ تَعْرِفَنِي خَبْرَكَ فِي التَّفْوِيضِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ الرِّزْقَ مَا كَانَ أَفْظَعَ ، كَانَ الْعَوَاضُ أَوْسَعَ ، وَأَنْتَ وَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى الْأَوْلَادِ فَحَاجَتُكَ الْعِظْمَى إِلَى حَسَنِ الْمَعَادِ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُكَ وَلِنَفْسِي التَّوْفِيقَ وَالتَّسْهِيدَ ، إِنَّهُ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ .

٩ — وَلَهُ

كَذَا فَلْيَجْلِ الْخُطْبَ وَلِيَفْدَحِ الْأَمْرَ ، وَكَذَا — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ — فَلْتَقْطَعْ عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ ، بِرَدِّ اللَّهِ مَضْجَعَهُ ، الْأَكْبَادُ وَالْقُلُوبُ ، وَتَتَسَاقُطُ الْأَعْضَاءُ وَالنَّفُوسُ ، وَعِنْدَ هَذَا الرِّزْقِ فَلْيَحْسِنْ اطْرَاحَ الصَّبْرِ ، وَلْيَقْبَحِ التَّمَسُّكَ بِأَسْبَابِ الْحَزْمِ ، فَوَالْهَفَاةِ عَلَى أَنْ بَقِينَا بَعْدَ مَارَزْنَا حَتَّى نَتَشَا كَى الْقَلْقِ ، وَوَا أَسْفَاهَ عَلَى أَنْ حَيِينَا بَعْدَ مَا ذَهَبْنَا حَتَّى تَتَوَاصَفَ الْجَزَعُ ، وَلَيْتَ الْمَنَايَا قَدِمَتْ مِنْهُ مِنْ أُخْرَتِ ، قَبْلَ أَنْ أَقْدَمْتَ عَلَى مَنْ تَخِيرْتَ ، وَيَا حَزَنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَمْلِكُ الْأَعْمَارَ فَتَتَبَرَّأَ مِنْهَا إِذْ أَتَى مَا لَا يَطَاقُ ، وَلَا نَخِيرُ فِي الْأَجَالِ فَتَنْفَضِّي عَنْهَا إِذَا دَهَا مَا لَا يَسْتَطَاعُ ، وَلَيْتَ الْخُطُوبَ إِذَا أَقْبَلَتْ جَاءَتْ بِمَا كَانَتْ الْأَفْهَامُ تَجَوِّزُهُ ، وَالصَّرُوفُ إِذَا تَمَكَّنْتَ هَجَمْتَ بِمَا كَانَتْ الْأَفْكَارُ تُخْطِرُهُ ، بَلْ جَرَى الْقَدَارُ عَلَى مَا لَمْ يَقْدَرْ ، وَتَجَرَّأَ الزَّمَانُ عَلَى مَا لَمْ يَتَخَيَّلْ ، فَمَا أَقْبَحَ الْعِيشَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَمَا أَنْكَدَ الْعَمْرَ مَعَ فَقْدِهِ ، أَفْهَمُ

ما أشاهده وقد سخنت العيون ، أم حقّ ما أرى وقد طرقت المنون ؟ فيالها فجعة بأكرم مقبوض ما أنكأها في الصدر ، ورزية بأنفس مفقود ما أقصمها للظهر .

كتبت — أطال الله بقاء مولاي — وحالى حال من كانت له بالأمس يد عالية فسلبها ، ونفس سامية فخر بها ، فهل في الخلق أخسر صفقة ممن دفن يده بيده ، وأهدى نفسه لمخلّده ، وهل في الخلق أعظم كربة ممن رأى سيده يجود بروحه ، وولده يقضى حتف أنفه ، ورام أن تقبل فدية من قبله ، فدفع القضاء في صدره ، وتركه مفرداً بينه ، فلا عزاء مريح ، ولا فناء سريح .

وأدع وصف ما لقيت وألقى ، وأعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وأقول : ياسوء صباح أتى مولاي فيه الخبر فرأى الرجاء وقد انقطع ، وأصمّ الناعى وقد أسمع ، ليت شعري ماذا يصنع ! وإلام يفزع ، وأى تجلد يجد ، وعلى أى سلوان يعتمد ؛ وكيف يستقر على الأرض وفلذته في بطنها ، ويراجع الأيام ومهجته في كفها .

قد قلت يسيراً ، وأخرت كثيراً ، ولا بد من الرجوع إلى الله عز اسمه ، ولا مهرب من الأخذ بأدب الله ، تعالى ذكره ، وسيكثر في مجلسه عدد المعزّين ، وتطول بحضرته خطب المسلمين ، لكنى أقتصر على فصل أحسبه أوقع ما يذكر ، وأظنه أنجع ما يورد : مولاي يتدين^(١) بتعديل ربه ، ويعرف موقع اللطف في صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله . وترك^(٢) التسليم اعتراض على حكمه ، وارتياح بعدله ، وقد نزه الله قدره عن أن يقول مالكة : دبرت فتسخط ما قضيت ، وحكمت فتكره ما أمضيت ، حاش لله ! فما مولاي ممن يدع تذكر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا وعليه من سادتي أبا الحسن وإخوته نعم تستحفظ بحسن التماسك ، ومنح تستبقي بترك التهالك ، والله يغفر لتلك النفس الزكية مغفرة تحتف بالروح والسلام ، وتفسح له في دار المقام ، ويعظم لمولاي من الذخر ، وجزيل المثوبة والأجر ، بعدد محاسن من فقد ، ومحامد من عدم ، ويبقيه موفوراً في أعزّته ، محوطاً في نعمته ، لا تهم النوائب ، بعد ما اجتاحت ، بفنائها ، ولا تعرف المصائب ، بعد ما أتت ، إلى أفيائه ، آمين ، اللهم اسمع واستجب .

(١) في الأصل هكذا : سدل .

(٢) في الأصل : ترك بدون واو .

١٠ — وله إلى أبي القاسم علي بن أحمد الحراويني^(١) يعزيه بابنه

إذا شاركتك ياسيدي — أطال الله بقاءك — في الرزية ، فكيف أخاطبك بالتعزية ،
إلا على رسم من الناس معهود ، وطريق في التخاطب مهود ، وأنت وإن لحقتك على ذلك
الفتى — رحمه الله — وجد الأباء وما ينالهم في فقد الأبناء ، فقد كنت أقسم له إشفاق
الأولاد ، وألصقه بالنفس إلصاق الأكباد . لا جرم أنه بدّه قلبي من خبر نعيه ماملاً
الصدر ناراً ، وأنفق الصبر إسرافاً ، لولا فكري في أن الله تعالى وإن امتحن بالبلية ، فقد
أحسن في البقية ، حراسة لك في مهجته ، وسائر أعزتك ، مدّ الله في عمرك وأعمارهم ، ونقل
النوائب عن جوارك وجوارهم ، والدنيا مصحوبة على شرط العطاء والارتجاع ، والحباء
والانتزاع ، وليس الجزع برادٍ من ختم عمره ، ولا القلق بمفيد من تناهى أمره ، فاستغش
ثوب الصبر فإنه أستر ، واستجزل حظ الأجر فإنه أوفر ، وسلم لأمر الله فإنه فضل ، وارضَ
بحكمه فإنه عدل ، وطالعي بما توفّق لك ، لأوافق رأيك فيه ، فإني إلى حيز التأسي أحوج ،
وإن كنت بالبعث على التسلي أنطق ، والسلام .

وله أبيات

يا أصبهانُ سُقِيتِ الْغَيْثَ عَنْ كَشَبِ	فأنتِ مجمعُ أوطاري وأوطاني
والله والله ما أنسيتُ بَرَكَ بِي	ولو تمكّنت من أقصى خراسانِ
يا حبذا أرضها ، والشملُ مجتمِعُ	والدهرُ ما خانني في حزبِ إخواني
ذكرت ديمرت ^(٢) إذ طاب الغناء بها	يا بُعدَ ديمرت من أبواب جرجانِ

١١ — وله تعزية في أبي محمد يحيى بن محمد بن زيادة العلوي

كُتبت وياليتني ما كتبت فإني ناعٍ الفضل من أقطاره ، وداعٍ^(٣) المجد إلى شق ثوبه
وصداره ، ونخبر بأن شمس الشرف كاسفة ، وأرض الكرم راجفة ، والحاسن منقضية ،
والمناقب مودية ، والمآثر مودّعة ، وبقايا النبوة مرتفعة ، وآمال الأمامة منقطعة ، وأن العترة

(٣) في الأصل : وادع .

(١) هكذا في الأصل .

(٢) ديمرت : من نواحي أصبهان .

تندب وارث شرفها ، وتبكي حافظ كنفها ، والروءة قد تضيّف نهارها للغروب ، وآذنت شمسها بالوجوب ، والدين منخزل واجم ، وللتقوى دمعان : هام وساجم ، والسباحة تشكو إلى السباحة بثّها وحزنها ، وتصف كيف أوهت الفجیعة أزرها ومنتها ، والأدب منزو إلى جانب مهجور ، ومعصمٌ بدمعه^(١) مستسلمٌ مقهور^(٢) ، والحلم قائلٌ : لا طود بعد الذى ترزعزع ، ولا ركن بعد الذى تضعضع ، فأما قِرَى الأضياف فقد شمت به البخل واستولى على طرفه الذل ، وجلل الكسوف جوانب هالته ، ونادى الشخُّ فوق دارته ، فلا نار ترفع للضيفان ، ولا أجفان تقع على الجفان ، ولا هُداة للركب ولا حُداة ، ولا نُصفاء ولا طهاة . وأما الجاه وبذله للمرمل^(٣) واقف حتى يهبّ عليه نسيم الثروة ، وعائذ حتى يُكفى مساس الخلّة ، وحائر حتى يأمن استمرار النكبة ، ولهفان حتى ترُخّز عنه عُشواء الحيرة ، فهيّات هيّات ! . مرّة والله صاحبه ، وقام نادبه ، واضطربت أسبابه ، وقيل ذهب فكيف كان ذهابه . وأما الرأى يُعَمَل جليله ودقيقه ، ويستطاع تصميمه وتحقيقه ، حتى يُكاد العدو وهو غارٌّ غافل ، ويقتل الحسود وهو قارٌّ^(٤) ذاهل ، فأمرٌ حمّ حمامه ، وانقضت أيامه ، وسُلم عليه وأُسلم ليديه .

فإن يقل متبرّمٌ بما قلت ، أو متضجر وقد أطلت : من المندوبُ لنعرفه ، ومن المفقودُ لنعلمه ، ومن الذى هذه أوصافه ، فقد تراخى تبينه ، وتمادى تعينه ، أقلّ حاشاه أن يعرف باسمه ونعوته دون حِلّاه ، أو يسمه غير مكارمه وعُلاه ، نعم ساكنيه ونعم المُكنّى ، وأسميه ونعم المسمّى : ذلك الشريف السيد بالإطلاق ، العفيف بالاتفاق ، الكريم بالإجماع والإصفاق ، السجّيح الأعراق ، شريف خراسان ومنظور العراق ، أبو محمد يحيى بن محمد العلوى — قدس الله روحه — وقد فعل ، ولقاه ماقدّم وعمل ، عاش^(٥) بين دين يحميه ، وخير ينميه ، وعلم يفتّنيه ، ومجد يبتنيه ، وإحسان يوليه . ساعاته برٌّ ، ونظرته بشر ، وداره ندوة العلم والبذل ، واستقراره على قمة العلياء والفخر ، كأن الشّعريّ علقت بين عينيه تلمع للمنجد والغائر ، وتهدى ساريا إلى سائر .

(٤) فى الأصل : مار

(٥) فى الأصل : وعاش بزيادة واو .

(١) فى الأصل : بدمه

(٢) فى الأصل : معمور .

(٣) فى الأصل : للمرمل

ألا فليبك الشبان والشيب ، والبعيد والقريب ، والقاطن والغريب ، والعالم والأديب
والسائل والمعتاف ، ومن ضمه الأوساط والأطراف ، بلى ^(١) فليبك المعترف والمحصب ومنى
والمشعر والبيت العتيق المعظم ، والركن والحطيم وزمزم ، أليس بالأمس اجتمع وفدُ الله في
حرمه ومهبط وحيه وأوّل رسله ، ومقام خليله ، ومضجع ذبيحه ، ومولد حبيبه صلى الله
عليه وعلى إبراهيم وعلى آلهما أجمعين ، فلما درى يمان ومُغرق وتهام ، وفصيح وأعجم ومبين ،
أن هذا الشريف بحاضر الموسم تطابقوا على أن يصلى بهم إماما ، ويتخذ من مقام إبراهيم
مقاماً ، فأقام عدة صلوات رفعها الملائكة البررة ، والأرواح السَّفَرَة ، إلى حيث البيت
المعمور ، واللوح المحفوظ ، ذخيرةً إلى يوم نشر الصحف ، وتطائر الكتب ، يوم العرض ،
ويوم ردّ القرض ، فإذا تصفح أبوه رسول الله صلى الله عليه وعلى ذريته الهادية ، وعترته
الزاكية ، وجوه بنيه وأقربيه ، كان هذا الابنُ — إن شاء الله — من النجباء السعداء ،
نم وفي جملة الشهداء ، والأثر المقبول شهيد ، بأن المقبوض غريباً شهيد .

لم أفتح كتابي وأنا واثق بأن لسانى ينطق بحيث ينطلق ، وأن بنانى بحيث يسترسل
مع حالى فى الوجوم الذى برانى برى الأخلّة ، ونقصنى نقص الأهلّة ، وتركنى حرصاً ،
وأوسعنى مرضاً ، وغادرنى والخيالُ أكتف منى جنة ، والطفيفُ أوفر منى قوة ، ولكن
فضائل المفقود — رحمه الله — تمثلت لعينى فاستعبرت من غمرها ، واغترفت من بحرها ،
واستقت من سيلها ، واهتدت بقمر ليلها ، وهى التى لو تعاطت الخرسُ الخبر عنها لعادوا
بالسنة طوال حداد ، وعوارض صلاب شداد ، يسمون جباه المنابر ، ويشحنون صدور
الحاضر ، وإنما أردت — وقد اقتضبت الخطاب — أن أقيم للشريف رسماً فى التسلية ،
وحكما فى التعزية ، وأين السلوان منى أو منه ، يبعد ما بيننا وبين الصبر ، وقد رُمينا بواحدة
الفجائع ، وواسطة المصائب ، وفادحة الفواحش ، وقادحة القوادح .

ولولا أن حالى فيما نالنى هضّ وهاض ، وأطال الانخزال والانخفاض ، ولم يرض بأن
فضّ الأعضاء ، حتى أفاض الدماء ، وتناجى أمراضُ تركت جسمى لهما على وضّ وأعلال
أسلمنى علل منها إلى نهل ، وأنا منذ مضى ذلك الطود الأشم ، ومال ذلك الجبل الأصم ،

وَقَدْ^(١) ، كاد الدهر يحني على بعواديهِ ، ويُجْنيني ثمرة اليأس فيه ، لولا أن الله تعالى من بِلطيفة من لطائفه ، وجعل هبة الروح عارفة من عوارفه ، لاحتجت في الإبانة عن صورتى إلى قول لا يلتقى طرفاه أو يلتقى الجبلان ، ويفترق الملوان . ولعل سامعاً ما أقول لم تتصور له شيمتى ، ولم تتمثل له فى نفسه همتى ، يظننى كمن سبق^(٢) أو لحق من أبناء الكتابة ، وآباء الخطابة أَلْحَمَّ الأمر جَذْباً بَضْبَعِ البلاغة ، ورفعاً من طرف الفصاحة ، وقد زهنى الله تعالى عن هذا الظن ، فإنى — منذ كنتُ — أستهين بشرار الدهر حتى أراه مسكيناً ، ويرانى مستكيناً ، وأعدّه ضعيف الكيد ، ويعتدنى قوى الأيد ، لا تطمع مسارّه منى فى اهتزاز ، ولا مضارّه فى استفزاز ، إلا أن هذه النازلة خصوصاً ثبتت لى ، فطامنت من طماحى ما شاءت ، وأجاءتنى إلى أضيق المنافذ وقد جاءت .

وكان الداعى الأقوى إلى مأمّنت به منه بِسَمِّ الأرقم ، وجرّعت فيه طعم العلقم ، أن الشريف — أكرم الله مثواه — لما قضى حَبْجَه الذى تَجَشَّم له أصعب الطرق ، وركب إليه أبعد السبل ، والتزم عنه أثقل الكلف ، وجدّد به أشرف القُرْب ، واستوجب عنه أقرب الزُلف ، عدل إلى قبل^(٣) وطنه ووطره ، وولده وبلده ، وطلع — رضى الله عنه — كطلعة الرضوان وترُعة^(٤) الجنان ، وقد زادت معاليه فصفا على طول العمر ، صفاء التبر على مُثَبَّتِ الحجر ، وشهدته فرأيته قد أخذ من وقار النبوة بقدر إرثه ، وازداد تواضعاً أفاضته سماوة غره ، وعادت صحيفته بيضاء نقية كصدره ، ولذلنا العيش وطاب ، وولّى رقيب الغمّ وغاب ، ونحن لا نعلم ما الذى تجنّه ضمائر الغيب ، والذى خبّأته المقادير لأبى خُبَيْب .

فبينما نحن فى أنسٍ ونعيم ، وخير ناضر مقيم ، نُصْبِح على مذاكرة بأصناف العلوم ، ونمسى على جدال بين خصوم ليسوا بخصوم ، إذ مرض — قدس الله روحه — فلحقنا رَوْعة ، وملكتنا لَوْعة ، ثم أبلّ — رحمه الله — فانشرح الصدر ، وركب فشمّل السرور ، ونذرت على صحته النذور ، ثم أبى الزمان إلا نكداً ، وأن يَتَوَكَّ شَمْلَ الفتى طرائق قِدْداً ، ونُكِسَ فنكست الرؤوس ، وزهقت النفوس ، وأشعرت الصدور مخافة ،

(١) فى الأصل : وفند .

(٣) فى الأصل : ما قبل .

(٢) فى الأصل : سبقه .

(٤) الترة : الروضة فى مكان مرتفع .

وملئت القلوب كآبة ، ونحن مع ذلك على طمع ، ينهض على ظلع ، فلما كتبت له سعادة المحتضر ، وانتهى به العمر إلى الأجل المنتظر ، نعتة السماء صائحة ، والأرض نائحة ، ولحقت الناس دهشة عمياء ، وغشيتهم خُطّة صماء ، وانقبضت اللهجات عن القول ولم يرشخص^(١) قوم تشخص إلى قوم .

ثم انبعثت الأحران والهموم ، وانطلقت الألسن والعيون فلا تسمع إلا أنه أورنة ، وإلا نشيجاً أو زفرة ، ولا ترى إلا صارخاً أو صارخة ، وشادخاً بالدم في وجهه أو شادخة ، كأننا نرى رسول الله قد احتضر ثم قبض ، وأمير المؤمنين عليه السلام قد طعن ثم احتمل ؛ أو كأننا بالطّف^(٢) نشاهد تلك الأجسام العظيمة كيف تذال وتبتذل ، وتلك الدماء الكريمة كيف تراق ، فالدنيا دهاء ، والخضراء غبراء ، والأصابع تشير إلى علماء بآنى أعظم الحاضرين اكتئاباً ، وأكثرهم مصاباً ، وأقلهم اضطراباً ، وأشدّهم جزعاً مثاراً ، أو صبراً مطاراً ، وقد زمت نفسى زمّ السكينة ، ولم تنطق الدموع بلسان النيمة .

وحضرنا المعزى ، فإذا اليوم يوم [أيوم] ، وذلك الشقُّ شقّ مظلم ، ولم أذر كيف السبيل وقد علت الأزمات^(٣) على الأبواب ، وامتنع جانب التسليم والاحتساب ، ففرغت إلى كتاب الله عند اشتداد الفزع وامتداد الجزع ، وأمرت القراء بتناوب التلاوة ، فهذا الناس إعظاماً لكلام رب العالمين ، يسمعون له منصتين إلى أن قيل : قد جهّز ذلك الشخص الزكى ، والسيد النبوى . وأقبل به وقد ركب الأعناق ، بعد العتاق ، وعلا الأجياد ، بعد الجياد ، وفاح فيت المسك من مآثره ، كما كان يفوح من مجامره ، وقام الناس له كقيامهم — كان — إليه ، واصطفوا للصلاة عليه^(٤) اصطفاؤهم للسلام عليه ، وصلى الله عليه برحمته ، وملائكته بإذنه ومشيتته ، والخلائق أفواجا بعد أفواج ، وبحوراً ترمى بالأمواج ، ولا موج إلا حلبُ العيون والأحداق ، ودمعٌ كالدم المهرق ، فلم يمر سريره بأرض إلا ودّت لو حطّ عندها ، وأودع ثنيها ، لتسمو على جاراتها ، وتعد ثانية طيبة في طيب التربة^(٥) ، وثالثة الغريين^(٦) ،

(٤) أصل الجملة : واصطفوا للصلاة اصطفاؤهم للصلاة عليه وحذفنا اصطفاؤهم للصلاة ليستقيم السياق . (٥) في الأصل : التربة . (٦) الغريان : بناء ان بظاهر الكوفة قرب قبر على .

(١) الشخص جمع شخص وهنا معناه سواد العين . (٢) الطف : المكان الذى قتل فيه الحسين بقرب الكوفة . (٣) في الأصل هكذا : الارباب بدون نقط .

والحائزة عللاً أخواتها في شرف الرتبة ، فحسبنا البلاد تتجاذب وتنتضل ، وتتغاير وتقتتل ، وأبى الله إلا أن يكون ثوابه حيث اختار له بل اختار لمجاوريه وزائريه ، ويُسعد به وارديه وصادريه ؛ فهناك ينزل الرضوان ، وثُمَّ تهبط الجنان .

لقد فارق والله أحياء نيسابور رجل فيه يقال : فَذِّ فرد ، وأسد وُزد ، وشهاب لامع ، وصبيح ساطع ، وماء [و^(١)] رُواء ، وكرم ماشئت وحياء ، ووصل أمواتها قادمٌ تقدُّمه حسناته ، وتحفُّه قرباته ، وتصلى عليه صلاته وصلاته ، وتزكِّيه صادقةً زكواته وصدقاته ، ويشفع له جدُّه في الدين واجتهاده ، ويخصِّم عنه حجُّه في الله وجهاده . نعم أطال الله بقاء سيدي لو أن الكلام سهلت حزنه ، ولانت متونه ، وطاعت عيونه ، ودانت أبكاره وعُونُه ، ثم عُمِّرْتُ عُمَرَ العصور ، وعمر النسور ، أمدُّ بخاطرٍ لا يُزَف ، وطبع لا يُنَزَح ، ثم شغلت عمرى بالثناء على من رزئناه ، شَرَّفَ الله مأواه ، لكنت بعد الإكثار والإطالة ، وخوف السامة والملالة ، قاصر السعى قصير باع القول ، قصاراي أن ألوذ بدمَّة الصمت ، وألبس ثوبين : من إقصار وعجز .

وإنما أنفت بنفثة المصدور ، وألقى بئى على حواشى الصدور ، وبالله العياذ من استسراء الحزن حتى لا أجَرَ ، واستعلاء القلق حتى لا صَبَرَ ، إن ذلك من مواقف الجهال الذين تستهويهم يدُ الغرور ، والكفار الذين ييأسون من أصحاب القبور ، فرجوعا إلى الله رجوعا ، وَرِضَى بحكم الله وخضوعا .

والحمد لله الذى لما عمَّر الشريفَ أبا محمد صلوات الله عليه عمَّره عزيزا ، وفطره عظيما ، وجعله بنفسه وجنسه شريفا كريما ، أعماله بيضٌ ، وإفضاله مستفيض ، وذكره سائر ، والثناء به طائر ، وحين قبضه قبضه سعيدا ، وتوفاه حميدا ، وختم له بحال يُغَبِّطُ عليها للدار الباقية ، وإن لم يُغَبِّطُ بها في هذه الفانية . ثم الحمد لله على أن سدَّ خصاصةً من الشريف بمن مكانه محتشمٌ ، ومقامه مقدَّمٌ ، وخلقه وفضله مرموقٌ ، وأدبه مشهورٌ ، وسبقه معهودٌ ، يروى المكارم مرفوعة العباد ، موصولة الإسناد بالإسناد ، قد ورث الشرف جامعا عن جامع ، وشهد له نداء الصوامع .

فإنَّ تكَّ أيدينا بالأمس أمسكت على القلوب خوفَ انصداعها وانزعاجها ، لقد مسحت اليوم على الصدور عند انشراحها وانفراجها ، ولئن سخنت عيونٌ حين حدث الحادث ، لقد قرَّت عيون حين انتصب الوارث ، وتلك الرياسة منتقلةٌ إليه ، وحاصلةٌ بيديه ، يتوارثها غصنٌ عن شجر ، وهلال عن قمر ، ونحن معاشرَ إخوان الماضي وكافة شيعته — أكرمهم الله — أيْدٍ وراءه طوال ، بل جبال إذا أرادت الجبال ، تُشَحِّذُله البصائر ، وتُبْتَذِلُ فيه الذخائر ، ويدعوني الإشفاق — مع ذلك — إلى أن أقول : حَتَمٌ على سيدى أن يلبس مَعْرِضاً لهذا الأمر يستقلّ معه بفرائضه ، ويضطلع بوظائفه ، ويثابر على لوازمه ، ويقسم الشهوات على شرائطه ، فلقد كان حتى اليوم ابناً وهو الآن أبٌ أو جد . وفي صُعداء المجد مسلكٌ وعِر ، ومذهب حَزَن .

ولن يفرع الذروة إلا بتقوى وحلم لا يميل إلى جانب الخرق ، ولا ترتقى إليه همة الذل ، وبَذَلٍ لا يذوب صاحبه مع التبذير ، ولا يجمد مع التقير ، ومنافسةٍ في اقتناء المودات حتى يعطى مَنْ فوقه حظَّ التوقير ، ويسمح لمن كان مثله بفضل التقديم ، ويَجْذِبُ بمن يدانيه إلى رتبة النظر ، ويكون للباقيين أباً يدافع عنهم مدافعتهم عن تلاده ، ويناضل مناضلته عن أولاده ، فيزورُ منهم الصحيح ، ويعود المريض ، ويغيث المنكوب ، ويعين المحروب ، ويشفع في المحرم ، ويسأل في المذنب ، ويتحمل مضرّة القوم ، ويراه الغنم كل الغنم ، طاهر الأثواب ، سهّل الحجاب ، مؤدّب الأصحاب ، يستحفظ رأى سلطانه ، بغاية إمكانه ، ثم لا يدع بينه وبين أقاربه ، والمساوين له في مناسبه ، تَرَةً ولا ذَخَلاً ، ولا يسيئُ فيهم قولاً ولا فعلاً ، ويُشْعِرُ الذين يَهْدِجُون بالخميمة أن أسواقهم بائرة ، وعليهم الدائرة . والعلماء يَسْعَوْنَ العلماء ، فهم الأركان والأعيان ، والإخوان والأعوان ، والمشايخ والصدور ، وإليهم تؤول الأمور ، فليعظمهم كُنْهَ الأعظام ، وليكبر صغيرهم فوق أكابر الزمان ، فإن فقيه العرب على ابن أبي طالب — رضى الله عنه — فَضَّلَ أ كفاءه بالعلم فصار أفخم شانا ، وأعز سلطانا ، وأعظم نفرا ، وأبهر شمسا وقمرا ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

ولست أريد بهذا القول طائفة دون أخرى تقابلها ، ولا فرقة سوى فرقة تماثلها ، بل أرى العلم أين حلَّ بأعلى نسب ، وأقوى سبب ، والأمة وإن اختلفت مذاهبها ، بين محق

ومبطل ، ومسهل ومحزن ، ومخطئ ومصيب ، وأصم عن الحق أو مجيب ، فخرمة المعرفة
لا تضاع ، وسوأم الدراية لا تراعى .

وكان سبيل كتابي أن يرد على سيدى الشريف خامس وفاة الفقيد رحمه الله ، لولا أن
المرض أخذ بالجوانح ، وثقل على الجوارح ، والآن حين استقلت وأبليت ، فكتبت لا بل
عجزت وأملت ، فليقبل العذر كما عرفه ، وليقبل على ما يحوط دينه وشرفه . ومع كل الذى
تصرفت فيه فإن الأسف على من فقدناه إزاء ناظرى ، وشغل خاطرى ، لم أرض عن الليالى ،
وقد سخطها المعالى :

فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى بطلق ولا ماء الحياة ببارد

الباب الحادى عشر

فى الاخوانيات والملاطفات والمداعبات

١ - كتاب شوق واستزادة وبرّ وتوجّع لعارض علة

أنا إذا وجدت لمكاتبه الشريف بخطّى فراغا ، وإلى مطاولته بما فى نفسى مساغا ، أسغت غصه ، وانهزت فرصة ، وإذا حجزت العلائق ، ومنعت العوائق ، لم أعدم حجة ، ولا يعدمنى رخصة ، وأنا والله من الشوق إليه بما أُكبره عن كشفه ، ويدفع أدب الوقار عن وصفه ، إذ هو فى قبيل ما يسمى كلّفا ، وطريق ما يدعى شغفا . هذا وفرط الغرام بقرب مولاي ولوع بالفضل ، فلا تبرّأ منه ، ولَهَجُ بالمجد فلا تنزّه عنه ، والله عواطف وعوارف ، ومواهب ولطائف ، تعين الشمل على اجتماعه ، وتُدِيل القلب من نزاعه .

ووصل كتاب الشريف مع فلان فحسبته سافر إلى قريب العهد ، بينانه وبيانه ، وفقرّ يده ولسانه ، وانهزت لنشره ، وارتحت لفضّه ، وتهيات لاجتماع وزّده ، والارتواء من شربه ، فلما ألفيته بغير خطه عراني فتورّ مسرف ، وكسل مجحف ، فعدلت إلى التذكرة ، إذ كانت بين مساقط أقلامه ، وتساقط الدر من كلامه ، وبردت غليلا ، وجلت ناظر اكليل ، واستعديتها على الشوق ، فلولا أنها هاجت مزيد تذكر ، وأثارت قديم تحسر ، لكان ما أهدت من غبطة ، وأدت من بهجة ، حقيقاً بأن يذكر ، وخليقاً بأن يشكر .

وقد تقدمت فى الأبواب أجمع بما يجمع المراد ، ويصدق الارتياذ ، وفلان يفصل ما أجملت ، ويلخص ما أبهمت ، بعون الله . ومولانا الأمير لمولاي محمد ولمنزلته مُكبر ، وعلى قديم تحقّقه محافظ ، ولما عاد بسداد أمره مؤثر متخيّر ، مدّ^(١) الله أستار ظله ، على أتباع فضله ، بمنّه .

عند انتهائى إلى هذا الفصل عرض فلان كتابا إليه من مولاي صَدَرَ عن عارض تألم ،
 فطواني على جزع وتحرق ، إذ لا فرق — يشهد الله — عندى بين سُقْمه وسُقْمى ، وما
 يُقَسِّمُ بجسمه وجسمى ، وإنى لأستنزل العافية على أن تكون له مشروطة ، وأستمد السلامة
 على أن تدوم به منوطة ، والله يبلغنى فيه وفى نفسى خير المطالب ، ويكفينى وإياه كدر
 المشارب ، واعتراض الشوائب .

وأعود لنسق الجواب : إن الذى يصفه مولاي عن الأمير إجلالا لقدره ، وإشبالا على
 أمره ، وإجزالا لحظه ، لرافعٍ طرفى ، وفائت شكرى ووصفى . ذلك دليل ثبات الدولة ،
 وتزايد النعمة ، وتضاعف البسطة ، ونيل البغية ، والله يُوفِّقُ مولاي لما يوافق هذه الحال
 التماسا للقربة ، واختصاصا بالطاعة والخدمة . ومتى لم أعاتب سيدي على ما يضيق به
 صدرى ، خشيت أن تبقى غُبرة فى نفسى . وقد حَمَلَتْ فلاناً إليه ، ما يورده ، وإن كان
 فجأ عليه ، فليتصور مولاي إخوانه بحيث تقديم الله وتفضيله ، أو من حيث تقرب السلطان
 وتأهيله . وأنا أقطع الكلام فإنى أخشى اللوم يلج بى ، ويستفز قلمى ، وأسأل مولاي
 أن يخاطبني بخبره ، فهو أخص ما أترقب ، ويياستنى فى وطره ، فهو أسرُّ ما أقدم ،
 إن شاء الله .

٢ — كتاب تأنس ومداعبة

أنا أَلُطِّفُ — يا شيخى ! — الكاغد فى مكاتبتك ، بحسب ما أوجب من لطف
 منزلتك ، وأعتذر إليك ، من تأخر الأجوبة عنك ، عما أعتدُّ لك باتصال الابتداءات منك ،
 فإنى إذا قرأت من خطك حرفا وجدت على قلبى خِفًّا ، وإذا تأملت من كلامك لفظا ،
 ازدددت من أنسى حظا . ودليل الشوق إليك ما تجده من نفسك ، وتستمليه عن صدرك ،
 وكلا ! فإن الذى عندى أحرَّ وقعا ، وأحدَ لذعا ، وقد زاد فيه ما استشعرته من ترفيهك عن
 السفر ، وتوفيرك على الوطر^(١) .

وأجزيك الخير فإنك تُطْفِئُ بكتبك لهب البعد وترشّ على نار الحنين ماء الوصل ، فلا
 تنشبه بمن يوصلُ فيقطع ، ويُسألُ فيمنع ، ويُقبلُ عليه فيُعْرِضُ ، ويُيسطُ إليه فينقبض ،

(١) فى الأصل : الوطن

وَيُلَانْ لَهُ فِيشْتَد ، وَيُعْتَد بِهِ فَلَا يَعْتَد ، وَمَنْ التِيَه^(١) ثَوْبَهُ وَرَدَاوَهُ ، وَالنَّجْمُ أَرْضُهُ وَحَدَاوَهُ
وَمَنْ الْخَضِرَاءُ لَهُ غُرْشَتْ ، وَالْغَبْرَاءُ بِاسْمِهِ فَرَشَتْ ، وَيَظُنُّ الشَّمْسُ أَخْفَ سِرِّهِ ضِيَاءً ،
وَالْأَنَامُ عَمِيدًا وَاللَّيَالِي إِمَاءً ، وَمَنْ يَنْظُرُ فِي عِطْفِهِ ، وَيَرْمُقُ الْعَالَمَ بِمُؤَخَّرِ طَرَفِهِ . فَإِنْ تَسْأَلْ
عَنْهُ لَمْ أَشْجَعْ لَذِكْرِهِ ، مَعَ مَا قَلْتُ فِي خِثَامَةِ أَمْرِهِ ، لَكِنِّي أَثِقُ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، وَأَسْتَعِيزُ بِهِ
مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، فَأَقُولُ : هُوَ أَبُو سَعِيدٍ ، وَلَيْسَ بِالْمُهْلَبِ ، وَمُحَمَّدٌ وَلَيْسَ بِابْنِ الْحَنْفِيَّةِ ،
وَإِبْنُ الْمَرْزَبَانِ بْنِ الْفَرَّخَانَ ، اسْمَانِ لَمْ يَشْهَدَا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ . وَحَقُّكَ إِنْ كُنْتُ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابًا
مِنْدَ مَدَّةٍ قَدْ تَجَاوَزَتْ عِدَدَ النِّسَاءِ وَبَلَغَتْ حَوْلًا كَامِلًا أَوْ كَادَتْ ، وَلَا أَدْرِي لَمْ اعْتَرَضَ اسْمَهُ
فِي كِتَابِي إِلَيْكَ حَتَّى أَضَعْتَ مِنْ بَيَاضِهِ^(٢) مَا تَرَاهُ ، وَمِنْ كَلَامِي مَا تَقْرَاهُ .

٣ — وَاسْمُهُ تُوَدُّدٌ وَتَشْكُرُ

كِتَابِي — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي — وَمَوْلَانَا فَمَسِيحُ مَجَالِ الْعِزِّ ، رَفِيعُ مَنَاطِ الْمَلِكِ ،
وَأَنَا بِدَوْلَتِهِ وَعِزِّ خِدْمَتِهِ سَالِمٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَوَصَلَ كِتَابُ سَيِّدِي مَبْشَرًا بِمَا كَانَ الْأَمْدُ وَاقِفًا عَلَيْهِ لَا يَتَعَدَاهُ ، وَالرَّجَاءُ مَنْصَبًا إِلَيْهِ
لَا يَتَخَطَّاهُ ، وَنَوَازِعُ النَّفْسِ تَنْهَضُ لَهُ خَاطِبَةً ، وَبَوَاعِثُ الْقَلْبِ تُلْهِجُ بِهِ طَالِبَةً ، مِنْ قَرَبِهِ
الَّذِي يَجْمَعُ أَسْبَابَ الْحَبَابِ مَوْفَاةً ، وَيَنْظُمُ أَشْتَاتَ الْمَسْرَةِ مَهْدَاةً ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا اسْتَسْلَفْتُ مِنْ
الْبَهْجَةِ الَّتِي لَمْ تَدْعُ مِنِّي جَارِحَةً إِلَّا طَبَّقَتْهَا ، وَاسْتَأْنَفْتُ مِنَ الْغَبْطَةِ الَّتِي لَمْ تَتْرُكْ مِنِّي جَانِحَةً
إِلَّا مَلَسَتْهَا ، فَالْفَيْتَنِي كَمَنْ حُكِّمَ فِي أَوْطَارِهِ فَتَحَكَّمْ ، وَأَسْرِجَ فِي آرَائِهِ وَأَلْجَمْ ، وَأَزَاحَتْ
الْأَيَّامُ عِلَّتَهُ كَيْفَ أَرَادَ ، وَارْتَاخَتْ لَهُ اللَّيَالِي بِمَا شَاءَ وَارْتَادَ ، فَقَدْ كُنْتُ مِنْ بَعْدِ سَيِّدِي فِي
وَحْشَةٍ تَدْعُ حُظُوظَ النَّفْسِ مَنْحُوسَةً ، وَغَمَّةٍ تَرْجِعُ حَقُوقَ الْأَنْسِ مَنْقُوصَةً ، وَكَيْفَ
لَا أَتَشُوفُ سَيِّدِي بِعِيدَا ، وَلَا أَتَنَاوَلُ بِهِ الْأَمَانِي قَرِيبَا ، وَقَدْ أَتَانِي اللَّهُ مِنْ وَدِّهِ ، وَكَرِيمِ
عَهْدِهِ ، مَا تَحَارَفِيهِ النَّوَاطِرُ ، وَتُعَقِّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، فَغَيْبِي مُحْرُوسٌ بِحُضُورِهِ عَنِ الْأَلْسِنَةِ
الْجَارِحَةِ ، وَالْعَيُونِ الطَّاحِحَةِ ، وَذَكَرِي مُحْفُوظٌ بِمَنَابِهِ الْكَرِيمِ ، وَقِيَامُهُ الْجَمِيلِ . وَلَوْلَا أَنْ
الْإِكْثَارُ يَزُرِّي عَلَى الْإِخْلَاصِ ، وَيَنْتَقِصُ جِدَّةُ الْإِخْتِصَاصِ^(٣) ، لِأَطَعْتُ مَا يَمْلِكُهُ وَيُطَالِبُنِي

(١) فِي الْأَصْلِ هَكَذَا : السَّهْ بِدُونِ نَقْطِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : لِلْإِخْتِصَاصِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : بَيَاضِي .

به فكري ، اعتقاداً لم يُهَجِّجْهُ التصنع ، واعتماداً لم يعترضه التعمد ، والله يديم النعمة لديه كما أدامها لإخوانه به ، ويهنيه ما قسم له كما هنأهم العارفة عنده ، بمنه .

وقد أكثر الناس في وصف ما يهيجهُ الشوق إذا أخذت الدار تتقارب ، والمحالّ تتجاور ، وصحائف البعد تُدرّج ، وملابس القرب تُنشر . وما أوضح براهين ذلك ، فإني مستقيها من صدري ، ومستملها من قلبي ، لاستبعادى الشقة ، هذه المدة ، وتقديرى بأن اليوم الواحد أمدّ من الحول الكامل ، والعام المتواصل . والله يقرب لنا البعيد ، ويلقينا الغال السعيد ، ويُكمل الرغائب بمشاهدته ، ويُسبغ المواهب بمشافهته ، إن الله يفعل ما يريد .

ومما أبشر به سيدى اهتزاز مولانا لمورده ، وارتياحه لمقدمه ، فإنه منذ أول ماوردت الكتب نبأاً توجهه إلى هذه الحضرة ، يقول في هذا الباب أقوالاً تخلّد الشرف وتؤبّده ، وتذخر المجد وتمهّده . زاد الله مولاي عنده قربة ، وضاعف كل يوم له رتبة ، فإن رأى أن يجعل كتابه مقدمة النعمة في وصوله ، وتعريفى خبره عُنوان المنحة في وروده ، ويذكر لى أخباره ، ويكلفنى أوطاره ، فعل إن شاء الله .

٤ — والـه

كتابى — أطال الله بقاء سيدى — ومولانا سابغ السعادة ، متناول بيد القدرة مبالغ الإرادة ، والحمد لله .

فأما أنا فإن حُمَيَّاتِ اختلفت بى ، وأعلالا تصدّت لى ، وكنت منها فى أحوال تخوّنت القوة ، بقدر ما تحيَّفت به الصحة ، وقد تفضل الله الكريم بالإقالة ، وأعادنى إلى جميل العادة ، ولم يبق إلا الضعف الذى يزول على الأيام ، والله ولى التطوّل به والإحسان .

ولولا هذا العارض لقد كنت تلقيت سيدى بعدة كتب على أيدى الرسل استعجالاً للموهبة فى مشاهدته ، وإكباراً للمنحة فى مكائثرته وتعرفاً لخبره ورأيه ، ووقت وروده ، وصله الله بأسباب سرّائه . وبالألمس تهباً لى الركوب إلى سيدى ذا كراً للصورة ، وراعياً إليه فى إعلامى حال سلامته ، واطراد أموره على إيثاره ومحبته ، وإن جاز أن يعرفنى الوقت الذى يكون انفصاله على طالع البركة منّ به ، فمولانا يهتم بذلك ، ويرسم مراعاته ، ولذلك

أمر ، أعلى الله أمره ، بإصدار هذه المخاطبة مع أحد التّراسين .

وتشوفى لغاية المحبة ، ونهاية البغية ، وبلوغ المراد والطلبة ، بقاء سيدى ، يحدونى على الاهتمام ، ويهزنى للاستعلام ، ولا أحتاج إلى تعريفه زيادة تُتراعى بتزايد الدار قربا ، فإنه يستملى من كرم عهده فى ذلك ما تجده شاهداً عدلا ، فإن رأى أن يخاطبنى بما التطلع له شديد ، والطرف إليه حديد ، ويدكر لى من مهمّة ما يبعث عليه خلوص من وده ، فعل إن شاء الله .

٥ - واه

ذكر فلان أنه يخرج على طريق المفازة إلى حضرتى ، مجدداً العهد بخدمتى ، وذلك صواب ، ولكن بعد أن يكون معه دليل ، قد استاف أخلاق الطرق ، ولقب بدعيميص الرمل^(١) ، وضرب فى عامر^(٢) بن فهيرة بعرق ، وأجال مع عبد الله^(٣) بن أريقط قدحا ، وبارى الشنفرى^(٤) ، وبات بمومة وأمسى بغيرها ، وكانت خوولته لتأبط^(٥) شراً ، وعمومته فى عمرو بن براق^(٦) ، ورضاعه فى سليك^(٧) المقانب . ووصفه العرب أنه كالكذرىرد المِشارع ، وأنه أهدى من النجم ، وأنه لا يضل حتى يضل النجم ، وقالوا فيه الخريت^(٨) ، وسموه بالأخذ المِصلات^(٩) ، أو خير من ذلك جمال من أردستان^(١٠) يُجمع على علمه بالطريق ليركبه على بصيرة ويقين .

وسيدى يجهزه فقد علم أنه جهيزة ، ويعينه على الظعن فقد علم أنه ظعينة ، ويذكر قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رفقا بالقوارير ، ويقول لأبى الفتح : هذه ثم ظهور

- | | |
|--|--|
| (١) دعيميص الرمل : اسم رجل كان داهيا يضرب به المثل ، يقال هو دعيميص هذا الأمر أى عالم به . | الجاهلية وعدائيتها . |
| (٢) مولى لأبى بكر الصديق قتل فى يوم بثرمعونة . | (٦) عمرو بن براق مثل صاحبيه . |
| (٣) دليل النبي صلى الله عليه وسلم فى الهجرة إلى المدينة . | (٧) سليك المقانب هو سليك بن السلكة وهو مثل سابقه . |
| (٤) شاعر جاهلى يضرب به المثل فى العدو فهو أحد العدائين . | (٨) الدليل الهادى . |
| (٥) تأبط شرا مثل الشنفرى من صعاليك | (٩) الأخذ : القاطع : المصلات : الماضى فى الأمور . |
| | (١٠) أردستان : مدينة بين قاشان وأصبهان . |

الحُفَرُ ، وليوصه ليستظهر على الفلاة ، بناقة كالعلاة ، وبالزاد ، والمزاد ، كما وصفت . أنفذ من عبد الجبار^(١) بن يزيد وخالد بن دثار^(٢) وأصيدف بن فلان ، ولا أدري ما أبوه ، ولكنه الذى كَلَّ على المهرب من سجن الحجاج ، والله يؤيده ويهديه .

٦ - وله

وصل كتابك أيها الشريف — أطل الله بقاءك — ولكن بعد ماذا ، بعد أن كددتك بالعنب الوجيع ، وقرعتك بعصا التقرير :

وكانَّ الأكَفَّ قد عَصَرَتْهُ بعد كَدِّ من ماء وجه البخيل

وما كذا كان الظنُّ بك ، وخلقك الخلقُ الرحب ، وأنت الحلال الحلو والبارد العذب ، وقد ينسى المرء أبعد خليليه داراً وحِلَّةً ، وإن كان أصدقهم عهداً وخُلَّةً ، غير أنى لم أحبك ترضى بالرتبة الدنيا فى كرم العهد وترعى روضة الهوى نى فى صحة العقد ، فملاَّتْ يدي ثقة ورجاء ، حتى أعدتها على صفرأ خلاء .

وبعد ذلك فليت شوقى إليك على قدر حظى منك ، كلا ! أنت خَدِينُ فكرى وسميره ، وأمين قلبى وأميره ، تصرفه^(٣) كيف أحببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الأفعال بالأسماء^(٤) ، فإذا استنزلتك عن كتاب تصدره ، أنفقتَ بالمعروف ، وجُدت بالنزr المشفوه^(٥) ، حتى كأن بياض قرطاسك من شيبة الحمد ، وسواد أنفاسك من سواد الناظر والقلب . فلا تفعل ، جعلت فداك ! ، فبغير هذا نزلت السور ، وتليت النذر ، وتكررت العبر ، وتربعت ربيعة وتمضرت مُضَر ، وآخر دعواى أن كيف شئت فكن ، وقل : إذا عزَّ أخوك فهُنْ . سقى الله عهدك غيثاً كغزارة فضلك ، وسلامة طبعك ، وصفاء ودك ، ولا عاشت المحاسن من بعدك .

المكتبة التيمورية الورقة ٢٩ من المجلد الثانى عشر .

(٣) فى الأصل : وتصرفه بزيادة واو .

(٤) فى الأصل : الأسماء بالأفعال .

(٥) المشفوه : القليل .

(١) لعله أخو الوليد بن يزيد : انظر الأغاني

ط . دار الكتب ٥٠/٧ ، إذ طلب الوليد إلى إحدى المغنيات أن تغنيه صوتا وطلب عبد الجبار منها صوتا آخر فاستجابت له وتركت أخاه وطلبته .

(٢) انظر ترجمته فى تاريخ ابن عساكر ، نسخة

٧ - وله

كتابي — أطال الله بقاء صاحب الجيش — ونعم الله عندي بدولة الملك السيد متوالية ،
ومواد الخير نامية ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتاب صاحب الجيش ورد مع فلان جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقاً ،
وأتمها للحمد استغراقاً ، وتعرفت من إحسان الله فيا وفره من سلامته وهنأه من كرامته ،
أنفس موهوب ومطلوب ، وأحمد مرقوب ومخطوب ، وأدى فلان ما تحمّل من مشافهة
صادرة عن مطلع الود الجليّ ، ومستودع العهد الوفيّ ، صاحب الجيش ، أصحبه إياه متجاوزاً
حد الإلطف ، إلى طرف من أطراف الإسراف .

وصاحب الجيش بما عود من كرم نفسه ومحامد فعله ، وإيفاء يومه على أمسه ، وعِدته
بالمزيد في غده ، لا يستكثر منه البلوغ إلى أبعد آماذ المبار وأرفعها وأوقعها بحسن الاختيار
وأبدعها ، فقد أفرد الله من خلال الفضل بما أمّن فيه شركة أولى المجاورات ، وسُهمته
ذوى المساهمات . والإقصار عن التناهي في مقابله ، إلى التباهي بما فضل الله من شاكلته ،
أسدّ منهاجاً ومذهباً ، وأسعد منالاً ومطلباً ، والله لا يُخلى من التجميل بمكانه ، ويحفظ
التكثّر به على إخوانه .

ولو كانت الكتب والرسائل كفاء مودع الصدور ، وموقع الود الموفور ، لصدرت تباعاً ،
ونفذت سراعاً ، لا قصور في الإدمان دونها ، إلا أن الثقة بالتصافي المتزايد ، والتناحي بخلوص
السرائر والعقائد ، يفسح في طرق العذر ، إذا وقع تعويل على المشاركة المحضة ، والاستنامة
الغضة ، وما تجشّم صاحب الجيش إنقاذه من تُخفة كبرها قدراً ، وصغرها ذكراً ، وكثرتها
إصداراً ، وقللها إخباراً ، فقد زاد في حسن موقعها فتّحها للأنس باباً ينضاف إلى أبواب
المباشطة التامة ، والاسترسال في الأوطار الخاصة والعامة ، وإن كنت — يعلم الله — بما لديه ،
أوثق مني بما تنضم اليد عليه ، علماً بأنه — أدام الله عزه — لا يفرق بين النعم التي سوغني
الله صفوها ، والمنح التي أسبغ عليه عفوها ، أدام الله الموهبة بمواصله أيامه ، وحرس ما أودعه
من غرر إنعامه . وقد أتت المشافهات على جواب الرسالة الواردة ، وفلان يؤديها بإذن الله
على السُنّة الجارية ، إذ كان صحيح الأداء ، حميد الاستيفاء .

٨ — ولـه

وصل كتابك الموثوق بثبوت عهده على تلؤن الحالات ، المسكون إلى رسوخ وده على تباين الأوقات ، وكان موقعه بحضرتي موقع آنس مايتوقع ، ومطلعه على مجلسي مطلع أسر مايتطلع ، وتحمل من خبرك في السلامة ماأعده أخص غنيمة ، وأعز منحة كريمة ، فقد كنت ، يشهد الله ، عند اختلاف تلك الأحوال بأغمار مالوا على النباهة للخمول ، وأذئاب خافوا على الرؤوس والصدور ، أشفق عليك من بدرات الجهلة ، وبدعات العجزة ، وأراعى خبرك مراعاة المرء لأمس ذوى رحمه غيراً على تمييزك وبراعتك ، وتبريزك على أهل صناعتك ، ووقوع التسليم لك ممن شاهدتهم يومئذ والعراق مغتصة بالأفضل ، مختصة بوجوه العمال والمشايخ ، فلما أطلع الله رايات الحق ، ورفع غايات الفضل ، بماذلل لمولانا من مقادة البلاد ، وأحيا بأيامه من مصالح العباد ، أيقنت أن زندك في الزود الوارية ، وسعدك مع السعود الجارية وترقت كتابك ياسيدى فكان بغية الطالب ، ومنية الراغب ، وتصرفت فيه في وصف عقيدتك وأنا بها عليم ، وبخلوصها زعيم ، ثم في اعتذار قد كفأك الله أمره ، ووضع عنك إضره ، إذ كانت تلك العوائق توجب الانقباض عن المواصله ، والتعويل على الضمائر المتقابلة ، وأريد الآن — سيدى — أن تكاتبنى مكاتبة الصديق المتحقق ، والأخ المتخصص ، وتبشرنى بما يتجدد لديك ، فإن فواضل الملك غمام يدر على الأيام ، والتنصح في يسير خدمته يرقى إلى كثيرها ، والتقرب في صغير طاعته يرفع إلى كبيرها ، والله يؤتيك ماتوثر وأوثر فيك بمنه . ومن أوضح ما تدلنى به على مودتك أن تسترسل إلى فى مهماتك ، وتحسر ذراع الانقباض فى حاجاتك

٩ — ولـه مداعبة وعناية

أبو الفرج عباد بن المطهر — أعزه الله — يزعم أن الشيخ الأمير رضى الله عنه سماه عبادا والناس يروون :

لستان ما بين اليزيدى فى الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
وفيه من لا يعلم أنه لربيعة الرقى ، ولا أن اليزيدى يزيد بن حاتم المهلبى وهو الممدوح ،

وزيد بن أسيد وهو المذموم ، وكما لا يدرى أن الشعر بلغ أبا الشمقمق فقال ، وفضل عليهما
يزيد بن مزيد الشيباني :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى إذا عدَّ في الناس المكارم والمجد
يزيد بن شيبان أكرم منهما وإن غضبت قيس بن عيلان والأزد
وقد قال الآخر :

يزيد الخير إن يزيد قومي سميكَ لا يزيد كما تزيد
ويذكرني مولاي أنشد كثيراً لأبي الهول الحميري في الفضل بن العباس والبرمكي :
فضلان ضمهما اسمٌ وشتت الأخبار
كما سمعني أنشد لبشار :

رأيت الشَّهْلَيْنِ استوى الجود فيهما على بُعد ذا من ذاك في حكم حاكم
سهيل بن عثمان يحودُ بماله كما جاد بالفعلاء سهل بن سالم
ومن المبتذل في هذا :

شتان بين محمد ومحمدٍ حتى أمات وميت أحياني

والحمدان محمد بن منصور بن زياد ومحمد بن يحيى بن خالد .

ولا أحسب عبداً هذا يعدُّ ما قلته تفضيلاً لعباد بن العباس عليه ، وإضافة له إليه ،
ولا أن يقول كما قال يونس بن حبيب : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وذلك كما قال صديق
مولاي القريب ، وابن عمته النسيب ، الفرزدق بن غالب ، وقد قيل له انزل على أبي قطن
قبضة ، فحسبه ابن مخارق الهلالي ، فإذا هو آخر لا يحضر في نسبه ، وذم قراه وجواره ، فقال :

سرت ما سرت من ليلى ، ثم وافقت أبا قطن ليس الذي لخـارق
وقد تلتقى الأسماء في الناس والكنى كثيراً ولكن لاتلاقى الخلائق
فأما التفضيل الذي أومأت إليه ، فقد أعجبنى منه أن الخطيئة قال :

فلما أن مدحتُ القومَ قُلتُم هـوتَ وهل يحل لي الهجاء
فلم أشتم لكم حسباً ولكن حدثُ بحيث يُستمتعُ الحداء
حتى زعم بعضهم عن الزبرقان أن هذا أوجع له من قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وعلى ذكر هذا البيت فلا أدري لم ترك ما قيل قبله ، فقد سبق الأعشى بقوله :

فدعنا وقوماً إنهم عمداً لنا أبا ثابت واجلس فإنك طاعم

لست أدري — أيد الله مولاي — ما هذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، وإنما حضر هذا الفتى ، وله حق الغربة ، وأعظم به حقاً ، ثم حق الأدب وأكرم به فخراً ، وقد خدمنى طفلاً ، والآن كهلاً ، وهاجر إلىّ ، فتظاهرت حرمانه لدىّ ، وهذه التسمية أيضاً لها ذمام يُرعى ، وذمار لا يُنسى ؛ وسألنى أن أخطب مولاي فى بابه ، وأُسميه فى مرعى جنبابه ، وتصوّر لى الأنس بمطاوله مولاي ، وحسبته أناجيه عن قرب ، كما أنا مكاتبه عن بعد ، فلبّج الطبع والقلم ، وحضرت هذه الأبيات والعبر ، ومولاي ولىّ مايؤليه ، ويختصه بالجميل فيه ، فقد كان أبو عيسى النوشجان بن عبد المسيح أنشد والدى :

وإن ائتلاف النفس أدنى قرابة لمن يدعى القربى إذا كان ظالماً

١٠ — وله إلى الخطيبين

[كتاب^(١)] شيخى أبى حفص وولدى أبى مسلم كتاب شيخ الفضل شاب الظرف ، وخطاب شاب السن شيخ العقل ، آنس أصدق الإيناس ، واختص أبلغ الاختصاص ، فلا عدمتهما معا ، ولا عدما البر جميعا . فأما شكرك لسيدى أبى العباس — أدام الله تأييده — فكلفة قد حط الله عنك وزرها ، ووضع دونك إصرها ، إذ كنت شيخ الدار والأهل ، ولى بمنزلة الأخ وله بمنزلة العم ، فكيف يُدّخر عنك البر والبشر ، وكيف يجب عليك الثناء والنشر ، بل أنا مستبطى له — أدام الله تأييده — أولك ، فما أقل ما أسمع باجتماعه معك ، وإن يك ذاك بقلة استدعاء منه فقد أضاع حظاً ، وإن كان لسوء استجابة منك فقد أضعت حقاً ، فمن كان منكماً^(٢) مقصراً فليُعْتَبَ والسلام .

وأما البشرى فقد وصلت منك إلى معمور القلب بالود ، فلا بد أن يكون مشروح الصدر بالأنس ، وختمت على موفور الحظ من خلوص العقدة ، فكيف لا يكون

(٢) فى الأصل : منكم .

(١) زيادة يقتضيه السياق .

وافى القسط من عموم البهجة ، فتعال أيها الشيخ نشتغل بالحمد لله ، وننقطع إلى الشكر لله ،
فما أحسن ما صنع ، وما أعظم ما دفع ، وما أجزل ما منح ، وما أوسع ما فتح ، اللهم فوق
لما يوافق رضاك ، واجعلنا ممن يرجوك ويخشاك ، إنك سميع الدعاء ، فعال لما تشاء .
علقت هذا الجواب ليحرر ، ثم رأيت إنفاذه بخطي على اضطرابه ، آنس لك ، وأبرّ بك ،
إن شاء الله .

الباب الثاني عشر

في التشكر وما يشاكله

١ - كتاب شكر وإنباء بمتجدد النعمة في مؤتلف تبجيل

ومزيد ترتيب

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ومولانا الملك السيد مصرف أعنة الأيام ، معدّل أقسام الزمان ، مكنوفٌ من الله الكريم بإفناذ الأمر ، وإعزاز النصر ، وتيسير المطالب ، في أرجاء المشارق والمغارب ، والحمد لله وصلواته على النبي وآله .
ووصل كتاب الأمير قد ابتدأني به كما ابتدأ بالغرّ من مننه ، والزهر من منحه ، واستغرق الشكر ببيض نعمة ، وجري في استنفاد الحمد على خصائص شيمه ، فازدادت أياديه شمولاً ووفوراً ، وعوائد طوله بُدوًا وظهوراً ، وأنبأ الخطاب من أحوال حضرته منبع الفضائل ومعدنها ، ومرتع الحماد وموطنها ^(١) ، عما بمثله يرتفع ناظر المخلص له موالاة لا يستحلها فتور ، ولا يعترضها تقصير ولا قصور ، وسألت الله تعالى أن يعتمد به ، من سابغ المزيد في كل حال مرقوبة ، ومزية مطلوبة ، ومنقبة محبوبة ، بما يصدّق الرجاء ويحققه ، ويشفعه ، من بعد ، ما يفوته ويسبقه ، إن الله سميع مجيب .

وكنت ذكرت للأمير خبري في المسير إلى الحضرة العالية ، لتجديد العهد بالخدمة السامية ، ووردت من تفضل الملك السيد وإكرامه ، وبسطه وإنعامه ، وتقريبه وإيناسه ، ورفع واختصاصه — بعد أن أهلني للاستقبال والتلقي ، وشرّفتني بالسؤال والتحفي — على ما حصل الإجماع ، ورُفِعَ النزاع ، في أنه لم يحظ بمثله أحد من وادي هذه السدة الكريمة ، وقاطني جوانبها العظيمة ^(٢) ، مع أنها كعبة الآمال ، ومحط الرحال ، ومقصد غلب الرجال ، وأعيان ذوي الجلال والكمال .

(١) في الأصل : مواطنها .

عضد الدولة عن مؤيد الدولة وعن نفسه ، فتلقيه
عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالح في إكرامه .

(٢) لعله يشير هنا إلى وروده عام ١٣٧٠ هـ إلى خدمة

هذا وأنا من أنشاء الخدمة ، وأغذية النعمة ، ومن لو اقتصر به على الإيماء إذا حضر ،
والثول من بُعد إذا وصل ، لكان له في ذلك الشرف الصميم ، والمجد البالغ العميم ، لكن
أريحية الملك ، وهزة المجد ، قسمتا لي ما يُعدّ منقبة العمر ، وواسطة الدهر . ولولا على بأن
الامير يتطلع صورتي تطلعاً يقتضيه علمه بموالاتي ومماحضتي ، لما أطلت فيما خصني ذكره ،
ومسني أمره . على أنني قد اقتصدت واقتصرت ، ثقةً بأن الذي أوليته أعظم خطراً ، من
أن يخفى نبا وخبراً ، فأطال الله بقاء مولانا الملك لإنهاض المنن ، وعقد المنن ، ورفع الخدم ،
والجذب بأنواع الهمم ، وأدام أيام الأمير مؤيد الدولة ، لنصافح الميامن بفضله وفي ظله ،
ونستخلص المناهج باعتلاق حبله .

والأمير الجليل — بحق اعتمادي رأيه ووده ، واعتقادي بلوغ المحاب به وعنده — أولى
من تجشم الشكر عنى فإني عاجز عن الواجب ، قاصر القوة عن أداء اللازم . وكتبي تتصل —
ولله المشيئة — إلى الأمير من الحضرة العالية مدة لبثي ، ثم من حضرة مؤيد الدولة عند
عودي ، أنهي فيها ما يتجدد ، وأنتهي إلى أمر يرسم في الجواب ويرد . فأما كتاب الأمير
إلى مولانا ، فقد كان أوصله الجمز في اجتياز ، واستغرق أوفى السهام من اعتداده ، وحل في
التقبل ، وشكر التفضل ، أخصّ مواقع أمثاله ، وهو يستصحب الجواب في انصرافه ، بإذن
الله عز وجل .

٢ - وله تشكر وإظهار اعتداد

كتابي — أطل الله بقاء السلار — ومولانا فيما يحكم الله له به من الاستظهار ، وعلو المنار ،
ومساعدة الأفضية والأقدار ، على ما يسر الله به أولياء الدعوة المسموعة ، وأبناء الدولة
المتبوعة ، والحمد لله حق الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله الطاهرين .
ووصل كتاب السلار فتطامن له شكرى ضئيل الشخص ، راضياً بخطة الضعف ،
وقد كنت أدعى ، ويدعى لي ، مطاولة الأفعال وإن بهرت حسناً ، وقهرت فضلاً ، بلسان
ينتصف قولاً ، ويستعلي شكراً ، حتى زحمتي من مكارم السلار ما يحصر عنه المبين ،
ويصحبه العي وبئس القرين ، لكنني إذ فكرت في أن انبساط يده بالحامد ، ورحب بلده
بالمآثر ، منقبة تجال فيها سهامي ، ويُفاض عليها بقداحي ، لم أخش وصمة العاجز ، ولم أخف

هَجْنَةُ القاصر ، فالتابع من جمال المتبوع حظوظ يُجَادُّ بها روضه ، وحقوق تضحك عنها أرضه . فأما الذى قاله السلار واصفاً اعتقاده بالخلوص لموليتنا فَبَرْدُ اليقين ، مغنٍ فيه عن الوصف المبين ، لولا أن السلار يضيف شرف الفعل إلى كرم القول ، ليأخذ بحاشيتي الفضل ، ويتناول يمينه راية السبق . ومولانا معتدٌ بذلك اعتداداً إنْ قُدِّرَ أن الخبر يضطلع بتمثيله ، والنظر يتسع لإقامة دليله ، فهيهات ! وعلى الضمائر من الضمائر شواهد ، براهينها أنطق ، وأسبق ، والرجوع إليها أحزم ، وألزم .

وأما الاسترسال الذى قد عمر السلار طريقه بمبارٍ وافية القدر ، موفية على القطر ، فعنان شرف لا يجاذب عليه ، ورهان فضل لا يسابق إليه ، وموقع ما يتجشمه بحضرة مولانا موقعٌ ما إذا تأمله تقبله ، وإذا نشر بره تشكره . والله يحرس هذه الحال ، فما أنضر عودها ، وأثبت عمودها ، وأحسن مطلعها ومبداها ، وأشبه مراحلها بمغداها ! . والشبلان قد اشتد الإعجاب بهما إلى التعجب منهما ، وحقا أقول : إن الأسد لا تذلل إلا لأشد منها قوة ، وأحضر منها نجدة ، وإن من يأمر الليوث فتطيع وتسمع ، ويطلق الأسود فتصيد وترجع ، لقوى أيده ، حتى كيده ، أمتع الله السلار مولاي بما أتاه من أبكار الفضائل وعُونها ، وأفراد المادح وعيونها .

٣ — وله تشكر واعتداد

كتابى ، أطل الله بقاء سيدى ، ومولانا فيما يسدد الله من رائه ، ويرفع من لوائه ، على ما يعلى نواظر أوليائه ، ويوهى قواعد أعدائه ، والحمد لله وصلواته على محمد وآله .

ووصل كتاب سيدى فملكنى به ملكاً مجدداً ، واسترقنى معه استرقاقاً مخلداً ، لما ظاهره فيه من أياديه التى تثقل عواتق الأطواد ، وكواهل السبع الشداد ، ولو كنت نهضت بفرض إحسانه فيما أسلف ، لرجوت أن أنهض بعض النهوض بحق ما استأنف ، ولكن لى فى ماضى تفضله ، ما يصدنى عن لوازم مستقبله . لا زالت يده العليا ، ومننه الطولى ، ولا انفك الشكر فى إيسار إنعامه ، والحمد فى ذمام إكرامه ، لا ينالان من ذرى مكارمه ذروة ، ولا يحلان من عرى فواضله عروة .

فأما الذي اعتمد به سيدى حضرة مولانا من الألفاظ التى ابتسمت عن حسن التوصل ، وتنزهت عن قبح العمل ، فقد صادف من تقبله الكريم ، واعتداده العظيم ، مالا ينال بإهداء الأمصار إليه ، وافتتاحها له وبين يديه ، وعدَّ انبساط سيدى من أقوى دلائل المودة الخالصة من الشوائب ، المشفوعة بالصفاء الدائب .

والرسول يذكر ما وعاه ، من المجلس أعلاه الله ، وفكر سيدى فى أن أسهم لى من هذا التعهد ، وقسم لى من هذا التفضل ، مستعظم مستكبر ، تكاد الأمانى تقعد عن اقتباسه ، والآمال تصغر عن التماسه ، إلا إذا تصوّر سعة صدره بالمنائح وقد ضاق البحر بالإضافة إليه ، وطول يده بالمكارم لا زالت راهنة لديه ، والله يعيننى على الدعاء ، فإنه أقرب مأخذاً ومتناولاً ، وأحضر نفعاً وطائلاً .

٤ — وله تشكر واعتداد

كتابى عن سلامة إحسان الله بها مقرون ، والمزید فيها عن فضله مضمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكان كتابك وصل حسن الموقع لطيفه ، وأتبعته تصنيفاً رائع المودع شريفه ، فأنست بمخاطبتك ، واعتددت بتحفتك ، وقد زاد برك حتى كاد يجهد الاعتداد ، ويسبق الأعداد ، والفاضل تنازعه نفسه إلى أقاصى المحاسن ، والتناهى فى درج الحمد ، والله يزيدك من فضله بمنه وطوله .

ومما يحتاج فيه إلى اعتذار ، واسع الأقطار ، تأخر الجواب عن الكتاب إلى الآن ، وما كان ذلك إهمالا وإغفالا ، ولكن أشغالا عرضت وأعلالا ، ومن اتسع صدره بالبر ، لم يضق عن قبول العذر ، وأنت تديم إيناسى بمخاطبتك ، مشفوعة بنتائج فضلك ، وثمرات علمك وفهمك ، فإنى أرتاح لسماع كلامك ، أنسا بأن علوم الطبيعة ، لم تُحلَّ عندك بحقوق الشريعة ، كفعل قوم حرموا مزية السداد ، وضرب على بصائرهم بالأسداد .

٥ — وله

كتابى ، أطال الله بقاء مولاي الأمير ، ونعم الله عند مولينا الملك السيد والأمير المؤيد على ما يؤثره الأمير مولاي بحكم المشاركة التي رفع الله بنيانها ، وشيد أركانها ، فله الحمد رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير بعد أن أخطأني مدة ، وتخطاني برهة ، وما أقول ذلك استزادة لكرمه ، واستبطاء لشيمه ، فقد أسلفني من طوَّله ما أعجزني شكره ، كما أعوزني حصره ، غير أن العادة عند السادة مطوَّبة ، والزيادة من السعادة مخطوبة ، ولو قد فسح — أدام الله نعماءه — في المكاتبة والمناوبة ، والمراسلة والمواظبة ، لاستمددت التطول بفضل الإكثار ، ولو كدَّت الإذكار ببعض الادكار ، ولكنني أقف حيث أمره ورسمه ، وأقتصر على ما يقصُرني عليه حكمه ، فإذا صرَّفني على ما أنا نازع إليه من مهماته تصرفت ، وإذا صرَّفني إلى جانب التوقف خدمت بالنية وخففت .

فأما نعمته علىَّ في آنف مارسم إلقاءه إليَّ ، فنعمة سامية المطلب ، سائغة المشرب ، إذ رأى إشراكى في المشورة ، بعد إعلامى جليَّة الصورة ، وقد أغنى الله الأمير بعزمه الذى خصته المناجح المنتظمة ، وارتهنته الميامن المزدحمة ، عن تجاوز فاتحة الاستخارة ، إلى واسطة الاستشارة ، إلا أنه يزيد بسط أهل ثقته ومشايعته ، بما يؤهلهم له من مشاورته . وقد استمعت من فلان ما أذاه ، وشكرت شرف لفظه وكرم معناه ، وخدمت طاعة الأمير مولاي بقدر ما اتسع له علمى ، واضطلع به فهمى ، والسلام .

٦ — وله جواب تشكر عن متجدد رتبة بمستخلص ومتحمِّل نعمة

كتابى ، أطال الله بقاء الأمير مولانا^(١) فيما يرفع الله من قواعد ملكه ، ويظهر من نفاذ أمره على ما يفوت أقصى النعم ، ويجوز صرحى الهمم ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

(١) يظهر من سياق هذه الرسالة أنه يريد بعولاه هنا ركن الدولة .

ووصل كتاب الأمير على عادته في تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِهِ ، والرفع من قدره و همته ،
بتصريفه على عوارض خدمته ، منبئاً عن استبشاره لما أنعم به موليانا^(١) على خادمهما
أبي العباس^(٢) أحمد بن إبراهيم ، إيعازاً إلى الكفاة ، من عطاء الدولة القاهرة ، وكبراء
الكتاب والحاشية ، في استقباله معظمين لمورده ، ومراعين في التخفف لموقعه ، إلى مارآه
مولانا — لا زال على الآراء ، مصرفاً أعنة القضاء — من تجليل مقدمه شرف تلقيه ،
وإلباس مدخله كرم تحفيّه ، ومثله لى الأمير من إنهاء مكان ذلك من نفسه ، لا زالت
محروسة في ظل الملك والقدرة ، إذ كانت بركة حضرته سبب هذا الجلال وهذه القربة ،
فلم أدر بأى مواهب الأمير عندي أثنى وأمدح ، ولا عن أيها أعرب وأفصح ، بأبعثاده
إيائى لمهمه ، أم بما قسم لخادمه ، أبي العباس أحمد من كريم همه ، أم بخطابه هذا الذى قمت
بفرضه ، وخدمت في حسن عرضه . وقد قلت في ذلك ما حسن إصغاء مولانا له ، وصادف
اهتزازة وتقبّله ، وقال ، حرس الله ملكه ، إن أبا العباس ، أيده الله ، وإن كان تليد
خدمتنا ، ووليد نعمتنا ، ومن خلّدت له في صحف رعايتنا التى لا تجارى إلى أمدها ، ولا يفتر
يومها عن الإشارة إلى غدها ، فإن الذى رسمناه به من ذلك المقام لمقتضى له من فضل
التقريب ، وقاض من مزيد الترتيب ، بما يوجب على الأيام ، قاصية الإنعام ، والغاية
المتناهية فى الإكرام .

وخادم الأمير مولاي أبو العباس ، لا زال فى كنف استخداميه ، وشرف ذمامه ، منذ
ورد ، فأورد فى المجلس العالى من وصف خصائص نعم الله التى سوّغها الأمير مولاي فاحتل
رُبّاهَا ، واختط ذراها ، من رأى جميع ، وصدر وسيع ، ومعرفة بالإيراد والإصدار ، وعلم
بالمراتب والأقدار ، واشتغال بخصال ، هن درج الكمال ، من حَزَامَةِ ثغنى السياسة بها
صادقة ، وفروسة كانت الفراسة بها سابقة ، وآداب نفس تحليها النحائز الكريمة ،
وتستوفىها الغرائز العظيمة ، إلى آداب مكتسبة ، هى تكملة للألباب ، وتبصرة للملوك
والأرباب ، وتنشر عن الأميرين ما يقتديان فيه بمولاي طلباً لآماد الاستقلال ، واستكمالاً

(١) فى الأصل : مولانا ، ولعله يقصد عضد الدولة ومؤيد الدولة .

عباد فى الوزارة ، وقد خدم فى دواوين البويهيين حتى وصل إلى هذه الرتبة .

(٢) هو أبو العباس الضبى ، خليفة صاحب بن

لحظوظ النجابة والإقبال . وأنا أحمد الله على مايسّرهُ ، وأشكر له على ما قدرهُ ، وأسأله أن يرى مولانا ، أعز الله رايته ، في الأمير مولاي والأميرين ما تخطبه همته الواطئة أخادع النجم ، السامية عن منازع الدهر ، وكنفه ، حرس الله ملكه ، عليهم ممتدّ ، وأزروهم بجميل رأيه مشدد ، فإن رأى أن يُصرّف عبده من أمره ونهيه ، على ما يقف عنده ، فعل ، إن شاء الله .

٧ — وله تشكر وتودد

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — وأحوالُ حضرة مولانا الملك منتظمة انتظام نعم الله عنده ، ومواقعُ آرائه مسعودة كما أسعد الله جدّه ، ومواهبُ الله لمولانا الأمير المؤيد متضمنة من العز أمنعه ، ومن الخير أوسعهُ ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير في تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِهِ ، والرفع من قدره وهمته ، بتصرفه على عوارض خدمته ، فلأني من منائح ما يرجع العدّ دون تقصيه^(١) وأحصائه ، وأولاني من فواضله ما يقصّر الحق قبل حقه وقضائه ، وبشّر من استجابة أمور حضرته ، لقضايا إرادته ، بما أنجز وعده الله تعالى في إدامة سعادته وزيادته ، ورغبت بأحب الوسائل لديه ، في إطالة بقاء الأمير ملكاً يُشيدّها ويعمرّها ، وعوارف يجدّها ويمهّدّها ، وسألت لنفسى التوفيق في فروض مولاته ومشايعته ، لأبشرها باستنفاد الطاقة ، واستغراق الوسع ، وتجريد النية ، وإخلاء الذرع ، والمستول قريب مجيب .

وانتهيت إلى الفصل بذكر فلان في مورده ومنصرفه ، وما قصده الأمير في إنفاذه ، وأنهاه في عوده إلى مركزه ، واستكثره — أدام الله عزه — من الإكرام الموجب له في وصوله ، وعند رجوعه . والأمير بما آتاه الله من الطبائع المتناهية في الكرم والسجاجة ، والأخلاق المستوفية للعظم والسماحة ، يعمد لكبير ما يوليه فيصغره ، وصغير ما يتوخّى رضاه فيه فيكبره ،

(١) في الأصل : تقضيه .

فِعْلٌ من يملك القلوب بفضله ، ويعمر الصدور بوده ، ويستوقف الألسنة على شكره ، ويشغل الأقوال بحمده .

وقد عرض ما ورد ، ووجدت مولانا يستعفى من استيفائه ، للبر المسرف في أثائه ، قال : إن ذلك الغلام صدر ، والاستقصار لما أُتِيَ في بابه يوجب تذكماً ، ويقتضى تندماً ، لولا أن التعويل واقع على ارتفاع العمل عند المشاركة السابقة ، واطراح التصنع مع المحالصة الصادقة . وأما الذى خصنى به الأمير من نتائج الفضل ، في هذا الفصل ، فمنظوم إلى أياديه التى توفرت علىّ حتى غمرت ، وتوالت إلىّ حتى عالت ، فأنا رفيق شكرها ، ورهين منّها ، أثنى عليها ما التأم^(١) الأمل ، وأشكر عنها ما أخر الأجل ، غير شاكّ في أنى لا أبلغ الأمد المقصود ، ولا أطبّق^(٢) الغرض المطلوب ، ولكن لكل عامل قدر اجتهاده ، ومزية غنمه واعتقاده ، حرس الله على الدنيا نضرتها وجدتها ، وعلى الخلائق عدتها وعمدتها ، بإطالة بقاء الأمير وإدامة نصره ، ومواصلة أيامه وإنفاذ أمره .

٨ - و—

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — غرة شهر رمضان ، جعل الله أيامه غُرّاً ، وأعوامه زهراً ، وأوقاته أسعاداً وساعاته أعياداً ، وآتاه في هذا الشهر الكريم مورده ومأتاه ، أفضل ما قسم فيه لمن تقبل أعماله ، فبلغه آماله ، فأصلح به وعلى يديه ، فحرس الله منامحه ومناجحه لديه . وأنباء الحضرة العالية واردة بما يظاهر الله للملك من نعم تحرس حريم الخلافة ، وتعود بفضلها على الكافة ، ومولانا الأمير بين تفضل من الله يديمه ، وحق من مصالح الدين والدنيا يقيمه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير قد ابتدأنى فيه من سابغ آلائه ، وفائض بره واقتضائه^(٣) ، بما لو وقفه مقسوماً بين أمم لوسعهم فضله ، وأثقلهم حمله ، وألجأهم إلى الإقرار بالعجز عن بلوغ قدره ، والاضطلاع لشكره ، عند ترافد قواهم وقُدَرهم ، واجتماع أولهم مع آخرهم ، فابتدأت بالحمد لله

(٣) في الأصل : واقتضائه .

(١) في الأصل هكذا : مالم .

(٢) أطبّق : أصيب .

عُدَّة الشاكرين وعمدتهم ، ومفرزهم في رخائهم وشدتهم ، وسألته أن يطيل بقاء الأمير الجليل كما جعله للإسلام عماداً ، وللشعور سِداداً ، وللملك يداً باسطة قابضة ، وللدين عيناً حارسة حافظة ، ليتملّ الدهور وأمره ممتلئ ، ورسمه متقبّل ، وغزوه مؤثّل

ولما استتمت قراءة ما شرفني بإصداره ، ووقفني على شكر إفضاله به وإيثاره ، أدّى إلى فلان ما تحمل عن الأمير من رسالته التي ملكني بها ملكاً مجدداً ، واسترقني معها استرقاقاً مؤبداً ، فخرت بين مفاخر تفرّج النجم ، وفواضل تكثّر القطر ، ولم أدر أتمكن من رأيه الشريف أسامى وأفخر ، أم بموضعي من إشفاقه الكريم أباهى وأكثر ، أم أشتغل بما أهلني له من أوصاف هي مستقاة من سعادة ملاحظته ، ومستملاة من زيادة محافظته ، وإذا كان الله تعالى قد نصب الأمير^(١) علماً حق ، وجعله لسان صدق ، وألبسه المجد قشيباً لا يُنهج ، وآتاه الكمال وافية لا يندج ، فلا عجب أن أفاض على بجزاهتمامه ، وساق إلى سحب إنعامه ، كما أودع ، تعالى ، قلبي من الإخلاص لأيامه ، بقدر ما بسط من لسان في الثناء على زمانه . هذا واعترافي بالعجز عن فرضه ، وانصرافي إلى التسليم لطوله ومنه ، يُعربان عنى ببيان يقول متى سكت ، وينوب متى أمسكت ؛ وقد حضر فلان مجلس مولانا ، فصادف ما أوصله ، ثم ما تحمله ، اعتداداً^(٢) اتسعت منافذه ومناججه ، وكثرت بواعثه ونتائجه ، لا زال هذا الحبل موصولاً ، وزاد الله النعمة فيه سُبوغاً وشمولاً ، وهو صادر في غد بإذن الله ، وسائر في كنف الكرامة بعون الله .

٩ - وله تشكر وتحدث بالنعمة

كتابي - أطل الله بقاء الأمير - ومواد البسطة والقدرة للملك السيد راهنة ، والدنيا لعالي رأيه دائنة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .
ووصل كتاب الأمير قد ألبس به عبده من حسن رائه ، بكرم ابتدائه ، ثوبا من العز لا يبليه الدهر ، ولا ينحسر عنه الفخر ، فكان المفزع إلى الدعاء ، شيمة تُخلص الصنائع والأولياء ؛ وقد قرعت باب السماء منه بما الله ولي استجابته ، والإجراء فيه على حسن عادته ، وما آخر كتابي عن حضرة الأمير تقصير - بالله العياذ منه - في خدمته ، ولا ذهاب عما

(٢) في الأصل : اعتذارا .

(١) في الأصل : للأمر .

لى من الشرف بإجابته ، إلا أنى خدمته — أدام الله علاه — خدمتى لمولانا ، فكتبتى لا ترد مجلسه الشريف إلا إذا بُسِطَتْ لها ، وكانت أجوبة لمهمات أستخدم فيها ، وإذ قد رأتى سيدنا أهلا لأدعى الحالين إلى التخصص ، وأبعدها عن التقبض ، فسأكتب متشرفا وأنتظر الجمل بالجواب مستشرفا بإذن الله .

فأما إنعام مولانا على عبده ، وصنيع يده ، واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره ، وخدود النجم مع سنايك خيله ، وتلقيه إياه بوزراء بابه وأمرأه أجناده ، وعظماء قواده ، متصرفين مع الإعظام ، ومتحفين فى اللقاء والسلام ، ثم [ما^(١)] رتبته به فى دخولى إلى الدار المعمورة بالعز ، وحضورى المجلس المحفوف بالملك ، والتبليغ إلى رتبة لم يقسمها — حرس الله ملكه — لأحد ممن غشى بابه المأمول من أطراف الأرض ، وأعيان الشرق والغرب ، واستجلاسى بحضرته التى يقف بها القمران ، على النواصى والهام ، إلى ضروب من الإنعام ، أستعظم — والله — وصفها ، وإن كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها ، فهو ما لا يرحب به إلا صدر من عضد الله دينه بعزته^(٢) ، وجعله تاج ملته ، وحكم بأن يملك الأقاليم بلا استثناء ، وتخدمه ملوكها بتطامن واستخذاء .

ولولا أن سيدنا يأنس لعبده بمارفع من ضبعه ، وبسط من يده ، إذ كانت النعمة من عند مولانا صَدْرُها ، وبغناية الأمير المؤيد توفرها ، وببركة سيدنا تيسرها ، وعند أعرق الخدم فى الدولة القاهرة تقررها ، لكان فى الشرح إخلال بأدب الخدمة ، وإسراف مع مُعْتَقَد الحشمة ، والله يطيل بقاء مولانا مصرفا الدنيا بجذافيرها ، ومستعليا على تقريرها وتديرها ، ويواصل أيام الأمير المؤيد للملك وحراسته ، والزمان وسياسته ، ويديم فى ظلها لسيدنا المواهب المنسوقة ، والمراتب المرموقة ، ويوفق عبدهم حفظ حمله بشكر يديمه ، وفرض للطاعة يقيمه ، إنه فعال لما يشاء .

١٠ — وله تشكر وإطراء

كتابتى — أطال الله بقاء مولاي صاحب الجيش — وما يمهده الله لمولانا الملك السيد من

عضد الدولة له ، وقد مر ذكر ذلك فى ص ١٦٣

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) يشير فى هذه الرسالة إلى استقبال

مراتب العز والمجد ، وقواعد العلو والملك ، مهني ماقد أتاني الله من منحه ، وملاني من نعمه ،
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش قد أجرى فيه من البر إلى ما يقصر الوصف عن تقصيه ،
ويتقاعد الشكر عن المفروض فيه ، وأنبا خطابه من خبر سلامته عما أجده من أخص مواهب
الله وأكرمها ، وأجل رغائبه وأعظمها ، لا زالت يد الله حامية عراضه وجنباته ، وعين الله
كاللثة أقطاره وجهاته ، إن الله تعالى كريم .

ووجدت صاحب الجيش قد كتب من تقر يظ فلان وإحماده ، وحسن تخففه ببابه ،
وبين يدي ركا به ، ما أطاع فيه شرف الشيم ، وأرسل به عنان الإحسان والكرم ، وكل
غاية يبلغها خادم ، وإن اكتنفه السداد ، ولم يقعد به جد واجتهاد ، تصغر عن أن يعيرها
صاحب الجيش فكره ، فضلا عن أن يتجشم لها ذكره ، ولكنه — أدام الله عزه —
لا يمتنع في مآثره ، ترفع لمتحرم بها عمادها ، وتعلو لمتخادم لها نجادها ، إلا بإياله منها أكثر مما يغلو
فيه التماسه وتمنيه ، ويرقى إليه اقتراحه وترجيه . وحالة أخرى أن صاحب الجيش يرمق جميع
ما يصدر ومن يصدر عن حضرتي بعين مودة قد وفر الله على موادها وقواها ، وأحصد
لى مرأثرها وعراها ، فهي إن رأت يسيرا كثرت ، وإن شاهدت دميما سترته ، والله يديم لى
ما سو غنى من حسن عهده الذى تزيده الأيام خلوص عقائد ، وصفاء موارد .

وكان كتاب فلان ورد بما ألبسه صاحب الجيش من أثواب التقريب والإكرام ، ثم
التحويل والإنعام ، وشرح ضروبا من ذلك أجد تكريرها ذهابا مع التصنيع ، وقد أغنى الله
عن تعاطيه ، وقضى بترك الإفاضة فيه . ومن استبدعت مكارمه ، واستغربت محامده ،
فصاحب الجيش مألوف المحامد ، معهود المناقب ، لتظاهرها وتواليها ، معوّد النفوس اتصال
أعجازها بهواديهها ، لا زال كذلك .

الباب الثالث عشر

في الاستزادة والتقريع وما يجري مجرى ذلك

١ - كتاب تقريع وإنذار

كتابي ومولانا متظاهراً أسباب السعادة والسلطان ، وعلو الشأن وسمو المكان ، وأنا بدولته سالم ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتابك ورد مع صاحبك فعرفت ما أوردت ، وتمثلت ما سردت ، وأنهيت من عَرْضِهِ إلى المجلس — حرسه الله — ما ظننته يعود بصلاح حالك ، وَيُقَسِّح بعض الطرق إلى آمالك ، ولكنك شديد التسرع إلى مالا تؤمن غائلته ، وكثير التقدم إلى مالا تحمد خاتمته ، ولا بد من أن أصدقك ، ثم أقضى — من بعد — حقك ، وأعرفك موضع ذلك ، ثم أبتدى^(١) لتقريب أملك . قد علمت أنك قدمت قديماً — في مبدأ ورودنا ، وبعد ذاك — هنات ، واغتررت في حالات ، ولو أوجبت دواعي التوفيق ، واجتمع مع الصواب في طريق ، لعمرت مكانك بالحضرة التي منها اصطناعك ، وغناها إقطاعك ، وفيها سعد أبوك ، رحمه الله ، ثم قدمت أنت ، أيدك الله ، وحين تباعدت عُذْتُ على وجه لم يخف منه ما حسبته عندنا مستورا ، ولم ينكم دوننا ما ظننته عنا مكتوما ، وقد جرى بموضع كذا ما جرى مرارا ، وقدمت على غير ذلك تحكما بالحلم واغترارا ، وتقدمت إلى غيرها فَأَنْظِرْتُ ، والآن فلا إنظار بعد الإنذار ، ولا اعتذار مع الإِعْذار .

وقد رسم مولاي بعد الضجر بما أُنْهِيَ من سوء معاملتك في تلك الضياع والبقاع التي لم ترسم بها ، ولم يُجْعَل لك يد في توسطها ، إخراج فلان إليك ، وتحميله ما يورده صريحا عليك ، فإن تكن من أبناء الخدمة الذين يعرفون لوازمها ، ويقىمون فرائضها ، نالك من الإحسان ما السعادة بمثله جارية ، في كل نقي الطوية ، سليم النية ، ولحقك على الأيام ، من مزيد الإِنعام ، ما يشرح الصدر ، ويرفع القدر . وإن قدرت أن المقارة تقع على ما أنت

(١) في الأصل : ابتدأت .

بسبيله ، فما أبعده من تقدير ، وأضله من تدبير ، وأنت حينئذ الجاني على نفسه ، الحيل
لصورته وحقه ، فقرر مع فلان ما قد اعتمد لتقريره ، فقد أوعز وأذن لي في جميعه ، واعمل
بالأمثلة التي رسمت ، وابن على الأمور التي قدرت ، وكاتبني بما يعين على صورتك ، فإن
الرغبة في اصطناعك بعثت على الإنباه لما رقدت ، والإذكار لما غفلت ، والله ولي التوفيق ،
وصلى الله على النبي محمد وآله أجمعين .

٢ — وله في تحذير العامة من الخوض في الأراجيف

إن الله تعالى مع عظيم حكمته ، وفسيح رحمته ، واستغناؤه عن الأمم ماضيها وباقيها ،
واستعلائه على الخلائق طائعا وعاصيا ، جعل لمواهبه فروضا من الشكر ، من أقامها وعظم
مَشْعَرها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبتها^(١) لديه ؛ ومن أساء جوارها راكبا هواه ، وأخفى
منارها ناكبا عن منحاه ، ارتجمها منه ، وانتزعها عنه ، وتركه مُثَلَّةً للناظرين ، وعبرة للغابرين ؛
بذلك جرت سنته في الأولين ، وتقدمت معذرتة إلى الآخرين ، ولنا في الأخذ بأدب الله
عذر لا يعتل ، وجَدَدٌ لا يختل ، وقوة لا تميل ، وأسوة لا تستميل ، والله الكافل لنا بأسد
الضرائب وأحمدها ، والمسَّهل لأرشد المذاهب وأسعدها ، له المنة ، وبه الحول والقوة .
وإذا تصفح أهل أصبهان ما فاض عليهم من بركات أيامنا ، وانصب إليهم من ثمرات
إنعامنا ، وكثر من خيراتهم في ظل سلطاننا ، وتوفر من سعاداتهم في كنف إحساننا ، حتى
عاد المرمِل غنيا مستظها ، والمُقَوَّى موسراً مكثراً ، والمستتر المُخْفَى لشخصه مباهايا بحاله ،
والمُنْقَبِض المكاتم لنفسه مساميا بحاله ، ومن كانت السلامة معظم مناه ، والأمن غاية ما يسمو
إليه مداه ، تشير إليه الأصابع وتنعطف عليه ، وتَفَيَّأُ أفناء الناس أفنية الخصب والدعة ،
بعد البؤس والمتربة^(٢) ، ونفسحوا في ضروب اللذات ، بعد التشحط في حصول الأقوات^(٣) ،
هذا إلى ما تعمدنا به صنفا صنفا من فضل امتد باعه ، ونظر اتسعت رباعه ، وتسويغ
كِبَر قدره ، وتخويل فِرْض شكره — علموا ، إن لم تكن البصائر مستعجمة ، والأبصار
مظلمة ، والأفهام كليلية ، والألباب عليلية ، أن أحدا من الولاة عليهم في قديم الدهر

(٣) في الأصل : الأوقات .

(١) في الأصل : وثبطها .

(٢) في الأصل : المسربة .

وحديثه ، وتليد الزمان وطريفه ، لم ينحلهم يسيرا من عظيم ما أسبغناه ، ولم يخل لهم عن قليل من كثير ما سَوَّغناه ، ولم تخف مؤن خلفائه وخدمه ، ووطأة أوليائه وحشمه ، الخفة التي نصبناها ورتبناها قبَّله ، فيمن يصرفهم عنا ويدبرهم ، ويوردهم عنا ويصدرهم ، ونراهم — أحسن الله هداهم — يتحركون بما يعيد بوارق الإحسان صواعق الانتقام ، وقوة البصيرة في الإنعام ، صدق عزيمة في الاصطلام ، وبالله العياذ من أن تخف الأحلام ، ويؤخذ بالنواصي والأقدام .

وعُرِضَتْ — أدام الله عزك — كتب حُكِي فيها إيضاح^(١) جمهور الرعية لديكم ، في أراجيف لا يشجع صدر الزمان ، بتفضل الله ، على تصديقها ، ولا تُقدِّم أفكار الأيام ، بإسعاد الله جدنا ، على تحقيقها ، من غير عذرٍ بَعَثَ ذلك وأوجبه ، ولا داعٍ طَرَّقَ إليه وسبَّبه ، غير سوء البطر والأشر ، وقلة التمييز والنظر ، والتمرس بالنقم السود ، والتعرض للحتف المرصود ، وأن يخلق بعضٌ فيصدق آخرون ، ويأفك زيد فيتبعه زيدون ، ويتلوهم الجميع في إشاعة الحديث غير باحثين عن منبعه ، ولا فاحصين عن مطالعه ، فلم ندر علام^(٢) أمورهم ، وبماذا نقابل جمهورهم ، والعراض — والله الحمد — ساكنة ، والنواحي آمنة ، والميامن راهنة ، والولاية دانية . ألم يعلموا أن الله العلي شانه ، القوى سلطانه^(٣) ، النافذ حكمه ، الماضي حتمه ، الذي يورث من يشاء ما يشاء ، قد ذلل لمولانا ولنافية إذراء^(٤) سلطانه ، وبعلاء شانه ، الأرض تهايمها ونجودها ، وحدورها وصعودها ، وسهلها ووعرها ، وبرها وبحرها ، وعراقها وشاماتها ، وأطرافها وعرصاتها ، وسهولها^(٥) وجبالها ، وموسوماتها وأغفالها ، وضرب على كل منحرف عن دعوتنا ، ومنصرف عن طاعتنا ، بالهلك والقلة ، والحين والذلة ، فمن مُعَجَّل إلى سواء الجحيم ، ومن مقيم على العذاب الأليم ، وذلك حين علم علام الغيوب أن سياستنا أرفق ، وحضارنا أسبق ، وباعنا أوسع ، وخيرنا أجمع ، والحق على أيدينا أعز نفيرا ، وأحوط منبرا وسريرا ، وأرحب نطاقا ومجالا ، وأكرم أنصارا ورجالا ، وذلك بفضل الذي يؤتيه من يريد ، وهو الحكيم المجيد ، فأية فسحة لإرجاف ملاقيح الفتن ، ومفاتيح الظلم ، وقد أيد

(١) في الأصل : إيضاح .

(٢) هكذا في الأصل ، ويتضح معنى العبارة

(٣) في الأصل : لإعلاء ، من الذروة .

(٤) في الأصل : وسولها .

(٥) في الأصل : لإيضاح .

(٦) هكذا في الأصل ، ويتضح معنى العبارة

بإضافة كلمة نذر أو نحوها

الله ونصر، ومهد وأقدر، ورفع الشعار وأعلن، وفتح الأمصار ومكن، فلاعدهو يخطر بباله غير الاستخذاء، ويعتلج في صدره سوى الارعواء.

ولولا أن الله ألبسنا الحلم والرحمة، ما نفعنا ولم يُغريا، ونجما ولم يغويا، لكان فيما أضبت عليه القوم من هذه الأراجيف، ما يُرجف عليهم ديارهم، ويضعق قلوبهم، ويُزهق أبصارهم ويُعقبهم من الإنكار، ما أقله يُسعر جمرات التقويم ويلهبها، ويؤرث نيران التشقيف ويثقبها، أو مادي الأغفال الجهال أن امرأ من أطراف الملك لو استزله الشيطان، فالتوى في الطاعة، وانزوى عن الجماعة، لذرت الرّيح واختطفته، ومحقة الخافة ونسفته، فلم نحتج بعون الله إلى تجشم حربه، ولم نحتنكه بغير أعوانه وحزبه، بل كانت الأقدار كافية في القضاء عليه، وسوق الفناء إليه. وهذه معذرة قد قدمت، ونذر قد أبرمت، فمن عاد فيما أنكر، وفاه بما حظر، فعليه وزر ما يناله. وإثم ما يغتاله، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له، وما لهم من دونه من وال. فرأيك في إشاعة هذا الإنذار، ليصير مآدبة للكافر، وحافظا عادتنا في المرحمة والرأفة، قبل أن تضطر فريضة السياسة إلى ما تصلاه العامة مع الخاصة -- موقفاً.

٣ — وله في زجر السفهاء من العوام وإنذارهم بعد تعدد النعم عليهم

أنت، أدام الله عزك، تعلم أن إحسان السلطان، إذا امتدت ظلاله، وشاع اتصاله، وكثرت أعداده، وتوالت أمداده، فصادف نفوساً شاكرة، وألسنة ناشرة، وقلوباً عارفة بحق الإنعام، وصعدوراً منشرحة بفرض الإكرام، نى على الأيام وتظاهر، وتوالى على الزمان وتناصر، وإذا أغرى بالاجترأ على ما يُحظر، والإقدام على ما يُنكر، وصار داعية الجحود، ومؤذناً بسوء الغموط، لم يلبث أن يُرتجع، ولم يمكث أن يُنتزع، وصار عارية استردت حين قلقت في ممر الخيانة، لا عارفة خلدت وأنست في مقر الصيانة.

ولئن كانت نعم مولانا على الرعايا مبسوطة لا تُقبض، وفائضة لا تُحبس، وسابغة لا تُقصر، ومبرمة لا تُنقض، إن الذي قسم منها لأهل قم^(١)، لأفسح مذاهب ومشارع، وأوسع مشارب ومناوح، وأمنع جوانب ومسارح، فقد جمع لهم بين الإنصاف الموفور، والنظر

(١) مدينة فارسية كبيرة بين أصبهان وطهران، إلى الجنوب على طريق أصبهان.

المبدول ، وألغيت فيهم أقوال المتنصحين ، وترك تتبع ما يرفع عليهم من الاستدراك العظيم ، ثم أريحوا ممن كان يطمع في أملا كههم ، ويحرص على احتنا كههم ، ويتبسط عليهم صارفاً ومصرفاً ، ويستنزلهم عن معاشهم والياً ومعزولاً ، وردَّ النظر في أمرهم إليك مع ظلفك عن الطعم التي كانت تُسِف وجوه الضمناء والعمال ، وأكابر المتولين لتيك الأعمال . وسمحتُ لك في البعد عن حضرتي رفقا بهم ، ونظراً لهم ، فهل من حق هذه المواهب البيض ، وهذا الإحسان المستفيض ، بلوغ الجرأة بأراذل المحترفة وأذئاب السفلة ، إلى أن يرَد فلان الحاحب البلد مجتازاً ، وقد ضُمَّ إليه أكابر القواد ووجوه الغلمان والخواص ، فيتوثَّب على غلمانه ، ويُقدِّم على أصحابه ، ولا يُقنَع بذلك حتى يكون منهم اجتماع وتناصر ، واتفاق وتنافر ، وإجراء إلى ما يقبح ذكره ، ويعظم نشره .

ولولا أني رغبت إلى مولانا في إقالتهم هذه الدفعة ، لتقوم الحجة بالردع ، ويفرط الإنذار بالزجر ، نخرج فيهم من نافذ الأمر ما يقيم الميل ، ويُعرِّف الصراط المستقيم ، ويُنسى التغاوى الذي قد صار شعار كثير من أهل تلك الديار . غير أني جعلت الوسيلة في استعطاف رأى مولانا — لا زال عالياً — ما رَهَن من مواصلة لديهم ، وسبق من منائحهم إليهم ، وشفعت في أن تُحمى تلك المنن عن كدر يعترض صفوها ، وتنغيص يجهد عفوها ، فأجراني — حرّس الله أيامه — على عادة الإيجاب ، بعد إلحاحي في المسألة والارتقاب ؛ إذ كان مولانا — حفظ الله على الدنيا ظله ، وهناً أهلها عدله — كما ينظر ويحسن ، ويُفضل ويُنعم ، فكذلك يوقِّف ويثقف ، ويعاقب ويهذب ، أخذاً بأدب الله تعالى في الحالين : إنعاماً وانتقاماً ، وإفضالاً واصطلاماً .

وبذلك البلد — والله الحمد — من سادتي الأشراف ومشايخي من أهل العلم والتناهي^(١) من قد صانه الله عن هذه المداخل الذميمة ، والمواقف المليمية ، وإنما العتب عليهم إذ لم يأخذوا على أيدي السفهاء ، ولم يزجروا ما بينهم من الأدنياء ، ولم تَحُلْ — أدام الله عزك — من عتب واستزادة ، حين لم توعز في تقويم الجناة ، وعرضهم على النقمات ، نهياً لأمثالهم ، عن التشبه بأفعالهم ، وقد اعتذرت عنك بما كاد ينقبض ، حتى تأتيت لبسطه ، واعتنيت

(١) في الأصل : والتناهي .

بالكشف عن وجهه ، فأعرض كتابي على الجماعة ، ليتنبه راقدها ، ويتقوّم مائدها ، ويفرق ذاهلها ، ويتثقف مائلها ، فلئن بدرت من بعد جناية ، لتفحشَن النكاية ، ولئن اقترفت جريمة ، لتصدُرَنَّ العزيمة ، والله وليّ التوفيق والتسديد ، إنه خير مبدئٍ ومعيد .

٤ — وله في إنذار وتحذير من حل وثاق مأسورين

من أهل العبث والفساد

كتابي ونعم الله عند مولانا مشفوعة بتظاهر العز والعلو ، ورفع الولي وكبت العدو ، وأنا في ظله الظليل ، ورأيه الجليل ، مكنوف بالعافية ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وصلت لك كتب ووقفت على مودعها ، وعرضت ماوجب عرضه في المجلس العالي منها ، وكان من أحسنها موقعاً ، وأحمدها مطالعاً ، وأطيبها خبراً ، وأجملها أثراً ، قبضك على هؤلاء النفوس الذين ارتضعوا درّ الفساد ، وكانوا السبب في جرأة سائر الأكراد . ورسمت في كل وقت لفلان مكاتبتك بما تعلم أنه صادر عن لفظي ، ونافذ عن اهتمام صادق مني ، واحتيج الآن إلى مكاتبتك في بابٍ هو من مراعاة مولانا ببال ، ومن ملاحظته ببيان ، وقد وكّد — أعز الله نصره — على القول في مكاتبتك مطيلاً ، وعظمتك كثيراً ، وأن أتبع الأمر وعيداً ، والنهي تحذيراً .

هؤلاء القوم ، الذين قبضت عليهم ، باعتقالهم قل الفساد بعد كثرتهم ، وخف الشر بعد شدته ، ودخلت قلوب أمثالهم هيبة ضمت أطرافهم ، وحسمت أطماعهم ، وقد حظر مولانا عليك الفكر في إطلاقهم ، وحل وثاقهم ، والاشتغال بأخذ الرهائن — وإن كانت أرواحهم — منهم ، فإنك إن فعلت ذلك ، فقد قت — والعياذ بالله — مقام من عرفه وليّ نعمته ، ومالك مهجته ، ما يؤثره ، فعدل إلى إثارة نفسه ، وأخلّ بما نفذ من عالى أمره .

وأقول مع هذا : متى أفرجت عن واحد من هذه الجماعة فقد أوحشتني ، وتذممت إلى وقابلت ظني فيك بما لا تستحقه عنايتي عليك ، وأنا عالم أن هذا الخطاب أو بعضه لو كان في معنى أولادك لما أخرت الارتسام ، ولا أجلت الامتثال ، فليأتني منك في جواب هذا الكتاب ما أعرضه في المجلس مصادفاً للإجماع الكثير ، والموضع اللطيف . وفلان لا بأس

إن ورد الحضرة البهية ليؤدى عنك في وروده ، وإليك في رجوعه ، فهاهنا مهماتٌ شرحها لك يشرح صدرك ، ويبسط أملك . وهذا فصل يشرحه فلان ، فراعني بكتبك وأخبارك إن شاء الله .

٥ — واه

كتابي — أيها الحكيم سيدى ! — كتاب عاتب عليك ، شاك منك إليك ، فإنك ضعيف العقيدة والعقدة ، قصير المدة في حفظ المودة ، قليل الفكر في حالتى صلتك وهجرانك ، خفيف الذكر لطبقتى أكابرك وإخوانك ، إذا زجيت بالكسل يومك ، لم^(١) تعرّج على من يطيل لومك ، وإذا^(٢) أدرجت بالملل وقتك ، لم تلتفت إلى ما يطيل مقتك .
ولولا شغلى الذى قد أجارك من عتب لا السيف يبلغ حدّه ، ولا السنان يسدّ مسدّه ، لو هبت لك ساعة من نهارى ، فتعلم كيف أقصّ بسوء عهدك ، وأترك سيرتك عظة من بعدك ، ولكن ما فعل ووقتي منهوب بأيدي الأعمال ، وزمانى مأخوذ بين الحل والترحال ، أتستجيز أن يتألم مولانا — أدام الله ملكه ، وقدم العالم قبله فديةً له — فتطوى عنى خبره حتى أتبدل فى أمرى ، وأتبرّم بعمرى ، وأكاد أخالف معتقدى ، وأجنى على نفسى بيدي ، ثم يئنّ الله تعالى بعافيته ، أدامها الله ماعرف الدوام ، وتعاقبت الليالى والأيام ، فلا تكون آخر الخبرين إذا لم تكن أول المبشرين .

إنك لجاسى الطمع ، قاسى القلب ، دميم السعاة ، قليل المراعاة ، فبالله لقد مضت بي فى تلك الأيام ساعات كانت الأمنية فيها طروق المنية ، لئلا يقرع سمعى أن الشكاة انتهت بولى نعمتى ، ومالك مهجتي ، إلى ذلك الحد ، وجسمه ، وقاه الله بى ثم بالناس جميعاً ، دُفع إلى ذلك الأمد المشتد ، والحمد لله الذى كشف البلوى ، وأسبغ النعمى .

فأما حديث أبى العباس فكيف ألومك عليه ، وأشكوك فيه ، إذ كنت قد استجزت التقصير فى الأهم من خبر مولانا — أطل الله بقاءه ، وجعل كافتنا وقاه — وهل يلام تارك الفرض على تأخير النفل ، والمماطل بالحق على التضجيع فى الفضل ، وأنا أوئل أن يكون انتقاله عن الهوى الجانى على نفسه ، سبباً لصحته وانحسار السقم بإذن الله .

(١) فى الأصل : علم .

(٢) فى الاصل : فإذا .

لعلك تحسبني يا أبا الحسن قلت فاشتفيت ، وأطلت فاكثفت ، كلا ! فقد حملتني من جفائك كلاً لم أحسبه ، وقسمت لي من ضعف وفائك حظاً لم أرتقبه ، والظن يخطئ مرة ويصيب ، والتوفيق يحضر ويغيب ، وسنلتني فأقول وتسمع ، وأصول بالعتب فتشجع ، أو أجرى على رسمى في احتمالك ، وأعمل حلمي في مقابلة إهمالك ؛ إن شاء الله .

٦ - واه

قد نجم — أطال الله بقاء سيدي — بأصهبان من الإرجاف مالا سبب يقتضيه ، ولا غرض يستوجبه ويستدعيه ، إلا كفران النعمة ، والترس بعدوان الدولة ، وبالله العياذ من الأخذ بالسمع والأبصار ، من سوء البصائر والأفكار .

وقد كان الإنذار سبق في بعض السنين بما حسبناه ينبه القوم من سنتهم ، ويأخذهم عن دميم سنتهم ، وبلغني الآن ما إن لم يتلاف أشفقت على أتباع الجهل من عدوة تركهم بالعدوة القصوى ، وتعرضهم للتي هي أشنع وأخزى . وأطلعت سيدي على ما أنهى وحكى ، ليكون من وراء التدارك لما جني ورقي ، فقد تخوض العوام في الإرجاف إذا وقع نُكر في طرف من الأطراف ، فأما إذا كان النصر — بتفضل الله — عزيزاً مبيناً ، والحبل حصيفاً متيناً ، والملك باسطاً ذراعيه يميناً وشمالاً ، ضارباً رواقه ^(١) سهولاً وجبالاً ، فما الفكر في توليد الأباطيل إلا التحكك بالثوب السود ، والتحقق بسوء في الغموط والجحود .

ومولاي ينكر ما أنكرته بما يعم ويخص ، ويثلم ويمس ، فإن يكن في القول مقنع ، وفي العتب مردع ، وإلا فليوعز بإذكاء العيون ونصب الآذان ، على من يفوه ببُنيات الجهل ، ويستوخم جوار الإحسان ، فإذا ظفر بالواحد منهم أنهكه عقوبة ، وجعل للسياط في ظهره مشارع مورودة ، كيلا يفسد الشر ، فيصلي بنار الغواة البراء الذين طريقتهم الاستقامة ، وُبغيتهم السلامة ، إذ كان غير محتمل أن تكون الري ^(٢) ، وهي دار المملكة ، ومقر الدعوة ،

(١) في الاصل : واقية . وأطلأها معروفة اليوم على مقربة من طهران ،

(٢) مدينة كان لها شأن في العصور الإسلامية ، والنسبة إليها رازی .

ومجمع الراعى والرعية ، لا تُسَمَّع فيها كلمة عوراء ، ولا تَخْبِطُ على السنة عوامها عشواء . وأهل أصبهان وهم فى حَجَرَة من الأرض تتناوب عليهم شمس الإنعام وقر العدل ، ثم يلفظ أحدهم بالعظيمة فيما لا يعلم ، ويَهْمِز بما يُسَلِّم صاحبه فلا يُسَلِّم . جعلنا الله ممن لا يحيل بوارق الخير بوائق بقلة شكره ، ولا يعيد عوارض الأمن صواعق بكفرانه وكفره ، والسلام .

٧ — وله إنكار على عامل ظهر منه تقصير

قد علمتُ أنك قصرت فى عدة أبواب وأهملت وضيعت ، وإنى أول ورودك تلك الناحية عرّفتك أن القوم يستلينون عريكتك ، وسبيلك أن تتشدد عليهم لئلا تتوى الحقوق . فأغفلت حتى تجرأ القوم ؛ وكان من بنى فلان ما كان من كسر الحبس ، وخرق الهيبة ، ومنع السوق من الجلوس ، فرُسم فى أمرهم مارسم ، واحتيج إلى عزل فلان ، وحبس الجميع .

ولما ورد فلان اعتذر لك بما تقصّر عن الاعتذار بمثله ، واستعاد لك من الإيجاب ما بعد أن تجاب إليه ، فارفع طرفك ، وتلاف أمرك ، وقدم على كل أمرٍ رَفَعَ حسابك ، ليُعرف موضع قدمك ، وثق كيف جرت الحال ، بأن عنايتي تصدق بك ، ورعايتي لا تنحرف عنك . وإنى أوجب بموقعك من فلان ، من حَقِّك ما يقوم بإزاء تقصيراتك ، إذا تلافيت وتداركت ، واستدركت ما أضعت .

٨ — وله إنكار وتقرير

كتابي وإن كنت أعلم أن الكتاب ضائع مع انصراف التوفيق عنك ، ومصاحبة الخذلان لك ، واستمرار العجز بك ، وظهور القصور والمهانة فيك ، إذ وليت تلك الناحية هذه المدة القصيرة ، فصار كلاها أسوداً عادية ، استلانة لجانبك ، وعلماً بتحريك في مذاهبك . مَنْ بنو لاحق السقاط الأوغاد ؟ حتى يشجعوا لما فعلوا ، ويقدموا على ما أتوا ، ويستجيشوا بالعامّة فى حكومة بينهم وبين القاضى . ومرة يكسرون الحبس ، وهو حبس السلطان ، وتارة يحوجون القاضى إلى مفارقة البلد ، ثم لا يقنعهم هذا التسلط والتبسط حتى يتلقوا أبا الجيش — أيده الله — مستغيثين متظلمين ، موعزين إلى أهل البلد بإغلاق الدكاكين .

ولو كنت ذا رُوح أو نفس أو مُنَّة ، لما جسر هؤلاء على أن يحكموا بهذا ، ولو رأوه في منامهم ، لأصبحوا وقد زهقت أرواحهم وجلا . والله يعلم أنك كنت كاتب القبض لأبي فلان متخلفاً ، فكيف إذا أخذت تسوس ؟ فإن كفايتك ظهرت في كل باب ، ودليل ذلك ما أحوجت إليه في هذا الحمل ^(١) الذي أصدرته ، من استدانة واستعانة واستسلاف ، لا بارك الله في عجزه الرجال .

وأعجب ما مرَّ بي أنك لم تخاطب حضرتي حتى الآن بحرف واحد ، وقد كاتبت منذ شهر ، ورسمت في هذا الباب رسوما ، فلا والله إن أجبت بلفظ وقد كنت أحسب للقاضي أبي الحسن ذنباً ، فصح عندي بما أتاه بنو لاحق ثانياً ، أن الجريرة كلها لاصقة بهم ، والفتنة نائرة عنهم ، وقد كتبت إلى أبي الجيش أساتكين بما تقف عليه ، وترسمه ، فاقبض على معاش بني لاحق أجمع ، من ضياعهم ومستغلاتهم ، ودبرها مع خاص السلطان ، وأشخصهم إلى أصبهان ، كما رسم لأبي الجيش ؛ ومن تعصَّب لهم ، أو ثار في الفتنة معهم ، فذلَّ أبا الجيش عليه ، ليصرف هذه الطائفة بين التجريد للسياط ، والتغريم في المال ^(٢) ، وإن كان من العامة من ينطق بعد ورود الأمر الجزم فليُضَلَّب على باب البلد ، والسلام .

٩ - وله

قد علمت — أدام الله عزك — أن السياسة تُحرس أحكامها ، عن جرأة الخاصة وإقدامها ، فكيف عن تبسُّط أصاغر الرعية وعوامِّها ، وأن من لم يثقفه الزجر بالموعظة ، نُبِّه بالعقوبة الموقظة ، ومن لم يقوِّمه القول الرادع ، أفيض عليه العقاب اللامع ، وكنا نحسبك تعرف سيرتنا فيمن أثار للفتنة ناراً ، ورفع للشر مناراً . هذا في الأمصار الممصرة ، والبلدان المكورة ، فكيف في أصغر بلد ، وأقل عدد .

وعرض قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، أدام الله تأييده ، كتاب خليفته أبي طاهر الفقيه بناحيته على الحكم ^(٣) ، أسعده الله ، بذكر عظيم ما اجتراً قوم من الرعايا عليه ، وأجروا بسوء اختيارهم إليه . وإن المعروفين بابن حماد وابن علوية أخلا

(٣) يريد خليفته على الحكم .

(١) الحمل : مال السلطان .

(٢) في الأصل : الحال .

بالبلد زائدين في هَيْج الأوغاد ، ومغترين بما سبق لهما في سالف الآماد . وورد لك كتاب بهذا الذكر ، دل على سوء التأتى لما وجب ؛ وقلة التهدى لما لزم ؛ وسائر ممالكنا شرقاً وغرباً أفسح بقاعاً ، وأوسع رقاعاً ، وأكثر أصنافاً ، وأشد خلافاً ، ولا اعتراض لذى مذهب على صاحبه ، بل كل فرقة تجتمع إلى زعمائها ، وتذهب إلى مذاهبها وآرائها ، فلا تشجع واحدة على منع الأخرى ، وإكراهها على القول بما تهوى . وكان سبيلك أن تعمد إلى عشرة من هؤلاء الشُّقَّاط ، فتمشق في ظهورهم بالسياط ، وتنفيهم عن البلد نفياً لا أوب معه ، ولا رجوع بعده . وأما هذان اللذان أخلاً ، فقد كان الوجه أن تتبعهما بمن يخرجهما إلى الحضرة ، مستوثقاً منهما ليدوقا وبال الفتنة ، ويعرفا مغبة سوء الدخلة ، وتقبض على دورهما ، وتحلّ مثل ذلك بأشياعهما وأوباشهما .

ولولا أننا نرى البُقياء أولى ما نفعت ، والرحمة أخرى^(١) ما نجعت ، لكتبنا في أمر هؤلاء بما يجعلهم آية لكل جاهل بأمره ، معتد لطوره ، ألا تعلم هذه الطائفة أن الحاكم إذا صدر من حضرته فيده أعلى من كل يد ، وطاعته فرض على أهل البلد ، وأن المعارض له قد أباح من نفسه المحذور ، وجلب عليها التبار والثبور . ثم هذه المذاهب لا إيجاب فيها ، من شاء اختار منها ما شاء ، سر ذلك صاحبها أم ساء ، والاختلاف فيها موروث على الأيام ، منقول على وجه الزمان . وهذه تذكرة وتبصرة ، وحجة ومعدرة ، فليقابل الجناة بما توجبه السياسة ، ثم من عاد لما أنكرنا ، وأقدم على ما حذرنا ، فانظر كيف ترزّل روحه في جسمه ، وأرضه من تحته . وليكن أبو طاهر — أسعده الله — وسائر ذوى المجلس على جهاتهم قبل هذه الفتنة ؛ وليرد كتابك بارتسامك لهذه الجملة ، إن شاء الله تعالى .

١٠ — وله إلى أبي عيسى^(٢) الكردي

كتابى — أطال الله بقاءك — ومولانا ، أدام الله أيامه ، وهناه إعزازة وإنعامه ، كما تخطبه همته العالية ، وتوجهه كلمته السامية ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

(١) في الأصل : أخرى .

ابن الأثير ٩/١٥٠ .

(٢) لعله أبو عيسى بن بدر بن حسويه . انظر

وهذا الكتاب أنشأته في أمر اختص بعناية مولانا ومراعاته ، وعدّه في خاص مهماته ، فتدبره شديداً ، وتبصره مبدئاً ومعيداً ، واصبر على ما يثقل حمله ، ويخشن مسّه ، فإنه مؤدّر إلى صلاحك ، ومفضّ إلى انتظام أحوالك ، فلا خير في مستلذ أعقب مكروهاً ، كما لا خير في متكرّه جلب محبوباً .

أنت — أيدك الله — تعلم أن الأمر الذي أراذك له مولانا بديناً ، وبذلت من نفسك مبدئاً ، حماية السبل ، وحراسة الطرق ، وحياطة الأطراف ، وتطهير الأطرار^(١) ، لئلا يشتغل سائر عساكر السلطان عما هو أخص بخدمتهم ، وأولى بكدهم وملازمهم . والأمر في جميع ذلك جارٍ على خلاف ما أُصّل ، وغير مقلدٍّ وأُمّل ، فإن حاجتنا تشتد إلى إمدادك برجال ، تلزمنّا على إنهاضهم أموال بعد أموال ، وقد فعلنا هذا سنة بعد أخرى ، وثانية عقب أولى ، ثم الحال لا يخرج بالكيف ، فإن المسالك آمنة ، والمدارج هادية ، وأبواب العيث مقبوضة ، ومواد الفساد مرفوعة ، مادمت بالبعد ، فما هو إلا أن تدنو أحنأوك وأحويك^(٢) حتى ينبجم الشر ، طائر الشرر ، متصل الضرر ، فتخاف المذاهب ، وتراع المسارب ، ويقطع على الرفق ، وتحتنك أبناء الطرق ، وتبسط اليد على الضياع بالإجحاف ، وعلى الأكرّة بالاعتساف ، وتسلب^(٣) المزارع ، وتخرب المصانع ، والسلطان لا يعبر لك على أن يدّر إنعامه ، ويستمر إكرامه ، ويتزايد اصطناعه ، ويتصل نظره وإقطاعه ، وثمره انتفاعه بخدمتك ، واستظهاره بمناصحتك ، أن يحتاج طول المصيف إلى الذب عنك بخواص غلمانك ، وخلّص أجناده ، فإذا دفع في نحور الباغين لك السوء ، كرّ أصحابك على الرساتيق بالإفساد ، وعلى القرى بالخراب ، وعلى الطرق بالإخافة ، وعلى الأموال بالإحاطة .

وهذه الكتب قد وّالت من قم بأن الناحية التي وردتموها قد انتسفت ، وأن ارتفاعاتها قد أبطلت ، والأيدى على مزارعها قد بسطت ، وتعدى الشر والضرر إلى الطرق بين قم والحضرة الجليلة ، فما سمع فيها بقطع منذ تراخت ديارك ، وبعُد أصحابك ، فلما انكفأت عاد الشر جذعاً ، والقطع مُقتبلاً . وهاهنا عذرٌ يتعلقون به كان يتلبس وقتاً ، ويتموّه دهرأ ، وقد صار الآن بإخلاقه لا تخفى صورته ، ولا تغمض صفحته ، فإنكم تحيلون على

لأصحابه وتابعيه .

(٣) في الأصل : تسكن .

(١) الأطرار : الأطراف .

(٢) الأحناء جمع حنو وهو الضلع ، والأحوية

جمع حوية ، وهي ما تحوى من الأمعاء . استعارها

البرزيكان^(١) ، فمن ليت شعري يسمع هذا ويصغى إليه ، أو يعاباً به أو يعول عليه ، بعد ما عُرِف في عام بعد عام كيف الطريقة ، وما الشاكلة والجديلة ، وليت شعري أن لا يرد البرزيكان مع بعاذك ، وإنما يشارفون أوان اقترابك !

ورسم مولانا أن أخاطبك خطاباً أستوفيه وأستقصيه ، وألغى الهوادة فيه ، لتروى في نفسك ، وتستحضر جوامع لبك ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتعجل إلى معالجة دائه ، قبل أن يستفحل فيفضل ، ويكثر فيغمر ، وتكف أصحابك إن كانوا^(٢) غامسين أيديهم معك في الطاعة ، ومجتمعين على^(٣) فرض الجماعة ، وإن يكونوا عاصين ، وعنك متباينين ، ولما تأمرهم به مخالفين ، برأت نفسك من عيوبهم ، وأخلت صحيفتك من ذنوبهم ، وأعلمت ولي نعمتك ، أطل الله بقاءه ، الذين حوربوا ذهاباً مع الضلال ، وتعرضاً للوبال ، فإنه — أدام الله علوه — إذا هم بهم لحظة أخذهم الفناء قبل آجالهم ، وأصفت البقاع والبلاد على استئصالهم ، وأوغر في إحلال النقات بهم ، وإعداد المثلات لهم ، بما تعود في نظرائهم ، وعهد في أكفائهم ، حين راغوا عن الحججة القويمية ، وزاغوا إلى الطريقة الذميمة ، وكتب عليهم القتل والإسار ، أو النفي والحصار .

ولو أطلعتني عليهم^(٤) لكان كثير ممن يشمخ عليك بأنفه مُقَيِّداً ، ولقيد^(٥) مخالفك من جسمه مصفداً . وقد كفلت عنك في المجلس المعمور ، وقلت إنك تبذل غاية المجهود ، وتصرف القوم عن هذا المسلك المذموم ، وتقوم بحماية قم وآبة ، وما ينشعب إليهما وغهما من طريق ، فلا يُسمع بداعر ، ولا يُخبر عن مفسد ولا فاسد ، ولا أحسبك تدع ضماني مرهونا حتى ترجعه بالاجتهاد مفسكوكا . وأنا أتوقع الجواب ، فلا تعول على خطاب خال تسطره ، وكلام عار تُصدِّره ، واقرن المقال بالفعال ، وقابل الأمر بالامثال ، إن شاء الله عز وجل .

(٤) في الأصل : عليه .

(٥) قيد من جسمه : أخذ القود من جسمه ،

وفي الأصل : بقيد .

(١) البرزيكان : جماعة من الأكراد ، انظر

ابن الأثير طبع أوروبا ٥١٨/٨ .

(٢) في الأصل : كان .

(٣) في الأصل : عن .

الباب الرابع عشر

فى التنصل والاسترضاء وما يشا كل ذلك

١ — كتاب استعطاف وتشكر واسترضاء وتنصل

قد عُرِضَ ما ورد منك فى المجلس العالى ، فأنسَ مولانا لما نشرته عن الأمير جملا وتفصيلا ، وابتداءً وترديداً ، أنساً لا يُضَمُّ قطراه ، ولا يُذَكُّ مداه ، وسرّه — أدام الله له المسارَ ، وأحمده العواقب والمغابَّ — ما أبنت عنه من تمثل الحال فى الاعتقاد والاعتداد ، وصحة النية والوداد ، فذلك ما كان إرخاء السجوف دونه قد شغل القلوب ، وأخرج الصدور . وأما الذى تصرف فيه الأمير من تلك الأقوال الكريمة ، والمحادثات الشريفة ، فهو وإن جاوز الاقتصاد إلى أبعد غاية ، وأبلغ نهاية ، فى السرف ، فغير مستبدع مع كرم النَجَر ، وشرف الطبع ، ومساعدة الإقبال ، ومقارنة التوفيق فى كل حال . والله يحمى هذه الوشائج عن لواحق الأيام ، وعوارض الأزمان ، ويجعل من تَثَقُلِ عليه ، ولا تُحَبِّبِ إليه ، نَهَبَ الصروف المتقسمة ، والخطوب المتوزعة ، بمنه .

وارتفع طرفى ، واشتدَّ أزرى لما ذكرت أنك أنهيته مجلياً عن عقدى ، ومودع صدرى ، وأنت تعلم بطول الصحبة لى ، وفضل الأنس عندي ، أنه لأحد من قريب وغريب ، كانت تلك العوارض على قلبه أشد ، وعلى نفسه أشق ، منى ؛ وأن صورتي كانت ، لما بعدُ تصوّرها ، وتراخى تقرّرها ، صورة المأخوذ عن نفسه ، المفرّق بينه وبين قلبه ؛ وأن همى أجمعه ، وقصدي كله ، وشغلى معظمه ، بما زاد الأعداء قذًى وعوراً ؛ وأنى أوتر فى خدمة الأمير ما أوتره فى خدمة مولانا ، ولكنى الرجل الذى يؤمن كيف يُؤتى من اختلاف الحساد ، واختراع ذوى الإفساد ، وإن كان الله قد عود أن يكشف مكرهم ، ويحقق بهم خترهم ، ويظهر لموليننا أنى الأنصح جَيِّباً ، الأحمَد غَيِّباً .

وفلان قد عرفت ما حكيتُه عنه ، وقررت ما وصفته منه ، فجزاه مولانا الخير عن حق أداه ، وصدقٍ أنهاه ، وصلاح ابتغاه ، وخير اعتمده ونواه . فأما اعتدادى بما خصنى به ذكرا ،

وقولا صدقا ، فعلى حسب ارتياحي^(١) متى تمثل اعتقادي على حقه ، وارتياعى متى حُرِّف
عن وجهه .

٢ — وله فى إبطال متوهم الظن والإبانة عن السكون

إلى وكيد الوفاء والعقد

تخيّل الأمير منى ارتيابا بعصم عهده ، وفى التقدير عدل وظلم ، وظنّ بى امتراء بكرم
وعده ، وبعض الظن إثم ، ولو حال القمر عن مسراه ، وحرار الفلك فى مجراه ، لما جوّزت
على بذله بخلا ، ولا تمثلت من عقده حلا ، إذ الأمير أفسح فى الحزم مذهبا ، وأعلى فى العز
مرقباً ، من أن يُمرَّ أسباب الفضل ثم ينقضها ، ويمد أطناب البر ثم يقرضها ، كلا ! ومن
جعل المحاسن محبوسة على مجده ، والمحامد منقوصة حتى كملها بيده ، ولكنى أعظم ما وهب
الله منه ، فأبخل برأيه على هُجّة التكدير^(٢) ، وأغار على وفائه من جرأة المقادير ، وولوع
الشفيق بسوء الظن داء قديم — ومعاذ الله — بل دواء كريم .

فأما المهم الذى أشار مولاي إليه ، واستخلف منابى عليه ، فإنى فيه عند حكمه ، وعبد
رسمه ، ولوقدّرت ثم سخّرت النجوم ، مهديا سعودها إليه ، ومُغْرِياً نحوسها بمن يميل عليه ،
لظننتنى — بعدُ — قريبَ المطلب ، قصيرَ الباع والمنكب ، فلينعم مولاي بمكاتبتى أمرا
ونهيًا ، يحمّدنى جدًّا وسعيا ، إن شاء الله .

٣ — وله تنصّل واعتذار وتشكر

كتابى — أطال الله بقاء الملك — عن سعادة مولانا الأمير المؤيد وانتظام أمور
ملكه ، وانقياد مادنا ونأى لأمره ، وعافيتى فى كتف عزه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته
على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الملك قد تفضل بابتدائه ، زائداً فيما أشكر من جميل رائه ، فحمدت الله
على ما رهن بحضرته ، من خصائص نعمته ، ورغبت إليه فى إطالة مدته ، لمكرمة يستأنفها ،

(١) فى الأصل : ارتياعى .

(٢) فى الأصل التكرير .

بعد أخرى يُسَلِّفها ، ومنقبة يستقبلها ، بعد مأثرة يحصلها ، والله سميع مجيب .
ولو أدبت الفرض غير معولٍ على ما يعرفه الملك من عقيدتي في مشايعته ، ونيقي في متابعته ، لكانت كتي تتصل إلى بابه ، ورسلي تحطّ بجنابه ، على اتصال الأوقات ، وتعاقب الساعات ، إلا أنني كما أتخوَّف الإخلال ، أتجنب الإملال ، وكما أشفق من التقصير والإقصار ، أتوقى مواقف الإسماء والإضجار ، وعلى اختلاف الصورتين ، فإني أعتمد ما فطرت عليه من موالاة ذلك البيت ، لا زال معمورا ، وبالمناجح مكنوفا .
وقد اعتد مولانا الملك بورود رسوله ، وما أُوصل من خطابه ، وكان يجب أن يزيد في انبساطه واسترساله ، إذ كان — أدام الله عزه — في منأح الله قسيا ، وفي عوائد الله شريكا .

٤ — وله جواب شكوى واستجفاء وتأنيس بمكاتبة وإجلال

كتابي — أطل الله بقاء الشيخ — عن سلامة ، قد أحسن الله الإمتاع بها ، وأجل الدفاع عنها ، ووصل سوانغ النعم بها ، وأجزل حظ السعادة فيها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .
ووصل كتاب الشيخ فسرّتي سلامته ، هنأه الله إياها ، وأدام له أوفاه^(١) ، بعد أن جمع إلى بعد الدار ترك المواصلّة ، وأحوجَ إلى الاستبطاء والمعاينة . فأما الأمر الذي حكاه وشكاه فقد طال منه تعجبي ، وكاد إنكارى يسابق تنكرى ، لولا أن الخبر طوى عني ، ولم يُنشر لي ، وما حسبت الخلفة تستفز ذاسنٍ وترشمٍ بالعلم لمثل ما وصفه الشيخ عمن تسرع ، ولا أن حق الهيبة يُنسَى حتى يقع هجوم من هم ، وقد كان يجب أن يرَدَع هذا الإنسان عن فعله أمورٌ : منها الاجتماع في دار الإمارة وعندها يمتد ظل من الانقباض لا يتحول عنه أهل العقول إلا بالتحول عن ذلك المكان . ومنها أن إطلاق اللسان بحيث يحضره قاضى القضاة ، أدام الله عزه ، بما يدخل لفظه التكذيب ، إخلالٌ بقضية الوقار والتوقير . ومنها أن لكل أحد محلا في نفسه ومكانه ، وعندوايه وسلطانه ، وقد شاهد الخلق العظيم كيف رُتِبَ الشيخ عندي ، وموقعه من نفسى . وأقدر أن المنازل عند السلطان يُستدل عليها من

(١) في الأصل : وأوفاه .

فعلى ، والمراتب تُؤخذ أوزانها عن مجلسي ، ولا أبعد أن يكون السامع قدّر الشيخ معرفتاً به ، وتعريض مثله أشد إيلاماً من تصريح غيره ، فحمل نفسه على الخطر في الانتصار ، وركب متن القرار في الانتصاف ، كما يفعله من يسابق رأيه رويته ، وبصره بصيرته .

والشيخ — أيده الله — شيخ أهل الرأي بهذه الكورة ، ومن له لدى عظيم القدر والخطر ، وأنا على جملة التعتب على الحكيم عنه سوء التلفظ ، ولولا أني لم أعرف جليلة الحال إلا من هذا الكتاب ، لما اقتصرت على هذا القدر ، ولكن عوّدي يقرب ، بمشيئة الله ولي الأمر ، فتكون زيادتي بقدر تحققى للحال ، لا لأن الشيخ مدفوع الخبر ، لكن حكم الله أولى عند النظر ، أو يوفق المسمى للاعتذار ، والحليم للاغتفار ، فلا ينقبض الشيخ مما اتفق ، فهو المحروس المكان ، المخصوص بالتقديم والإعظام ، يتميز عندي عن كثير من الأكابر ، وخلق عظيم من الأمثال .

وهذا ينسخ جميع ما تكلم به مسرف على نفسه ، أو معتد لظوره ، وليُسِرَّ مع هذا بخبره ، وعارض وطره .

٥ — وله جواب تنصل واعتذار من اجتياز هارب

والتخلية بينه وبين المجاز

كتابي ، والأمور شرقاً وغرباً لموليننا : الملك السيد ، والأمير المؤيد ، منقاداً ، والسعادة في مصارف رايتهما وآرائهما معتادة ، وأنا بذلك موفور مسرور ، والحمد لله ولي النعم ، وسابغ المنن ، وصلى الله على النبي وآله وسلم .

ووصل كتاب سيدي فأنسى الله بما سوغه من مواهبه ، وأحضره من صادق الرأي وصائبه ، وعلمت ما اتفق في مجاز الهارب وسلوكه مغافصة لتلك المذاهب ، وأن الحال وافقت تفرق الخيل عن سيدي ، لانصرافه عن البيجار^(١) قريباً ، وإذنه لمن خدم في تلك الوجوه طويلاً ، واستنفاده مع ذلك الطاقة ، فيما أظهر به الإخلاص والطاعة .

وأوردت الجميع بحضرة مولانا أحسن إيراد ، واستعصت من الاستزادة فضل اعتداد ، ومعلوم أن الوقت لو فسح في استئابة العسكر ، لبلغ سيدي في الحل ماسار به الركبان ، وطن

(١) لعلها تعريب بيكار ومعناها بالفارسية : التبرع بالعمل .

بذكره البلدان . ومولانا من الثقة به على ما لا يتخلله امتراء ، ولا تعترضه شبهة يلتمس لها جلاء ، ومقامى فى حفظ الغيب ، وحراسة الاستنامة عن الريب ، المقام الذى يغنى — إن شاء الله — علمه ببيانه وبرهانه عن اقتصاص شرحه ، والإفصاح عن لسانه .

٦ — ولله

كتابى والأمير المؤيد مختص من نعم الله بأجمعها لأطراف السعادة وأوساطها ، وشروط الإرادة وأشراطها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير على عادة تشريفه لعبده ، وتنويهه بذكره وقدره ، فتلقاه بالدعاء الذى هو جهد مثله ، والشكر الذى رضىه الله من خلقه ، على عظيم منّ ، وانتهيت إلى ما حكى عن مواقفه كذا ، وعرضته بحضرة مولانا ، فضاق له صدرًا ، واشتغل فكراً ، إذ^(١) لم يحسب أن مثله مما تسوّغ حكايته ، أو تصحّح روايته ، وهو زور مصنوع ، واختلاق موضوع ، وقد كانت الثقة مستحكمة بأن رياح المفسدين إلى ركود ، وجراتهم إلى خمود ، وما حُسِب أن عواديهم تُثمر ما سُمِع ، وتنتج ما اخترع .

وقد قرأت ماصدر عن كذا من شرط ، ووعيت ما حكى من قول وعقد ، فلم ألحظ ولم أسمع مما ادّعى حرفاً ، ولا عرفت من كلِّ بعضاً ؛ ولم يكن بحضرة الأمير واصلاً ، ولبابه مكاتباً مراسلاً ، فلا قبول بهذه الحضرة البهية له ولا إقبال عليه ، ولا فكرفيه ولا إصغاء إليه . وقد أنفذ فلان بغاية الاستبطاء والإنكار ، مع إحاطة العلم بما فى هذا الأمر من البهتان والبهت ، فقد حضر تلك المجامع من كان يكتب بالإيماء واللمع ، والإيماء واللمع ، فضلاً عن مواقع الشرط ومساقط اللفظ .

والأمير يتحقق ما أنياه عبده ، فهو — والله — القول الصحيح ، والحق الصريح ، وأنا أسأل الله أن ينزل حواضر نقماته ، على كل مستقل لهذه الألفة ، يُعْمَل لها المكاييد ، وينصب المراصد ، وإن كانوا سيردّون قريباً فى عشارهم ، ويُردّون بين شفارهم^(٢) وجفارهم ، ويحرس الله على موالينا أولياء النعم ، ترافد الأيدى واتفاق الكلم .

النصل ، والجفار جمع جفرة وهى الكنانة .

(١) فى الأصل : إذا .

(٢) الشفار جمع شفرة : حد السيف ، وجانب

٧ — وله تنصل واعتذار

كتاني — أطال الله بقاء صاحب الجيش — يوم كذا ، وسعادة أيام مولانا جامعة من النعم أحسنها ^(١) ظهوراً ، وأحصنها وفوراً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش ، مفتتحاً من ذكر صنع الله الجميل إليه ، بما بدأني قبل ارتهانه لديه ، إذ كنت أجد المنايح إذا خيمت بربعه ، مضافةً إلى ماسو غنى الله من فضله ، وقسم لي من منته . وعرفت ما وصف صاحب الجيش به الأحوال التي أثلها الله — تعالى — في الجنبتين ، ونظم بها ذات البين ، وهي مقدورة بقدرها ، ومكنوفة بالمصالح التي لا وفاء بنشرها ، ومتصورة في أرفع مراقبها ، وأعلى محالها ^(٢) ومراتبها . ولولا أن الإسهاب فيما قد عُرِفَتْ مزيتة ، وتمثلت جليلة ، في رباط العمل ، وحصار التصنع ، وبمعزل عن فضيلة التحقق ، وجديلة التخصص ، لا تسع نطاق القول كفاء عقيدة النفس ، ووثيقة الصدر .

وصاحب الجيش مؤثر في كل أمر ماهو إلى جمال هذه الوصل أدعى ، ولحقوق فيها أرعى ، متعرف البركة فيما يُصدر ويورد ، ويتبدى ويجدد ، والله لا يُخْلِي من خلوص مودته ، ويحصن مآثر الأيام باطالة مدته . وعرفت ما قاله صاحب الجيش في معنى الضياع العتبية ^(٣) بالرى ، معرفةً تقدمها إشار الإيجاب على الرد ، وترجيح الإنجاز على الوعد ، ولو ورد من تلك الحضرة البهية في أضعافها ماورد ، لكان الإسعاف ملتزماً ، وتقريب المراد مقدماً . هذا إذا التمس لأفناء الأتباع ، ومغمور من الأشياء ، فكيف لمن يكبر قدره ويُفخِّم ، ويُجَلُّ محله ويُعَظِّم ، ويُرى توخى محابه ، وتحرى إشاره في آرائه .

وسأذكر لصاحب الجيش ما عيانه برهانه ، ووضوحه بيانه : إن جميع هذه الأملاك والضياع ، صائر في أيدي الديلم بالإقطاع ، ولو أمكن حله في الوقت لما أرجى يوم إلى غد ، وقد صدق الاهتمام الآن بفكه ، وإعادته للواجب بحق ملكه . ورسمت أن يناظر الواحد بعد الآخر في قبول العوض ، والرضا بالبدل ، ليتسهل في مدة سنة أو سنتين فضُّ الجميع

(٣) العتبية : قليلة الخير .

(١) في الأصل : أحسن .

(٢) في الأصل : محلها .

من حيث لا تحبث نفوس الجند ، ويتيسر المرام بإذن الله عن قُرب . وقد حُمِّل فلان في جواب الرسالة مايؤديه ، ويقوم بحق التخليص فيه . ولولا أن صاحب الجيش عارف بأن الملتَمَس لم يقصد فيه المدافعة ، ولم تتوخَّ المراجعة ، وعالم بأخلاق الديلم ، وما يحتاج إليه مالُكهم من التأتي لحل أقطاعهم لانبسط القول في الاعتذار من هذه المهلة ، وإن كانت العِدَّة ، في ضمان الوفاء والثقة ، فإن رأى صاحب الجيش أن يتصور ذلك حق تصوره ، ويخاطبني بخبره ووطره ، فعل ، إن شاء الله .

٨ — و —

التجرّم — ياسيدى وخليلى — دأبُ من ضاق عطنه عن الأخلاق السمحة ، وتضاءل وُدّه عن الطباع العذبة ، فهو دائباً يخلق لإخوانه خريرةً يصلّهم نار عَتَبِها ، ويولّهم جانب عَذَلها ، والحرُّ كل الحر من لحظ أحوالهم بعين تجمع إلى النصفة التسمح ، وإلى المَعْدلة الترخّص ، وإن شاهد جميلاً كثر قليله ، وإن صادف تقصيراً حَسَن قبيحه ، وقد نزّهك الله عن أن تكون مَعَنّاً وعَرِيضاً تنتهز الفرصة ، فما هذا التعدى الذى علفت أوثق أسبابه ، والتجنى الذى ولجت أضيق أبوابه ؟

وقد علم الناس كيف إيشارى إياك وإكبارى ، وعلمت كيف أباسطك في خاصّ أحوالى وأسرارى ، حتى كأننا قضينا الشباب على تلاؤم ، وصاحنا الكهولة عن تنادم ، ومتى كان الإعراض الذى أشرت إليه ، والانقباض الذى نصصت عليه ؟ ومن هذا الواشى الذى يطمع في إحالة حالك ، ولو قعد من الدهر على رَصَد ، ونفث من السَّخَر في العُقَد ، فكيف حسبتنى ممن تستفرّج الساعة ، وتهزّه الوشاة ، إنك تستخف حلماً ، لعل الأطواد الصمّ تشهد له بالرزانة ، والجبال الشمّ تبرأ إليه من الرصانة .

ولكل ذى قلم جانب من البلاغة هو فيه أوسع عِناناً ، وأرحب جَناناً . وكنت في العتب أفسح مجالاً ، وأملاً سَجَلاً . وقد أردت أن أعاتبك عن عتبك فأطيل ، وأبدئ القول وأعيد ، وأذكر ما في هذا الباب من المذاق تضادّ محاسنك ، وتحادّ مناقبك ، ثم كففت وصدفت ، واقتصرت وخففت ، نعم وزعمت أنك قد أكرثت على فسئمت ، وأطلت

فتبرمت ، ولو شئت لقلت : إنك أردت تهجينى ، فبدأت بنفسك ، وتبخيلي فتحاملت على فعلك ، إذ قد علم الناس خلاف ما حكيت ، ودرؤا أنى بمنآة مما ادعيت ؛ أوجب لمن ضمه إلى السبب الضعيف ما يوجب للأخ المشابك فى الأرومة ، المشارك فى الخؤولة والعمومة .
وإنى لا ألومك على الانقباض لوما يرينى فعلك لؤما ، ولبودى لو كلفت مع كل صباح ، تنفس ، حاجات تعاد الرمل ، وتناسب القطر . فهذا هذا والقستان قد وقع فيهما بما رأيت ، وإن سألت فى الالتماس بأمر من العلقم ، وأضر من الأرقم . وكل ذلك تأتى به مقبول ، وعلى جانب الأنس محمول ، لاعدمتك .

٩ — واه

وصل كتابك ، وعرفت ما كتبت به فيما استقبحته ، وأثبت^(١) من استبطاء قلته ، وأنت تعلم أن ذلك ليس مما فعل على تمكين وإيثار ، ولا ببدى فيه باستبداد واختيار ، ولكنك أشرت به ملحقا ، وأبدأت وأعدت بذكره مستسغفا ، وزعمت أنه جميل ، وموقعه لطيف ، وإلا فمولانا إذ أوجب أن يتعهد مثل فلان ، درى كيف يفرى القرى ، ويجزل البر السنى .

وقد أنهيت ماورد منك فعجب مولانا من أوله إلى آخره ، وموارده ومصادره ، وقال : فلان بدأ بالمشورة ، وحكم بمقتضى الصورة ، وهو الآن يقول ويطيل ، ويبدى ويعيد ، ولو خلت أولى سفراتك عنا وسفاراتك مما ينتج موجدة ، ويصرف محمدة لجاز ، ، فقد كان فلان على كبره ، وخطر سنه وفضله ، وبعد مسافة الذين استنجدوا من عنده ، وروسل دفعتين ، فما جرى بعض هذا التخليط والتبكيك ، والله الكافى والمعين .

١٠ — واه

قد صار مولاي يظن بى الظنون ، عادلاً عن علمه بباطنى وظاهرى ، ويطيع فى الرتب^(٢) مع اختياره لشاهدى وغائبى ، وما كنت أحسبه — لو رآنى على حال منافية

(١) فى الأصل : استبطاء .

(٢) فى الأصل : الرتب .

لموالاته — لا يكذب حسه ، ولا يغالط نفسه ، رجوعاً إلى فطرة أمرى في مودته ، وبادئة حالى فى طاعته .

يظن مولاي — وبعض الظن إنهم — أن كتابه يرد على فأغفل إجابته ، وأهل مخاطبته ، ثم لا يرضى ، وقد أطاع سلطان التهمة ، وكدر صفاء الثقة ، حتى يفصح بذلك ويصرح ، ويعقد الخنصر عليه ويحقد ، ويقول : لعل فلانا يميل إلى أن أخفف عنه ولا أثقل ، وأغب مكاتبته ولا أدمن .

هذا وقد علم الله أنى لا أرى أعطافى مهترة ، والدنيا فى عيني غضة ، وأيام الشباب طليقة إلا إذا طلعت كتبه واردة ، ونعمه بها متجددة ، لاسيما إذا تفتحت فيها زهرات خطه ، وأجنت بينها ثمرات لفظه . ولو كنت أعق من ضب لما تركت استمداد الفائدة من مخاطباته ، ولا سمحت بانقطاع العائدة فى محاوراته ، ولكن مولاي ربما انحط فى هوى التشكك ، وعلت عواذيه على دواعى التحقق ، ووقع له أن الصديق ينزع مفرضه بلا علة والولى يخلع ملبسه بلا شبهة ، ولو جاز على الحقائق الانقلاب لما اعترضت طاعنى لمولاي مزية ، ولا تبدلت لمشايعتى إياه صورة .

ولوعلمت أن كتابى تمتد إليه أيدى السبل ، وتتحكم فيه هنات الطرق ، لحملته بنفسى ، وأوصلته ييدى ، ومتى قلت لمولاي : إني لم أخرج صدراً ، ولم أعدم صبراً ، عند كتابه الذى خاطب به سيدى أبا محمد ، يجرحنى وكأنه يداوينى ، ويكلمنى وكأنه يأسونى ، فقد كذبتة عن نفسى وما صدقته ، وذلك لأنى إذا رددت طرفى وكررت لحظى كثيراً ، واستنهضت فكرى غائراً ومنجداً ، وصرفت خاطرى متهماً ومُشْتِماً^(١) ، لم أرى غير سيدى قبلة أقابلها بثقى ، ووجهة أصرف إليها استنماى ، وسنداً متى أردت كان ولياً وعضداً ، ومتى شئت كان أخاً حدباً . والشأن فى أن الكتاب مفتوح لمهم سلطانى أردت شغل الفصول به وقصرها على ذكره ، ثم أبى الصدر إلا نفثة ، والسقاء إلا رشفة .

الباب الخامس عشر

في الشفاعات

١

كتابي ، أيها القاضي ! — أطل الله بقاءك — أفردته بذكر أولاد أبي القاسم بن مقرن ، أيدهم الله ، وهم في القرب والقربة ، والحظ والحظوة ، أولادي ، وصنائعي وتلامي ، ومن حقهم أن أخذوا الحق عني ^(١) ، واستفادوا دلائله مني ، ومن اعتقد كاعتقادهم فليجتهد وليجاهد في الدين كاجتهادهم وجهادهم . ثم قد حصل لهم مع الدين الستر الثخين ، والعقل الرصين ، وجدد أبو العلاء ، أيده الله عهداً ، وتجشم عن نفسه وشقيقه مشقة وقصدا ، فصار الحق ضعفاً ، واستضاف مثلاً فمثلاً . وطرفاهم في العدالة والسداد معلّمان معلومان ، ولولا أن تفضيل الخلف عن السلف ، قد كرهه كثير من أهل الفضل والشرف ، لذكر تفاوت ما بينهما ، وبين كثير ممن فرط لهما .

والأقدمان في السن أبو علي [وأبو العلاء ^(٢)] وسيتقدمان ، ما بينهما من الوقار ، مستجد إزار ، وإن كان أبو الحسين زيد الثالث يجمع من فضائل الدين والدنيا ما ينشد معه فيه وفيهما :

من تلق منهم ثقل لا قيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى
هذا ما عرفت ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، فليكن إيجابك أيها القاضي — أيده الله — كفاء إخباري عنهما ، فسيزيد الاختبار من لفظهما على ما قدمت به ، والسلام .

٢ — وله عناية بذوى الحرمات

وللوسائل اختلاف درجات ومنازل ، ومن أولاهم بتحقيق الخطوة ، وأجرئهم بتقديم

(٣) في الأصل : لنوى

(١) في الأصل : مني

(٢) زيادة يقتضيها السياق في هذه الرسالة

الخطوة ، مَنْ ورد أعذب شريعة ، بأوكد ذريعة . وتحمل فلان كتاب فلان إلى حضرة مولانا وإلى ، بما أظهر مواته وحرماته لدى ، فلما خيّرته في نوازع الأمد ، ومضارب العمل ، كان أقصى مراده ، ومنتهى ارتياده ، أن أخاطب مولاي بذكره ، وأستكفي عنايته لاهتمام أمره .

هذا وله لديه ذمام البلدية ، إلى دواع يحكيها مرعية ، فليؤله مولاي من إقباله واشتماله ، ما يُظفره بأمانيه وآماله ، فلولا رجاؤه الذي لم ينزع إلا إلى أرجائه ، ولم يحوم إلا على فنائه ، لكان فيما أورده منتجعٌ بحضرتنا مريع ، وظل من الإحسان ظليل . والله تعالى يحسن توفيق سيدي لما يطيب ذكره ، ويعرف بشره ، بمنه .

التوقيع فيه

إذا اجتمع إلى نباهة الوسيلة ، وجاهة الحرمات الوكيدة ، كان نيل الأرب فيه مستجيباً عن كشب ، فليزع مولاي لهذا الفتى حسن ارتياده والتماسه ، وليهتم بتقديمه واختصاصه ، فقد رضى بعد تنجز الكتب من الحضرة بأن يكون ثمرة سفره ، وعائدة أمله ، ما خاطبت به سيدي في معناه ، وحقيق مثله بأن لا تخطئه مناه ، وسيدي — أدام الله عزه — ملي بخلافتي في قضاء حقه ، وإنصافه من دهره .

٣ — وله تقرّظ وعناية وإخبار عن شكر متحمل نعمة

أنا أحمد الله الكريم إذ أطلق الألسنة بمناقب مولاي تابعة للإجماع ، آمنة من النزاع ، حتى البعيد الدار منه ينشر ما ينشره الداني الجوار .

وورد لأداء الفرض المكتوب من الحج فلان ، وهو من أعيان كتاب خراسان ، ومن أشاب نواصي الأيام في مهمات ذلك الديوان ، فرأيت منه محاسن دراية وصيانة ، وديانة ورزانة ، وأدى التفاوض إلى ذكر من يضمه العصر من أفراد الصناعة وآحادها ، وأركانها وأعمادها ، فأعلمته أن ذلك حضارٌ لسيدي سبّقه ، وفي يدي حقه ، ولقلمي رقه ، وحسبتي مُغرباً عليه ، مُبدِعاً فيما أهدى إليه ، فإذا هو من رواة فضائل سيدي وحَمَلَةِ إحسانه ، والمنبئين

بمزية إيجابه وامتنانه ، وصار ما أخبر به وعبر عنه نسباً أدناه إلى ، وأعزّه على ، إذ الثناء بمادح سيدى دين أذب عن صحته ، وأوالى كل مجمل عن صفحته .
وقد عرفت سيدى بعض ذلك فى خاص كتبى إليه ، وأحببت أن يرد فلان بسأره عليه . ومولاي أهدى لإتمام منة تولى إنشاءها ، وأولى بإتباع الدلو رشاءها .

٤ — والـه

جناب مولاي مثابة العلم ومحتملية ، والفضل وأهليه ، فهم أين غابوا آبوا إليه ، وكيفما جؤلوا عؤلوا عليه . ومن اجتمع له إلى مزية درايته وأدبه أولية شرفه ونسبه ، اهتدت بحضرتة يده إلى أمله فلم تضل ، واستقرت قدمه فى كنفه فلم تزل ، لازال ذاك كذلك .
وفلان فضيلته وسيلته ، وشاهدته رائده ، فهو واحد بنى أبيه فى العلم ، وفرّد ذويه فى التحصيل والفهم ، حتى إذا قلت : لا أعرف فى الأشراف — أيدهم الله — بالعراق من يساويه فى المعرفة بل يدانيه ، قلت ما يلوح بيانه ، ويقوم برهانه . وليس ممن وقف لأحد من مغامسى الأعمال أيام الظلمة بباب ، أوتعرف إليه بسبب من الأسباب ، بل اشتغل بتدريس أو دراسة ، وحجّ أوزيارة ، وانعقدت بينى وبينه أحوال ، لولا غرة الهاشمية لقلت : إنها تفوق اللّحمة الواشجة ، والرحم الدانية .

وكان خرج إلى طبرستان لمعيشة له بها من وقف فأقام برهة ، ثم آثر الأوبة ، وقد كان استسلف عناية من مولانا الأمير بأصبهان بحضوره مجالس النظر بحضرتة ، وكلامه لمن شرّع فى مكالمته ، ورسم مخاطبة الحضرة بذكره ، والإنباء عن الرعاية الصادقة لحقه . وعولت به على مولاي كما أعول بنفسى ، وكشفت عن صفحة ما أعرف من فضله ، وصحيفة ما أحمّد من وده . وغرضه من بين أغراض بنى جنسه أن يكون ملحوظا فى وطنه من الكوفة بإعزاز وتمييز ، وإكرام وتقديم ، ليظهر عليه أثر تخصّصه بالعلم الذى أثقّب الله فى الدولة القاهرة ناره ، ورفع مناره ، فإن رأى مولاي أن يحتمل تطويل بتطوله ، ويسبغ عليه وعلى ثوب تفضله^(١) ، فعل ، إن شاء الله .

٥ - والـه

كتابي وأمور حضرة مولانا الأمير المؤيد مستقيمة ، ونعم الله علىّ في خدمته الشريفة عظيمة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
وقد عوّد الله ، وعز اسمه ، أن تكون المصالح أين سهلت سبلها ، والمحاسن أنى وضحت طرقها ، منسوبةً إلى أيام الملك السيد ، ليتصل الدعاء ما اتصل الليل والنهار ، ويدوم الثناء ما اختلف الظلم والأنوار ، والله يحرس دولته القاهرة من شوائب القدر ، ونوائب الغير ، ويكنفها بالبقاء ما بقيت الأمكنة ، ونطقت الألسنة .

وكان اتفق على تجار أصبهان ، من القطع في طريق خراسان ما انتشر خبره ، وساء على أكثرهم أثره ، وأتهم البشرى بأن القفص^(١) الذين باشروا ذلك^(٢) جُدّ من كرمان في طلبهم ، وتيسر الاستيلاء عليهم والظفر بهم ، واقتربت النكاية فيهم ، بارتجاع مافي أيديهم ، وتصرفوا من الدعاء لمولانا فيما الله وليّ استماعه والإجابة إليه . وسألوا أن أخطب مولاي شاكرا ، وراغباً في الإنعام بإعادة بضائعهم إليهم ، بل التصديق بها عليهم ، فإن ذلك من أقرب أبواب القرب ، وأدعاهها إلى الثناء الحسن ، لا أن مولاي يحوج ملتئم الخير عنده إلى شافع ، ولكنهم عرفوا ما جمعنا الله عليه من الود البالغ ، وعودني منه في كل أمر سأنح ، فمالوا مع الاستظهار ، وملت مع الاسترسال ، فإن رأى مولاي أن يأتي في ذلك ما تحده عليه تلك الشيم الطاهرة ، والمكارم الظاهرة ، ويخاطبني بخبره وأمره ، فعل ، إن شاء الله .

٦ - والـه

لولا ما أخذته على نفسي ، وقدمت فيه نذري ، أن لا أمنع علويا عن مطلب يتسع له مالي ، أو يضطلع به جاهي ، لكان ما التمسه أبو عبد الله الحسين بن العباس الرندي ، أيده الله ، من مخاطبة مولاي الشريف ، أطال الله بقاءه ، [حرّياً^(٣)] أن أستدّم

(١) لما أصار القفص أمس الخالي

(٢) في الأصل من ذلك

(٣) زيادة يقتضيها السياق

(١) القفص جماعة من الناس في كرمان ينزلون جيلا

بهذا الاسم ، وقد جاء ذكرهم في شعر المتنبّي يمدح

عضد الدولة في أرجوزته اللامية إذ يقول :

فيه بالمنع ، وأدفع في صدر الإيجاب بيد العذر ، فمكاتبة من لا يكتتب غمزة في العقل ، ونقيصة في القدر ، لا سيما ممن عسى أن يقبض بنانه مكاتبة ، بقدر ما يبسط راحته واهبا ، إلا إذا اتفقت مخاطبة مثله من الأعيان الأفراد ، والأركان الآحاد ، ولكن لا بأس ، فإنه إن استمر على الخلق الوعر ، جعلت كتابي هذا بيضة العقر .

وبعد أو قبل فهذا الشريف حسن الهدى والستر ، جميل الطريقة والأمر ، منقطع إلى جانب العفاف والعلم ، وأراد المشهد^(١) — صلوات الله على ساكنه ، ورحمته على زائره — وسأل أن أحبه كتابي إلى الشريف سؤالا ، أفضى فيه الإلحاح ، إلى النجاح ، والإتحاف ، إلى الإسعاف . والشريف ولي ما يوليه ، كما يستحقه بنفسه وسادتنا من أوليه ، إن شاء الله .

٧ — ولله

قد علم سيدي أن اهتمامي بما يخص أعماله ، ويُقرَّب آماله ، لا يتميز عن اهتمامي بأمر ما أراعيه ، وأعمل الفكر فيه ، فلذلك أستجيز مخاطبته ، ومراسلته ، بما هو وإن ثقل بعض الثقل ، وزاد في طائفة من الشغل ، فهو أجمل مرجوعا ، وأحسن مسموعا . ومن خاص ذلك أمر أبي القاسم فهو صنيعة ذلك البيت وتليده ، ورضي ذلك الجناب وعقيدته . والعثار قد يعرض ثم لا يستمر ، والزلل قد يعين ثم لا يستقر ، وكيف جرت حاله فقد فرغ إلى ظلي ، واعتصم بجبلي ، واعتمد كلامي ، واستظهر باهتمامي .

وسيدي يغطي بهذه الذريعة على كل جريمة ، ويقدم هذه الوسيلة على كل عزيمة ، ويكظم الغيظ فهو أشبه بفضله ، ويستعمل الحلم فهو أليق بخلقه ، ويعيد أبا القاسم إلى كنف إيجابه ، ويحقق مسرحة أمله ومسرى طلابه ، فقد أنهضت فلانا متحملا في بابه ، مالا يُستكثر من سيدي بين شفاعتي وإيجابه ، فإن رأى أن يأتي في ذلك ما هو المعهود من مذاهبه ، المأمول من ضرائبه ، ويخاطبني بخبره وأمره آنس ما أترقبه وأنتظره ، وأولى ما أقدمه كما يؤثره ، فعل ، إن شاء الله .

(١) المشهد : مشهد الإمام علي الرضا في خراسان وهو الذي تسمى باسمه اليوم مدينة مشهد

٨ - واه

كتابي — أطل الله بقاء الأمير مولاي — ومولانا مؤيد الدولة ، أعز الله رايته ، ونصر كلمته ، ممدود أروقة الملك ، معمور أفنية العز ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

والأمير بما أوتي من مناقب جمعت محاسن الآراء والحكم ، وفضائل السيف والقلم ، يتصور الأمور بصورها ، ويتخيل عواقبها من غررها ، فيعلم أن مولانا يؤثر له ما هو في الصيت أحسن وأجل ، وفي التدبير أقوم وأعدل ، وربما كان بعض ذلك مثقلا بعض التثقل ، ولكنه أحزم عند التدبر والتحصيل .

وفلان الرجل نبهت تلك الدولة عليه ، وجذب ذلك البيت بيديه ، فكان ، ما أقام ، حميد الأسعاء ، رضى الأنباء ، ثم عرض ما قد يتفق مثله ، فإذا حسن نظر الله وصنعه ، أخذ بالفضل من أعز نصره ، وأنفذ أمره . ولولم يكن له بحضرة الأمير حق محفوظ ، ولا ذمام ملحوظ ، ولا سبقت خدمة تستعطف الحلم عليه ، وتستصرف الإغضاء إليه ، لكان التجاؤء إلى هذا الباب العظيم ، والظل الظليل ، يمهده عند الأمير حالا مستقبلة ، ومنزلة مؤتلة ، وجللت هذه الوسيلة مواقع الاحترام ، وأوردت مشاريع الإنعام .

وقد أخرج مولانا فلانا بذكره ، وحمله رسائل في أمره ، والأمير يصفى لها إصغاء مثله ، ممن المحاسن في حصنه ، والمحامد بين قوله وفعله ، ويراجع أكرم خواطره في معناه ، وأجل ما يستصيبه ويراه ، إن شاء الله

٩ - واه

وصل كتاب الشريف ، فكان هلال عام ، وزور إنعام ، وعهدى بمخاطباته تفوت القدر ، وتكاثر القطر . على أن الثقة بوده تدفع في صدر العتب ، وتوجب حمل التقصير على كاهل العذر ، وإن كان الأسف على بعده سميرا لا يحمد ، وسميرا لا يحمد ، وقد يعتب الزمان ويرعوى الدهر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

وأما فلان فقد أنشئ له أمان ، لا يُحَذَرُ معه الزمان ، وسيناله من عواطف الجميل ، وعوارف النظر الحميد ، ما يتجاوز أمله ، ويسبق ما طَلَبَ وطُلِبَ له ، وكيف يجوز أن يحظى بغير الإحسان والحسنى ، وقد حَقَّقَته من الأمير ملاحظة أسكنته حرماً لا يُرَاعَ ، ونالته من فلان محافظة أوطنته كنفاً لا يضاع . والشريف شفيعه ، وهو المشفع الذى لا يُدْفَعُ ، والمتَّبَعُ الذى لا يُمْنَعُ . إلا أن الشريف يأمره بسرعة الانصراف ففى إبطائه ، ما يبعث جرأة أ كفائه . وفلان نعم الوafd ، والرائد ، وألفيته حسن الفهم ، جيد الوعى لما يطرقه من العلم ، ولن يَرِدَ عن فلق الصبح ، إلا من اكتسب من ضياء الشمس . والشريف ولئى مخاطبتي بخبره ، ووطره ، إن شاء الله .

١٠ - والـه

الدول — أطال الله بقاء الأمير — منأح يداوها الله تعالى بين الناس ، إلا أن فى أربابها من يجمع به أمانة العام إلى سعادة الخاص ، وذلك بفضل يؤتونه من العلم والتميز ، يستحلى ثمراته أهل الشرف الأصيل والفهم الصحيح . وذلك مشهور يرأفد العيان فيه منقول الخبر ، ويعاضد المشاهدة عليه ماثور السير ، والأمير من الأفراد الآحاد ، الذين خلصت لهم الفضائل ، فسعد بهم الأفاضل .

والشريف الحسينى أبو الحسن على بن محمد ، أيدته الله ، ممن أشهد له شهادة قاطعة ، جامعة ، على تمنيه أيام الأمير حتى لولا طلوع شمسها لما عاود تلك النواحي ولا طرقتها ، ولا راجع داره بها ولا سكنها ، إلا أن الله حقق مناه ، وأراه قصارى ما كان مبتغاه ، فاغتنم الخروج لأمر ثلاثة : أولها كرم الأمير ، فهو المفزع والمُنْتَجِعُ ، والربيع والمُرْتَبِعُ . وثانيها أنه يختص بى الاختصاص الذى لولا حلوله من بيت النبوة ذروة النسب ، ومن مقر الوصية يفاع الشرف ، : لقلت : إنه الولادة أو الصق ، والأخوة أو أقرب . وثالثها أن من ناهض أملا ، وقدم فى الرجاء سلفا ، نازعته نفسه إلى أن يشاهد موقع تأميله ، مخفوا بإنجاز الله وتحقيقه ، فإن يكن الأمير مشفعا لى كتابا ، وعاجلا للإنجاز جوابا ، فهذا . والأمير مولاي يوليه ، ويولينى فيه ما أعدّه فى بيض أياديه ، ويصرفنى على أمره ونهيه .

١١ — وله تنصيح وتشفع

أطال الله بقاء مولانا الأمير ، سابغ العز ، ساطع مطالع الملك ، والحمد لله ، وصلواته على النبي وآله .

وقد تصور لاريب أن مولانا ، أغر الله كلمته ، يؤثر في الأمور التي تخص تلك الأعمال ما هو للأمير أوفق ، وبرضاه أوقع ، وإلى مباغيه أقرب ، ولذلك رسم لي أن أخطب بذكر فلان ، إذ ترك أمره سُدَى مما لعل الرأي لايسوِّغه ، ومغادرة المتصلين به في جانب الخلاف مما الحزم لا يُرخِّصه . وإذا استخلص الجماعة لخدمته ، واستفاءها إلى طاعته ، ووقفها لأمره ونهيه ، واستضاف مافي أيديها من المعامل إلى يده ، من دون أثقال تتجسَّم ، وأعباء تتكلَّف ، وأيام تتدافع ، وآجال تتطاول ، كان ذلك أولى فيما يتجلى لنا من الرأي ويبين ، وإن جاز أن يكون هناك ما يعمُض عنا ويغيب .

وكان فلان يلتمس في معنى فلان ضروبا فيها سَرَفٌ وشَطَطٌ ، فدفع عنها ، ومُنِع بصريح القول منها ، وأُعْلِم أن الكلام^(١) في بابه لا يقع بعد الأحوال التي وكَّد الله مبادئها ، وثبت رواسيها ، إلا من طريق الشفاعة له ، وبعد أن يُخلص في موالاته الأمير نيته وعقده ، فلما تجلَّت له الصورة ، وتمثل قدر المعونة ، وعلم كيف يجب أن يلتمس ، وأقلع عن أن يقترح^(٢) ويحتكم ، أمرني أن أخطب الأمير بأن فلانا وإن زلَّت به القدم ، فله في ذلك البيت الخدمة والرحم ، وهو الرجل الذي كان الماضي رفعه ، واصطنعه ، ونوّه به ، ونبّه عليه . وإنما تُسَلَف الذم ، وتقدّم العِصم ، لتنفع عند زلة تتفق ، وتنقذ عند هفوة تتجه ، ولولا هذه الحال لما عُرِف كيف تغلب الوسائل على الجرائر ، وتقدّم الذرائع على الجرائم ، ولا أثرت قضايا الصفح ، ولا علمت مزايا العفو .

وقد أبى الله إلا سَوِّق الأمر إلى من أوتي به بحق ، وأعطيه بفضل ، فمن فرض إحسان الله أن يُتعمَّد المسيء بالإقالة ، ويُتعمَّد جرمه بقبول الإنابة ، ويُؤثر من كرم الظفر ما هو أليق بأداب المجد والشرف . وعسى أن يكون الصواب في أن يُستَعاد آمنا على نفسه والمتصلين

(٢) في الأصل : يعترج

(١) في الأصل : مافي

به ، ويُجْرَى في حسن النظر والطَّعْمة على رسمه ، ويمكن من الانفراد بحضانة فلان ،
ويُجْرَى ما يسمّى له على يده ليوفّى الأمر فرض التعبد ، ويبذل المهجة في ضروب التقرب ،
ويقود الذين في حصني كذا وكذا إلى تسليمهما ، والنزول عنهما .

وهذا أمرُ الأميرِ مولاي أعرفُ بمضاره ومنافعه ، ومصالحه ومفاسده ، فإن استوفقه
أنعم بتعريفه إياه ، لآتوسطه وأتولاه ، فإنه يجمع قضاء ذمام من شئت في خدمة سلفه وشاب ،
ودرج في تحمل البيجار^(١) لهم إلى أن شاخ ، وهو مع تظاهر الحرمة مستظهر بأصرة اللحمة ،
واستصفاء بقية تلك القلاع مع عظم قدرها ، وخامة ذكرها ، وإزالة شغل القلب بها ، إذ
الأمر إذا أمكن قوده إلى المراد من طريق مُكشّبة^(٢) ، ومنازل مُصْحِبة^(٣) ، فلا وجه
لتحمل الكلف ، ومدافعة المدد ، وترك النظر في العواقب والعقب .

وهذه الأحوال إذا رآها الأمير مولاي وأمضاها جمع إلى ما اقتصصته الاستمداد من
اعتداد مولانا ، فيمن استجار بالكرم الذي لا يضاع آمله ، والحرّم الذي لا يُراعى نازله ،
وقد خاطبت فلانا بما يذكره ، والأمير يتدبره ويدبره ، فإن رأى أن يتفضل ، ويتمثل
ما قلته في معرض ما يراد الحظ فيه لأعماله ، واجتماع كافتنا في صفقة اختياره ، ونظم الكلام
من أهلها على طاعته ، والإصفاق على مناصحته ، فعل ، إن شاء الله وحده .

(٣) في الأصل : مصحب

(١) التبرع بالعمل

(٢) في الأصل : مكثب

الباب السادس عشر

في توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة

١ - كتاب ضر ونفع

كتابي ، ونعمُ الله بالحضرة العالية متوالية ، والكلمة بحمد الله عالية ، والحمد لله وصلواته على نبيه محمد وآله .

ورسم مولانا الملك أن يُعرَف انتقال معاملة (ماه الكوفة^(١)) إلى ديوان مؤيد الدولة ، وإني استوهبتك لتباشر من مهمي ما أعتمد له قيامك ، وأرضى فيه منابك ، وأُخرجتُ إلى بواقٍ من الديوان المعمور اعتدَّ بها على وكيل مولانا . ويجب أن تباشر العمل مباشرة مثلك ، وتقيم فيه غاية جدك ، وتستنفذ نهاية طَوْقك ووسعك ، وتجعل من أول كدحك وهمك أمر العمارات ، والزراعات ، فأياهما قد ضاقت أوفات أو كادت ، وترقه الأكرّة ليقبلوا على تمكين تُلافي الحال به ، واستحفاظ ارتفاع سنة سبعين معه . وقد بلغني أن عنتا يلحقهم ، ولا عذر الآن بعد نفوذ الخطاب العالي بانتقال المعاملة ، وتضمّن العمل بالبقايا ما تضمّن إيجابها للوكيل .

وهذه البقايا عليك حراستها وتحسينها ، وما احتجت من ذلك فيه إلى مزيد استثمار ، فإنه إلى الشيخ مولاي ، فإنه — أدام الله عزه — رَسَمَ تقرير هذه البقايا وجمعها للوكيل ، وناب فيها عن مولانا مناب المخلص الخالص . وأنا أنتظر ما تأتية ، وتركي شهادتي فيه ، فقد كتبت إلى حضرة مولانا بوصفك ، وذكرت سابق حقك ، وقلت : إني أستوهبك لما عرفته من سدادك ، وحسن قيامك بما يُفَوِّضُ إلى منابك .

وفلان يزيدك توقيفا وتعريفا ، فقد فاوضته ما علمت أن الشفاء فيه أبلغ وأنجع . وأشع مع ذلك في الرعية ، حرسها الله ، ماخرج به الأمر العالي ، أنفذه الله ، وعِدهم عن كرم

(١) اسم آخر للدينور وصم سبب تسميتها بذلك في ص ٦١ .

مولانا مؤيد الدولة بالإحسان والإنعام ، والعدل والفضل ، وعنّى بما يضاهى هذه السيرة الشريفة ، وتقتضيه أمثلة الدولة السعيدة ، وابلّغ في تأليف الأكرة والمزارعين ، واستعادة الشاردين ، ما هو قوامُ الصلاح ، ونظام السداد ، وواترَ كتبك إلى ، على نسق الأيام ، وقد أمرت أن يُنسخَ لك — آخر كتابي — الفصلُ من الحساب المتسلم من الديوان المعمور ، بذكر البقايا المختصة بملكك ، لتعرف ما يلزمك في ذلك .

٢ — ولله

ورد من مولاي أبي فلان بذكر عمّال الأرصاد ما كان تطلعي وقفاً في سبله ، وفكرى موكلًا به ، فلم يقنعني ما أتاه ، ولم يكفني ما كفاه . فإن ذلك الكويكب دامت أيامه في العمل ، وطالت به نوازع الأمل ، وغرّه لين العاملة ، وأمنَ خشونة المقابلة ، واستعان بكل متبرم يمينه ، مخاطر بوترينه ، لا ينزع عن ذميم سجيته . وسيلُ سيدي أن يتجرد للجماعة بنفسه ، ويستكشف أحوالها بجده ، ويسمح لخصومها في المقال ، ويضعني [إلى ^(١)] ما يُرفع عليها من يمين وشمال ، ثم يجمع لجناتها بين التفرير ، والتنكيل والتقويم ، حتى يسمع الأبعاد عنهم تضاعفهم ، والسياط تمشق في ظهورهم ، وتخطّ على جنوبهم ، وترسب في مفاصلهم ، وتختضب بالعبيط من جوارحهم .

والرصد ليس بذى أصل تُرد إليه رفوعه ، ولا ارتفاعه بما تنبّه عليه نقائصه وخصومه ^(٢) وإنما هو نُفْضَة أوقات ، وفرص لحات ، فإذا لم تكن على الأيدي أغلال مخافة ، وحدائد مهابة ، فالسالم نهب ارتفاق ، وعرض إنفاق ، إذ هذه الطائفة عبيد أيامها ، ومبذرة حطامها في وجوه آثامها ، وإن لم تراعى أحوالها طراد الساعات ، نُظِر من الارتفاع في أعقاب نجوم غائرات .

٣ — ولله

كتابي ومولانا الأمير كما يؤثره علاء نجم ، ومضاء حكم ، وأنا سالم في ظل إنعامه ، وغانم بشرف استخدامهم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله .

(٢) خصوم هنا جمع خصم : وهو ما يخضم

(١) زيادة يقتضيا السياق

ووصل كتابك تذكر ما تيسر لك من نظم مال الحبل وإصداره ، والبلوغ في الاجتهاد إلى أبعد آماده ، وتوفر ك على ترويج ما خصّ ومسّ من التسبيب ، وتشكو معاملة بني حامد وما يتصرفون فيه من ذميم المذاهب ، وفهمته . وقد كان سيدى أبو العباس^(١) أنهى حسن تصرفك ، وحميد تحقّقك ، وفضل جدك ، وتصيير التقرب كل وكّدك ، فاستمد لك من الإجماع أوفر الحظوظ والأقسام ، ومن الرضا أكل السهام والأقساط . وأنت — أيدك الله — أوجه أمثالك محلا ، وأوجبهم حقاً ، وأكثرهم تحمداً ، وأشدهم بي تحقّقاً ، وحرمانك تقتضى لك من الرعاية أمدها ظلاً ، وأردّها فضلاً . وإن وسائلك لتخاطبني دائماً مستمّدة إيجاباً ، ومستجدة إطلافاً ، فتصور هذه الحال مثابراً على عمارتها بالانكماش على ما عمر الناحية واستدرّ الأموال ، وبسط العدل في الرعايا ، وحسم أطماع المتصرفين .

وفلان قد كتبت بتقديم موافقته ، وإنفاذ ما يتقرر من محاسبته ، وعذر ك في التأخر عن أصبهان مقبول ، ولمثل ما اعتذرت به أغفيتك من ورود الحضرة العالية في عاجل الحال ، وإن كنت ساستقدمك للزيادة في الرفع منك ، والتنويه بك ، بمشيئة الله .

وفلان قد عرفت مكانه لدى ، وقرب محله إلى ، وإني أعدّه في مشايخ أهل ودّى ، وأقدّمه على أكثر من يتحقّق بي ، وقد عادنا ، فاعرف له قدره ، وفخّم أمره ، وتوخّ محابّه وتحجّر مساره ، وأجلّ منزلته عن أن تقع معارضة أو تحكّم فيما يقضى به ويراه ، وأجر أمر مشاهرتة في الإطلاق والإسلاف على ما يقترح ، وكما يلتبس ، فإنك لا تكاد تتحمّد إلى فيما يخصني بما هو أوقع من هذا وأحمد ، وعرفّه ما خاطبتك به ، بل اعرضه عليه بفصّه ، واعلم أنى لو على قدر الاهتمام أطلت الكتاب ، لنظّمته قدر المسافة .

وأما فلان فداؤه معك داء الحاسد ، وما أبعد دواءه ، وأغمّر شفاءه ، وسبيلك أن تستوفى الحق قبلك من غير إعنات ولا إرهاق ، وتترك ما يفعله أصاغر الناس من استجازة الظلم للتشفي ، ففي العدل مقنع ، بل في أقل منه متسع ، وما أمكن أن تترك الضياع في يده ويد ولده ، فلا تقبض عليها ، ولكن بعد أن يصح الواجب عنها . ومولانا إنما يحظر في بابہ الاعتداء ، فأما استيفاء حقوق بيت المال فلا عتب فيه عليك ، والتسويغ فلا وجه للتشكّد دون إجرائه ، إن شاء الله .

(١) لعله أبو العباس الضبي .

٤ — وله إلى عامل ناحية

كتابى ومولانا الأمير المؤيد فيما يُعَلِّي الله من جَدِّه ، ويرفع من يده ، على ما يؤثِّره ،
ونحمد الله عليه ونشكره ، وأنا معافى بدولته ، راغبٌ في الصلاة على النبي محمد وعِترته .

ووصل كتابك بذكر ورودك الناحية وما شاهدته من اضطراب أحوالها ، وتناهى
اختلالها ، وامتداد الأيدي والأطماع إلى ارتفاعها ، ووقوع التقصير في تنفيق غلاتها ، إلى
سائر ما لخصته ، وشرحته ، واقتصصته ، ووصلته بإنهاء الصورة ، وتقديم المشورة ، وفهمته .

وقد كان ذلك الرجل — عفا الله عنا وعنه — اعتلَّ ، في مبدأ وروده الناحية واختلَّ ،
ورب أمرٍ قدَّرَه أحوطٌ وأعود ، لم يكن أوفق ولا أرقق . وإنما تظهر كفاءة الكفاة ،
وجزالة العمال والولاة ، إذا أصلحوا الفاسد ، وثقفوا المائد ، وتلافوا الفارط ، وتداركوا
الفائت . ولهذا أزعمتك من يزُد^(١) مع حاجتى إلى مقامك بها ، ولزومك لها ، غير أنى
قدمت أخص الأمورين ، وأمسَّ المهمين ، وسبيلك أن تفرغ الطاقة ، مستنفداً لجدك ،
ومستنزفاً لوسعك ، فقد مثَّلتُ بحضرة مولانا من أمر العمل ، ما تخلَّله من الخلل ، فليس
يلزمك عهدٌ ما لا تطيقه ، ولا يعود عليك دركٌ ما لا تستطيعه .

والصواب أن تعتنق الأمر اعتناق من لا يُعوَّل فيه على الإحالة ، ولا يركن إلى الحرج
الشاذة ، ولا يقول : سأبشر راضياً بعفوه ، وأخذاً لصفوه ، فما اتجه من أثر حسن كان جماله
لى ، وما دخل من وهنٍ وتقصير كان عاره على المتولى قبلى — فليس لهذا أُرِدْتُ ولا بهذه
الشريطة اعتمدت ، ولم أورد ذلك والظنَّة متوجهة إليك ، وحسنُ الظن منصرف عنك ،
بل لأن الهزَّ والتحريك ، ربما كانا^(٢) خيراً للمخاطب من المدح والتقريظ ، ولست أدع
بعث أكثر أصحاب التسيبيات ، على قبض صدرٍ من الغلات ، بعد أن لا يُتَجَاوَز في السعر
القانونُ القائم ، فرَضَهُمْ على هذا قاصداً ما يستتب به الأمر ، ويزول معه الشغل ، ومن
كان من المتولين قد تخطى طريق الأمانة والصحة ، إلى الخيانة وسوء الثقة ، فلا تدع

(١) مدينة كبيرة في وسط إيران إلى الجنوب ، (٢) في الأصل : كان .

وهي حاضرة ولاية يزد .

المبالغة في استكشاف أمره ، حتى إذا وضح ما ظنَّ به بالغتَ في الإنكار عليه ، والتنكيل به ، على قدر ذنبه ، ومقتضى جرمه ، وطالعتني بجلية فعله .

وجملة من القول : إن عصام بن أحمد إن كان قصر أو قصر فما سرق ولا تحييف ، ولا تولى زراعة ما استثمره عند هذا الدخْل . والبلد بارتفاعه ومتصرفيه موكول إليك ، معول فيه عليك ، والقدر الذي يقع من التفاوت بين تقديم الكيول وتأخيرها ، وتنفيق الغلات وترتيبها معروف . ولهذا الفصل الواحد وليت واستكفيت ، فأعطِ النصيحة حقها ، ووفرَّ عليها حظها ، وهب ليلك ونهارك ، واشغل أوقاتك وساعاتك بها ، وعرفني ما تأتبه وقتا وقتا ، وتدبره أمرا أمرا . وقد كفاني ما أخبرتنى به في اختلال الأمور ، واضطراب الشئون ، فاجعل آنف ما تخاطب به بذكر ما تستصلحه وتستدركه ، وتتلافاه وتنظمه ، إن شاء الله العزيز .

٥ - والـه

في نفسي أن أخطبك منذ زمان بخطي ، فلم يتفق ذلك لتراكم عملي وشغلي ، فالصورة متغيرة عما عهدت ، والحال بخلاف ما شهدت ، لأن مولانا ألبسنى أثوابا من التشريف والاعتماد ، والإيثار والإحجاد ، زائدة على ما تطوقته عند حضورك من إكرامه ، وقسم لي من فوائد إنعامه ، فلا يكاد يتفق أمر ، أو يعرض نفع وضر ، إلا آثر أن أباشره ^(١) بنفسى ، وأفصله في مجلسى ، والله يحفظ على ظله ، ويديم لي رأيه ، ويقينى بحقوق خدمته ، ويعينى على شكر نعمته .

وقد أكثر السعاة بذكرك ، وأقاموا الأسواق في أمرك ، وجرى فلان على عادته في تشقيق الكتب ، وبث الفيوج والرسل ، ومتى رأى خامة ألفاظهم وضخامة أدراجهم ^(٢) ، ربما قدر وراءها تحصيلا ، وظن بعدها خيرا كثيرا — وعرفوا ما أراه بك ، وأوجبه لك ، فخرجوا على جميع ما خاطبوا ، في إخفاء مخاطباتهم عني ، وطيرها دوني ، وطريقها ، كيف دارت ، على ، ومصبتها ، أين جرت ، إلى ، وقد نبذت في وجوههم ، وردت في

(١) في الأصل : أباشر .

(٢) جمع درج : ورق للكتابة .

صدورهم ، وأنشبت في حلوقهم ، وكسرت في نحورهم .

وعرف مولانا ولى النعم أنهم يميلون على جانب السعاية ، ويعتلقون أزمة الوشاية ، فلم يرفع بما حكى عنهم طرفا ، ولم يشغل بما ورد منهم سمعا .

ولعلمهم حضروا هناك فلانا فشغلوا قلبه ، وأوقروا أذنه ، حتى خاطب بعض الناس برقعة خائف وجل مما ألقى إليه ، مرعوب حذر مما زُخرف لديه . وأجبناه بما أراه صورة القوم واضحة ، وأدلة على طرائقهم لأتحة . وعلى — ياسيدى — حفظ غيبك ما أمددتني بنصح لهذا الملك تؤثره ، وجميل تؤثره ، وعدل تبسطه ، ومكان تعمُرُه ، فلا يقدرن في نفسك ما تأتيه هذه الفرقة ، ولا يثلمن في صدرك ما تجنيه هذه العصابة ، فسعيها باطل ، وكيدها خامل : ولا وجه أيضاً لأن تظهر هذا ، فتجعل لما ارتكضوا فيه وزنا ، أو توهم أنه مما يشغل فكراً ، وداو أمرك بدوائه ، وعالج عملك بعلاجه ، واشتغل بالتمقرب إلى مولانا ولى النعمة وقد رفعك ، وأنبتك واصطنعك .

وإذا وصل الحمل الذى أريد أن يكون الهمم أجمع موهوباً له ، ومقصوراً عليه ، ومشغولاً به ، وجارياً معه ، فقد توصلت إلى الزيادة في الدعاء لك تقوية لمُنَّتِكَ ، وإضعافاً لحسدتك .

وقد شافهت فلانا بما لم يحجز أن أسطره ، ولم يصلح أن أضمنه ما أصدره . ومحل فلان من مولانا لطيف ، ومكانه من رأيه — أعلاه الله — قريب ، فهو متجاوز رتبة الحجاب إلى منزلة التذماء والشمارة . وسبيل تسييبه أن يكون مروّجا ، وماله أن يكون مقدّما ، ولا بأس إن كاتبته وباسطته ، فلمّا يخلفك به من مناب جميل موقع أحبه لك وأوتره فيك ، وتكتب لأرباب النظر أجمع بما أنفذته مع فلان ، فليديموا الدعاء لهذا الأمير عن حسن رعايته ، لكافة رعيته ، والسلام .

٦ — وله

وصل كتابك وعرفنا ما ذكرته في الأبواب أجمع ، واستدللنا منه ومن سائر ما ورد

على رضاك من نفسك بالتجوز ومن المعاملين بالتحكم. وليس لهذا نصبناك ، أو بهذا أمرناك ، تذكر مرة أن المقاطعين يمتنعون من التزام العبر^(١) ويطمعون في واقع نظر ، وتزعم تارة أن القُبَّاض الثقات لا يوجدون بقاسان ، وتلتبس إخراجهم من أصبهان ، وتُنهي إلينا أن أهل راوند^(٢) يتكرهون خروج غلام إليهم وولايته ، تجارى العادة عليهم ، وتحكى عنهم ما يقتضى النأديب ، ويستدعى التقويم .

وقد استظهرنا هذا الخطاب فيما أنكرنا ، ففارق طريقة التواني والمقاربة ، واعدل عن سمت التضجيع والمراقبة ، وخذ نفسك باستيفاء الحقوق وإجباؤها عن آخرها ، واجتمع مع أبي منصور على تهذيب الأمور وثقيفها ، ومن كانت عليه مقاطعة ، في السنة الماضية ، فهي الآن له أوجب ، وألزم ، فلا تحلّ عن أحد معقودا ، وطالبه بمال الضمان موفورا . وأما القبض فالزم كلا من وجوه البلد وثقات الناحية وتناء^(٣) الصُّقْع تولى طائفة منه ، فإن كره أحدهم القيام بذلك ، فليقم صاحباً له ، مسكوناً عنده ، يلتزم عهده ، ويودع خطّه الديوان بدرك ما يصير في قبضته .

وأما أهل راوند فحذرهم مما أجروا إليه ، وازجرهم عن معاودة ما اجتروا عليه ، فليس للرعية أن تختار العزل والتولية ، وأما الغلمان والفرسان المقيمون هناك للحماية ، فأزح عنهم في المشاهرة والجراية ، وأنفذ درج كتابك عريضةً بأساميهـم وأصناف المقرر لهم ، والاستقبال الذى أزلت عنه في معاملة سنة ثمان عـلّهم بمشيئة الله . وتشدد في أمر الغلات ، وأحظر نقلها إلى الحومة ، على جارى الرسم فى كل سنة .

ومتى انتهيت إلى باب ، وقبضك عائق عن إتيان الواجب منه ، فاذكره لأبى الوفاء وأبى منصور ، فما عندهما انقباض لأمر ، ولا اعتصام بعذر ، واعمل على أن تغنى عن الهزّ والبعث ، والتحرّيك والحث ، بما تستأنفه من جد واستنفاد للوسع ، فإننا — مع استحقار الأرض بما تنظم — نحاسب على النقيير ، ونعاقب على القطمير ، فرأيك .

(٣) تناءج تانى : الدهقان .

(١) العبر : وزن الدراهم والدنانير .

(٢) بليدة قرب قاسان وأصبهان .

٧ — والله

كتابى ، ياسيدى ! ، والأمور بهذه الحاضرة — أدام الله بهجتها — على غاية الاستقامة ،
والحمد لله ، وأنا معافى بدولة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، والشكر لله .

وقد كتبت إليك — يامولاي — كتابا [ما^(١)] تمكنت من إشباعه ، ولا قدرت
على استيفاء أبوابه ، شغلاً منى بمهمات ، وفّرني مولانا عليها ، واعتمدني لها . وورد كتابك
فحسبته خلص إلى من أثناء النجوم ، توقعا لما تحمله من ذكر المال واجتماعه ، والوقت المقدر
لإصداره ، فيزول عتب مولانا عنك ، وتحول استزادته إحمادا لك ، فأخلف ظنى ، وأخطأ
تقديرى . وعلام الغيوب يشهد بما يتراحم على قلبى من أصناف الانزعاج متى رأيته — أدام
الله تمكينه — مستبظنا لك ، مستقصراً لفعلك ، بعد الرضا التام ، والحمدة الشديدة ،
والتقريظ الجم ، والأوصاف البليغة . وقد — يشهد الله — نبت ما أمكن ، وقت بالعدر
ما اتجه ، ثم تراخى أمر المال فى أضيق وقت ، ومع أمس حاجة ، حتى رأيت ما أورده فى
الاحتجاج عنك يكاد يولد على ضجرا ، فأسكت ، وتركت الكلام لوقته وصمت . وأرجو
أن ييسر الله — بلطفه — حمدا وافرا كثيرا ، يقع موقعا لطيفا ، ويسد مسدا عظيما ،
فيبسط من لسانى ما انقبض ، ويطلع من استرسالى ما غرب . وبالأمس أخرج محمد خليفة
الحاجب — أيدى الله — إلى مستقرك يا مولاي ! بكتاب أطلته ، واختصرته بالإضافة إلى
مارسَم ، وبسطته وإن حذف بعض ما مثل .

وأنت — يا مولاي — أحزم وأعرف من أن تبصر مواضع الرشد ، وتدل على سواء
القصد ، فناشدتك — ياسيدى — أن تبيض^(٢) وجوه إخوانك ، وأهل ودك ، بحميد
صنعك ، وجميل رفدك ، فإن الأمر إن تراخى يسيراً أو تدفع قليلا ، أخرج أبو الوفاء الحاجب
على الجازات ، مستدعيا للمال ومقتضيا ، ووطأته ثقل ، ومثوته تعظم ، والقالة تقبح ، والصدى
يجزع ، والحاسد يشمت . وما يبعثنى على هذه الإطالة إلا الضن بمحلك ، والمنافسة فى ودك ،
والحرص على بقاء موقعك ، من ولى نعمتنا ونعمتك ، ومالك مهجنا ومهجتك .

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) فى الأصل : لمن لم تبيض .

وأرجعُ لغير هذا ، قد عرّفت مولانا مودّع كتاب فلان إليك ، وبطلان ما أحال به عليك ، وقررت الصورة في توفير المصروف إلى الفيوج على تمام ووفور . وأحمد الغلام أنتظره ، وأنت — يا مولاي ! — لا تؤخره ، فر بما اتفقت نهضة ، في أقرب مدة . وإذا لم تلحقني تلك المادة من التسبب وقع تنقّص في الأهبة ، وكتبك متوقّعة ، وأرجوها لا تتأخر ، إن شاء الله .

٨ — ولله

قد كاتبناك ابتداءً وجواباً بما قصّرناه على ذكر المال وحمله ، ومساس الحاجة ودعائها ، وأعلمناك أن مثلك يُقدّم ويرُفع ، ويُؤلى ويُضطلع ، لمثل هذه الحال التي التقربُ فيها فرضُ على الخدم والأشياء ، وبذلُ الطاقة معها حتمٌ على المتصرّفين والأتباع ، وضيقتنا عليك سبل المحاجزة والتأخير ، وأبهمنا دونك طرق المدافعة والتقصير ، وحضضناك على ما تحصل به المحمدة الدائمة ، وتدّخر عنه الخطوة الصادقة .

ولا شك في أنك قد جددت واجتهدت ، وقتت وقعدت ، واضطربت واحتلت ؛ واستخرجت وتمحلت ، وأن حملك هذا يوفى على كل الذي حُمل من تلك النواحي وعهد ، فنهضتُنا تقرب بإذن الله وعونه ، والمؤن — كما تعلم — تثقل وتعظم ، وما من أوليائنا وحاشيتنا إلا من قد وعدناه بهذا الحمل ومئيناه ، فليكن بحيث يسد مسدّاً عظيماً ، ويقع موقعا لطيفا ، وأظهر ما يعرف من كفايتك وغنائك ، ومناصحتك وولائك ، وأعرض عن الراحة ، وارفض الدّعة ، واستغنِ بالمعاملين ، وجدّ بالخالطين ، فالقليل لا يقنع ، واليسير لا ينجع ، والذي يُرضى منك التكثيرُ والتوفير ، وتجنّب الاقتصاد والتمعير .

وقد دعت الصورة إلى ضرورة^(١) متابعة الكتب ومظاهرة الرسل ، وأخرجنا هذا الركابي بعد أن أمر بالإسراع والتعجل ، وحذّر من الإبطاء والتلوّم ، ونحن نتوقع كتابك بمبلغ الحمد وقت صدّره ، فالحال تمنع دون احتمال المطاولة ، والإحالة على الحواجز الممانعة ، والعوارض الشاغلة ، والأيام بل الساعات محصورة معدودة ، ومحصة عليك محسوبة ، إلى

(١) في الأصل : الضرورة .

أن تُسَقِّطَ عنا الشغل ، وتحط الكَلَّ ، وتقدِّم الحمل ، فإن التواني إن عرض في ذلك عرض بمكانك لدينا ، وتحيف حقوقك علينا ، وبعث على أمور أنت بحزمك وتيقظك تُغني عنها ، ولا تُخَوِّج إلى شيء منها ، إن شاء الله .

٩ — واه

عاد الجواب عما خاطبت به الأستاذ فأفاد سكوناً إلى سلامته ، وفر الله منها حظه ، وحفظها وسائر ودائعها عنده ، وأعقب انزعاجاً ، لتأخر المال عن الوقت الذي قدرته ، وتعذر حمله على ما التمسته وأردته ، وبالله ما أرتاب ، بمناب الأستاذ في هذا الباب ، وإن استبطأت واستزدت ، وراجعت وعادوت ، غير أنني أحب أن يُخَصِّر من غرائمه أدهاها إلى تسهيل ما أوتره ، ويعمل من لطائفه أدهاها من تقريب ما أنتظره ، ليتسهل بعون الله التعجل إلى هذا البيجار ، فالإبطاء عنه عجز ، والتأخر دونه ضعف ، وترك السبق إليه وهن .

وإن اتفقت حال أفصح فيها عن طاعتي للأمير السيد ولي نعمتي فهذه ، كيلا يحسب صنائعه لدى ضائعة ، لا تصادف زكاءً ، ولا تنتج غناءً . وإن قُرِبَ انكفاء الأستاذ فهو ما أقترحه ، وأحرص عليه وأحبه ، ليكون ما أورده وأصدره^(١) عن رأي منه ومشورة ، واستضاءة بما يشهد من بصيرة ، ويقوى من عزيمة . والأستاذ — أدام الله عزه — ينبغي ما وعد في استصحاب أكثر ما تنسج له المقدرة ، وتتوجه فيه الحيلة ، فالنهضة لا تمكن ، والخواص على استبطاء ، والعلامان على اقتضاء ، لا سيما والأمر المواجه يقتضي الزيادة في الإحسان^(٢) ، ويبعث على مضاعفة النظر والإنعام ، ليباشروا الخطب بصدور منشرة ، وآمال منبسطة .

ثم الله تعالى ولي إنجاز مواعيده ، بحسب ما يعرف من نيات عبيده . وهو المأمول لإدامة أيام مولانا الأمير السيد عالي الكلمة ، متظاهر البسطة ، سامي الراية ، باقي الدعوة ، لا ترتقى هم الأيام إلى ذروة عزه ، ولا يحل الزمان عُقْدَةً ملكه ، إنه فعال لما يريد . فإن رأى الأستاذ أن يديم إيناسي بكتبه ، ويعلمني آنف ما يتجشمه ، ويتطوَّع به ويؤثره ، في

(٢) في الأصل : الإحسان به .

(١) في الأصل : وأصدر .

أمر المال لأعتد بحسبه ، وَيَقْفِي عَلَى خبره ، وَيَبَاسْطِي فِي مَهْمَه ، فعل .

١٠ — وَاَلِه

عاد الجواب عن كتابي إليه بذكر المال المطلق للخواص ، وما وصفه في حال الناحية وارتفاعها ، والنجوم التي يقع الاستيلاء عنها ، فانزعجت وقلقت ، واستبطأت واستزدت ، وعجبت من حُؤُول الأستاذ عما عرفته ، وألفته ، في التثمر لما يعرض من مهماتي لديه ، وَيُلَقَى من مَارَبِي إليه . وقد علم أن الإنظار والانتظار بمكان ، ما كانت الأمور ساكنة ، والجيش هادئة ، وأن الحرب لا تمهل ، والخطب [لا ^(١)] يُنْظَر ، والرجال لا تجهز للقتال ، إلا بالأموال .

وإذا كان الأمير السيد قد أمرني بالاستعداد للخروج ، واستعجلني للنهوض ، وعول بدواوين خواصى على مال أرجان ^(٢) وكتب الأستاذ بأن مدة حصوله شهران ، فهل إلى النهضة سبيل ، وهل إلى امتثال المرسوم طريق . ألا يعلم الأستاذ أن الجمع الذى يهاب بي إليه يجمع ثمومه الولي المناصح ، ويرقبه العدو الكاشح ، وأن خواصى إذا لم يباشروا تلك الحال بأحسن زينة ، وأجل هينة ، وأوفر عدة ، تَصَوَّرَتْ بصورة يتفادى منها ، ولا يُضْبَر على الغضاضة فيها . ولم يكن الأمير السيد ليعول بي على مال ^(٣) ، أبوابه مرتجة ، وطرقه مبهمة ، وليس للحيلة فيه مساع ، ولا للتمحل في تحصيله مجال . وما أدفع ماقاله الأستاذ وأورده ، وشرحه ووصفه . غير أن كورة أرجان لا تضيق ، وقد حضرها الأستاذ ، إذا جد واجتهد ، واحتال ولطف ، عن القدر المطلق لأصحابه ، لا سيما وهو مصروف إلى أجمع الجهات لحظوظ الدولة ، وأدعاها إلى جمال المملكة .

والذى يزعجنى ويحوجنى أن الذكر قد اضطرب باستدعائى إلى الباب لهذا المهم ، فإن وقع فى حمل المال تأخير ، أو أبطأ به تعذير ، وتأخرت عن مزاوله الخطب ، لم أدر إلى ماذا ينسب تأخرى وعلى أى وجه يحمل هذا . ولو احتجت إلى الخروج منفرداً لما أبطأت عن

(١) زيادة يقتضيهما السياق .

(٢) مدينة فى إقليم فارس فى الجنوب الغربى

من إيران .

(٣) فى الأصل : أموال .

موقف أبذل فيه مهجتي عن مالك رقي ونعمتي ، والأستاذ يقضي الحق كله في هذا الأمر ، ويتوخى ارتهان أقصى الشكر في هذا الوقت ، ولا يدع طريقاً يفضي إلى ما التمتست إلا سلكه ، ولا يغادر ظهراً يدين مما حاولت إلا ركه ، فما أعتدّ ما تحمله إلا معونة تكلفها من خالص ماله ، ولا يظن ما بسطت من القول عن سوء ثقة بمعتقده ، أو صرف ظنة إلى إشفاقه ، غير أن السمعة التي تخوفتها ، والقالة التي تحاميتها ، تصورتا لي ، فبعثتا على ما كتبت واستفزتا لما أوردت ، وأنشده الله ونعمة الأمير السيد أن يترخص في مطاولة أو مدافعة ، أو يحوج إلى مرافعة ومراجعة ، فقد وثق لي ما أعرفه من حرصه على مسرّتي ، وتنسكبه لما ينتج وحشتي بأنّ كتابي يحضّ على تقريب البعيد ، ويهز لتسهيل العسير .

ولعل الأستاذ يفكر في أنه إذا أجاب إلى ما أردت بعد العتب ، وحصل ما أتطلع بتصرف العاملين بين الرفق والعنف ، ظننته — أيده الله — قصّر عند أول ما خاطبته ، ثم تشمّر لمّا عاتبته ، ومعاذ الله ، فإنه في هذه الحال مخبر بصدق في ذلك ، متشمر لقضاء حق . وساعاتي موهوبة لترقب ما يكتب — أيده الله — مقصورة على انتظار ما يرد من جهته ، وإذا تفضل بما ابتغيته ، كان قد رهن عندي منّة توفى على المنن الغرّ ، وترى على الأيادي الزهر ، وتوجب من الإجماد ما لا تأخذ الأيام جدّته ، ومن الاعتداد ما لا يتحيّف الزمان مادته . فإن رأى أن يوفر فكره وخواطره ، وآراءه وهممه ، على توجيه هذا المال — فما يحسب حالا كهذه^(١) ينبيء بها عن عنايته بما عناني ، واهتمامه بما خصني — فعل إن شاء الله .

فصل

قرأت كتابك — أطال الله بقاءك — فانبسط لساني بالمناب ، واتجه لي الخطاب في كل باب . وأوردت على مولانا ما وجب ، واصفاً لنيّتك وطاعتك ، وبذلّك في رضاه أقصى استطاعتك ، ومحبتك للتقرب نهاية جدّك ومقدرتك . وتصرفت في وصف ناحيتك وشمول الكساد لغلاتها ، على كثرة آفاتهما ، وشرحت صورة غلات المجاور وكيف يبعث بالرّخص ،

(١) في الأصل : لهذه .

وَصُرِفَتْ بِالْوَكْسِ ، وَقُلْتُ إِنَّ مَعَوْلَكَ فِي تَوْجِيهِهِ ارْتِفَاعُكَ كَانَ عَلَى مَا يَمْتَنِّهِ أَهْلُ كَرْمَانَ^(١) ،
فَإِنَّهُمْ الْآنَ كَالْمُسْتَغْنَى عَنْ مُجْعَتِهِ ، لَخَصْبِ بِلَدَتِهِ .

وَوَقَعَ ذَلِكَ أَجْمَلُ مَوَاقِعِ الْقَبُولِ ، وَزَالَ — يَعْلَمُ اللَّهُ — عَنِّي شُغْلٌ عَظِيمٌ ، وَسَقَطَ دُونِي
هَمٌّ كَبِيرٌ ، فَالْمَطْلَعُ عَلَى مَا تَجَنُّ الْقُلُوبُ ، وَتَجْمَعُ الصُّدُورُ ، يَشْهَدُ مَسَاهَمَتِي إِيَّاكَ ، وَعِنَايَتِي بِمَا
عِنَّاكَ ، وَمَحَبَّتِي لِازْدِيَادِ صُورَتِكَ جَمَالًا عِنْدَ وَلِيِّ نِعْمَتِنَا وَنِعْمَتِكَ ، وَأَنِّي إِذَا رَأَيْتُ تَوْجِيهِهِ أَدْنَى
عَتَبَ إِلَيْكَ ، وَتَسْلِيطَ أَيْسَرِ اسْتِبْطَاءِ عَلَيْكَ ، حَرَجَ صَدْرِي ، وَذَهَبَ عَلَى أَمْرِي ،
وَإِذَا شَاهَدْتُ أَحْمَادَهُ وَقَدْ تَوَفَّرَتْ عَلَيْكَ ، وَرِضَاهُ وَقَدْ حَسُنَ عِنَّاكَ ، قَوَى قَلْبِي ، وَشَدَّدَ
مِنْ أَزْرِي ، وَالسَّلَامُ .

(١) كَرْمَانَ : وَلَايَةُ مَشْهُورَةٍ فِي شَرْقِ إِيرَانَ .

الباب السابع عشر

في الآداب والمواظظ وما يقاربها

وهو مشتمل على أربع رسالات ولم يكن في الديوان ما يزيد عليها

١ - كتاب

وصل آنفاً من خطابك ما آنسَ مُتَنَاولاً ومفضوضاً^(١) ، ومقروءاً ومعروضاً ، وسرني الله — تعالى — بعافيتك ، لا زالت مُرْتَبِطَةً لديك ، مُسْتَضْحِجَةً أقسام النعمة إليك . واعتددت بما وعدتني عن نفسك ، أمتع الله بها ، ودفع المحاذر عنها ، إيماناً للمكاتبة ، واستمداداً من الآداب بالمواظبة . وأرجو أن يكون الإنجاز من همك ، والوفاء من عزمك ، فما اقتنى امرؤ ولا اقتنى له أفضل من علم ينوّه باسمه ، وينتبه على قدره ، ويزيد في قيمة نفسه ، قضاءً من أمير المؤمنين رضى الله عنه حين قال : قيمة كل امرئ ما يحسن ، وكلاً أن يقول ما يملك . وقد تقدمت في باب فلان بما اقتضاه كتابك في معناه ، فأدِم مسرّتي بما تديمه ، مراعاةً بأخبارك ، ومناجاةً بأوطارك ، إن شاء الله .

٢ - وله

كتابي — أطل الله بقاء الشيخ — عن سلامة في النفس ، أسأل الله صلتها بسلامة العافية ، وحسن الخاتمة ، وأن يلطف لنا في تخليص النفوس من الشبهات ، كما هداانا في دينه الذي ارتضاه بالبينات ، وأحمده قبل وبعد على إفضاله ، وأسأله الصلاة على النبي وآله .

ووصل كتاب الشيخ فسررت — يشهد الله — باسمه موقعاً على عنوانه ، ثم بخبر سلامته ، فإني أعتدّه جمالاً لإخوانه وزمانه ، وإني لأتحسر على قر به وجواره ، وأتأسف على ما يفوت من شفاهه وجواره ، وأرجوه لا ينسانا في الدعاء ، فإننا لا ننساه في الثناء ، ومتى

(١) في الأصل : مفضوضاً بدون واو .

اجتمع عندنا أهل العلم ، ذكرنا لهم ما خصّه الله به من الفضل .
وعلى هذا الذّكر فقد كان هذا البلد من البلاد المستغلة على أهل عدل الله وتوحيده ،
والتصديق بوعدده ووعيده . هذا وفي قتمائه وفور ، وفي الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على
بث كلمة الحق ، وسَمِعَ الأَكثَرُ على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة شغلي من الانتصاب
في بعض ليلي لهذا كرهه والتبيين ، والتكشيف والتخليص ، فقد صلح خلق كثير ، والحمد لله
رب العالمين ، وبه نستعصم من أفعال ، لا تشبه الأقوال ، وهو حسبنا في كل وقت وحال .
والشيخ — أدام الله عزه — يَسُرُّ بمخاطباته ، وَيُؤْنَسُ بنخبه ، وخبر أبي سعد ،
أعزّه الله ، وعارض حاجاته ، إن شاء الله .

٣ — وله إلى أهل الصيمرة^(١)

كتابي — يا إخواني ومشايخي ! — عن سلامة تجمع النفس والدين ، والحمد لله رب
العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابكم — فسرّني بما دلّ عليه من استقامة أحوالكم ، وسألته أن يبلغكم
في دينكم ودنياكم غاية آمالكم — مُتَوَقِّعًا ، إذ كنتم بحمد الله ومَنِّه ، وطوّله وفضله ،
المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقته في وعيده ووعدده ، وكان بلدكم من بين البلاد
كفرة أدهم ، وشهاب في ليل مظلم ، وما في النعم أجلّ موقعًا ، وأهنأ مشرعا ، من النعمة
في القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبّه الله بخلقه ، فتتابع
في جهله ، أو جورّه في فعله ، فشك في حسن نظره وطوّله . والحمد لله الذي جمع على الصدق
آراءنا ، وحى من مكاييد الشيطان أهواءنا ، يزيدنا تسديدا وتأيدا ، وتثبيتا وتمهيدا ، ويوفقنا
لصالح الأعمال ، كما وفقنا لصالح الأقوال .

وكان في الواجب أن أبدأكم بالمواصلة والمكاتبة والمراسلة ، ولكنكم سبقتم إلى الجميل كما
توجيه أديانكم الصحيحة ، ونياتكم الصريحة . نسأل الله اجتماعا حيث لا فرقة ، وأنساً

(١) بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان على يسار الذهاب من همدان إلى بغداد .

حيث لا وحشة ، فإنما نحن له وبه ، ونَوَاصِينَا فِي مِلْكِهِ وَبِيَدِهِ ، إِلَيْهِ نَفُوضُ بِهِ نَسْتَعِينُ ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد عرفت شكركم لفلان فاعتقدت له عن ذلك ودّاً وعهداً ، وأوجبت شكراً وحماً ،
ووجدتني الخصوص بما أزل^(١) إليكم ، واستمدّ به عليكم ، وقد خاطبته معتدّاً بما أتاه ، حاصّاً
على إتمام ما أنشأه .

وأنا أسألكم — أيدكم الله — أن تُسَهِّمُوا لِي فِي أَدْعِيَتِكُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجَهَارًا ،
ليُكْفِينَا اللَّهُ شُرُورَ أَنْفُسِنَا ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، وَيُخْتِمَ لَنَا بِخَيْرِ أَعْمَالِنَا ، وَيَتَابَعَ الطَّافَهُ فِي تَخْفِيفِ
الْمَآثِمِ ، وَرَدِّ الْمَظَالِمِ ، وَتَجْدِيدِ التَّوْبَةِ ، وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْخَوْبَةِ .

ولولا أن الرسول خرج مستعجلاً لأصحابه بعض ما صنفت ، وأبليت وألفت ، وقد
أمرت بجميع ما أستصلحه لكم ، وسينفذ — من بعدُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ — إِلَيْكُمْ . ومما أَسْرَمْتُ
به أن الجَبْرَ خصوصاً كان استولى على هذه البقاع ، فحين يَسِّرُ اللَّهُ وَرُودِي إِيَّاهَا ، انكشفت
الشُّبُهَةُ ، وزال العَمَهُ ، وقوى الحق وأهله ، ورجع كثير ممن الدينُ هُمُ ، ولله الشكر ، وله
الطول والمن ، فلا تدعوا مكاتبتى بأخباركم ، وحاجاتكم وأوطاركم .

٤ — وله خطبة نكاح

الحمد لله ناظم الأشبات ، ومسبّب الأرحام للتشابكات ، وجامع القلوب بعد افتراقها ،
ورادّها عن تباينها لاتفاقها ، حمداً يُزَلِّفُ لَدَيْهِ ، وَيُقَرِّبُ إِلَيْهِ ، وَصَلَى اللَّهُ عَلَى الصَّادِعِ
بِأَوَامِرِهِ ، وَالدَّالِ عَلَى زَوَاجِرِهِ ، مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ .

وإن أحق ما استعمله الخالون^(٢) ، ولحق به التالون ، كتاب الله الذي تعبد به عباده ،
وأظهر فيه مراده ، فما حضنا عليه ، وأهاب بنا إليه ، طيبُ النكاح ، الْمُغْنَى عَنْ خُبْثِ
السَّفَاحِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ الْآيَةَ .

وذكر فلان ابن فلان عقيلتكم فلانة بنت فلان خاطباً ، وبذل لها من الصداق دأغباً ،
فخذوا بأدب الله إجابةً إلى ما حاوله ، وتصديقاً لما أمله ، خار الله لنا ولكم .

(١) أزل : أسدى .

(٢) في الأصل : العالون .

الباب الثامن عشر

فصول وغرر ، وتوقيعات ودرر

١ - فصل

ذلك إذا تسهل زاد في تراجع الأعداء على أعقاب الحسور ، وأدراج الإقصار والقصور ،
وقد تقرر من الأمر ، ما يوجب على إدامة الشكر ، إذ كنت — يشهد الله — أفرض
طاعة الأمير على نفسى فريضة ، لا أريد عنها سوى إحماده مَعُوضَةً .

٢ - توقيع

ما حسبت فلانا وإن علت حكمته ، وارتفعت كلمته ، يَشْجُعُ لتأخير المرسوم لفلان ،
وهو يعلم كيف تخصّصه بى ، وتقدّمه أ كفاءه فى مجلسى ، وأنه من لا يكاد يبعد ليلاً
ونهاراً عن مرمى طرفى . وقد تلحق العاصى السكره ، إذا ملكته من الإهمال نشوة ، فأنبهه
من رقدته قولاً ، قبل أن أنبّهه فعلاً ، وليعدّ ذم فلان له حمداً ، أستبدل من الإعراض
عظفاً . والسلام .

٣ - فصل

مطاوله سيدى تُسْتَلَذُّ ، وتقطيع ساعات الصوم بمثلها يُسْتَحَبُّ ، ولكن الشمس قد
عادت كالمرآة فى كف الأشلّ ، كأن الأرض تجذبها بمرس ، وتكسوها السماء لباس ورّس ،
وآخر دعواى أن الحمد لله رب العالمين .

٤ - فصل

فلان قد أغلق بابى الأداء والتحمل ، وسهّل طريقى التأخير والمطل ، وأجرى أصحاب

التسبيبات مجرّى واحداً في التأخر والمنع ، وصارت الكتب تصدر إليه ، فيعيدها عيناً عمياء ، وأذناً صماء . ويجب أن تُنبّههم عليه طرق المدافعة ، وتأخذ دونه بمنافذ المطاولة ، ولا تقنع بمواعيد ، قد استراح إلى اتصالها ، وأخذ ينجزها بأمثالها .

٥ — فصل

مولاي يعلم أن فلانا خدمني صغيراً وكبيراً ، وفارق صاحبه ، ليس لأن مرعاه كان جديداً ، ولكن ليزداد إسراراً ، وقد ازداد عندك إمعاراً^(١) ، فليأذن له سيدي في العود إلى حضرتي لئلا يُطلَّ حقه ، ويُهدَر ذمامه ، إن شاء الله .

٦ — توقيع إلى عامل

بلغني أنك عرّمت على تفرقة غلة السلطان في الرعية كُرْهاً ، وما جعل الله ذلك لك ، ولا أمرك سلطانك ، أطل الله بقاءه ، وليت ما فعلته عاملاً لم يُفعل ، فإنَّ عاديتَه كَثُرَتْ ، وعائدتَه قَلَّتْ . فَأَجْرِ — أيديك الله — أمر القوم في الرفق والإحسان مجراهم الأول ، بل زدْهم بحسب زيادة إحسان الله عند مولانا وعندي في خدمته ، وأشع ذلك لتكتسب النفوس عن ضعفها قوة ، وعن خيفتها أمانة .

٧ — فصل

وصل فلان اليوم بوصول الحمل :
فلم أدر أن الحاجبية وضُلُّها على القلب أخلاً أم نزولى على نجد
وأنا منذ الغداة أسأله عن أخبار مولانا ، فكأنني أجَدَحُ المسك فتيقاً ، وأُصْبِحُ الروض أنيقاً ، لازالت أخبار مولاي أنفاس الأسحار .

٨ — فصل

أبو فلان مشاهدته أبعد من النجوم ، فلم ذلك ؟ لأنه من عنايتي عارٍ ، أو من إيجاب

(١) الإعمار من أمعرت الأرض : لم يكن فيها نبات .

مولاي خال ، أو لكثرة من يساوقه في الخفة والقرب من مجلسي ؟ . إذا ثَقُلَ بعض أعضائي على بعض ، وتبرمت بالنظر إلى الأرض ، وليس الحَمْلُ عندي بعذر ، فإن ماله عنه بمعزل ومعدل . ومولاي يُعْتَبِه أو يكتب رجعتَه ، لأقيم له البدل وأُكْفَى مراجعته ، إن شاء الله .

٩ — توقيع على ظهر كتاب لابن جحا الكوفاني

لو استغنى موثوق بوده ، مسكون إلى عهده ، عن الإذكار بنفسه ، والدلالة على صحة عَقْدِهِ ، لكنت يا أخي ! — أطل الله بقاءك — ذلك الإنسان ، لاعتمادى سريرتك الخالصة ، ومودتك الصادقة .

والله يعلم أني آنس إلى ذكرك إذا مرَّ بسمعي ، واسمك إذا خطر بفكري ، فكيف بكتابك إذا قابل طرفي ، وأوجب لك ما لعلّي لا أوجبه من خالص إخواني إلا لأفراد وأعيان ، يعز أمثالهم في الزمان ، فخطبني متى نشطت ، واسترسل في حاجاتك كيف آثرت . وإن جريت فيما يخصك على الانقباض الذي هو طبعك ، فكاتبني بحاجات إخوانك ، ليعرفوا موقعك من إشاري ، ومحلك من اصطفاي واختياري . سقاك الله فروّاك ، وحيّاك وأحياك ، وهو حسبي ، وصلواته على النبي محمد وآله .

١٠ — توقيع على رقعة لابن جحا

أنت الأخ ديناً ، والصديق يقيناً ، وكلفة التجشم موضوعة عنك ، أطل الله بقاءك ، لقوة التحقق ، ولو عرفت مقامك حيث أصحرت لكددت الناظر طالباً ، واستنجدت الطرف رائداً . ولو وقفت على اعتيادك الباب لرتبت من يتلقاتك مكرماً ، ويوصلك مؤثراً . ودون الغيوب أستار لا تكشفها العيون والقلوب . ومتى نشطت للحضور انفرجت أغلاق الأبواب ، وتجاft أعطاف الستور ، وقالت الدار مرحباً .

الباب التاسع عشر

في النوارد النادرة في فنها

وهي الكتب الغريبة المعاني في جنسها

١ - فصل في صفة الخَرَ كاهات^(١)

سبيلها أن لا يتخللها ما يضعف عوده ، ويهين ممتنه ، أو يقع فيها ذوات العقد والأبن ،
أو يتجوز في أصابعها وأدهانها ، فتتشقق عند تداول الرياح إياها ، وأن يبالي في انتقاء
أصوافها ، والتناهي في عركها .

٢ - وله عتاب كاتب تراجع في صناعته

كنت ابتدأتك بالمخاطبة ، وحضضتك في آلات الكتابة على المداومة والمواظبة ،
فأجد خطك يزداد على الأيام ويستجاد . ثم أهملت التمهيد ، واستعملت التجوز ، وصار
ما تكتبه مضطرب الحروف ، متضاعف الضعف والتحريف .

وجعلت تأول لك يوماً بقلم لم يستجد برّيه ، ويوماً بمداد لم يساعد جريه ، إلى أن
صارت رداءة الخط سنة لك وسنة ، ورسمًا ثابتًا مرتهنًا ، فقدمت هذا الخطاب مذكراً ،
ورجوت ألا تحوج إلى مثله منكرًا .

وإياك إياك^(٢) واضطرابي ، فخابر على المشق والتسويد ، واهتم بالتصحيح والتجويد ،
واعمل على أن تقوم حرفاً حرفاً من خطك ، وتتصوره في نفسك قبل تصويره بيدك ،
وليكن لك من يوقفك على مواضع التقصير والتضجيع ، لأتبين الزيادة فيما يرد منك وقتاً
وقتاً ، قبل أن أوسعك تهجيناً ومقتاً ، والسلام :

(١) الحركاه : الحيمة .

(٢) في الأصل : وإياك .

٣ - وله في تكذيب أراجيف العامة

دَلَّ كتابك على أراجيف تتردد بين العوام ، في أخبار مدينة السلام ، وما أدرى أيُّ اختلاف ، قاض للإرجاف ؟ وقد ذلَّ الله لمولانا الملك السيد رقاب الزمان ، ومَلَّكه أعنة الأيام ، واستصفي له ما لم تحلم به ملوك العرب ، وأكسرة العجم ، وانضافت الشامات إلى العراقيين في الانقياد ، وترتب العمال في جميع البلاد ، ودانت طواغيت الروم ، وتقرَّبَ المغربي برسول بعد رسول ، وصار بنو حمدان كريم ، طاح في ريح عقيم ، ومُلكت قلاعهم التي لم تنتزع منذ مائة وخمسين سنة ، مملوءة ذخائر ، مشحونة غنائم ، والشمس لاسبيل إلى سترها ، وتغطية أمرها .

وقد عاد — حرس الله أيامه ، ونصر أعلامه — إلى حضرة الخلافة ، ومجلس الإمامة بآثار في الذب عن البيضة ، وأياد^(١) في الذب عن الحوزة ، ومقامات في تزايد البسطة ، وتضاعف العزة ، أسلمت المنابذين للأيدى والأفواه ، وكبَّتْهم على الرؤوس والجباه ، تُجْبَى إليه ثمرات كل أرض ، وتُسَمِّح له الدنيا ذات الطول والعرض ، فالحمد لله على ما أسنَى ، والحمد لله على ما سنَى ، ولا زال موليانا الملك السيد والأمير المؤيد آخذين بأفاق الحمد ، مادين لرواق الملك ، إن الله يفعل ما هو لبلاده أصلح ، ويمكن من هو بعباده أرأف .

٤ - وله في إعفاء من استعفى من بهاء التلقيب

والوعد بما سواه من أنواع التشريف

كتابي — أطال الله بقاء الأمير — عن سلامة مولانا الأمير المؤيد واتصال السعادات إلى عالي حضرته ، واقتران البركات بسامى كلمته ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

وكنت خاطبت الأمير بالسبب الذي استعاد فلانا إلى الحضرة ، وعاد في الجواب مادل على أنه لو أُصْدِرَ بتلك الجملة ، واقتصر دون اللقب على اللواء والعهد والخلعة ، لكان ذلك أدعى إلى محبته ، وأدنى إلى مسرَّته ، وجدَّدَ القول في الاستعفاء من اللقب ، والاكتفاء بما

(١) في الأصل : والزيادة .

سواه من الرُتب ، وخاطبَ حضرة مولانا بما قدمتُ إصداره ، فعرف — أطل الله بقاءه —
بغيرته وإيثاره ، وقال ، حرس الله ملكه ، إنا حسبنا اللقب أوقع بقلبه ، وآثر في نفسه ،
وإذا كرهه فلا إكراه على التشريف ، ولا امتناع من التخفيف .

وإن فلانا مُنْهَضٌ في الأسبوع بالخَلَع التي يعرف الله ميامنها ، ويُفيض محاسنها ، واللواء
الذي يُلَوَّى أيدي المنازعين ، ويُلَوَّى بالمنابذين والمقارعين ، والعهدِ أشرف ما عهد في أمثاله ،
وأولى ما قدمه السلطان لأمرأه أعماله . وكتاب مولانا تقتزن به هذه المحاطبة . وإن مولانا
الأمير رأى إصدارها مع مجرزين ، يصلان مسرعين ، وما يلي هذه المحاطبة ينبىء — بمشيئة
الله — عن فصول^(١) فلان ، والنص على اليوم الذي نهض فيه عن الحضرة أجلها الله .

٥ — وله في الانباء عن الوحشة لمفارقة وليّ النعمة

كتابى — أطل الله بقاء مولاي ورئيسى — وحالى منذ فارقت الباب المعمور حال
من أدخل الجنان ، حتى إذا عرف نعمها كيف تُسَبِّغ ، ونعيمها كيف يَخْلُص ، ودرجاتها
كيف تسمو ، وقطوفها كيف تدنو ، راعه الخروج منها ، فلم يكشف غمته كاشف ، ولم يدفع
حسرتة دافع ، وهل للخلود عِوَضٌ فتقبله النفوس ، وتطمئن به عليه القلوب ، والله وليّ
إعادتى إلى ظله الظليل ، وكنفه^(٢) الشريف العميم .

وأخر كتابى عن مولاي حتى اليوم ، لأنى عدت فتعاون على من الحَمَى والقلق خصمان
يدفعانى بينهما ، وضعفت طاقتى عنهما . وقد كنت عن أحدهما عاجز القوة ، قاصر المنّة ،
فكيف إذا اجتمعا . هذا والبعد عن الحضرة العالية ، أشد وقعا وأحرّ لذعا ، لأنه قُوّت
شرف كان يبسط باع المطاولة ، وتراخى مجد كان اكتسابه لسان المنافرة ، وليس الذى
يخص الجسم أذاه ، كالذى يشترك فيه النفس والجاه .

وشغلى الآن الدعاء لمولانا فقد كان فى تواتر تلك النعم ، وتظاهر تلك المنح ما يشغل عن
الفكر فى ارتفاع أقدارها ، واتساع أقطارها ، والآن أخذت أتتبعها ، فلى عند ذكر كل
واحدة منها جبهةٌ ساجدة ، ودعوة صادقة ، وقُرْبٌ — كما أوجب الله — متصلة ، وزلفٌ

(١) الفصول هنا : الخروج ، وفى الأصل : الفصول (٢) فى الأصل : وكف .

— إن شاء الله — متقبّلة . فأما انزعاجي لفراق مولاي فانزعاج السارى زال قرره ، والروض
تخطّاه مطره ، ومنّ هذا الذى يبتعد عن فرد دهره ، وشمس فصله ، ومن يستمد محاسن قوله ،
كما يستظهر بمكارم فعله ، فتبقى له جانحة لم تلتهب قلعا ، ولم تشتعل أسفا ! ؟ على أنى حاضره
بنيتي ، ومسايره بطويتي ، والمرء يسير بقلبه ، وإن أقام بشخصه . ولله لطائف تعيد الدار
أدنى منها أمس ، وأحرى بالسرور والأنس ، فإن رأى مولاي أن يعين^(١) على سقمى وهى
بكتبه جلاء الأحزان ، وشفاء الأبدان ، ويصرفنى على أمره ونهيه ، فعل إن شاء الله .

٦ — وله فى وصف شعر

وصلت لك قصيدة هى السحر أو أدق ، والماء أو أرق ، قد جمعت إلى السلاسة متانة ،
وإلى السهولة رصانة ، فكأن الفحلين أبا فراس وأباحزرة^(٢) ، أنشرا فى مسكك ، وانخرطا
فى سلكك ، فنحت هذا لك صخره ، وأساح لك ذاك بحره . وحسبك بشعر وقف إعجابى
وتعجبي إزاءه ، حتى كررت قراءته ، وأدمت استقراءه . هذا وأكثر ما أسمع — منذ اليوم —
يصدى الريّان ، ويصدى الأفهام . لا زال عودك فى الفضل صليبا ، وغصنك منه رطيبا .
وقد اغتفرت لك الغارة الشعواء ، وإن كنت فيها لقوة شغواء ، فأما النعمة التى هنأت بها ،
فثوب مدحك طرّته ، إن لم يكن طرفا شعرك غرّته . وفلان حبذا هو فى السجّراء ، فليؤلّ
إيصال جوابه ، من تولى إصدار كتابه .

٧ — وله

وصل كتاب الشريف سيدى ومولاي زائدا فى بره ، عاضدا سابق فضله ، وآنس
الله ربّعى وسَمَعى بخبر سلامته وصل الله خطامها ، وحرس أيامها . وعرفت ما رآه من إتمام
غزيمته فى الحج ، وتبينت له أمارات الخير والنجح . وإنما يقصد البيت الذى رفع جده
خليل الرحمن — صلى الله عليه — قواعده ، وأعلى أبوه رسول الله — صلى الله عليه —

(٢) يعنى الفرزدق وجريرا .

(١) فى الأصل : يعيد .

مفاخره ، فلا يرى إلا مواقف الأنبياء والأصفياء من أجداده الكرام ، وآبائه العظام ، حيث يهبط الملائكة المقربون على رسول رب العالمين .

تلك منازل ورثها بشرفه العظيم ، ومفخره العظيم . فالحمد لله الذى أوضح فى ذلك دليله ، وسهّل سبيله ، كما أنار حجته ، ورفع فى الذرية الزكية درجته ، وأحسن الله أداؤه ، وأطال فى طاعته بقاءه ، وزكّى عمله ، وبلغه فى مضيه ^(١) وانكفأه أمله . وأنا أسأله — أدام الله عزه ، إذا يسر الله وروده الحرمين ، ووقوفه فى المشعرين ، وتنقله بين المعرف والمحصب ، وطوافه بالبيت المعظم ، واستلامه الحجر الأسود ، وقيامه على بئر زمزم ، وسعيه بين الصفا والمروة ، ودخوله ، إن دخل ، إلى الكعبة ، ثم إذا قرب من مشهد رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله ، زائرا ، وعدل إلى البقيع مسلما ، وعاد إلى الغرى ^(٢) والحائر ^(٣) صلوات الله على سكانهما سيد الأوصياء ، وسيد الشهداء — أن يذكّرني فى أدعيته ، ويتوسل عني برسول الله ، صلى الله عليه ، والسادة من ذريته ، ويكون ما يلتمسه لى العافية فى الدين والدنيا ، والسعادة فى الخاتمة والعقبى ، والتوفيق لردّ المظالم ، والخروج من التبعات ، والتوبة من السيئات ، والتباعد من الشبهات ، فتلك وديعتى إليه ، وأمانتى قد أخرجتها إليه .

وأما النيابة عن سيدى الشريف فلا أطيل القول ، فيشهد الله أنى — مع ما أتانى الله من حظ دين ودنيا — لا أدفع نفسى عن أيسر أمره ، تقربا إلى خير الأولين ، والآخرين جدّه صلى الله عليه . وسينفذ منى إلى فلان ما يزيد بصيرة فى التكفل بتلك الأسباب ، وهؤلاء الأصحاب ، إن شاء الله .

٨ — وله إلى الأستاذ الرئيس أبى العباس ^(٤)

وصل كتاب مولاي فلصق بيدي ، وندي على كبدى ، ولم أدر بماذا أنعته وقد ملّى قلبى وملا صدرى ، وكيف أصفه وقد أمتع نفسى ورفع طرْفى ، وهل أقول نسيم الرياض تدرّجت الشمال على أنوارها ، وأغرّيت الصبا بإخراج أسرارها ، أم أقول الحياة عادت فى

(٣) البقعة التى دفن بها الحسين بن على .

(٤) هو أبو العباس الضبي .

(١) فى الأصل : مضيه .

(٢) البقعة التى فيها قبر على بن أبى طالب .

الجسد ، والروح سرى في البدن ، فله على كل مستحسنٍ أنيق فضل ، وعند كل حصارٍ سبقٌ وخصل . وحسبت انبساطَ مولاي فيه مواهبَ قصرت الأمانى عنها ، فطال إحسان الله بها ، ومنأخِ رقدت الآمال فيها ، فاستيقظت عينُ أفضال الله عنها ، وأنا أرجو أن يعيدنى الله فيه لأفضل عادته ، ويعيدنى فيه بلطفه ورأفته ، فأقرأ كتابه مبتسماً عن خطه ، كما قرأته منتظماً للفظه ، لأجمع تحجيل المسرة إلى غررتها ، وأقرن حجة الأنس إلى عمرتها ، والله يفعل ما يريد ، وهو اللطيف المجيد .

قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره ، وأنبا عنه من أحوال جسمه ، فدللتني جملة على بقايا في البدن يُحتاج معها إلى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته ، وقلة شهوته ، فلامرين : أحدهما أن الجسم — كما قلت آنفاً — لم يُنقّ فتفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة السابقة . والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفئات ولزّت بها المبرّدات ضعفت فتقل الشهوة ويضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطفى ويغذى ، ثم يُمْنك من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدّم علاج الأهم ، ثم عدّ فأصلح ما أفسدت .

والأقراصُ في أواخر الحمّيات خيرٌ ما نُقيت به الكبد ، وأصلحت به العروق ، وقوى به الطحال ، ليتمكن من جذب [العكر^(١)] لاسيما والذى وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها ، والبلدة التى وردّها ، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقيّاً من الفضولات لما أثر هذا التأثير ، ولا طوّل هذا التطويل ، وإنما اغترّ مولاي بأيام السلامة فكان يَنبَسِطُ في أنواع الطعام ، ويُسرف في تناول الشراب ، فامتلا الجسم من تلك الكيموسات الردية ، وورد بلداً شديد التحليل مضطرب الأهوية ، فوجدت النفس عوناً على حلّ ما انعقد ، ونفض ما اجتمع . وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن الجسد يخلص خلاص الإبريز إذا زال عنه الخبث ، وسُبِكَ فقارقه الدرن .

وأما الرعشة التى يتألم مولاي منها ، ويضيق صدرها بها ، فليست — والله — محذورة العاقبة ، وإنها لتزول بإقبال العافية ، فالرعشة التى يُتَخَوّف منها ، هى التى تعرض من ضعف

(١) زيادة من اليتيمة طبعة الشام ٤٢/٣ .

القوة الحيوانية ، كما تعرض للمشايخ وتؤدّي — بمشاركة الدماغ — إلى كثير من العظام ، فأما هذه التي تُعتاد بعقب الحمى ، فهي على ما قال جالينوس في تقصّيه الفضول : من أن حدوثها يكون ، إذا شاركت العروق — التي تحدث فيها العلة — العصب ، وتزول عنه بزوال الفضل .

وعَجِب مولاي من تكثره شَمّ الفواكه ، ولا عجب إذا عرف السبب ، فإن العفونة التي في العروق قد طبّقت روائحها آلات الشم ، فما يصل إليها من الروائح الزكية يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتتكرهها ولا تقبلها ، وتأبأها ولا تؤثرها . وهذا قياس بين على ما كشفه الأفروديسي .

ألا يرى مولاي أن الأشياء الحلوة توجد في فم ذى الصفراء بطعم الأشياء المرة ، لاستيلاء المرارة المضادة للحلاوة ، على آلات الذوق والمضغ والإدارة . وهذا راجع إلى ما حكمنا به أولاً من أن هناك فضلاً لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يُخشى من سقوط القوة ، وإن كان ما لم يخرج لم يؤثر بوفور الصحة .

وأنا أحمد الله ، إذ ليست شهوة سيدي متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخطا الفاسدة تقرى صاحبها بالأكل الزائد ، وتعرضه للمزاج الفاسد ، إلا أن التغذّي لا يجوز إهماله دفعة ، والتبرم به ضربة ، فإن البدن إذا احتاج إليه وجب للعليل أن يتناوله تناوله الدواء الذي يصبر عليه ، وذلك أن في دقة الحمية وترك الرجوع أول أول ، إلى عادة^(١) الصحة ، إماتة للشهوة ، وحياة للقوة .

وجالينوس شرط في المعالجات أجمع استحفاظ القوى ، لأن الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر ، إلا أن ذلك بإزاء ما قاله الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم : أنك متى زدته غذاء زدته شراً ، وهو نفسه يقول : إن الحمية التي في نهاية الدقة ليست بمحمودة ، والطرفان من الإسراف والإجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم . أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وقد كتبت في كذا ما يغني اهتمام سيدي به عن ترديد ذكره :

وإذا رميت إلى ابن غريم حاجة فاعلم بأن جناحها يستيسر

(١) هكذا في اليتيمة وفي الأصل : إعادة .

٩ — وله جواب كتاب فتح ورد من الشريف أبي طالب السيلقي

هذا كتاب الشريف سيدى طلع ، أم عهد الشباب رجع ، وخطابه أسفر ، أم لقاءه
تيسر ، والربيع ضحك وابتسم ، أم بيانه ظهر فبهر ، والزمان أعتب ، بعد ما أذنب ، أم
حواره تلي وسمع ، والوصل بعد الهجراتيح وقدر ، أم صوب العقول من بين يديه اعتن^(١)
وعرض ، وعشيت الحى لذت بمهب نسيمها ، أم فقر من سحره تجلت في سلك نظمها ،
وساعات اللوى أسعفت بضم الشيتين ، ودفعت بالقرب في صدر البين ، أم رتعت العين
في حديقة بيانه أظار البلاغة ، وحوامل الخطابة ، وغرة الدهر انتهزت من أثناء نوائها
السود ، أم لمع من أفكاره تراءت من خلل السطور ، وصفحة العفو تجلت لموبق من
جرائمه ، أم صحيفته حدثت عن غر فوائده ، والهداية أتاحت للحيران وقد أخذ عن مراشده ،
أم تهنئته أقبلت مقتبسة من محاسنه ومحامده ، والفقر عاجلته الثروة ناسخة بؤسائه بنعمائه ،
أم مناجاته توشحت بحل فهمه وحلاه ، والنزاع نفع بالاجتماع غليله ، أم كلامه سهل
في المسامع سبيله .

نعم وصل الكتاب ، فكان مئى النفس وقرة الطرف ، وانشراح الصدر ، وبرد
الكبد ، والشفاء بعد السقم ، وغاية الأمل ، ونهاية الطلب ، ومظنة الوطر ، وغاية المراد ،
ونهيّة المرتاد ، وفرحة الإياب ، وإصابة الغرض الأبعد ، والشماتة بالعدو الأنكد ، والعيش
الذى يقال فيه سمح ، ويقال غض ، ويقال رطب ، فرأيت به فتحا ثانيا ، ونصرا تاليا ،
وأنسا ناميا ، وعيشا راضيا ، وخيرا وافيا ، وسرورا صافيا ، واقتبست عنه علما جما ، وأدبا غمرا ،
وفضلا دثرا ، ووجها من الزمان طلقا ، وجانبا من الخير سمحا ، وقلت له أهلا وسهلا ،
وسعة ورخبا ، ولم لا ، وهو كتاب [سلاله^(٢)] خيرة الله من خلقه ، وحجته من أرضه ،
والهادى إلى حقه ، والمنبّه على حكمه ، والداعى إلى رشده ، والآخذ بفرضه ، والمؤدّب بنديه ،
والمصرف بين إباحته وحظره ، والمؤيد من عنده ، والمحتج به على جنه وإنسه . مختار من
أكرم المنابت ، منتجب من أشرف العناصر ، مرتضى من أعلى المحائد ، مؤثر من أعظم

(١) فى الأصل : اعتز .

(٢) زيادة يقتضيه السياق .

العشائر ، مُعْتَمِّمٌ من أُنْحَمِ القبائل ، معضود بالمعجزات الغرّ ، مرفود بالدلالات الزُّهر ، لا تخبو ناره ، ولا يوضع مناره ، ولا يُتَحَيَّفُ سناه وسناؤه ، هُدَى به الخلق من ضلالة سوداء دهاء ، وعُلِّمُوا به من جهالة رَبِّدَاءِ جهلاء . مبارك مولده ، سعيد مورده ، قاطعة حجته ، سامية درجته ، ساطع صباحه ، متوقد مصباحه ، مظفّرة حروبه ، ميسرة خطوبه ، نُسِخَتْ بملته الملل ، وبشرعته الشرع ، وبنحلته النحل ، وبكلمته الكلم ، وبأتمته الأتم ، وبسنته السنن ، وصار العاقب والخاتم ، والقاطع والجازم ، قد أفرد بالزعامة وحده ، وختم بأن لا نبي بعده ، فاستوفت دعوته شرق الأرض وغربها ، ومسحت برّ الدنيا وبحرها ، وأذعنت له سود الرجال وحرّها ، وذلت لعزته صيد الملوك وكبرها ، وصار المخالفون سرّاً ، يضطرون إلى اعتزاء إليه جهرا ، والمنحرفون عنه إدامانا ، يحقنون دماءهم بالانحياز معه إعلانا ، يُفَصِّحُ بشعاره على المنابر ، وبالصلاة عليه في المحاضر ، وتعمّر بذكره صدور المساجد والمنابر ، ويستوى في النظامين لأمره حالتا الغائب والحاضر ، والوارد والصادر ، لم يكتب كاتب إلا ابتداء مصليا عليه ، ولم يختم إلا برّد السلام والتحية إليه ، كأنهم مسخرون غير مؤثرين ، ومجبرون غير متخيرين ، لطفوا من الله جمعهم على فضيلته ، وألّفهم على جديله . ذلك سيد الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وإن للشریف مع هذا شرفا آخر تضع له الأفلاك خدودها وجباهها ، وتلثم النجوم أرضه : أفواها وشفاهها ، ينضاف إلى ذلك الذي يلحظ الجوزاء من عال ، ويطول على السماء كلّ مطال ، بمن إسلامه سابق ، ومحله سامق ، ومجده باسق ، وذكره نجم طارق ، وسيفه قدر وبارق ، وعلمه بحر دافق ، وإمامته لواء خافق ، ونظير هرون^(١) عند المشاكلة ، وباب المدينة^(٢) عند المشابهة ، بدر يوم بدر بل شمس ، وأخو المصطفى بل نفسه ، مصلى القبلتين ، والهاشمي من الهاشميين ، كُفُوَ أشرف النسم ، وأكرم الكرائم في الأمم . نسله أعز نسل ، وأصله أفضل أصل ، به تُحلّ المشكلات ، وإليه ترجع العضلات ، ولداه الشمس والقمر ، ولولا علىّ لهلك عمر . سيفه أمّ الآجال ، ورحمه يتم الأطفال ، وحملته رفع السدود ، وصولته كسر البنود ، قوى الله [به^(٣)] أزر المسلمين ، وأفشى القتل

(١) إشارة إلى ما يروى من أن النبي (ص) قال
لعلّي : أنت مني بمنزلة هرون من موسى .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .
(٣) مدينة العلم وعلىّ بابها .

(٢) إشارة إلى ما يروى من قول الرسول أنا

في المشركين . قيم^(١) الجنان ، وباب الرحمة والرضوان . ثانی أصحاب الكساء^(٢) في إذهاب
الرجس ، وحامل لواء الحمد عن يمين العرش ، وصاحب الحوض يسقى من شایع ، وبایع ،
ويمنع من ناصب ونازع . ذاك أمير المؤمنين صلوات الله^(٣) [عليه] تختص أوصافه عن
المشاركة ، وتخلص نعوته عن المزاحمة .

وهذا — أطال الله بقاء سيدي — باب إذا اشتغل به استنفد البحر مدادا ، وبسط
الأرض بياضا وسوادا ، ونباتها وشجرها أقلاما^(٤) ، وأنفاس البشر خطابا وكلاما . وإنما
ذكرت من الدائرة نقطة ، ومن البحر قطرة ، لأکید مناصبا ، وأغیظ مجانبا . وأرجع
للكتاب . نعم وحمد الشريف سيدي ربه على هذا الفتح الكريم منصبه ، العظيم مرقبه ،
البهي مطلعته ، السني موقعه ، الرفيع مناطه ، الواضح سراطه ، السابق رهانه ، القائم
برهانه ، الشاهد أثره ، السائر خبره ، المرفوع ضبعه وباعه ، المشبوح بسطه وذراعه ،
الصادق سحابه ونوؤه ، الصادع صباحه^(٥) وضوؤه . وكيف لا يكون كذلك ومولانا
الملك السيد فاتح تدبيره ، ومبتدئ تقريره ، ومنشئ سحابه ، ورافع حجابيه ، ومهني
دواعيه ، ومثقف مساعيه ، والقاسم له لحظة من حفاقي سريره ، وقادمة من جناحي تقريره ،
وإذا غزم فقد أوقع ، وإذا أمر فقد نفذ ، وإذا قال فقد ارتسم ، وإذا صال فقد انتقم ،
ولاة الأرض خلفاؤه ، وجنود الأقاليم أولياؤه ، والقدر يخدم أمره ، والقضاء يتبع حكمه ،
والدهر يمثل رسمه ، والزمان يتقبل أخذه وتركه . ومولانا الأمير المؤيد مناهض الخطب
بنفسه ومراميه ، وناهض له بصولته وباسه ، ومرجف الأرض بسنابك خيله ، وحوافر الجياد
تحت الأجداد من جيشه ، ورام نعر الأعداء بكيده — وهو يرتقي مناكب الجبال الرواجح ،
حتى يحطمها إلى بطون الأباطح — ومعتمدة صدورهم بأيده^(٦) . ودونه ماتضع كل ذات حمل
عنده حملها ، وتخف الغبراء وتهجر ثقلها ، وملاقيهم بعد ذلك رجال يسترسلون إلى المنايا ،
كان رحما — تجمعهم — دانية ، ويأنسون بالحروب كأن أمما^(٧) — تكفلهم — حانية ، فلم

(٤) في الأصل : أقلامها .

(٥) في الأصل : صاحبه .

(٦) الظاهر أن هذه السجعة سابقة للجملة :

الاعتراضية وقد وضعها الناسخ في غير موضعها .

(٧) في الأصل : إماء .

(١) القيم : السيد ، وفي الأصل : قسيم .

(٢) يشير إلى ما يقص عند الشيعة من أن الرسول
ألقى عليه وعلى علي وفاطمة والحسن والحسين

كساء وقال نحن أهل البيت الخ .

(٣) زيادة يقتضيه السياق .

تمض إلساعة ، حتى ^(١) أقيمت على الخاذيل الساعة ، وعلم أن الجيل ^(٢) أخس جيل . وكل هذا من تفضل الله على مولينا — أدام الله علاها — لا يدعيان حولاً ولا قولاً إلا به ، ولا يريان عوناً ولا نُصرة إلا منه ، يسجدان سجّادات الشكر ، ويُعْفِران لمالك الخلق والأمر ، علما بأنهما عبداه ، إلا أنه تعالى استكفاهما أمور العباد ، واسترعاها سبيل الصلاح والرشاد .

وأقول لم يؤت الشريف سيدي من بيان وبلاغة ، وإحسان وإجادة ، ولسنٍ وإصابة وسلاقة وذراية ، ولكن الأمر جلّ في نفسه ، فحسر القرائح عن وصفه ، وقصر الأوهام عن علمه ، وقبض الأيدي عن عدّ فضائله ، وأياس القلوب من حصر مناقبه ، واستوى في الإخبار عن كنهه ، والإنباء عن حقه ، والتحدث بنعمة الله في إشراق نجمه ، وعلوّ قدحه ، حالنا القادر والعاجز ، والكامل والناقص ، والمفضل والفاضل ، والصامت والناطق ، والمسهب والمقتصر ، والمطنب والمقتصد ، والمكثر والمختصر ، والفصيح اللهجة ، والمرمى باللكنة ، والميسر لركة العذبة ، والممنون بغلظ الأسئلة . بلى لبنوة النبوة توفيقٌ يأخذ منه الشريف بحظ السابق ، وحق الوارث ، والمعلّى من قداح الياسر ، فكلامه فصل ، وكتابه في نفسه أصل ، يبلغ بالقول السير الغرض البعيد ، وبالإيماء القليل المطلب الشديد ، وبالنكتة يلقيها جملة ، ما يعجز خطباء إياد عن تقصيه برهة ، فهو سلالة من أوتى جوامع الكلم وقال : أنا أفصح العرب ، ختما على الأفواه أن تعارضه ، وعلى الألسنة أن تناقضه ، بنفسى هو وبأنفس الناس أجمعين .

شوقى إلى الشريف سيدي شوقٌ لو تقاسمته ربيعة ومضر ، وتقارعت عليه العرب والعجم ، واشتركت فيه الطوائف والأُمم ، وجعل فوضى يغمر القلوب ، وشورى يملأ الصدور ، ونُهْبى يسع النفوس ، لما كان فيهم إلا ملتهبُ الجوانح صبوةً ، ومتأجّجُ الأعضاء غلّةً ، وسأخُ الدمع غصّةً ، وعازب الصبر حسرةً ، ومهزوز الأعطاف لوعةً ، وممتلئُ الأحشاء غمةً ، وهل يسعُ غير هذا وقربه الرّوح والراحة ، والأنس والغبطة ، والسرور والبهجة . خلق عظيم ، وشرف عظيم ، وطبع كريم ، وعهد قويم ، ولسان فصيح ، وعقد صحيح ، ومجد صريح ، وتواضع لم تتمشّ فيه نخوة ، وتسمّح بل سماحة غمرة ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وتغرّها يبسم . يعطى من نفسه مالا يُستحقّ ، ويسمح عنها بما هو الحق ،

(١) فى الأصل : وقد .

(٢) الجيل سكان جيلان .

وقد أصبح مع ذلك محفوظ الوقار ، سامى القدار ، محظوظ الأطوار ، محمى الذمار ، عزيز الجوار ، يُخشى سطوه ، كما يُرجى حلمه ، وتُحذر صواعقه كما تُشام بوارقه ، ويَتَخَوَّف نكاله ، كما يُتَشَوَّف إفضاله ، فلا خير فيمن لم يجمع سلاسة وشدة ، وسكوناً وحدة ، وسهولة ومرونة ، وليناً وخشونة ، وانقياداً وجماحاً ، وطمأحاً وإسماحاً . والله المسئول اجتماعاً على حال تشرح الصدر ، وتشد الأزر ، وتظاهر النصر ، وترفع القدر ، وتعالى الذكر ، وتوجب الغلبة والقهر ، وتلزم الأعداء الضُغْر ، وتسَلِّط على بقاياهم الدهر ، وتقسم لنا العيش السهل ولهم البقاء الوعر ، إلى أن يكونوا حصائد السيوف بعد أن تتساقط أنفسهم نفوساً بأيدي الحسرة ، وطرائد الختوف بعد أن تنهافت قواهم قوة قوة بعوادي الكربة ، فلا بقاء نحيج ، ولا فناء مُريح . وهذا دعاء اغتنمت أن يؤمن عليه الشريف سيدى ، فإن الإجابة — سيدى ! — هناك مرجوة ، وآية الإسعاف متلوة ، وعادة الإفضال مبلوة .

مازلت أترصد وقتاً يفسح لى فى الكتاب إلى الشريف سيدى فلا أجده ، وأتحنن زماناً يخلص لى خاطرى فى إجابته فأستبعده ، ثم قلت : مالى وللتصنع وقد أسقط الله عنى كلفته ، ورفع بينى وبينه عُلقته ، فلم لا أملئ إمعاناً أسرع من سلة سارق أو لمعة بارق :

وخطفة برقٍ أو كنظرة مغرمٍ على حذرٍ أوردَ طرفَ المراقبِ

فأملت ، وأنا لا أعلم كيف أحت خاطرى ويدَ كاتبى ، وأستعجل لسانى وبنان ناسخى ، وبقى أن يكون الشريف يستر الزلل ، ويتجاوز الهفوة ، ولا يكشف السقطة ، ويغمر على العثرة ، ويُغضى على الخللة ، فإنى له ومنه ، ومختلط بالولاء معه غير ممتاز عنه ، ومحاسنى — إن كانت — فله جمالها ، وإليه مآلها ، وعنده مستودعها ، وفى أفقه مطلعها ، وبروضه زهرها ، وفى سمائه قمرها ، ومقابحى — إن أحصيت — فعليه عهدتها ، وفى ذمته تبعاتها ، وهو المقنع بعارها ، المتلفع بشنارها ، والمرمى بنبالها ، والمقصود بحبائلها وحبالها ، وقد قال الصادق عليه السلام : نحن الأعْلَوْن وشيعتنا العُلُوِّيُّون ، وقبله ما روى : مولى القوم منهم ، فليحسب لنفسه ثم ليحاسب ، وليثبت ثم ليطالب ، وليقض حق بطل الكتاب إن لم يكن فى نشره فائدة ، وإخفائه إن لم يكن فى إبدائه غنيمة باردة ، فهو عندى من الكلام الذى لا يفتح السمع له إلا حجاباً ضيق المسلك ، ولا يشرع له القلب إلا مجازاً ضحك المشرع :

وأسيء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابه وبشعره مفتون

١٠ — وله عهد لعلوي ولي النقابة بين الذرية الطيبة رضى الله عنهم

الشريف أبو القاسم زيد بن محمد بن الحسين الحسنى أدام الله عزه

قد استخرنا الله كثيراً ، وصلينا على النبي محمد وآله الذين طهرهم من الرجس تطهيراً ، واعتمدناك لما كان جدك ، رحمه الله ، معتمداً له من نقابة العلوية ، أيدهم الله ، بحضرتنا ، وفي أطراف مملكتنا ، إعظاما — لهذه الذرية الزكية ، والشجرة النبوية — عن أن يتولى الحكم بينها ، والنظر في أحوالها ، طبقات الحكام الخارجين عن جملة الأسرة ، وربة العترة . فكن من الأتقياء لله — تعالى — على ما يكون عليه ، مَنْ شَرُفَ بينوة النبوة ، وكان سلالة الرسالة . والقرآن العظيم ، الذى يجمع المواعظ ، وينظم المرشد ، على جدك صلى الله عليه وعلى آله نزل ، والإنذار فيه بدأ الأقرب من عشيرته فالأقرب ، فأحق الناس بالسداد ، وأولاهم بالرشاد ، من نشأ فى حجر الإمامة والوصية ، وانتمى إلى الدوحة الطيبة الرضية ، وكان جده رسول الله صلى الله عليه ، وأبوه سيد الأئمة الراشدين ، صلى الله عليهما وعلى آلهما أجمعين .

وخط هذا النسب الذى غشاه الله ملابس التعظيم وآتاه جوامع التفخيم ، وقدمه على مفاخر الأولين والآخرين عن أهل الدعوة ^(١) ، والمنتحلين اسم النسبة . ومن عثرت به منهم فأشهر ذكره ، وغير أمره ، فأجدر المناصب بالحراسة عن الدخلاء ، والحماية عن الأدعياء ، منصب كان المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله الأدين — أصله ونجده ، وذريته ^(٢) مجده وفخره ، ووف شيوخ هذا البيت ، أيدهم الله ، حق الإكرام ، وفرض الإعظام ، بحسب مواقعهم من الصلاح ، ومراتبهم من السداد ، ومنازلهم من العلم ، ومحالمهم من الستر ، واكنف باقيهم — أعزهم الله — بالإعزاز والإيثار ، وتوخ غابهم ^(٣) بالإعذار والإنذار ، ومن زاع عن الطريقة ، ولم يردّه الزجر إلى حسن البصيرة ، فخذ بأدب جدك ، فقيه العرب وسيد بنى عبد المطلب صلى الله عليه كثيراً وسلم على أهله وصحبه تسليماً ، فى كف معرفته ،

(١) فى الأصل : الدولة .

(٢) فى الأصل : درعه .

ودفع مضرته ، لئلا يقع من أحد ما يهيجن علوَّ نسبه ، ويتحيف فضل حسبه ، فإن المنتعى وإن كان عظيما ، فهو مفتقر إلى تقوى الله شديدا .

وابعث الأشراف على إحسان معاملة سائر الرعية وصياتهم عن الامتهان والأذية ، فقد كان محمد صلى الله عليه وعلى آله — كما وصف الله — رءوفا رحيا . ومهما وعظتهم به وذكرتهم وهديتهم إليه وبصرتهم فاسبق إليه ، وقدم العمل عليه ، ليقتمدوا بك ، ويهتدوا بمذهبك . واعلم أنا كما حملناك من أمانة الله ثقيلًا ، وقلدناك عظيما جليلا ، فسنوسعك إحسانا وتقديما ، وإكراما وتأيدا ، وإنعاما وتخويلا ، ونرسم إجراء نظرنا وصلاتنا ، وعطايانا وهباتنا ، للعلوية — أيدهم الله — على يديك ، وتفرقتها لديك ، فاستمد هذا الرأي بسلوك أرضى المذاهب وأحمدها ، وأهدى المسالك وأسعدها ، ولا تدع مشاورة أولى العلم والرأي من العلوية ، أعزهم الله ، عموما ، والشريف أبي طالب الحسيني ، أيده الله ، خصوصا ، والله وليّ توفيقك وهدايتك ، وعصمتك وكفايتك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب العشرون

في الشوارد ، وهي الكتب المختلفة المعاني

— ١ —

كتابي ومولانا الأمير المؤيد متصل أمداد النعم ، مرفوع عماد الكلم ، وعنده سالم بامتداد ظله ، والله الحمد شكراً لمنه .

ووصل كتاب مولاي بعد تراخي العهد به ، واستبهاهم طرق السكون لتأخره ، فقد علم أن المخاطبات بأنبيائه أقوات النفس ، ولها أوقات في الورود ، فإذا تدافعت عُدِمَ القرار ، ومُلكت الأفكار . وعلمت أن الذي بَطُوبُوه ، الشغل بالخروج إلى الأعمال الميمونة ، ومشاهدة النعم الموفورة ، فإنها بهرت العقول قبل العيون ، وفاتت الأحلام قبل الظنون .

وإن كان كل أبيّ مستوعر ، وقصيّ متعذر ، متى قصدته الهمة العالية مصحبا يدور الفلك بتقريبه ، ويخف القدر في تسهيله . والله يديم سلطان مولانا ليحرس الدنيا كما ملكها ، ويحوطها كما افتتحها ، بمنه الواسع ، وصنعه الجميل . وقرب الانكفاء ، بطالع البسطة والعلاء ، إلى السرير الأعظم ، لازال خصاصه مسدودا بمولى الأم ، وصدره معمورا برب الملوك والكرم الأعظم ، بشرى تعيها المسامع ، وتهنأ معها المنح الجوامع ، ويكسب لها الباطل لوجهه ، ويختر عنها الضلال ليدنه وفمه . وكتاب مولاي من العسكر مرغب النفس ومرقب النصر ، وانتظام أمر كذا وما يجري معه ؛ أمره كان القضاء تضمنه ، يوم ألقى مولانا ظله .

٢ — وله

كتابي عن سلامة ونعمة ، مسبغها سكون ظل الخدمة ، والحمد لله . وتطلعت خبرك فأبطأ إبطاء ، وشغل الفكر وإن لم يضيق العذر ، لعلمي بطيئك المنازل ، وإدراجك المراحل ، وكنا تفاوضنا عود فلان من النهران^(١) ، وقلت : إن ذلك لمستقبل حسنى وإحسان ، فلم

(١) كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرق .

يخطيء ظني ، ولم يبطيء زجري ، لأن صدره كان بالخلع المباركة ، واللواء الميمون ، والعهد الكريم ، ثم أفكر مولانا في أن ذلك إذا تأخر عنه اللقب وجد التشريف متحيفاً من بعض جوانبه ، نُحْلاً برسم من مراسمه ؟ فاستعاد فلانا لينضاف اللقب المتخير إلى سائر ما استجزل فيه الشرف ، وأوعز في مخاطبة الأمير بهذا الذكر ، ليعرف وفور الاهتمام بمواقع الفخر ، ويؤمن عليه ذهاب الخاطر مع سوء الفكر ، وإنباثك بالأمر لتمثله ، وتعرف آخره ، كما عرفت أوله . وأنا أنتظر إيابك ، وقبله كتابك ، وأخبارك ، وآرابك .

٣ — واه

كتابي ، ونعم الله عند مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — متصلة الورود ، متضمنة أقسام السرور ، وأنا سالم في ظله الظليل ، وبرأيه الجميل ، والله الحمد .
ووصل كتابك يذكر عرضك ، بحضرة الأمير صاحب الجيش ، ما استصحب ، ومجاورة بره قولاً وفعلاً لما تطلعت وارتقت ، إلى سائر ما تصرف — أدام الله نعماءه عليه — من بواعث الكرم ودواعيه ، وبسط الجميل والإغراق فيه ، وعرضته ، فاعتد مولانا بما تظهره الأيام زائدة في الثقة ، ومضاعفة للمودة السابقة ، وقال ، أدام الله تمكينه ، إنا لولا طفنا كفاء ما عندنا من إكباره ، لتكلفنا ما لا حصر لأقداره ، لكننا علمنا أن القليل إذا اعتمد به حفظ نظام الاسترسال ، وما يجب من الانبساط عند امتزاج الأحوال ، لم يكتسب هجنة ، ولم يواجه ظنة .

وأوبك الآن متطلع ، إذا رأى الأمير ذلك وأوجبه ، واهتم به فلان وسببه ، فإنه خبرك على تلخيص^(١) ، إذ قد أبطأ من المجمزين من تقدمك ، وكذلك من صحبتك ، وأذكره أحوالك .

٤ — واه

باب الفتى^(٢) بأصبهان كنت أغلقته ، بل أوثقته ، واقتدى مولانا بي في ذلك فردمه ، وسد ثلمه ، إلا أن الشاذ يقع من حيث لا يتوقع .

من الفروسية وإكرام الضيف وحماية الضعيف ونحو ذلك .

(١) تلخيص هنا : تبين .
(٢) الفتى يراد به في ذلك العصر أعمال الفتوة

وورد الباب صبي بقرب فلان ، اضطره إلى الخروج إعراض أنيسيان ، آذاه بالدعاء إلى التفتي معه — فت الله عضده وأضلعه — ومولاي يزجره زجرا ، يصير حَصْرًا ، ليسلم هذا الضعيف عليه ، ويمكنه المقام على أبويه ، إن شاء الله .

٥ — وله

وصل كتابك فأنست لوقوع الطرف عليه ، وامتداد اليد إليه ، وفضضته فجمع وفاقا وخلافا ، وأطلع شيات أخيافا^(١) ، فأما الشكر والاعتداد ، والإخلاص والاعتقاد ، فأمر أنت تستغنى عن ذكرها خبراً ونشراً ، بعد ماقتلتها علماً وخبراً ، فكل معرفتها إلى ، ولا تستزد فيها لدى . وأما فلان فقد كنت أحب أن يتفق مقامك بأصهبان ولما بعد عنها ، فتشاهد توفراً ترق حواشيه ، وتروق نواحيه ، كما تستحقه على ، وعلى من هو منى .

على أنه خارج بعد أيام ، وواصل — إن شاء الله — قبل مفارقتك أصهبان ، فيتلافى بعض الحق إن أعوزك له ، ويؤدّي عنى ما لا يؤديه إلا مثله . وأما ما شغلت به من أفكارك فكرا ، ومن سطورك سطرا ، في إرجاف زيد ، واختلاف عمرو ، فلو شئت لكفيت نفسك وإياي كلفته ، وصننت يدك وسمعى عن أن تثرّد^(٢) جلده ، فمثله لا يصدر إلا عن أفواه مناطق صوابا ، ولا قالت إلا كذابا ، لاسيما وأنت تعلم أن سمعى حرم لا تدخله بُنيّات الكلام ، وهنات الطعام .

واستدعيت مهماتي ، فخذ — إن لم يكن وفاؤك ظهرياً وعرضك سابرياً^(٣) — للشيخ المرشد — أدام الله عزه — شرح كذا من الفقه ، وقد رأيت جُلّه عندى ، إذ ذكرت موقعه من كتبي ، ولكنه بين هُجْنَتَيْن : من اختلاف الخط والتقطيع ، وسُبَّتَيْن^(٤) : من فقد التصحيح والتميم ، فارتد — إذا عدت لى — نسخة تجمع التمام والحسن والصحة .

وخراجك قد قلت فيه لفلان ما يزيل عنك الشغل ، ويميط دونك الثقل ، والتسويق الثانى قد أجريت ذكره فى المجلس الشريف ، وأنا — إن شاء الله — أطف فى التذكير ،

(٣) العرض السابري : عرض رقيق يشترى

(١) أخيافا : مختلفة .

(٤) فى الأصل : وستين .

(٢) تثرّد : تعرك وفى الأصل هكذا : يبر .

والله وليّ التيسير . فاكتب — أيديك الله — ما أقت ، ثم إذا انصرفت ، فاذكر حاجاتك كيف اخترت وأحببت ، إن شاء الله .

٦ — ولله

وصلت رقعتك فذكرت فيها من شكائك — مسحها الله بإدامة معافاتك — ماشغل قلبي ، وقسم فكري ، والله يهدي لك من العافية أفسحها وطناً ، وأثبتها مرتهناً ، بمنه .

وفلان ورد كتابه بذكر ما لقي في طريقه أجمع ، من برّ تجاوز القصد إلى السرف ، وجاز كل غاية أمد ، وأنه — حين وصل — تلقاه الأمير متناهيًا في التوفر ، وموفياً أقسام التفضل ، فأورد بهذا الذكر ، ما استنفد طاقة الحمد والشكر ، فوق بحضرة مولانا الأمير ألطف مواقع الاعتداد ، واستجزل من إحماده أكمل السهام والأقساط .

وقد أنهيت جليّة ماورد إلى الحضرة العالية إنهاء المشارك الخالص ، والمشايخ المتخصص ، في كل الذي يتصل بجنبة الأمير مولاي ، والله يزيد الأحوال قوة أسباب ، وقرب أنساب ، بمنه .

٧ — ولله

كتابي يوم كذا وقد تقدمت اليوم بتقديم مزاربي إلى سحنة^(١) ، لأنهمض — بمشيئة الله — بكرة ، مواجهها الحضرة البهية ، والله يعرف في ذلك الخيرة ، ويلقى النجاح والمافية .

وكانت عليّ في تهذيب هذه الأعمال — التي فسدت على الأيام ، واضطربت على الزمان — أشغال وأتقال ، ولم أحسبها تنزاح في مدة قريبة ، ومهلة يسيرة ، إلا أن سعادة الخدمة الشريفة تسهل العسير وتقرب البعيد ، وحداني على فضل التعجل ، والزيادة في التشمر ، أن الكتب من المجلس الشريف توالى إليّ ، بالبعث على البدار ، والحث على تقديم الفراغ ، للمهمات التي يلزم التصرف على تقريرها ، والتخفيف في تقديمها .

(١) موضع بين بغداد وهمدان ، وقيل بلد بالقرب من همدان .

ووصل كتابك — فتكافأ موقعه وتوقعه ، وآنس مطلعه ومودعه ، وأحدث ماتصرفت فيه إحمادى سائر أحوالك ، واعتقدت فيه اعتقادى فى كافة أفعالك — بأنى أنكرت إيرادك ، فى جملة اعتذارك ، أنك حسبت كتبك لا تُتَرَقَّب ، فلذلك خففت ، ومخاطباتك لا يؤبه لها ، فكرهت المواظبة وأقصرت ، وما علمت أنك — بعد — من اليقين بموضعك لدى فى هذه الدرجة القريبة ، والمعرفة الضعيفة ، وقد كانت لك فى المعاذير فسحة ، وفى مذاهب القول سعة ، فإلم ألجأت نفسك إلى أضيق السبل وأوعر الطرق ، ولعمري إن كثيراً من الناس بالرتبة التى ظننت نفسك بها ، حاشاك منها ، فإنك إذا كتبت كان سعيك مشكوراً ، وإذا أعتبت عوتبت طويلاً ، ولم نظن بك إلا جميلاً .

وقد عرفت ما بشرتنى به من تماثل فلان وإقباله ، والفضل من ظاهر حاله ، وما شاهدته عند استقباله ، وأنا أرجو أن يهب الله له ولى فيه عافية ، يمتد ثوبها ، وتثوب القوة معها ، فإن الذى يبلغنى من ضعفه قد أضعف المنَّة ، وإن لم يضعف الظن بالله والثقة ، كفاه الله بالسلامة ، وشفاه ببطائفه الخاصة والعامة . وقد عرفت ما أصدرته إلى الحضرة البهية ، فحمدت الله على معونته لك ، وتوفيقه إياك .

وكتب فلان بأن العدد نقص عن التوظيف شيئاً ، فنتج ذلك فى المجلس الشريف عتياً ، ولا أدرى كيف أخاصمك لنفسك ، فإنك تُثَلِّم فى الكثير بتحيف السير ، وتزِيل محمداً الجليل بانتقاص الدقيق ، مع معرفتك بمسألة مولانا عن هذا الباب مستقصياً ، والتماسه الحساب به مستوفياً .

٨ — ولله

وصل كتاب مولاي فأفادنى من بره ما قد سبق إقرارى بالقصور عن الواجب فيه شكراً واعتداداً ، وإن كنت لا أقصّر نية واعتقاداً .

فأما الذى بشرنى به مولاي من إنعام مولانا فى اختيار يوم لورودى الباب المعمور ، ففوق كل أمل ومأمول ، لم تبلغه همتى ، ولم تشجع له مُتَمَتِّى ، إذا سعدَ يوم ووقت لأمثالنا من أصاغر الخدم وأنشاء الدار ، يوم يمثلون فيه بإزاء السرير الأعظم مُقْبِلِينَ على الأرض

بالتقريب^(١) ، ولكن نفحات الإحسان من ملك الأملاك ، وفلك الأفلاك ، أدام الله أيامه ، لا حصر لها ولا حد . وأنا عامل على ما مثَّل ومُرَّسَم بإذن الله . والذي أُهِّل له السلار أبو نصر — أدام الله عزه — تلقيناً له وترتيباً ، وتشريعاً وتقريباً ، يزيد أولياء الدولة وخدمها انشراح صدور وارتفاع نواظر ، والمداهنين في فرائضها ولوازمها حرارات صدور ، وممرات قلوب .

وقد بادرت بكتاب مولاي ، أدام الله تأييده ، إلى حضرة مولانا الأمير المؤيد ، أدام الله أيامه ، علماً بأنه يهتز لما اتفق ، ويتحقق أن عنايته به ، هي التي شفعت إلى الرأي العالى له ، لا زال كل مرموق وملحوظ مستمداً خيره وجاهه بطاعة للحضرة العالمة يلتزمها ، وخدمة يُخلصها ، ولحمة يستمدها ، ونظرة يُتفضل عليه بها .

٩ — ولله

كتابي — أطال الله بقاء قاضى القضاة^(٢) — عن سلامة يسوعها تفضل الله الشامل ، وإحسان فوق ما يأمله الآمل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب قاضى القضاة ، أدام الله عزه ، فكان أنسى به ، مشتقاً من أنسى بقربه ، فأما تفضل مولانا ، أعز الله نصره ، فالصنيعة فيه عند قاضى القضاة — أدام الله عزه — مُصيبة طريق المصنع ، وواقعة أكرم موقع ، ولا غرو أن درّ الغمام ، وقطع السيف الحسام ، أدام الله أيامه ، ولا أفقد إغراسه وإنعامه .

وفلان قد كان وفّى في بابيه ، ما استقلت معه المنوى في عقابه ، وإذ قد حكى قاضى القضاة براءة ساحته ، فقد سرّنى أن انصرف اليد عن مساءته .

وما بينى وبين قاضى القضاة يكبر عن الشكر ، لا بل عن إجراء الذكر . فأما أنا فالعافية سابعة على ، والسعادة خالصة لى وإلى ، والله حمد ذلك . بل أنسى مدخول ،

(١) لعله يشير إلى استدعاء عضد الدولة له كي يمثل ببابه على نحو ما سبق وصفه في غير هذا الموضع .
(٢) هو عبد الجبار بن أحمد على ما مر .

ونشاطى معلول ، لشكاة مولاي أبي العباس^(١) ، والله أسأل أن يقيه ويبقيه ، ويكفيه ويعافيه .

الأمر الذى أوما إليه قاضى القضاة من حديث أصحابنا ببغداد ، إذ قد جرت فيهم ضروب ، وترددت خطوب ، ورأيت الصواب فى ترك مخاطبة المزكى لنفسه ، المعجب بدرسه ، فأمسكت ، وللجملة تفصيل ، وإذا التقينا — بمشيئة الله — قلت .

وقد استحضرت فقهاء هذا البلد فى فرص الفراغ ، فرأيت قوماً بهم الاستفادة والتعرف ، والاستعلام والتفهم ، وأجمل ما فيهم التصوّن ثم أن لا تنازع بينهم فى أمر الدنيا ولا تشعب ، بل جميعهم كاليد الواحدة يردون مورداً ؛ ويصدرون مصدراً ، وما بهم عن سماع الحق بُعد ، بل ثم إصغاء وقرب ، وليس يخطئهم التقريب والرفق ، ومن عند الله التوفيق والرشد . هذا وفيهم من يتجاوز هذه الطبقة ، ويعتمد الموافقة فى مقامى على تقرر أحوال الدينور ، فإن استقرت ، كما أريد ، كفيت الخروج إليها ، وإلا ألمت أياما خمسة بها ، ثم أنكفى إلى الحضرة ، فإن البعد عنها يترك النفس فى جانب الفتور ، والأمل فى ناحية القصور ، إلا أن أهل هذه البلدة منذ مدّ عليها ظل العدل كمن أحيى وهو رميم ، وأُنبت وهو هشيم ، نسأل الله توفيقاً لما يرضيه ، وتسديداً فيما يمضيه ، وهو حسبي ونعم الوكيل . لست أذكر تشوقى قاضى القضاة ، أكله إلى علمه ، وأسأله استشهاد نفسه :

فعلى القلوب من القلوب شواهد وعلى الصدور من الصدور دلائل

١٠ — والـه

كتابى ومولانا محبوباً من النعم بما يتجلى صنع الله فيه باهراً للعيون ، محققاً للظنون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وتأخرت كتبى عن مولاي لكرور علل على صارت حلفاً لازماً ، وطبعاً ثانياً ، حتى عادت الصحة كطارق مُستغرب ، وطاري مُستبدع . وعولت فى المهمات أجمع على ما ينهيه أبو فلان ، فقد عرف فى كل باب ما عرفته ، وعلم منه ما علمته ، وقد نهض منذ أيام ، والله

(١) هو أبو العباس الضبي .

ييسر المناهج أين توجه الخدم عن الباب المعمور ، والأمر المتبوع ، بمنه .
وكان مولاي ، أدام الله عزه ، بشر بما تيسر في كذا ، فابتسمت تغور الأمل ،
وآذنت بنهاية المراد في أقرب أمد ، لا زالت غنائم مولانا غنائم لأوليائه ، وصوارم على
أعدائه . وكتاب البشرى بغية الطرف ليجلوه ، والروح ليغذوه .
آخر الباب العشرين ، وبه تمام هذا المجموع من الديوان ، والحمد لله حق حمده ،
والصلاة على النبي محمد وآله .
وفرغ من كتابته أبو الحسن علي بن أحمد بن زكريا المعروف بابن الشصاص
البغدادى بهمدان في شهر رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة م .

فهرس الرسائل

۱۹۱۵

فهرس الأعلام

- إبراهيم بن القاسم ١٢١
 إبراهيم بن محمد الحاجب ٥٥ ، ٦٦
 إبراهيم بن المرزبان ١٦ ، ٨٧
 ابن الأثير ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ — ٢٥
 ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ١٨٤ ، ١٨٦
 ابن بابويه ١١٦
 ابن ججا الكوفاني ٢٢٣
 ابن حماد ١٨٣
 ابن حمدان ١٢
 ابن الحنفية ١٥٤
 ابن سيمجور (أبو الحسن) ٢٤ — ٢٦
 ابن الشصاص البغدادي (أبو الحسن علي بن أحمد بن زكريا) ٢٤٥
 ابن عباد (الصاحب كافي الكفاة) ١ ، ٣ ، ٤ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ١٦٨
 ابن عبد الرزاق (محمد) ٢٣
 ابن عساكر ١٥٧
 ابن عكبر ١١٥
 ابن علوية ١٨٣
 ابن العميد (الأستاذ الرئيس) ٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 ابن عنترة ١١٦
 ابن قراتكين ٢٣
 ابن ماكان ٢٣
 ابن مخارق الهلالي ١٦٠
 أبو إسحق الكاتب ١١٨
 أبو بكر الصديق ١٠٧ ، ١٥٦
 أبو الحسين زيد بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو الشمقمق ١٦٠
 أبوطالب الحسيني (الشريف) ٢٣٧
 أبو طالب السيلقي ٢٣١
 أبو طاهر (الفقيه) ١٨٣ ، ١٨٤
 أبو العباس الضبي ١٤١ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٨٠
 ٢٠٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣
 أبو العلاء بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو علي بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو عيسى الكردي ١٨٤
 أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد ١٣٢
 أبو الفرج الحنات ١٣٤
 أبو القاسم بن مقرن ١٩٦
 أبو منصور بن محمد ٦٤ ، ٢١١
 أبو الهذيل (العلاف) ١٤٠
 أبو الهول الحميري ١٦٠
 أحمد بن إبراهيم (أبو عيسى) ٩٤
 أحمد بن محمد بن المحتاج ٢٣
 أساتكين (أبو الجيش) ١٨٢ ، ١٨٣
 الإستينار ١٠٥
 إسحق بن بندار ١١٩
 إسفهلار بن كوريكنج (أبو منصور) ٤٦
 إسماعيل بن صبيح ١٣٥
 الإصبهيد ٧٩ ، ٨٠
 الأعشى ١٦١
 الأفروديسي ٢٣٠
 أمدروز ٥ ، ١٢ ، ١٤
 الأمير السيد = عضد الدولة
 الأمير المؤيد = مؤيد الدولة
 الأمين بن هرون الرشيد ١٣٥
 مختيار ١٩ ، ٢٠
 بشار ١٦٠
 بشر بن أبي خازم ١١٥
 بشر بن مروان ١١٩
 بقراط ٢٣٠
 بكتاش الحاجب (أبو الهيجاء) ٦٤
 بكتكين الحاجب (أبو الوفاء) ٦ ، ٢١٢
 بيستون بن وشمكير ٤
 تاش (أبو العباس) ٢٥ — ٢٧ ، ٣٣
 تأبط شر ١٥٦
 جالينوس ٢٢٩ ، ٢٣٠
 جركاس بن وشمكير ٦

الطائع لله (الخليفة) ٣٤ ، ٢٤ ، ٥

عاصر بن فهير ١٥٦

عباد بن العباس ١٦٠

عباد بن المطهر (أبو الفرج) ١٦٠ ، ١٥٩

العباس بن فيلسار ٢٠

عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة) ٣٤ ، ٤٢ ،

١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

عبد الجبار بن يزيد ١٥٧

عبد الحميد الكاتب ١٣٥

عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر (القاضي أبو القاسم) ٥٢

عبد الله بن أريقط ١٥٦

عصام بن أحمد ٢٠٩

عضد الدولة (الأمير السيد ، الملك السيد ، شاهنشاه)

٣ — ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ — ٢٢ ،

٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ ،

٧٧ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،

١٢٤ — ١٢٨ ، ١٣٠ — ١٣٢ ،

١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ — ١٧٠ ، ١٧٢ ،

١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ —

٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣

عكبر بن إبراهيم ١١٦ — ١١٨

علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين ، وفقه الرب)

١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ،

٢٣٣ ، ٢٣٦

علي بن أحمد الخراويني (أبو المقاسم) ١٤٤

علي بن كامة (أبو الحسن) ١٦ ، ١٨ —

علي بن محمد (الشريف أبو الحسن) ٢٠٢

علي الرضا ٢٠٠

عمر بن الخطاب ١٠٨ ، ٢٣٢

عمرو بن براق ١٥٦

العميد ١٣٢

فاطمة بنت الرسول (ص) ٢٣٣

فائق ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣

نحر الدولة ٥ ، ٣٥ ، ٣٣

الفرزدق (أبو فراس) ١٦٠ ، ٢٢٧

الفصل البرمكي ١٦٠

جرير (أبو حذرة) ٢٢٧

جعفر بن أبي طالب ١٣٠

الحجاج الثقفي ١٥٧

الحسن بن سهل ١٣٥

الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٣٣

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن هرون ٥٧

الحسين بن العباس الرندي (أبو عبد الله) ١٩٩

الحسين بن علي بن أبي طالب ١٤٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣

الحسين بن محمد (أبو منصور) ٥١

الخطيئة ١٦٠

خالد بن دثار ١٥٧

دعيميص الرمل ١٥٦

ربيعة الرقي ١٥٩

الرشيد (هرون) ١٣٥

ركن الدولة (الحسن بن بويه) ١٦ ، ٢٤ ، ٥٠ ،

٦٤ ، ٦٥ ، ١١٧ ، ١٦٧

الزبرقان ١٦٠

زيار بن شهرا كويه (أبو حرب) ٥

زيد بن محمد بن الحسين الحسني (الشريف) أبو القاسم ٢٣٦

سعد بن محمد (الحاجب) أبو القاسم ٢٠

السلار ٨٧ — ٩١ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ —

١٠٣ ، ١١١ — ١١٣ ، ١٢٣ — ١٢٥

١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٤٣

سليك المقانب ١٥٦

سهل بن سالم ١٦٠

سهيل بن عثمان ١٦٠

الشفوي ١٥٦

الصاحب كافي الكفاة = ابن عباد

صاحب الجيش ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ،

٨٢ ، ١٣١ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٩

صدقة بن أحمد ٦٥

صمصام الدولة ٥

طاهر بن محمد (أبو الوفاء) ١٤

— ٧٢، ٧٠، ٦٩، ٦٥ — ٥٩، ٥٧
 ، ٩١، ٨٧، ٨٤ — ٨٢، ٧٧، ٧٤
 ، ١٢١، ١١٣، ١٠٢، ١٠١، ٩٤
 ، ١٣٤، ١٢٩، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٤
 ، ١٧٢، ١٦٩ — ١٦٦، ١٦٤، ١٦٣
 ، ٢٠١، ١٩٩، ١٩١، ١٩٠، ١٨٨
 ، ٢٢٥، ٢١٢، ٢٠٨، ٢٠٦، ٢٠٥
 ٢٤٣، ٢٣٨، ٢٣٣

النظام ١٤٠

نوح بن نصر ٢٦

النوشجان بن عبد المسيح (أبو عيسى) ١٦١

هرون (الرسول) ٢٣٢

وشمكير بن زيار ٢٤

الوليد بن يزيد ١٥٧

وهسوذان بن محمد ١٦، ١٧

ياقوت ٦١

يحيى البرمكى ١٣٥

بجى بن محمد بن زيادة العلوى (أبو محمد) ١٤٤،

١٤٩، ١٤٥

يزيد بن أسيد ١٦٠

يزيد بن حاتم المهلبى ١٥٩

يزيد بن مزيد الشيبانى ١٦٠

يونس بن حبيب ١٦٠

الفضل بن سهل ١٣٥، ١٦٠

الفضل بن العباس ١٦٠

قابوس بن وشمكير ٤ — ٢٤، ٩، ٧ — ٣٣، ٢٦

قيصة (أبو قطن) ١٦٠

لشكرستان بن لنكرين ٧

المأمون ١٣٥

المتنبى ١٦، ١٧، ١٩٩

المتامس ١٢٠

محمد بن أحمد الكاتب ٥٣

محمد خليفة الحاجب ٢١٢

محمد بن المرزبان بن الفرخان (أبو سعيد) ١٥٤

محمد بن يحيى بن خالد ١٦٠

محمد بن منصور بن زياد ١٦٠

المرزبان بن اسماعيل (أبو نصر) ١٧، ١٨

مسكويه ١٢

مصعب بن الزبير ١١٩

المطيع لله (الخليفة) ٢٣، ٢٤

الملك السيد، ملك الملوك، شاهنشاه = عضد الدولة

متصور بن نوح ٢٤

المهلب ١٥٤

موسى (الرسول) ٢٣٢

مؤيد الدولة (الأمير المؤيد) ٤ — ٦، ٣٤،

٣٩، ٤٢، ٤٦، ٥٠ — ٥٣، ٥٥،

فهرس الأما كن والبلدان

الخطيم ١٤٦	آبة ٦١، ١٨٦
حلوان ٢٠	أذربيجان ١٦، ٦٧، ٨٧، ٩٨
خراسان ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٣٣، ١١٣،	أرجان ٢١٥
١٤٤، ١٤٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠،	أردبيل ٦١، ٦٩
خوزستان ٢١٩	أردستان ١٥٦
الدامغان ٢٤، ٢٧، ١٣٣	أرمينية ١٧
ديالى ٢٠	إستراياذ ٣، ٦، ٧
ديمرت ١٤٤	أصبهان ٣١، ٣٢، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٦١،
الدينور ٦٠، ٦١، ٢٠٥	١١٦، ١١٩، ١٣٥، ١٤٤، ١٥٦،
ذو بحار (جبل) ١١٥	١٧٥، ١٧٧، ١٨١، ١٨٣ — ١٩٨،
راوند ٢١١	٢٤٠، ٢٣٩، ٢١١، ٢٠٧، ١٩٩
الري ٦، ٢٤، ٣٤، ٣٩، ٤٢، ٥٩، ٦١،	أهواز ١٩، ٢٠
٧٢، ١٠٧، ١٨١، ١٩٢	إيران ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٧
زريني رود ٥٤	بخارى ٢٥
زقزم (بئر) ١٤٦، ٢٢٨	البصرة ١٤، ١٩، ١٠٧
سارية ٦	بغداد (مدينة السلام) ٤، ١٩ — ٢١، ٦٧،
ساوة ٤٢، ٦١	١٠١، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٤٣
سحنة ٢٤١	البيق ٢٢٨
سهرورد ٤٢	بوزجورد ١٢٦
شميران ١٧	البيت المعظم (البيت الحرام) ٧١، ١٤٦، ٢٢٨
الصفاء ٢٢٨	بئر معونة ١٥٦
الصيمرة ٢١٩	التيمرتين ٦١، ٦٢
طبرستان ٤ — ٦، ٢٤، ٢٤، ٧٩، ١٩٨	الجبيل، الجبال (بلاد) ٥، ٦، ١٧، ٦٧،
الطرم ١٧	٢١٩، ١١٣
الطف ١٤٨	جبل شهریار ٥
طهران ١٧٧، ١٨١	جرجان ٣ — ٦، ٢٢، ٢٧، ٣٣، ٣٤،
طوس ٢٣	١١٩، ١٣٥، ١٤٤
طيبة ١٤٨	جیلان ٥، ٢٣٤
	الخائر ٢٢٨
	حرة بنى سليم ١١٥
	الحرم، الحرمان ١٠١، ١٤٦، ٢٢٨

المشهد ٢٠٠	العراق ١٤٥ ، ١٩٨
معتق (جيل) ١١٩	
المعرف ١٤٦ ، ٢٢٨	الغرى ، الغريان ١٤٨ ، ٢٢٨
مقام إبراهيم ١٤٦	
منى ١٤٦	فارس ٣ ، ٢١٥
منور (جيل) ١١٥	
نايين ٥٠	قاسان ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ١٥٦ ، ٢١١
نسا ٢٧	قزوين ٤٢ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٩٢٩١
النوبهار ٧٢	قم ٤٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦
نهاوند ٦١	قومس ٢٧
النهروان ٢٠ ، ٢٣٨	كرمان ١٩٩ ، ٢١٧
نيسابور ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٢٤٩	الكعبة ٢٢٨
واسط ١٩ ، ٢٣٨	الكوفة ٦١ ، ١٤٨ ، ١٩٨
ويمة ٦	الكوكان ١٧
همدان ٦١ ، ٦٧ ، ١٢٦ ، ٢١٩ ، ٢٤٥	المخصب ١٤٦ ، ٢٢٨
يندبل (جيل) ١١٩	مدينة السلام = بغداد
يزد ٢٠٨	المروة ٢٢٨
	مشعر ، المشعران ١٤٦ ، ٢٢٨

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة	١
مدخل	ج
الرسائل	١ إلى ٢٤٥
مقدمة الرسائل	١

الباب الأول : في البشائر والفتوح

الرسالة الأولى	٣
الرسالة الثانية	٨
الرسالة الثالثة	١٠
الرسالة الرابعة	١١
الرسالة الخامسة	١٤
الرسالة السادسة	١٥
الرسالة السابعة	١٨
الرسالة الثامنة	٢٢
الرسالة التاسعة	٣٠
الرسالة العاشرة	٣٣

الباب الثاني : في العهود

الرسالة الأولى	٣٤
الرسالة الثانية	٣٩
الرسالة الثالثة	٤٢
الرسالة الرابعة	٤٦
الرسالة الخامسة	٥٠
الرسالة السادسة	٥١
الرسالة السابعة	٥٣
الرسالة الثامنة	٥٤
الرسالة التاسعة	٥٥
الرسالة العاشرة	٥٧

الباب الثالث : في الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير ومراعاة

الكيمية من السنين وما يجري مجراه

الرسالة الأولى	٥٩ إلى ٦٦
	٥٩

صفحة

٦٠	...	الرسالة الثانية
٦٠	...	الرسالة الثالثة
٦٠	...	الرسالة الرابعة
٦١	...	الرسالة الخامسة
٦٢	...	الرسالة السادسة
٦٣	...	الرسالة السابعة
٦٤	...	الرسالة الثامنة
٦٥	...	الرسالة التاسعة
٦٦	...	الرسالة العاشرة

الباب الرابع : في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الشغور ... إلى ٧٦

٦٧	...	الرسالة الأولى
٦٧	...	الرسالة الثانية
٦٩	...	الرسالة الثالثة
٧١	...	الرسالة الرابعة
٧٢	...	الرسالة الخامسة
٧٣	...	الرسالة السادسة
٧٣	...	الرسالة السابعة
٧٤	...	الرسالة الثامنة
٧٤	...	الرسالة التاسعة
٧٥	...	الرسالة العاشرة

الباب الخامس : في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة والتودد إليهم

بمباستطاعتهم وما يقارب ذلك ... إلى ٧٧

٧٧	...	الرسالة الأولى
٧٨	...	الرسالة الثانية
٧٩	...	الرسالة الثالثة
٨٠	...	الرسالة الرابعة
٨١	...	الرسالة الخامسة
٨٢	...	الرسالة السادسة
٨٣	...	الرسالة السابعة
٨٣	...	الرسالة الثامنة
٨٤	...	الرسالة التاسعة
٨٦	...	الرسالة العاشرة

الباب السادس: في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين

٤٥٥

العقوق بين ذوى الأحام وما يشاكل ذلك ... ٨٧ ... إلى ٩٨

[illegible]

الباب السابع : في المدح والتعظيم ٩٩ الى ١١٠

[illegible]

الباب الثامن : في الذم والتعجين إلى ١٢٢

[illegible]

الكتاب التاسع : في التهاني والأجوبة عنها وما يجري مجراها ... ١٢٣ إلى ١٣٥ صفحة

١٢٣	...	الرسالة الأولى
١٢٤	...	الرسالة الثانية
١٢٥	...	الرسالة الثالثة
١٢٦	...	الرسالة الرابعة
١٢٧	...	الرسالة الخامسة
١٢٨	...	الرسالة السادسة
١٢٩	...	الرسالة السابعة
١٣١	...	الرسالة الثامنة
١٣٢	...	الرسالة التاسعة
١٣٣	...	الرسالة العاشرة
١٣٤	...	الرسالة الحادية عشرة

الكتاب العاشر : في التعازي ... ١٣٦ إلى ١٥١

١٣٦	...	الرسالة الأولى
١٣٧	...	الرسالة الثانية
١٣٧	...	الرسالة الثالثة
١٣٨	...	الرسالة الرابعة
١٣٨	...	الرسالة الخامسة
١٣٩	...	الرسالة السادسة
١٤٠	...	الرسالة السابعة
١٤١	...	الرسالة الثامنة
١٤٢	...	الرسالة التاسعة
١٤٤	...	الرسالة العاشرة
١٤٤	...	الرسالة الحادية عشرة

الكتاب الحادي عشر : في الإخوانيات والملاطفات والمداعبات ... ١٥٢ إلى ١٦٢

١٥٢	...	الرسالة الأولى
١٥٣	...	الرسالة الثانية
١٥٤	...	الرسالة الثالثة
١٥٥	...	الرسالة الرابعة
١٥٦	...	الرسالة الخامسة
١٥٧	...	الرسالة السادسة
١٥٨	...	الرسالة السابعة
١٥٩	...	الرسالة الثامنة
١٥٩	...	الرسالة التاسعة
١٦١	...	الرسالة العاشرة

صفحة

الباب الثاني عشر : في التشكر وما يشاكله ١٦٣ إلى ١٧٣

١٦٣	الرسالة الأولى
١٦٤	الرسالة الثانية
١٦٥	الرسالة الثالثة
١٦٦	الرسالة الرابعة
١٦٧	الرسالة الخامسة
١٦٧	الرسالة السادسة
١٦٩	الرسالة السابعة
١٧٠	الرسالة الثامنة
١٧١	الرسالة التاسعة
١٧٢	الرسالة العاشرة

الباب الثالث عشر : في الاستزادة والتقرير وما يجري مجرى ذلك ١٧٤ إلى ١٨٦

١٧٤	الرسالة الأولى
١٧٥	الرسالة الثانية
١٧٧	الرسالة الثالثة
١٧٩	الرسالة الرابعة
١٨٠	الرسالة الخامسة
١٨١	الرسالة السادسة
١٨٢	الرسالة السابعة
١٨٢	الرسالة الثامنة
١٨٣	الرسالة التاسعة
١٨٤	الرسالة العاشرة

الباب الرابع عشر : في التنصل والاسترضاء وما يشاكل ذلك ... ١٨٧ إلى ١٩٥

١٨٧	الرسالة الأولى
١٨٨	الرسالة الثانية
١٨٨	الرسالة الثالثة
١٨٩	الرسالة الرابعة
١٩٠	الرسالة الخامسة
١٩١	الرسالة السادسة
١٩٢	الرسالة السابعة
١٩٣	الرسالة الثامنة
١٩٤	الرسالة التاسعة
١٩٤	الرسالة العاشرة

الباب الخامس عشر : في الشفاعات ١٩٦ إلى ٢٠٤

١٩٦	الرسالة الأولى
١٩٦	الرسالة الثانية
١٩٧	الرسالة الثالثة
١٩٨	الرسالة الرابعة
١٩٩	الرسالة الخامسة
١٩٩	الرسالة السادسة
٢٠٠	الرسالة السابعة
٢٠١	الرسالة الثامنة
٢٠١	الرسالة التاسعة
٢٠٢	الرسالة العاشرة
٢٠٣	الرسالة الحادية عشرة

الباب السادس عشر : في توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف

وحسن السياسية ٢٠٥ إلى ٢١٧

٢٠٥	الرسالة الأولى
٢٠٦	الرسالة الثانية
٢٠٦	الرسالة الثالثة
٢٠٨	الرسالة الرابعة
٢٠٩	الرسالة الخامسة
٢١٠	الرسالة السادسة
٢١٢	الرسالة السابعة
٢١٣	الرسالة الثامنة
٢١٤	الرسالة التاسعة
٢١٥	الرسالة العاشرة

الباب السابع عشر : في الآداب والمواعظ وما يقاربها ٢١٨ إلى ٢٢٠

٢١٨	الرسالة الأولى
٢١٨	الرسالة الثانية
٢١٩	الرسالة الثالثة
٢٢٠	الرسالة الرابعة

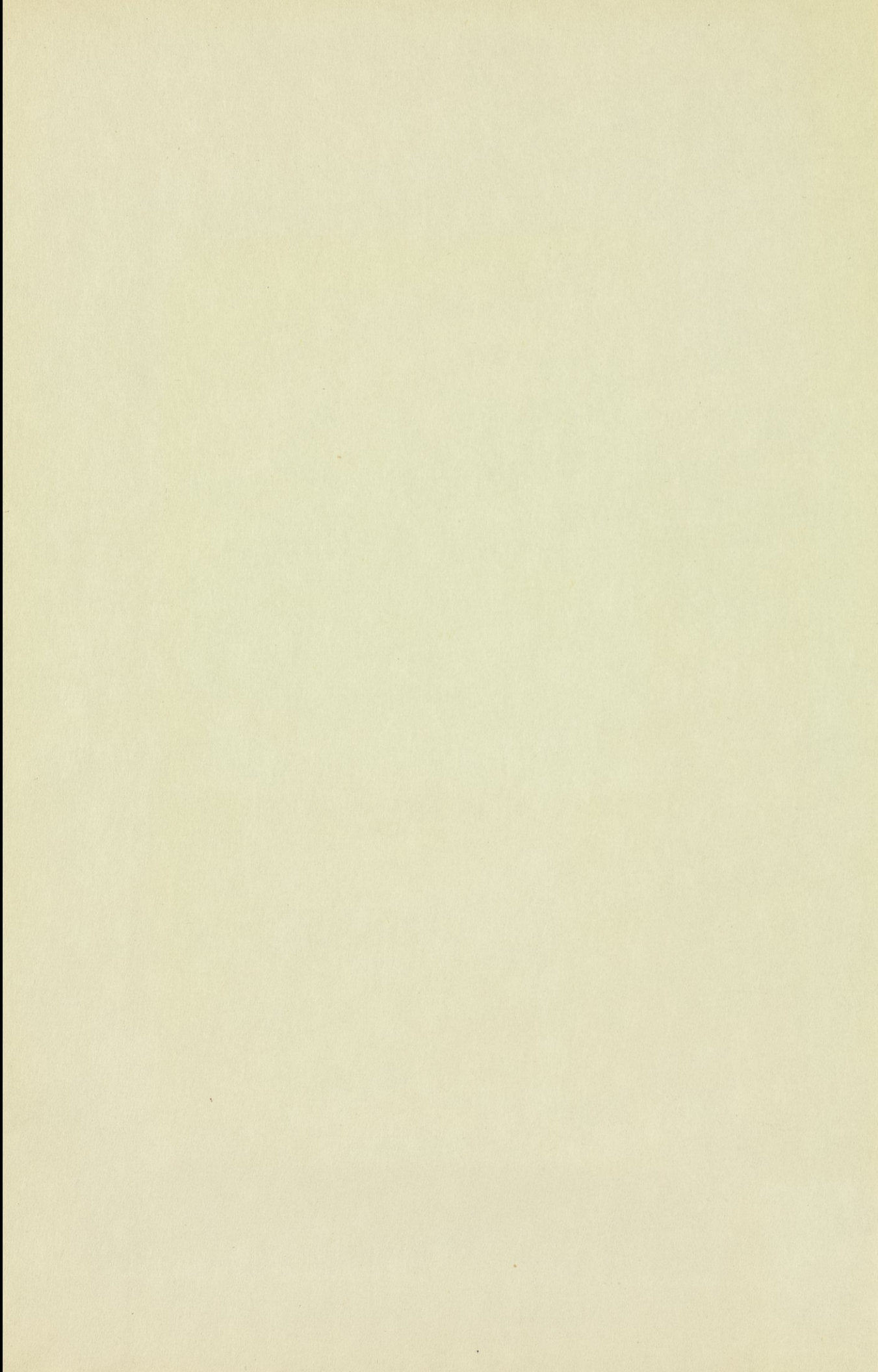
الباب الثامن عشر : فصول وغرر ، وتوقيعات ودرر ٢٢١ إلى ٢٢٣

الباب التاسع عشر : في النوارد النادرة في قتها ٢٢٤ إلى ٢٣٧

٢٢٤	الرسالة الأولى (فصل من رسالة)
-----	---------------------------------

تصحیحات

ص	س	خطا	صواب	ص	س	خطا	صواب
۲۴	۲۰	حدّ	لأحدّ	۱۰۹	۲	أوجب	أوجبَ
۳۵	۳	کتابُ	کتابَ	۱۱۹	۱۳	اشترک	اشترکَ
۴۱	۱۰	آثام	أثام	۱۴۷	۵	ضَبِعَ	ضَبِعَ
۷۱	۶	مرادَه	مراده	۱۵۰	۱۴	فیزورُ	فیزورَ
۷۸	۱۴	یَهْنَنی	یَهْنَنی	۱۷۲	۱۴	ضَبِعَ	ضَبِعَ
۸۲	۱۴	تَنوُول	تَنوُول	۱۹۹	۴	وعز اسمہ	عز اسمہ



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0040270548

893.7Sa19

V5

DATE DUE

MAY 31 2002

JUN 02 2003

APR 15 2004

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A

BOUND

JUL 3 1961

